897
HG

امين الهلالي

892.74
H64nA

892.78
H641nA
C.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

# ندى الفجر

عِلم أدب اجتماع

مطبعة دار الكتاب العربي
شارع فاروق بمصر
تليفون ٥٠٩٣٨

Cat. 13 Mar. '53

( حقوق الطبع محفوظة )

# الإهداء

إلى روح والدى الكريم

وفاء لقطرة مما أسديت لابنك البار
من فيض ذلك الكرم والمن

أمين الهلالى

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

كنت ولا أزال أتعشق أزهار الفجر وأندائها
وكنت ولم أزل أحن إلى وضحة الفجر وأنوارها
تلك الهالة العظيمة المقدسة التى تقبل وجنة الكون
من ههنا فى أول الصباح الباكر

وتطبع عليه من ثغرها الباسم روح الحياة الدائبة
وتروح تلف ببردها الأبيض رقعة من الأرض
واسعة بقدر ما تستطيع

وتظل على ذلك ساعات وساعات
تريد أن تبقيها غارقة فى النور اللامع
لا تمسي

غير أن الأرض لا ترضى ولا تطيع
بل تدور مسرعة وهى معرضة عن هاته النعمة
وذلك الجلال

إلى حيث الظلمة السوداء الحالكة
وياليت للإنسان من حظ مسعد نابه
يدفع به إلى الحق فى حياته الأولى هذه
بحيث لايجعل من أيامه فيها إلا فجراً ونوراً
فيا أيها الحق

إن هذا بعض الجهد الذى يدفعنى إليك دفعاً
إلى الإمام . . .

أمين الريحاني

بغداد — ١٤ نيسان ١٩٤٨

# القسم الأول

## علم

العلم يكشف عن الموجود ويتسع فى العبارة عنه ويحاول جعله كلا بنفسه وما هو إلا ظاهرة من جزء من كل مما وراء الكل .

الرافعى

# نظم الطبيعة

فمالك أيتها الأرض كل يوم عن وجه جديد تسفرين ولا تزالين تتقلبين وتتلونين . أجل ما التلال إلا الظلال توجد للزوال وتكون للاضمحلال وهي اليوم بشكل وغداً وبعده بأشكال وكذب من قال إنها جلد وصلصال ، بل هي ضباب عابر وغمام حائر أو سحابة صيف عن قريب تقشع وكل آت قريب .

نسوده

إن من أظهر ما امتازت به المخلوقات الحية هو (النظم) ويراد به وجود دوافع قوية تتعاقب من جرائها على هـذه المخلوقات أدوار الفتور وأدوار النشاط مدة أعمارها فإن أكثرت من صرف الطاقة كانت بحاجة شديدة إلى دور جديد تدّخر فيه منها و إن استهلـكت مجهوداً مرت بزمن تستجمع فيـه قواها وتجدد ما فاتها من مادتها . والواقع أن الفعالية الحيوية تتضمن عملية مزدوجة هى عبارة عن التهديم والإصلاح أو التبـديد والتعويض أو النشاط والفتور فإن سادت العملية الأولى أعقبتها الثانية و إن اختفت هذه انبعثت الأخرى و إن جادت إحداهما زمناً تخلفت أختها إلى أن تظهر فتندثر السابقة وهكذا نجد بعد زمن الادخار يأتى دور العمل وبعد تكامل النمو يحل دور التكاثر .

إن هذا التعاقب الواضح للتبدلات الإنشائية والتهديمية فى المـادة الحية لا يتأتى إلا وفقاً لأوقات دورية ظاهرة من شأنها أن تهب الطبيعـة نظما بديعاً وتعطى الحياة جمالا فتانا وذلك كتوالى الليل والنهـار وتناوب المد والجزر ومسير الفصول الأربعة فى كل عام . والمعروف أن جميع المخلوقات الحية على اختلاف أنواعها تكتسب ميزة النظم عن طريق الوراثة وأن عمليات هذه الميزة تبقى مستمرة على الدوام فى الحالات الاعتيادية أما الأمر المهم فيهـا فهو توافق التذبذب الداخلى في هذه المخلوقات إلى الأوقات الدورية الظاهرة بصورة منتظمة ، فإننا يلزم أن ننام ولو لم يسدل الليل ستاره وذلك كما يحصل فعلا لسكان المناطق الشمالية البعيدة أيام الصيف غير أننا على كل حال نفضّل نوم الليل الذى إن حلّ أوقف الـكثير من مسالك الإحساس فى جهازنا العصبى وعطل وصول إشارات التبليغ إلى مراكزها بعكس ما كانت عليه فى ساعات النهار .

ومما يلفت النظر أن المخلوق الحى مهما كان نوعه لابد وأن يعقّب مدة حياته خطا بيانياً واضحاً يدعى اصطلاحا بخط المرور — فيه من الجهة الواحدة الانحناء

الصاعد أو (قوس التعالى) الذى يبيّن نمو المخلوق المتزايد يوما بعد يوم حتى يصل قمة القوس وهى نقطة التكامل التى تشير إلى دور البلوغ لذلك المخلوق ، وفى الجهة الأخرى نتبين الانحناء النازل أو قوس الهبوط الذى يظهر أدوار الفتور والعجز فى المخلوق وهو يستمر في التدنّى إلى أن يصل إلى أوطأ نقطة وهى ساعة الفناء أو الموت . ففى حالة ما إذا كان المخلوق الحى نباتا كان أو حيوانا مما لا يعمر أكثر من عام واحد نجد أن خطه البيانى بقوسيه الصاعد والنازل يطابق تماما تتابع الفصول الأربعة فى السنة لأن الربيع هو موسم الشباب والصيف هو موسم النضوج ؛ كما أن الخريف هو بداية دور الانحلال والضعف ، أما إذا كان من المخلوقات المعمرة فإننا نشاهد على القوس الواحد كثيراً من التموّجات التى تتفق وتأثير الأوقات الدورية الظاهرة التى تمر فى كل سنة من سنى ذلك المخلوق .

افحص مقطعاً عرضياً لساق إحدى الأشجار الكبيرة من ذوات الفلقتين تجد فيه سجلا واضحاً لعمر الشجرة وذلك بعد أن تحصى فيه عدد الحلقات الظاهرة عليه ؛ وإنك لو دققت مليا المقطع العرضى لساق الشجرة المعروفة بـ (سيكوياس أوف كلفورنيا ) لأخذك العجب من كثرة ما فيه من الحلقات ولصعب عليك عدها إلا بعد حين، إذ فيه مالا يقل عن (٢٤٢٥) حلقة وعلى هذا يخبرك النباتيون أن نشوء هذه الشجرة كان قبل ميلاد المسيح بـ (٥٢٥) عاما . ولكن ما السبب يا ترى فى عدم اتحاد هذه الحلقات الخشبية واندماجها ببعضها لتكون قطعة واحدة لا فواصل فيها ولا حدود . إن العلة فى ذلك بسيطة جداً فهى تعود إلى تأثير الحركة الدورية فى المواسم وخلاصتها هى أن تركيب الخشب الذى يتكون أثناء الصيف يختلف اختلافا كبيراً عن الخشب المتكون فى الخريف وأن هذا التفاوت يترك فواصل النمو الظاهرة عن بعضها بكل جلاء وبهذا يمكنك تمييز علاوات النمو السنوية بكل سهولة .

وكذلك نستطيع بنفس الطريقة أن نفرّق بين فعالية الصيف والشتاء فى

الخطوط المتراكزة أو المتحدة المركز التى تظهر على حراشف السمك المدعو بسمك سليمان وغيره من الإسماك وفى الآمكان تعزيز ذلك أيضاً بعمل مقطع فى حصاة الأذن ( التيه الغشائى فى بعض الأسماك ) . إن هذه الخطوط تدعى بعلامات التموج فى النمو وهى شائعة فى الطبيعة العضوية فما الخطوط المتوازية التى تشاهد على أصداف النواعم وعلى ترس السلحفاة وعلى حراشف الثعابين ذات الجرس وما مناطق النمو الجلية فى أشواك توتيا البحر وغيرها إلا أمثال لهذه العلامات وهى قليل من كثير من المشاهد التى توضّح تأثير تعاقب الأوقات الدورية الظاهرة فى الطبيعة على المخلوقات الحية فى كل مكان .

(١)

# يقظة الربيع

« وأنت ياذا البرد الموشى . . »

تشرق الشمس فى أوائل الربيع وفى أشعتها من الحرارة ما يكفى لأن يبعث فى معظم الأحياء نشاطاً غريباً من شأنه أن يسلك بها فى حياتها سبلا جديدة ويلبسها في أيامها لبوسا زاهياً ، فالأشجار تورق والبذور تنبت والضفادع تبيض والشياه تطلق .

تفتح البراعم :

ولعل أظهر ما فى هذا الثوب القشيب الذى يدل على هذه اليقظة الجبارة هو ( تفتح البراعم ) . لقد نشأت هذه البراعم أيام القوة من العام الفائت وترعرعت وكمل نموها حتى إذا ما حل فصل الشتاء المنصرم التحفت بحراشفها الواقية وكمنت في مخابئها تنتظر انقضاءه لتمر به بسلام وهى كذلك وإذا بالحرارة تدب فيها فتتمطى هنيهة وتستيقظ من رقدتها تحمل للملأ كل البشائر عن قدوم عصر الفتوة والشباب .

والبرعمة الاعتيادية عبارة عن غصين أو عسلوج صغير نبتت عليه مناشىء الأوراق التى تكون فى الغالب متراصة وعلى هيئة الحلزون . خذ رأس الملفوف ونصفه بصورة عامودية وانظر إلى المقطع الحاصل تتجسم أمامك شكل البرعمة كما هى في الواقع لأن رأس الملفوف هو عبارة عن برعمة هائلة ليس إلاّ . ولو نصفت برعمة أنموذجية كإحدى براعم شجرة الشامبلوط تشاهد فيها عسلوجا صغيراً فى القلب وقد انطوت حوله أوائل الأوراق انطواء متكاملا . أمعن النظر قليلا تجد أنه كلما اندفع هذا الغصين في النمو انبسطت الأوراق فى مراكزها الخاصة ، والنمو فى الحقيقة هو الأصل فى هذا الاندفاع إلا أنه لا يبدأ حتى تدب فى العسلوج حرارة الربيع وتنفذ إليه قطرات غيثه وعلى هذا فالبراعم غير قادرة على أن تتفتح إلا بعد أن تنمو ، والنمو بحد ذاته يعنى تكاثر الحجيرات وتزايد عددها وهو لا يتم إلا إذا مرّ بالبرعمة عصير النبتة المغذى . إن هذا العصير قد يعتبر من بعض الوجوه الماء المخزون فى أجزاء الساق ، غير أنه فى الوقت نفسه لا يمكن أن نغفل عن أهمية ماء التربة الذى

امتصته الجذور ودفعته إلى أعالى النبتة وعلى كل فبتأثير هذا وذاك وبالإضافة إلى حرارة الشمس تنفك مغاليق السجون لآلاف البراعم الناشئة على مثل هذه الأشجار المرتفعة التى تبعد ذرواتها عن سطح الأرض بمائة قدم أو ينيف فتنطلق لتقابل النور وجهاً لوجه .

وفيما عدا هذا النوع من البراعم نلاحظ أنواعا أخر تدعى بـ( البراعم الزهرية) وهى التى تتفتح عن الأزهار أو الأوراد ، وهنا أيضاً نجد أن معظمها ينشأ في غضون السنة الفائتة ويبقى كذلك إلى أن يحل فصل الربيع فيضحى ويزهو كما كان الحال مع البراعم الورقية .

والشائع هو أن تظهر الأوراق أولا ثم الأزهار ولكن قد يصادف فى بعض الحالات النادرة أن تسبق البراعم الزهرية البراعم الورقية فى الظهور فهذه نبتة ( الأجّاص البرّى ) التى تكثر على قارعة بعض المسالك تشاهد فى أوائل الربيع وهى مغطاة بأزهار بيضاء ناصعة وذلك قبل أن تتفتح فيها البراعم الورقية . وهناك أنواع من الأنجم التى يكثر وجودها فى الحدائق والرياض أشهرها نبتة ( الغار ) أو الدفنى — لها أزهار بنفسجية اللون تظهر مبكرة فى الغالب وذلك قبل أن يكون للنبتة أوراق بزمن طويل . هـذا ولا يبعد أن تتكون على العسلوج النامى براعم زهرية تنشأ في آباط أوراقه تتفتح رويداً أثناء الموسم .

إن أبرز ما تمتاز به الأزهار فى أوائل الربيع هو تغلب اللونين الأصفر والأبيض فيها على سائر الألوان أما الأزهار الحمراء والبنفسجية فيتأخر ظهورها عادة ومع أنه من السهل جداً أن نعثر على بعض الشواذ إلا أننا لا نستطيع أن نجد مقابل اللون الأصفر منافساً فهو الذى يسود فى أول الربيع إجمالا حتى على اللون الأبيض . تأمل نباتات حشيشة الخطاف والأكونيت الشتائى ( خانق الذئب ) وحافر المهر ( قبل ظهور الأوراق ) والنرجس ( النيجرى ) وزلقة العجل والسفرس الذهبى وأقحوان البطائح في الخنادق وهندباء البر والسيراس والمنثور البرّى والخرّوب

الهندى تجد أزهارها صفراء زاهية ، ولا شك أن هناك أنواعا من الخزامى والفل والبنفسج وكلها نباتات تظهر أزهارها مبكراً وهى ذات لون أزرق إلا أن غير قليل من أنواعها الأخرى يشيع فيها الزهر الأصفر .

هذا وفيما عدا ذلك فالكثير من أزهار الربيع بيضاء اللون وذلك كأزهار نباتات ( الأجّاص البرّى ) المذكور آنفاً ونقاطة الثلج وشقائق النعمان البرى والحمّاض البرى واللميوم الأبيض ( ولو أن النوع الأحمر يبكر كثيراً ) وكذلك معظم أنواع النرجس الأبيض وزهر اللؤلؤ ذى الأطراف القرمزية .

والبياض يعنى فقدان الصبغة أو المادة الملونة بصورة مطلقة فإذا كان ذلك فالنور ينعكس بالكلية من بين الفراغات ونقاعات الماء العديدة الموجودة في أو بين الحجيرات الحية لأوراق التويج ( البتلات ) وعلى هذا فزهرة نقاطة الثلج ترى بيضاء لنفس السبب الذى يجعلنا نرى الثلج أبيض . ولعل السبب فى شيوع الأزهار البيضاء فى مستهل هذا الموسم هو أن حرارة الشمس الفتية وهى فى أوائل شدتها لم تصبح بعد قادرة على أن تثير فى الحجيرات فعالية الحياة القوية التى تخلّف وراءها عادة تكوين المادة الملونة فى أمثال هذه الحجيرات .

إن الروّاد يعلموننا كثيراً عن سناء الربيع المفاجىء فى السهول الأسيوية المترامية الأطراف بعد أن تذوب الثلوج عنها فهناك مئات الأفدنة من الأراضى التى يغطيها السوسن الأبيض والأصفر والأحمر ومئات مثلها يكسوها الزنبق الذهبى والأزرق وباستطاعتنا أن نشاهد أمثال هذا المنظر بالقرب منا وذلك بمقياس أصغر فالقسم الأعظم من سهولنا تمتد فيها البسط الزاهية لشقائق النعمان والخزامى وغيرها من الأزهار التى تبتهج لرؤيتها النفس .

ورب سائل يقول : « ما هو منبع هذه الثروة التى تبعث إلينا هذا السناء الزهرى العجيب والموسم فى أوائل نشاطه ؟ قد يكون هناك قليل من الأوراق التى تفتحت عن براعمها ولكنه على كل حال ليس له من الوقت ومن النور

ما يكفيان لتجهيز كل هذه الكميات الزائدة من المواد الغذائية فى هذه النباتات ذات الأزهار الوفيرة ؛ أن الجواب على هذا هو ما يلى »

أولا : إن براعم هذه النباتات التي تبكر أزهارها لم تنشأ إلا فى غضون العام الفائت .

وثانياً : إن النبتة لم يفتها أن تخزن الكثير من الغذاء الاحتياطى فى أجزائها المطمورة تحت التراب أى فى البصيلات والدرنات والجذور والريزومات والكرمات وما يحدث فى أول الربيع هو الاستهلاك فقط ؛ الاستهلاك المسرف مما خزن من هذه المواد فى السنة الماضية . وللتأكد من ذلك اقلع نبتة الخزامى الناضجة بكامل بصيلتها ثم اقطع هذه البصيلة عاموديا تلاحظ كيف أن حراشف براعمها قد امتلأت بالمواد الغذائية فظهرت بدينة ، ثم انظر كيف أن هذه الحراشف تحيط بسلسلة من البراعم الزهرية الصغيرة وكلها متحفزة للتفتح والظهور . ولايفوتنك أن أمثال هذه الأغذية المخزونة فى البصيلات ما هو معروف لدينا فما نأكله فى البصلة المسلوقة إن هو إلا تلك المواد التى نشير إليها وفى إمكاننا أن نتحقق من ذلك بأكلنا بعضاً من البطاطا أو الأرضى شوكى وكثير من الخضراوات الشهية ومع أن أمثال هذه النباتات ليست ببصيلات ولكنها على كل حال تمثل ذلك الخزن الذى يتم فى أجزاء النبتة النامية تحت الأرض لكثير من المواد المتحصلة فى غضون العام الفائت .

إنبات البذور :

إن المظهر الثانى من مظاهر الربيع الزاهية هو إنبات البذور . والبذور يكمل نشوءها فى الصيف الماضى وهى بعد أن ترعاها الأم زمناً تنتشر فى الخريف التالى راحلة إلى حيث يسوقها القدر . والبذرة الواحدة عبارة عن نبتة صغيرة جداً هى الجنين يحيط بها أو بضمنها ميراثها الكامل من المواد الغذائية والكل قابع داخل غلاف محكم يقى المخلوق الحي وغذاءه شر الحوادث ، وهذا ليس ببعيد عنا معرفته

ونحن نتزع بالسكين والشوكة القشور عن القول المسلوق الذى نأكله أحيانا .

هناك حقيقتان تجدر معرفتهما قبل كل شىء .

أولاهما : أن البذرة تختلف عن البيضة التى وضعت حديثاً ولكنها أشبه شيء بالبيضة التى مرّ على حضنها مدة من الزمن فتقدم الجنين فيها بنموه مراحل ظاهرة .

وثانيهما : إن الغذاء المخزون فى البذرة يتأتى من جراء اتصالها الوثيق بالأم حيناً وهو مالا يحصل للبيضة مطلقا ، إذ المعروف أن أفراخ النباتات الراقية وأبناء اللبائن ( وهى الحيوانات الراقية ) هى الوحيدة من بين جميع المخلوقات الحية التى تختص بكونها تقضى زمناً وهى متعلقة بأمهاتها قبل أن تتحرر وتتخذ سبيلها فى الحياة الاستقلالية منفردة .

إن كثيراً من البذور التى تنبت فى الربيع تقرب أعمارها من ستة إلى تسعة أشهر وقد بقيت كامنة منذ أن انتشرت وتوزعت فى الخريف المنصرم ومع أن هناك أنواعا من البذور — مثل بذور أشجار الحور — لا تتأخر عن الإنبات فى أى وقت زرعت ، إلا أن ذلك غير مألوف لدى معظم البذور لأن البذور بصورة عامة بحاجة ماسة إلى زمن تسكن فيه قبل موعد الإنبات وقد يطول هذا الزمن أحيانا إلى أكثر من عام واحد وهو مما يدل على أن هذا التأخير لا يعود بالكلية إلى الحقيقة المعروفة وهى أن الشتاء فى الأقطار الباردة هو الموسم الذى لا يلائم الإنبات . أما تفسير ذلك فهو أن داخلية البذرة يجب أن تمر خلال عمليات استحضارية ضرورية أظهرها قيام الأنزيمات ( الخمائر ) بإعداد المواد الغذائية المخزونة فى البذرة بحيث تصبح أكثر نفعاً وأسهل تناولا من قبل النبتة الفتية فهى إذن عملية هضم تقوم فى البذرة على قدم وساق قبل أن يحدث الإنبات بزمن ولو كان قصيراً .

وبعد ذلك يأتى دور التداعى التدريجى لقشرة البذرة الخارجية التى تكون عادة سميكة وصلبة ، وماذا يعمل الجنين حتى يستطيع أن يظهر إلاّ أن يفتح دونه

الأبواب ويكسر مغالقها ، وقد ثبت أن هذا التداعي يتم بمساعدة أنواع من البكتريا الموجودة فى التربيـة وهو ما دلّ على أن الميكروبات المكرسكوبية التى تعمل فى الغالب على إفناء وإهلاك المخلوقات الحية تساهم أحيانا على تقـدم وإنعاش حياة جديدة فى هذا العالم .

ولقد توصل العلمـاء إلى اكتشاف حقيقة مدهشة تخص نمو بعض البذور وخلاصتها أن هناك بذوراً من ألزم اللوزم عليها أن تتعاون فى حياتها مع شركاء يشاطرونها العمل .

فبذور الحمص والبرسيم ( نوع من الجت ) واللبياء والترمس وغيرها من نباتات الفصيلة البقولية لابد وأن تصاب بنوع من أنواع البكتريا التى يكثر وجودها فى التربة حتى تستطيع أن تنتفع بطريقة لم تزل غامضة لحد الآن من عنصر النتروجين الحر الموجود فى الهواء كما لوحظ أن جل نباتات الفصيلة الثعلبيـة أو فصيلة السحلب ( إن لم يكن كلها ) يجب أن يكون لهـا شريك فى جذورها من نوع الفطريات المسماة ( الميكوريزا ) ، وفضلا عن ذلك فإن بذور هـذه النباتات بحاجة ماسة إلى نفس هذه الفطريات حتى أثناء الإنبات وقد حار الزرّاع قبلا فى محاولاتهم التى رغبوا من ورائهـا أن يزرعوا بذور هذه النباتات فى غير موطنها وكادوا يعودون بالفشل لولا أن تمكنوا بعدها من إحضار الشريك إلى تلك التربة الذى ظهر للاختصاصيين أنه يجب أن يكون من نوع خاص .

وبعد كل هذا علينا أن نؤمّن عند إنبات البذور الناضجة شرطين آخرين وهما الإرواء الـكافى ودرجة الحرارة الملائمة فإن تم ذلك فلابد من أن تندفع البادرة بزغابتها إلى الأعلى حيث النور وبجذيرها إلى الأسفل حيث الظلمـة وهذا بحق لهو أهم وأعظم ما تحمله جعبة الربيع إلينا .

إن حركة البادرة وقت الإنبات لأمر عجيب يستلفت النظر فكلما ارتفع السويق نجده يلتوى وينثنى فى جميع اتجاهات الإبرة المغناطيسية حتى يصبح رأسه

أشبه بدائرة أو بمقطع أهليلجى صغير والسبب فى هذا هو عدم انتظام النمو فى جميع أجزاء السويق وذلك لاختلاف شدة النور على مساقط النبتة نظراً إلى التغير الحاصل فى هذه الشدة بين حين وآخر أثناء ساعات النهار . والواقع أن النور يبطيء معدل النمو كما تدل على ذلك التجارب : فلو زرعنا هذه البذور فى صندوق معرض للنور من جهة واحدة فقط نلاحظ أن البادرة تتجه بكليتها إلى هذه الجهة. ولا يفوتنا فى الوقت عينه أهمية الحرارة وتغيرها من آن لآخر أثناء النهار وما يتركه ذلك من أثر فى نمو النبتة وتكوين الحركة فيها .

وبين هذين العاملين — النور والحرارة — تباين ظاهر فالأول يبطىء النمو ( كما ذكرنا ) والآخر يعجّله وهما كلما اختلفا فى الشدة ولّدا فى النبتة تلك الحركة الترنحية العجيبة التى يتعذّر علينا تمييزها في معظم النباتات حتى لنغفل عنها أحيانا بصورة مطلقة .

رجعة الحيوانات :

وفى الربيع تبادر الحيوانات إلى ميادين النشاط من جديد تلك الميادين التى سابقت فيها النباتات أيضاً . ولعل أعرف مشاهد هذه الرجعة هو نهوض ملكة النحل ومبادرتها في السعى وراء الأزهار رغبة منها لإنعاش نفسها بعد صوم الشتاء المضنى وشوقا إلى أن تجمع من الرحيق وحبوب الطلع زادا شهياً تقدمه لأفراخها فى الخلية التى ستقوم بإنشائها قريباً من الشاطىء الأخضر .

لقد كانت سابتة طليلة الشتاء وهى واحدة من بضعة أخلاف أو هى الخلف الوحيد الذى استطاع أن يعيش من بين أفراد تلك العائلة الكبيرة — فقد قضى نحب ذلك العدد العديد الذى كانت تعج به الخلية المشحونة آنذاك ولم يسلم منه غير صغار الملكات .

إن معظم الحشرات تمر بموسم الشتاء وهى غير كاملة، فلقد كانت سرفات أو يرقات دودية الشكل متحركة فدخلت عنده بدور الشرنقة الهادىء وهى فى هذه

الخلوة نراها تسبت كالمومياء ملتحفة بلفائفها الواقية إلى أن تتمخض عن أعظم التغيرات وأعقدها فى صور الاستحالة فتتشكل بشكل جديد وتستيقظ فى الربيع فإذا هى حشرات كاملة ذات أجنحة تنتقل بها من مكان إلى آخر كما يفعل الفراش. وهكذا الحال مع القواقع التى تبدأ حينئذ فى السعى وراء رزقها بعد أن بقيت كامنة طيلة الشتاء فى ثقوب الجدران المتداعية وقد أغلقت على أنفسها فتحات أصدافها بكل دقة .

أما الضفادع فيقظتها ظاهرة للعيان : فتنّش عنها أيام الشتاء تجدها سابتة فى أجحارها المريحة بجوار البرك والمستنقعات ، عيونها مغلقة ومناخيرها مغلقة وأفواهها مغلقة وهى تتنفس تنفساً جلديا وأفئدتها تخفق خفقانا ضعيفاً. ثم انظر إليها فى الربيع واسمع نقيق الذكور المتواصل والسرعة التى تمتاز بها الإناث فى وضع كتل بيوضها الهائلة في الغدران والأحواض عند ذاك يتجلى لك الفرق بين حياة الموسمين وتعرف حينئذ درجة هذه اليقظة الجبارة . وفى الأخير لا تنس تيقظ الكثير من أمثال هذه الحيوانات التى اعتادت السبات فى مواسم البرد كالقنفذ والزغبه أو الدرموش من آكلة الحشرات والمرموط من القواضم والخفّاش من المجنحات .

التكاثر والتجمعات الجديدة :

والربيع — كما قلنا — هو موسم الشباب ففيه ينتعش الزرع الجديد وتتفتح على يده البراعم والأزهار وعنده تفقس البيوض فتزداد أفراخ الضفادع والكتاكيت وعلى مسرحه تطارد صغار الأنعام والحيوانات الأخرى ، وبمجيئه تتكاثر المخلوقات الحية الدقيقة التى تسبح فى البرك والبحيرات والأنهار والبحار ذلك التكاثر العجيب الهائل .

ولا لا تعجب إذا عرفت أن العلماء قد توصلوا إلى أن أغلب البرك ذات المياه العذبة تحتوى على مادة كيمياوية هى نتيجة فناء الكثير من النباتات أثناء الخريف والشتاء تدعى (أوكزتكس) وهى ذات مفعول قوىّ فى ترويج تكاثر الحجيرات ، كما علموا أن المادة المسماة (أوكمنتورز) التى من شأنها أن تقوّى سواعد

الأفراخ الصغار تزداد كمياتها فى هذه المياه قبيل حلول فصل الربيع ازديادا مطردا .

وماذا تنتظر من الطبيعة بعد كل هذا ؟ أليست هى دائبة فى كل ما يدهش ويحير ، بدرجة أن أخرجت من الميت ما أمسى سببا فى إثارة نشاط اليقظة التى وهبها الربيع للوجود فى كل مكان حتى فى حياة الغدران والبحيرات ولتوضيح ذلك نجد أن الفرد الواحد من النقاعيّات (وهو صنف من الحيوانات الابتدائية) التى تعيش فى هذه الأوساط يمكن أن يصبح السلف لمليون من أمثاله فى بحر أسبوع وقد ينوف على ذلك إن كان الربيع بهيجا والبيئة مساعدة ، والمشهور أن براغيث الماء تلتهم النقاعيات والأسماك تبتلع براغيث الماء وهكذا ترتبط حلقات الحياة مع بعضها ويعتمد هذا على ذاك ويبنى الأعلى على الأسفل وبذا يسير العالم ويدور دون توقف .

ومما يمتاز به الربيع هو ازدياد كميات المياه التى شحّت أثناء الشتاء فى كل صقع ومكان وبازديادها تخرج أنثى البعوض من خباياها التى قضت فيها موسم البرد لتضع بيوضها فى الماء على شكل طوّافات عائمة على سطحه فى كل منها ما يقرب من المائتين إلى الثلثمائة بيضة ؛ والبيضة طولية أشبه شكلا بالسيكارة . ومن هذه البيوض تنقف السرفات التى تبقى معلقة قريبا من سطح الماء الراكد ورءوسها مدلّاة إلى الأسفل وهى تغطس إلى الأعماق فى فترات لتظهر ثانية وذلك بمساعدة ذبذبة ذيولها القوية . إن هذه السرفات تتغذى وتنمو وتتطوّر وأخيرا تتحول إلى شرنقة أو حورية تختلف فى المظهر عما كانت عليه كل الاختلاف حيث تستقر وتتخذ فى مقامها وضعا واحدا وتبقى رءوسها متجهة إلى الأعلى قريبة من سطح الماء ، وهى فى حالتها هذه لا تتذوق طعاما قط حتى إذا مر عليها زمن لايزيد عن أربعة أيام نراها تنتزع عنها القشرة الخارجية وتنبعث بسهولة من داخل الشرنقة على شكل بعوضة كاملة ذات جناحين تقوى بهما على الطيران .

وهنا لابد من ملاحظة كثير من الأمور البيولوجية المهمة :

١ — تكيّف سرفة البعوض للمعيشة وسط الماء رغم أنها تتنفس الهواء الجاف .

٢ — تجمع القوت الاحتياطى لحياة متعاقبة قصيرة الأدوار ولكنها نشيطة تختص بالحياة التناسلية بصورة مطلقة .

٣ — فناء الصغار الهائل ومقاومة التكاثر المخصب له فالبعوض هو الطعام الشهى للطيور المهاجرة التى تعود إلى الشمال أيام الربيع كما أن سرفاته لا يجد معظمها مناصا من أن يقدم نفسه أكلة لذيذة لصغار الأسماك ، ولكن تأمل ألا تجد بعد كل هذا عددا وافرا من البعوض وهو حىّ يرزق .

٤ — العلاقة الوثيقة بين حياة البعوضة وحياة الإنسان : فالبعوض الحامل لجراثيم الملاريا والتى تصيب الإنسان بالمرض الخبيث المعروف هو نوع من أنواع البعوض ولتخفيف وطأة هذا المرض يقوم البعض بصب كمّية من سائل البرافين فى الأحواض والمحلات الأخرى التى يبيض فيها البعوض فيكون على سطح الماء غشاء رقيقاً يمنع السرفات من أن تتمسك به فتختنق وتموت .

البعوض والفراش :

إن دورة حياة البعوض تستمر حوالى الشهر ويكون له أثناء الصيف ما يدعى بتعاقب الأجيال . وإننا عندما نقارن هذه الدورة بتاريخ حياة ذبابة آذار التى قد تعيش تحت سطح الماء زمنا يتراوح بين الثلاث أو الأربع سنوات ولا تكون هوائية إلا لمدة ثلاثة أيام أو ليوم واحد تتجلى أمامنا حقيقة بيولوجية مهمة وهى أنه قد يستمر جزء من تاريخ حياة المخلوق — وهو على طرز واحد — حينا طويلا ثم يتلبس بعد ذلك بطراز آخر رغبة فى التكيف لمختلف أحوال الحياة .

وفي أيام الربيع تظهر أنواع الفراش والسوس ( العث ) التى قضت الشتاء كحشرات كاملة فتتزاوج وتفاجىء المزارعين بسرفاتها الجشعة حتى تكون لهم عدوا لدودا يقلق راحتهم ويسقيهم كأس العذاب المر . وحديث المقارنة بين السرفة الدودية الشكل والفراشة المجنحة موضوع شهى للسامع إذا لم يكن له إلمام به :— فالسرفة حيوان دودى فى رأسها مجاسات صغيرة وعيون بسيطة ولها ثلاثة أزواج من الأرجل المفصلية وكلها منتهية بمخالب ، ثم إن لها خمسة أزواج

أخرى من الأطراف الإضافية الخلفية ولكنها غير مفصلية ولا تنتهى بمخالب وإن أجزاء فمها مخصصة للقضم، والسرفة الزاحفة بحد ذاتها نهمة جدا بعكس الفراشة الطائرة التى من عادتها أن تمتص الرحيق باعتدال أو تصوم أحيانا بالكلية. إن هذه المقارنة تظهر لنا التباين العظيم بين دورين أساسيين هما دور التغذى ودور التناسل: ففى الدور الأول (دور السرفة) يخزن الزاد الاحتياطى في الجسم فيعجّل فى تكوين الفراشة أو الحشرة الكاملة ولا بد أن تكون للتغيرات التى تحصل فى المناخ أثر نافع فى إطالة دور السرفة حتى تستطيع أن تقوم بما يلزم تجاه هذا الأمر. فإذا انتهى الدور الأول انقلبت اليرقة إلى شرنقة هادئة تقاوم البرد وتكون أنسب إلى المعيشة فى الشتاء. وفى الشرنقة ينشط أعظم أدوار الاستحالة تبدلا مما يؤدى إلى ظهور الحشرة الكاملة فى النهاية والانتقال إلى الدور الجديد وهو دور التناسل.

ولكن كيف يقوى النمو الذى يوضّح ميزات وراثية خاصة في بناء السرفة على أن يعيد الكرة وفقاً إلى تصميم جديد فيبعث إلى الوجود بميزات وراثية أخرى من شأنها أن تخلق تلك الحشرة الجميلة الكاملة. ذاك مما لم تسهل معرفته بعد.

عودة الطيور المهاجرة:

ومن أروع مظاهر الربيع عودة الطيور المهاجرة (كالسنونو والبلبل والخطاف الجبلى والوقوق) إلى مساكنها فى الشمال بعد أن قضت فصل الشتاء فى مرابع الجنوب. وقد تبين فى أكثر الحالات أن الذكور الكاملة لهذه الطيور هى التى تصل أولا أما البعض منها وذلك كالعصافير المغردة مثلا فإنها تتخذ جهة خاصة تنتظر فيها أزواجها لتعود إلى موطنها سوية وعلى كل حال فإن صغار هذه الطيور هى التى تكوّن القافلة الأخيرة بين أنواع الطيور المهاجرة. وقد أظهرت أمثال هذه الضيوف التي تحل عندنا أثناء الصيف مهارة غريبة فى دقة المحافظة على الوقت اللازم لوصولها، كما أنها برعت كثيراً فى قوة الرجوع إلى أوكارها التي بنتها فى الأعوام الماضية. هذا وبرجوع الطيور المهاجرة إلينا أيام الربيع ينقطع عنا سكون الشتاء فوراً وتنمحي معالمه الخاملة فإذا بالهواء يمتلىء بالأصوات الإيقاعية الجميلة والتغاريد الشهية العذبة.

(٢)

# فعالية الصيف

« ابن الهجير . . . »

فات الربيع وبمروره انقضت أيام اللهو والمرح وجاء الصيف فإذا هو موسم العمل الملح والإنتاج العميم ، ففى فصل الصيف تتفتح براعم الربيع فتكسو الأغصان بالأوراق اليانعة الخضراء ، وتحلّى الأشجار بالأزهار الجميلة الزاهية وفيه تستعر نار الحياة وتلتهب القوى فتساعد على توليد الطاقة الوفيرة وتعين على بناء ما يجب بناؤه لجيل آت جديد . وفى هذا الحين ينبعث نشاط مدهش فى أجزاء الأشجار وفى خلايا النحل وعنده تقوم الأحياء جميعاً بأعمالها إلى أقصى حدود الإمكان ، إلا إذا ارتفعت درجة الحرارة كثيراً بحيث تصيب الأوراق بالذبول وتجبر الحيوان على التماس القيلولة لزمن غير قصير . وبالإجمال فإنك أينما وليت وجهك فى الطبيعة أثناء الصيف تشاهد ( الحب ) و ( الجوع ) ثم تضطرك الحوادث فى النهاية لاعتباره بحق موسم دراسة الحياة العائلية الصحيحة .

نشاط الصيف المفرط : ولعل من أقوى وأكمن علائم هذا النشاط هو إنتاج السكر والنشا وغيرهما من المواد الغذائية التى تقوم بصنعها معامل النباتات أو الأوراق الخضر وهو مايؤول حتما إلى تجمع ثروة عظيمة من الغذاء النافع وهاك حقول القمح الواسعة مثلاً عما نذكر : إن هذه الثروة الغالية يستهلك قسم منها لأغراض النمو فى النبتة وذلك كتوليد براعم العام المقبل ، ويخزن البعض منها فى الساق والجذر والبذور ، بينما تندفع كميات كبيرة منها إلى الأزهار فتنصب فيها على هيئة مادة عسلية لذيذة الطعم تعرف بالرحيق ، أو تتجمع لتملأ الثمرة بالعصارة الطيبة الشهية . وهنا يتقدم الحيوان فيلتهم جزءاً كبيراً من هذه الثروة الغذائية الطائلة مباشرة فيمثلها فى جسمه ويحيا بها . والصناعة بحد ذاتها لا تعنى إلا تحويل المادة والطاقة من شكل إلى آخر فإذا كان كذلك فإن النباتات الخضر تصبح بهذا الاعتبار مخلوقات صناعية لانظير لها ، وعملها المذكور أشبه شىء بما يقوم به النحل فى تحويل الرحيق إلى عسل يجمعه فى الأقراص غذاء لأفراخه .

وفى حياة النحل اليومية آيات عجاب : — إن هذه الحشرة العاملة تنجذب إلى الأزهار بعوامل شتى مفصلة فى بحوث علم النبات منها فعالية الألوان الزاهية التى تسترعى بصائرها والرائحة الزكية التى تؤثر على حواس الشم فيها أو تذكر الأكلة الشهية من الرحيق الذى تناولته الحشرة فى الوجبة السابقة وتلك بأجمعها بواعث أساسية ترغّب النحلة فى السعى وراء الأزهار لتخطر بينها عاملة نافعة . وإنك لو أمعنت النظر ملياً لشاهدت ما استطاع أن يلاحظه قبل ألفى عام الفيلسوف اليونانى ( أرسطاطاليس ) إذ وجد أن النحلة لا تنتقل فى كل حملة من حملاتها من نوع واحد من النبات إلى نوع آخر ولكنها تتقيد بنوع واحد منه فلا تغير ذلك إلا بعد أن تزور الخلية مرة وتعود . والواقع أن هناك بعض الشواذ غير أن ماشاهده أرسطاطاليس يصح بوجه عام فى أكثر الأحايين . وهذه العادة التى يتخلق بها النحل تؤكد لنا بأن الإلقاح لا يجرى على غير هدى كما يخيل لكثير من الناس ، بل يتم بكل ضبط واتقان . وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة بعض الملاحظات البيولوجية الدقيقة أظهرها أهمية التلاقح غير الذاتى وسهولة إنجازه بواسطة أهم وأقوى رباط فى العالم ، ثم شدة تكيف بعض الحشرات للزهرة ، والزهرة لهذه الحشرات بحيث أصبح الطرفان يوافق كل منهما الآخر كموافقة القفاز للكف .

إن الوظيفة المزدوجة التى تظهر فى حياة الحيوان لا تتعدى عنايته بنفسه واهتمامه بالغير وكلاهما قد ينطوي على نوع من الصناعة جليل للغاية .

فهناك أشياء تصنع وتنقل ، تصاد أو تخزن ، تعمّر أو تغيّر من هيئة إلى أخرى أو من حال إلى حال . تأمل قليلا فى تل النمل المنصوب وفى قرص العسل المصبوب وفى عش الطائر المبنى ووجار اليثر المحفور ألا تسلّم حتما بأن الحيوانات غالبا ما تكون عاملة مجدة يتعبها الكد ويضنيها النصب فى هذه الحياة الدنيا .

انظر إلى صنعة الصيد تراها فنا محكما وحرفة تمتهن على أوجه مختلفة فكلب الماء يصطاد منفرداً والذئب يندفع للقنص فى الشتاء كجماعات وباز العصافير يصطاد

نهاراً ، وبوم المخازن لا يخرج إلى ذلك إلا ليلا ، والبعض من كبار العناكب ينقضّ على فرائسه بينما الكثير من أنواعها ينشىء الشراك والنسيج .

أما سرفة الخنفساء النمرى فتبنى فخا تترصد فيه فرائسها ، وكذلك تعمل سباع النمل ( وهى سرفات النمل السبعى ) إذ تحفر فى الأرض نقراً تربض فيها بانتظار الحشرات الساقطة التى إن حلّ نوع منها هاجمتها والتهمتها بفكوكها القوية الحادة .

والقاقوم ( وهو نوع من بنات عرس ذو فرو ) يلاحق الأرنب لمسافات بعيدة بسرعة نادرة بينما نجد القط لا يقتنص الفار إلاّ عن قرب .

وتأمل صيد السمك تر أن الطائر المعروف بالحوصل ( أبو جراب ) يصطاد مشتركا مع رفاقه ومالك الحزين يقتنص على انفراد .

أما الدنكلة فإنه يتخطى هنا وهنالك ويغشى الماء أحيانا لهذا الغرض بينما عقاب البحر يصطاد السمك بمعونة المخالب .

وتأمل بعدئذ أشكال الرعى تجد أن بضعة أنواع من النمل ترعى الذباب الأخضر أو ما يسمّى ببق النبات رعيا كرعي الأنعام حتى إنها تلازم صغارها وتعتنى بتربيتها اعتناء فائقا .

ثم انظر إلى حرفة الفلاحة تجد أن نمل تكساس الزراعى ينقّى الحشيش بمناطق دائرية صغيرة ، ولا يهمل منه إلا حثالة دقيقة تختلط فى التربة وتساعد على إنبات أفضل البذور وأقواها .

ويقوم كل من النمل الاعتيادى والنمل الأبيض بتربية نوع من الفطريات يستقى منه جزءاً مهماً من الغذاء الذى يحتاجه .

ويظهر أن الفائدة من جمع أوراق الشجر وطحنه من قبل بعض أضراب النمل هي خلق وسط ملائم لنمو ذلك النوع الممتاز من الفطريات فإذا ما عزمت الملكة على إنشاء مستعمرة جديدة جاءت بحبة صغيرة من هذا الفطر وزرعته على دقيق الورق وبذا تستهل به نمو الفطر النافع .

وأخيراً وجّه نظرك إلى عملية الخزن والمواد المخزونة التى يقوم بها الحيوان تشاهد جوز السنجاب المطمور وغلال النمل المتنوعة وعنابر العسل العديدة فى خلايا النحل والدود الأشل الذى يهتم بجمعه الزنبور الحافر .

و بعد هذا وذاك تأمل عمل الأوكار والأعشاش والاوجار تجد البعض منها يقع فى الذروة من حيث الدقة والجبروت فمنها الأوجار ذات الجدران الهائلة التى يفوق علوها ارتفاع الإنسان وقد أنشأت من التراب الممزوج باللعاب وفرشت من الداخل بنشارة الخشب الناعمة ومنها الوكر المعلّق الذى يبنيه اليعسوب من ورق الأشجار و ينشؤه بطبقة واحدة متدلية من أحد طرفيها ومحاطة بجدران تقيها شر المياه وعبث الريح .

فهل هناك بعد كل هذا من شك فى أن الحيوان يمتلك قدرة صناعية هائلة مختلفة الأوجه ومتعددة السمات .

حياة الفراش :

والفراش نوع من الأحياء معروف بنحافته ورقته وجماله من حيث الشكل واللون والحركة . وليس بين أنواع الحيوان من يقوم بحمل شعار الصيف و يمثّل فعاليته كالفراش ؛ فهو يعلن سمة الصيف بحال واحدة على الأقل وذلك أن الحشرة الواحدة منه وهى فى طورها المجنّح لا تلهو إلاّ بالحب ولا تعيش إلاّ للصبا والغرام ، وقد نجد أنواعا من الفراش لايذوق الطعام مطلقا فقد شغله هواه حتى عن تناول الأغذية . إن تعليل ذلك جد يسير فإن نهم الحشرة وهى فى دور السرفة قد أعان الفراشة كثيرا فى الجرى وراء هذه الحياة الخليعة التى تمثّل طرزا جديدا من طراز التباين الذى وجدنا مثيله فى النبات وهو التباين بين الزهرة والورقة ، أو بين القسم الخضرى والقسم التوالدى ، وليس هو إلاّ مثل حىّ للترنح الذي يشاهد على ستار الحياة الصاخبة : الترنح بين الجوع والحب أو بين التغذى والتناسل وبكلمة أخرى الترنح بين رعاية النفس ورعاية الغير .

والفراش أنواع كثيرة منها ما يستوطن مناطق مختلفة من المعمورة بصورة دائمية ، ومنها ما لايستقر فى موطن واحد بسبب عدم ملاءمة الأحوال الجوية له أو لعدم وجود الغذاء النباتى الموافق .

إن الألوان التى تشاهد عادة فى أجسام أكثر الحيوانات كجراد البحر ( الروبيان ) مثلا ناجمة عن تأثير بعض الأصباغ الموجودة فى الجسم غير أن هناك حالات أخرى تنشأ فيها الألوان بدون أن يكون للأصباغ حكم فيها . فألوان الطيف الشمسى التى تتراءى لنا على وجه محار اللؤلؤ الداخلى ماهى إلا نتيجة تركيب طبيعى أى أنها تنشأ عن انعكاس أشعة النور من سطوح مختلفة قريبة بعضها من بعض فيتحلل نور الشمس إلى ألوانه وتفنى أمواج بعض الألوان أمواج البعض الآخر ، ومن يسحق قطعة من صدفة يستطيع التأكد من ذلك بكل سهولة إذ أنه لا يحصل إلا على طباشير أبيض . أما منشأ الألوان الزاهية التى ترصع أجنحة الفراش والطيور الطنانة فناتجة من اتحاد الصبغات بذرات جزئية ناعمة فى الأنسجة السطحية للجناح وأن جمال هذه الصبغات يسمو عادة بالخطوط والتموجات التى ترسم على السطح : فالحراشف الصغيرة التى تكسو أجنحة الفراشة تكون مغطاة فى الغالب بخطوط دقيقة جدا لاترى بالعين المجردة تصطف مرتفعة عن سطح الحرشفة فكأنها سلاسل من الجبال تفصل بينها السهول . إن هذه الخطوط هى الأصل فى انبعاث تلك الألوان الجميلة التى هى أشبه شىء بألوان قوس قزح ، ولنعلم أن هناك ضروبا من الفراش الأزرق لا تمتلك أجسامها الصبغة الزرقاء بصورة مطلقة . وهكذا كان اتحاد التلون المادى والتلون التركيبى سببا فى زيادة جمال الفراش وبهائه حتى ليتصوره الرائى أحيانا بأنه أزهار طائرة .

وكما أن ذكر البعوض يستطيع أن يعرف أنثاه من مسافة ما عندما تبدأ هى بايقاع نغمتها الحادة ، كذلك نجد أن ذكر الفراش يمكنه أن يتعرف إلى أنثاه عن بعد ميل واحد على وجه التقريب وذلك بمعونه رائحة خاصة تحملها الذكور عادة

فإذا أطلقتها فى الهواء عند مسيس الحاجة كان لها الأثر البين فى انجذاب الأنثى الهاوية إلى الذكر . إن مادة هذه الرائحة تفرز من قبل غدد جلدية تقع فى الوجه الخلفى من الأجنحة فتنضح من خلال ثقوب دقيقة جدا أو تتجمع فى كيس صغير بجوارها . وفى بعض الأحوال نجد أن هذه المادة تتسلمها حين انصبابها فرشاة ناعمة قابلة للحركة تقتصر مهمتها على تسهيل نشر الرائحة فى الهواء بأسرع وقت ممكن ، غير أن هذه الفرشاة تكون فى الأغلب عند نهاية الذيل ولذا كان لزاما على الفراشة أن تمسح أجنحتها بالذيل أولا لكى تقوم بتلطخ الفرشاة بالمادة المفرزة . هذا ولبعض أنواع الفراش خيوط دقيقة تنشأ فى كيس الفرشاة تدعى بالخيوط الغبارية تتشقق حالا فى الوقت المناسب فتتحول إلى غبار معطر ينبعث فى الهواء فيؤدى رسالته إلى الانثى بكل اتقان .

وللفراشه حاسه للشم تختلف كثيرا عن حاسه الشم فى الإنسان ولعلنا نستطيع أن ندرك هذا الاختلاف بالمقارنة إذا أمعنا النظر فى عيون الفراش الظاهرة . إن هذه العين تختلف كذلك اختلافا كبيرا عن عين الإنسان بكونها غير متحركة وفاقدة للأجفان فضلا عن كونها تحتوى على بضعة آلاف من العيون الدقيقة حتى لتبلغ أحيانا الخمسة آلاف عدًا ، كل عين منها كاملة ومستقلة عن الأخرى بقرنيتها وعدستها وشبكتها وهى تمتاز بكونها قصيرة النظر إلى حد بعيد بحيث لا يتعدى مجال الرؤية عندها بصورة عامة عن الياردة الواحدة ، أما الصورة الحاصلة فى فرجة العين فهى عبارة عن صورة قائمة وليست مقلوبة كما هو الحال عندنا ، وفيما عدا ذلك فلها قوة محدودة للتمييز بين الألوان وعلى كل فالفراش لا يستطيع أن يتطلع إلى الوجود كما يتطلع إليه الإنسان بأفق نظره الواسع البعيد .

وبيضة الفراش آية من آيات الزينة والزخرف ولعلنا لا نعجب فى أن يكون الفراش سبّاقا فى مضمار الفن الرفيع إذا علمنا أن له عهدا على سطح هذه الأرض توالت فيه أجياله وأنساله إذ كان ولا يزال يجوب أطراف هذا العالم من نحو ثلاثة ملايين

من السنين . والبيضة كما هو معروف مخلوق حى فى دور الحجيرة الواحدة من نشأته ونحن إذ نشاهد أنثى الفراش وهى تضع بيضها منفردا على نوع خاص من النبات يكون هو الغذاء الملائم للسرفة لابد وأن نقف حيارى أمام أحد أسرار الفراش الغامضة لنتطلع إلى القوة الخفية الكامنة التى تدفع بالفراش لانتقاء هذا النوع من النبات ولا تتعداه ، هذا من جهة ، ومن جهه أخرى كيف نستطيع أن نفسر التقلبات فى حياة السرفة الهادئة التى تتمخض فى النهاية عن تصميم جديد فريد فى نوعه لم يسبق أن كان قبلا فإذا بالسرفة الخامدة فراشة جميلة تنتقل على أجنحة الهوى إلى حيث تعبث وتلهو . إن هذا والحق لغز مغلق من ألغاز هذا الكون العجيب .

أعشاش الطيور :

ويجدر بنا أن لا نغفل عند ذكر الطيور عن موضوع له أهميته من الوجهة البيولوجية ألا وهو عمل العشوش . إن هذا العمل يقوم بالأكثر على دوافع غريزية كامنة وقد يشترك الذكاء الفطرى معها فى بعض الأحوال . غير أن نوع العش وشكله يتوقفان عادة على جنس الطير بحيث يكون لكل جنس منه نوع معين من الأعشاش فالشحارير والدج (وهو طير مغرد) رغم كونها من الطيور التى ترتبط بصلة القرابة نجدها تبنى أعشاشا مختلفة . والملاحظ أن هناك خطأ بيانيا واضحا فيما يخص عمل الأعشاش عند الطيور يبتدىء فى الطرف الاول بحالة عدم الاهتمام ببناء الأعشاش بصورة مطلقة كما نجد ذلك لدى طير ( الغلموت ) وينتهي الخط بالذروة حيث نجد حالة الاهتمام التام بعمل الأعشاش المتقنة الدقيقة الصنع وذلك كأعشاش الطائر الحائك والبانة . أن ارتقاء العشوش وتطورها كانا بنتيجة المعرفة التى دلت الطير إلى خطورة وضع البيض على الأرض ، وحاجة الجنين والفرخ إلى حرارة كافية لنموها والتى لا يمكن أن تؤمن إلاّ باستخدام بعض المواد غير الموصلة للحرارة مما يمكن جمعها من المحيط ، ثم حاجة الأبوين إلى الراحة فى زمن التفريخ

المتعب وتسهيل مشقة إطعام الأفراخ وضرورة إخفاء كل من البيض والأفراخ عن العيون الجائعة ومحافظتها من نور الشمس الباهر ومن خطر التدهور والسقوط .

الاعتناء الوالدى :

وهي ظاهرة من ظاهرات الصيف الممتعة التى لا تقتصر على نوع من الحيوان دون غيره ولكنها تعم جميع المخلوقات الحية فى العالم ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة وعلى هذا فإننا نجدها حتى لدى العناكب الوضيعة .

لو جلسنا متربصين بين الأعشاب فى أحد المروج أو الغيطان لشاهدنا أحيانا أنثى العنكبوت وهى تنتقل بخفة ومهارة حاملة على صدرها كيساً حريرياً صغيراً . إن هذا الكيس هو عبارة عن الشرنقة التى تغلف البيض إلى زمن لا يطول حتى يفقس عن صغار العناكب ، ومهما كانت الظروف فإن الأم تحاول أن تحتضن الشرنقة بأطرافها وقد تربطها أحياناً بجسمها بواسطة خيوط حريرية دقيقة وهكذا نجدها كما لو كانت مهتمة بها اهتماما زائداً ؛ غير أننا يجب أن نفترض أنها تفكر بالطريقة التى نعهدها . ولو جربنا فى أن نبعد الشرنقة عن الأم ونضعها على بعد مناسب منها لشاهدنا أنها تسعى فى البحث عنها بجدّية فائقة ولما كانت الأم قصيرة النظر جداً فإننا نرجح أنها تستعين بعملها هذا بحاسة الشم . وهكذا فإن أنثى العنكبوت تظل حاملة لأفراد عائلتها حتى يحين الوقت فتنبعث الأفراخ ساعية هنا وهنالك وراء رزقها وكل منها كمصغر حقيق للأم .

وإلى جانب ماذكر آنفاً فإن هناك أنواعا عديدة من العناكب تسلك سبلا شتى فى تنشئة صغارها فمنها مايقوم بصنع الأعشاش الحريرية فوق غصون النبات أو فى الخبايا التى قد توجد بين الأحجار أو الشقوق الحاصلة فى لحاء الأشجار ومنها مايخفى شرانقه الجميلة البيضاء أو الخضراء أو الوردية فى مخابىء تتخذ عادة من أوراق العوسج بعد أن تلفها وإياها برباط من الخيوط الحريرية . وهناك العناكب المائية التى تهتم بتربية صغارها داخل كؤوس من الحرير تبقيها عائمة فى قعر أحد الغدران أو تتركها معلقة

بعود تغرزها فى الأرض كما يصنع ذلك العنكبوت ذو الفخ .

ومن منا لا يعجب لنسيج عنكبوت الحقل ، فهو والحق تحفة فريدة بجمالها وسلطانها ولو أتيح لنا أن نعمل ما يعمله لبقينا نفتخر بذلك مدى الحياة . وفى الامكان أن نعتبر صنعته عملا فنياً رائعاً ولكن ذلك يقصر عن بيان وصفه فالفن لا يعنى إلا تعبيراً دقيقاً لفكرة أو عاطفة ولما كان كذلك فلا يصح إطلاق ذلك على نسيج العنكبوت. ولاريب فى أن هذا النسيج هو ثمرة من ثمار الفن الغريزى ولا علاقة له بالفن العقلى ، والغريزة قدرة وراثية داخلية تدفع صاحبها لعمل أشياء دقيقة بمهارة فائقة ومع هذا فليس فى سلوكها ما يستدعى الاستحسان العقلى بوجه من الوجوه .

ولعلنا لا نجد خيراً من الظاهرة المعروفة بقابلية التكيف كمعيار نستند إليه فى التفريق بين الذكاء من جهة والغريزة من الجهة الأخرى . فالنسيج الممدود بين حجرين على ساحل البحر يدلنا ولاشك على تلك الأنواع من العناكب التى امتازت به ، غير أن هذا النسيج لا يقتصر على ما هو معلوم لدينا فى الحالات الاعتيادية بل نجد فيه خيوطاً إضافية يمتد بعضها نحو الجهة المعاكسة لاتجاه الريح و بعضها الآخر يمتد ليبقى تلك الخيوط الأولى متوترة ومحكمة وتلك حالة ندعوها بقابلية الصوغ أو التكيف التى تستهدف المحافظة على النسيج لئلا تذهب به الريح وهو ما يؤيّد وجود الذكاء بدون أدنى ريب . وقد نجد فى بعض الأحوال أن هذا النسيج يبنى فى ظروف عصيبة مما يبعث الدهشة من كيفية بنائه ولا يستبعد أن نجد العنكبوت فى حالات أخرى يقوم بربط الخط الأساسى الأسفل لنسيج عمودى بحجر خفيف يعين على تثبيت النسيج ويحكم أطرافه بحيث يسهل له اقتناص الحشرات وهو ما يذكرنا بالثقل الذى يعلق أحياناً بسقف الكوخ المعمول من القش لغرض تثبيته وتركيزه . ومع هذا فإننا نلاحظ أن الخط الأساسى المذكور آنفاً لا يترك على حاله

بل يربط دائماً بخيوط تتصل بالأرض مباشرة وعلى ذلك فمن اللازم التأكد إن أمكن من أن هذا الثقل لم يكن محمولا بصورة أتوماتيكية وإلاّ لهان الأمر وانقضى الذكاء .

وفى حالة عمل نسيج أفقى عبر أخدود أو مجرى مما يستوجب نقل الخيط الأول على الأقل بواسطة الريح علينا أن لانرفع كثيراً من قيمة الكفاءة التى لا ريب فيها وذلك لأنها عملية شائعة الاستعمال بين أنواع كثيرة من العناكب وهى لا تنجز عادة إلا لمسافات قصيرة ولا تتعدى السماح لهبّة ريح تجر الخيط حتى يمسك طرفه الثانى بشىء يبعد قليلا عن مصدره .

وتلعب ( الزنابير ) دوراً مهمًّا في الطبيعة من الوجهة الاقتصادية وذلك بتقليل عدد الحشرات الضارة لكونها تعيش عليها وتطعم فراخها منها . ومن الزنابير الحفارة ما يحفر الأخاديد والأنفاق على الشواطىء الجافة وبجوار الطرق تضع فيها الأنثى بقرب بيوضها بعض الديدان التى تشلها فإذا فقست البيوض عن السرفات وجدت هذه أمامها لحماً طرياً تتغذى به . ولما كانت الأم فى هذا الوقت تقضى نحبها ولا تشاهد ثمرة أعمالها فمن المرجح إذن أن هذه العادة التى تتبعها فى إحضار الطعام لأفراخها قبل أن يبدأ التفقيس قد نشأت من زمن بعيد حيث كانت فيه أعمار الأبوين أطول . أما (الزنبور الغاضب الأفريقى) وهو نوع من الزنابير المفترسة فإن إناثه تقدم لأفراخها حشرات ملسوعة حديثاً ويندر أن تبقى بقربها أكثر من واحدة مما يدل على أن لهذه الأنواع قوة للمس لا بأس بدرجتها . وفى مجموعة أخرى من هذه الأنواع نجد أن الأم تميت الحشرة رأسا وتمضغها ثم تطعمها لسرفاتها ولا تتسلم منها مقابل ذلك إلا قطرة من اللعاب السائل الذى تمتصه من فم السرفة وهو أكسير يلوح لنا أن الأم كثيراً ما تستطيبه وتلتذ به .

وهكذا نجد أن من أبرز المظاهر البيولوجية التى يمتاز بها الصيف هى فعاليته

العجيبة فى مختلف النواحي الحضرية والغريزية والعقلية . وهى فعالية تترنح بين دافعين هما الجوع والحب ؛ فعالية معروفة بالنهم الغريب بعيد النشوء وعناية لايستهان بها تستهدف سلامة النشء . وقد تشذ حدة الحياة فيه أحيانا فتذهب إلى الغاية كما يتمثل ذلك فى عمال النحل فإن هذه الحشرات رغم عمرها القصير نراها مجدة كدودة إلى الحد الأقصى حتى إن عددا من حجيراتها الدماغية تصاب فى أكثر الأحايين بالإعياء فتنطلق من جهازها وتقضي على حياة الحشرة .

(٣)

# سحر الخريف

« الثرى الأعظم »

فات الصيف بنشاطه ونعيمه وجاء الخريف يدبّ بسحره وكآبته . ومع أنه يعتبر موسم التحول والدنوّ إلى السكون ؛ إلا أنه يتّصف بطابع حيوى جليل ألا وهو وفرة الحياة . تأمل هاتيك البساتين المديدة وتلك الحدائق العديدة تراها كلها تنوء أشجارها وزروعها بأحمال ثقيلة وأثمار يانعة فهى قد أورقت فى الربيع وأزهرت فى الصيف ، وها هى فى الخريف تثمر لتعد العدة إلى السكون والراحة فى موسم البرد القادم ، وتلك هى ولا شك دورة الحياة الاعتيادية في النبات .

وما هى الثمرة يا ترى ! . الثمرة هى علبة بذور أوعاب كاملة النضوج ، تتصل فى الغالب بأجزاء إضافية متطورة الشكل من أقسام الزهرة أو عنقها مما قد يدوم بعد الإلقاح ولا يذوى . إن هذا النمو يبتدىء فى الثمرة بعد الإخصاب الذى أعانت عليه الحشرات الوافدة فأصبحت به البويضات بذورا حقيقية تحتضن الأجنّة فى قلوبها فإذا ما تم ذلك أغلقت مخازن الرحيق فى الأزهار وسحب السكر الفاضل من أكياسها ليبعث إلى الثمرة النامية سداً للحاجة ، وهذا ما يشاهد عادة فى التوت وغيره من الفواكه اللحمية . إننا بالطبع على علم بأن هناك أنواعاً أخرى من الفواكه كالجوز والبندق وغيرهما مما يدعى بالأثمار الجافة وقد صنّفت على حدة لوجود بعض الاختلافات البسيطة بينهما وبين القسم السالف الذكر مما هو طرى وريان . وإذن فما هى منافع الأثمار للنباتات التى تحملها ؟ إن الجواب على هذا السؤال هو فيما يلى :

## أثمار الخريف :

إن المتتبع لا يحيد فى الجواب على السؤال المذكور عن أن تلك المنافع هى سلالية جنسية وليست ذاتية شخصية . فالأثمار تحفظ البذور وتعين فى الغالب على انتشارها ، فهى إما أن تجف وتتفلق ثم تتساقط منها البذور كما تتساقط أوراق الخريف الذابلة ، أو أنها تعلق بفرو الحيوانات التى تمر بها بواسطة خشونة أجزائها اليابسة . وفى حالات أخر تكون الأقسام الطرية ذات الألوان

البهيجة عاملاً قويا لاجتذاب الطيور واللبائن الجائعة آكلة الأثمار . ورب سائل يقول : إذن ما هى أهمية ذلك في انتشار البذور وزرعها إذا كانت أثمارها ستؤكل من قبل تلك الحيوانات النهمة . الواقع أننا لو تأملنا ملياً لوجدنا أن تلك البذور تترك غالباً بدون هضم ، وعليه فإنها تندفع مع البراز إلى الخارج وتبذر بكثرة فى مناطق واسعة و بعيدة عن مراكز الأمهات .

والبذور جد غنية بالبروتيين وذلك بعكس الأثمار التى لا تحوى من هذه المركبات الكاربونية الناتروجينية الغالية إلا الطفيف الزهيد . نعم قد تحوى الأثمار كميات وفيرة من السكر غير أن هذه المادة — كما هو معروف — أدنى أهمية من البروتيين فضلا عن كونها غير نتروجينية . ولو فرضنا أن البذور غير قابلة للأكل لوجدنا أنّ ١ر٥ ليبرة من العنب ( الكيلو الواحد يساوى ٢ر٢ ليبرة ) و ٢ ليبرة من التوت و٢ر٥ ليبرة من التفاح و٤ ليبرات من الكمثرى تستطيع بمجموعها أن تجهزنا بمقدار من البروتيين يعادل ما تمدّنا به بيضة واحدة من بيض الدجاج أو حفنة صغيرة من الحمّص . وما معنى ذلك يا ترى : إن ذلك يعنى بوضوح أن ما يدفع إلى الثمرة ضائع مفقود و إن ما يخزن فى البذرة موروث متّصل .

والطبيعة لا تنى عاملة دؤوبة فى أيام الحصاد تشرع هى بنشر البذور وتوزيعها . ولا يفوت المتأمّل الواعى أن يسمع مثلا فى أيام الخريف الهادئة انفلاق ثمرة (القندول) وهو نبات شائك معروف . والواقع أن الكثير من الأثمار الجافة يتشقّق بأقل كلفة و بلا عناء وقد تعين الطيور الآكلة للبذور أحيانا على ذلك . أما الأثمار ذات الأغلفة الخشنة التى يمكن أن تماثل البذور فى هيئتها من الوجهة العملية فإنها كثيرا ما تعلق بفرو الحيوان كالأرنب وتتساقط منه رويدا رويدا بعيدا عن مركز الأمّ . وكما أن بذور الهندباء البرّية والحسك تطير محمولة على أجنحة الريح بقصد الهجرة إلى مواطن جديدة فإن جويزات (دوحة المسافر) وهى من النباتات المتسلقة تنعقد فى خيوط طويلة وتطفو على سطح الماء مندفعة بحركات تموّجية رشيقة شبيهة بتلوّى الثعابين الفضّية فى الهواء .

ومع أن البعض من الطيور الآكلة للأثمار يهضم البذور التى يبتلعها إلاّ أن معظمها لا يفعل ذلك بل يدفعها إلى الخارج عن طريق البراز سالمة وذلك دون أن يصاب مدة مكوثها القصير فى القناة الهضمية بأىّ خدش أو عيب مهما كان بسيطاً . وتنتشر أنواع أخرى من البذور بواسطة الطين الذى يعلق فى أقدام الطيور فإذا ما لامست الماء تحرّرت حالاً وانسابت فى سبيلها . وفيما يعمله كل من (الفول السودانى) أو جوز الأرض و (اللبلاب الاحرش المتسلّق) على الجدران درس مدهش وأسلوب جديد . فالأول يضرب الأرض بأثماره فيعين على تشقق أغلفتها وتبديد بذورها . أما الثانى فإنه يدفع بصناديق أثماره فى الشقوق الظاهرة من الجدران و يمزقها . ولا شك أن هذين الأسلوبين مسلكان من مسالك الحيوان لا بد أن نقرّهما بالرغم من أن العملية الدائرة فى كل منهما يمكن أن تفسّر عن طريق التحوير الأتوماتيكى .

ميزات الخريف :

إن لأيام الخريف الجميلة فتنة وسحراً فائقين نتلمّس آثارهما فى كثير من الظواهر كبرودة الجوّ وسلاسته، وتكوّن بقع الغيوم المنتثرة هنا وهناك ، وتورّد الأوراق الذابلة ، ونضوج الأثمار ، وتدويم البذور وهو دورانها السريع المتنقّل ، وتوديع الطيور المهاجرة النازحة إلى الجنوب . إنه والحق فصل وديع بالنسبة إلى كل من الربيع والصيف كيف لا والطيور المغرّدة المرتلّة ترحل فيه فتبطل أناشيدها المسكرة والحشرات العارفة على عُددها تسكن إلى الراحة وتنزوى بحيث لا نعود نسمع مايشجينا من نغمها ، وحتى الألوان تكون مدعاة للسكون ومافى ذلك ريب أليست البقع الجبارة فى الغابات والمستنقعات ترى وكأنها أرق لونا وأبهت من رياض الصيف ومروجه .

و إن مما يلفت النظر حقا لأهميته العلمية الجزيلة هو انتشار صغار العناكب التى لا تألو عابثة تغدق بريقها كلما انتقلت فى الهواء من مكان إلى آخر ثم وصول الطيور الموسمية من مناطقها الشمالية وكذا وثوب (حوت سليمان) إلى أعالى مساقط

المياه ومنحدراتها واستهلال دودة الأرض نشاطها الاعتيادى الذى يمكّن من غرس البذور وأخيراً أعمال الورق وهلاك الزنابير والنحل الطنّان وصناعة الخزن عند السنجاب وأمثال ذلك مما يمكن مطالعته فى قائمة طويلة جذّابة .

والخلاصة أن فى تاريخ حياة الخريف أربع مجموعات من حقائق ظاهرة سامية :

١ — اندثار الأفراد مع استمرار حياة الجنس وتتابع الذرّية ولتأمين ذلك تعدّدت الأساليب وتنوّعت الخطط فى مختلف الأحياء . وعليه فالنبات يموت والبذور تبقى حيّة والفراش يفنى والعديد من الشرانق تظل سالمة .

٢ — وفى ذلك ما فيه من اتجاهات متشعّبة تعلن تضحية الجزء أو حتى الفرد أحيانا وذلك فى سبيل ضمان الحياة للباقى وللمجموع .

فالأوراق تسقط غير أن الشجرة تقف حية واليعاسيب أو ذكور النحل والعملة من بين النحل الطنّان كلّها تموت بينما تبقى صغار الملكات طيلة الشتاء كامنة .

٣ — التأهب للأوقات العصيبة وللأيام السود ولا شك أن بعض تلك التحضيرات إما أن يكون أوتوماتيكيًا أى غير أرادى وذلك كالتسميد وإما أن يكون غريزيا كعمل النحل أو أراديا مبنيا على الفهم وذلك مثل كافة عمليات الخزن وماعسى أن يكون لدى ( القندس ) وقد نجد فيما عدا ذلك أنواعا أخرى من مختلف التحضيرات شبيهة بأساليب التدثّر وذلك كالبراعم والبذور والشرانق وما عند الحيوانات ذات الفراء .

٤ — ولعل أشهر من كل ما ذكر هو ما يدعى بالخدع الخريفية التى يتوسّل بها المخلوق بقصد اجتياز المصاعب فالمألوف لدى الكثير من الطيور هو التملّص أو التهرّب من الشتاء بالهجرة . ولسنا نجهل ما يعبّر عنه بالتشتية المعروفة عند بعض الحيوان كالقنافذ وغيرها من اعتاد على السبات الشتوي .

ذبول الأوراق :

لا تلبث الأوراق الخضر التى ظلّت طوال أشهر الصيف الحارّة مقرّ الفعّالية

جبّارة ، نقول لا تلبث أن تتضاءل فى الخريف وتضمحل ثم تذبل وتذوى وتجف . فلقد أصبحت تقاسى مرارة الاندثار وانطواء العمر ، ذلك أن المجهّز الذى يمدّ معامل الحجيرات أوشك على الانحلال وقارب الاضمحلال ، ومع هذا فمن الخير للأوراق أن تموت لتقلل من مساحة السطح المعرّض الذى يتبخّر منه الماء ؛ فالتربة كلما بردت أصبح من الصعب على الجذور أن تمد النبتة بالزاد والمؤن وياللحكمة ودقتها : فالأوراق قبل أن تسقط تعيد لأمها كل ما كان لديها من نافع ثمين وذلك من خلال مجاريسيل فيها نحو الساق والجذور . وما هو هذا النافع الثمين غير السكّر والصبغة الخضراء بالإضافة إلى مواد معقّدة أخرى قد لا يستثنى منها أحياناً حتى المادة الحيّه فى الحجيرة نفسها .

وعلى هذا فلا يبقى فى الورقة الذابلة غير الرفات والجمال ، أمّا المادة الخضراء ( الكلوروفيل ) فإنها إذ تتراجع تخلّف وراءها حبيبات صفر تزين الورقة عادة بكساء ذهبى جميل . وفيما عدا ذلك تظهر فى الأزهار وفى الأثمار أيضاً صبغة خاصة هى من النفايات أو الفضلات تدعى بمادة ( الأنثوسايانين ) وهى صبغة الزهور الزرق التى تكلل أوراق العوسج والكرم والعلّيق القرجينى وغيرها بأكاليل الخريف البهية و بألوانه الباسمة الزاهية .

وأعمال الورق عملية بسيطة تنجزها النبتة على مهل و بطرق مختلفة وذلك بأن ينشأ فى قاعدة الورقة حيث اتصالها بالغصن خط ضعيف يتولد ضمنه فاصل فلينى مستعرض يساعد على الانفراز الفعلى فى حينه تاركا وراءه ندبة من أثر الالتحام تقى النبات من إسالة الجراح . ومن ثم تأتى الأيام العاصفة فتتساقط الأوراق على الأرض بالألوف وبذا تسبب إخصاب التربة كما أخصبت النبتة قبل حين .

جهاد دودة الأرض :

وفى الخريف تشرع دودة الأرض بجهادها المضنى وكفاحها المثمر إذ تستهل

نشاطها بسحب أوراق الشجر المنتشرة على الصعيد إلى حفرها وهناك تحيلها إلى عجائن نباتية تدفعها إلى قانصاتها بعد أن تخلطها بالتربة الناعمة ومن ثم تعيدها إلى الأرض مسحوقة مهروشة وعن هذا الطريق الذى لا يتعدى الحفر والجرش والدفن أعانت هذه الدودة على تكوين معظم الأراضى الخصبة فى العالم .

ريق العناكب :

قد لا يفوت يوم من أيام السنة لا نلاحظ فيه غالباً شآبيب طائرة من ريق العناكب ومع ذلك فإننا نعتبر الخريف دون سواه هو موسمها الخاص . إنّ أهمية ذلك من الوجهة البيولوجية تعود إلى كثرة انتشار العناكب الصغيرة وتفرقها من أوكار تزدحم فيها ، وهذا الازدحام يتعاظم كلما ازداد حر الصيف . وإليك ما يحدث فهو جدير بالالتفات والتأمل .

إذا هب النسيم عليلا فى أصبحة أيام الخريف الهادئة تندفع العناكب الصغيرة ( وخصوصاً الفتية منها ) من محلاتها وتأخذ طريقها متبخترة تعتلى الصوارى والأسوار وذرارى الأعشاب العالية كيفما اتفق ، وهناك تقف متوجهة إلى الريح وتبعث من غزّالاتها خيوطاً حريرية لا تقل عن أربعة لكل منها . إن هذه الخيوط المتعددة تنبثق من سائل لعابى يتصلب عند تعرضه للهواء حالا وبذا تظل تلك الخيوط فى الهواء ممددة سائبة ترف وتتموج ، وفى هذا الوقت تترك العنكبة الصغيرة مجثمها وتعلق بالخيوط بشكل مقلوب وتطير بها على أجنحة الريح إلى ما شاء الله . وإذا ما شرعت ألوف من هذه العناكب برحلاتها الهوائية فى صباح يوم من هذه الأيام لتهوى في النهاية إلى الأرض فإن خيوطها عندئذ لتغطّى سطوحا واسعة من بقاع الرياض والحقول والمروج المنبسطة وهذا ما يدعى بشآبيب ريق العناكب . ولنتصوّر هذا الركب غير المجنح الذى يتمطى العديد من مناطيده إلى أميال بعيدة حتى لا يكاد يقف إلا عند ساحل البحر وإلاّ فإن هذه الحيوانات تكون قادرة على القيام بهجرة قصية ناجحة بكل سهولة وبدون أن تعرف الكلل .

## ألوان الخريف :

إن من بين مظاهر الخريف المبهجة السارة هو التلون البديع الذى يصيب أرواق الأشجار الذابلة . نعم قد يصادف أحيانا أن الأوراق تتساقط وهى لا تزال خضر قوية ولكنها تتكسر بتأثير الصقيع الذى يحلّ قبل أوانه ثم تهب عليها العواصف فتلتوى وتتساقط قبل أن تموت . غير أن هذه الحال قليلة والغالب هو حدوث تغير فى الهيئة عجيب فقد تتجلى الأوراق الذابلة بأثواب جميلة حتى لتبين وكأنها أزهار جديدة تزين الأشجار فى موسم غير موسمها المعروف . خبرنى ألا تشتاق أن تمتّع نفسك ببعض أزهار الغاب فى الخريف . إذا كنت كذلك ؛ إذن فانظر أمامك فها هى شجرة ( البتولا ) صفراء ذهبية وتلك هى شجرة (الدرداء) أو ما يسمى بشجرة لسان العصافير صفراء ليمونية وهذا الزان أحمر مغبر . أما البلوط فأمغر ( أسمر ضارب للحمرة) والكرز الغابى قرمزى فاتح والعليق القرجينى قرمزى أيضاً . وأخيراً تأمّل أوراق العوسج والكرم ألا تراهاوكأنها لاتختلف بشىء عن لوحة المصوّر ذات الألوان السندسية العجيبة .

لقد اتضح لنا فيما فات أن الخريف هو ناقوس الغروب فى السنة وهذا صحيح لأن النار التى تأجّجت فى الصيف توشك أن تخمد أو تنطفئ وعليه تسرع المخلوقات إلى التنازل عن بعض أجزائها المكشوفة القابلة للعطب ؛ كما أن الكثير من الطيور تودّع أوطانها وداعاً حاراً وتتمنى لها أن تعود إليها سالمة . أما غيرها من الحيوان فيترك إلى مكانه ملتمساً السبات لينزوى ويستكن . وماذا يعنى سقوط الورقة إنه ولا شك بمثابة الجزية التى تؤدّيها الشجرة لقاء تلك الأتعاب والجهود التى أنهكتها فى الصيف المنصرم .

ذكرنا آنفاً أن بعض الأوراق يتفق سقوطها وهى لا تزال طرية ثقيلة خلافاً للمألوف الذى لايجهله أحد وهو أن الأوراق المتساقطة يجب أن تكون يابسة خفيفة بحيث يسهل حملها على أجنحة الريح ،وهى إذا ماحطّت استطاع الإنسان أن يسمع

لها خشخشة أو حفيفا كلما جرفها الهواء على الأرض . وسبب ذلك يعود إلى الحقيقة الكبرى وهى أن الأوراق قبل أن تذبل تسلّم إلى سوق أمهاتها كل ما لديها من ثمين نافع ، فلقد كانت هناك حركة نقل للبضاعة المصنوعة طيلة وقت الصيف تدأب بلا انقطاع ما دامت الورقة حيّة . إن هذه النقطة مهمة جداً لتفهّم أصباغ الخريف وذلك لوجود علاقة متينة بينها و بين انحلال المادة الخضراء ، أو ما تدعى بحبيبات الكلوروفيل . إن هذه الحبيبات التى هى ضرورية لحد ما فى الانتفاع بنور الشمس جهاز لونى معقّد ، إذ أنه فيما عدا احتوائه على نوعين من الصبغة الخضراء الزرقاء وهما المهمتان فى التركيب الضوئى نلاحظ فيه وجود نوعين آخرين من الصبغة الخضراء الصفراء مما نجهل فائدتهما فى الوقت الحاضر . ومهما يكن من أمر فان مايحدث أثناء الذبول حيث يتم انحلال عقد الكلوروفيل هو أن الصبغتين الخضراء والزرقاء المُميِّنتين تنحدران من الورقة إلى الساق لحفظهما والاستفادة منهما فى العام القادم . أما الصبغتان الأخريان فتبقيان حيث هما وذلك لعدم الحاجة إليهما وهكذا فإن الشجرة لا تتكلف بدفعهما إلى بدن الأم وهما بعد أن يمرا ببعض التحوّلات يكسبان الأوراق عند الذبول اللون الذهبى البهيج ، فيالجمال الرفات المحمولة إلينا من وجه الطبيعة النضر الصبوح .

والواقع أن الصبغة الصفراء الكلوروفيلية هى التى تخلق فى تلك العمارات الخالية كل تلك الألوان الذهبية الزاهية . أما علة بقية الألوان كالياقوتى والعقيقى والرّمانى التى تعجبنا فى الكرز الأرجوانى وفى بعض الأشجار من جنس الكمثرى ، واللون القرمزى فى نبات أمير باريس وكرز الغاب ، واللون البنفسجى فى نبات حب الشوم وشجرة المردن ، فهي بلاريب متأتية من وجود صبغة قابلة الذوبان فى العصير الحجيرى تدعى (الانثوسايانين) أو صبغة الزهور الزرقاء التى يكثر وجودها فى النبات بهيئات مختلفة حيث تتعاون فيها أحياناً مع الصبغة الصفراء الكلوروفيلية الطليقة ، و بذا تخلق فى النبات هذا المزج الساحر المعقّد من الألوان .

(٤)

# هجعة الشتاء

« هذا الملتف بأبراد الثلج »

وبذهاب الصيف والخريف تلاشت حركة المد وحلّت حركة الجزر فى عمر السنة . وعلة ذلك فى الأساس هى هبوط فى وارد كل من الحرارة والنور مما يسبب بطئاً ظاهراً فى العمليات الكيماوية الدائرة فى الجسم الحىّ وعطلا كليا فى فعالية الأوراق الخضر . ومع هذا فإن هناك دواعي أخرى بيّنة لأن تدنّي الحرارة يحتم دون ما هوادة إقصاء وطرح الكثير من الأجزاء الرخوة الدقيقة فى النبات والحيوان لئلا يتعرّض المخلوق كله للموت . أما شدة البرد الذى يكتنف سطح الأرض آنئذ فهو عامل يجبر معظم الحيوانات على الاختباء والرقاد فى المنخفضات كما أن الفاقة وقصر النهار والعواصف الهابّة أسباب ثلاثة كافية تحدو بالطيور إلى الهجرة نحو المناطق الجنوبية الدافئة وفيما عدا هـذا وذاك فاننا نتلمس بوضوح انبعاث حاجة فسيولوجية قوية تدعو الجميع إلى الراحة بعد ذاك العناء الطويل .

بيـاض الشـتاء :

ولعل أبرز صفحة فى الأهمية تتصل بتاريخ حياة هذا الموسم هى ما نقرؤة من تعدد الحلول التى تبدعها المخلوقات لمواجهة ظواهر القرّ المذكورة آنفا ألا وهى البرد والفاقة ومرارة العواصف . إن فى مقدمة تلك الصفحة يأتي تغير اللون والاكتساء بالبياض لإن هذه الظاهرة تعتبر بحق من أدق تلك الحلول وأتقنها .

انظر إلى القطا الجبلى ( وهو نوع يقطن في جبال شمالى أوروبا ) والأرنب البرى واللمنجو ( وهو من ذوات الأربع يشبه الفأر و يعيش فى المناطق القريبة من خليج هدسن فى أمريكا ) والثعلب القطبى والقاقوم الأسمر العادى وهو من فصيلة ابن عرس الذى يصبح فيما بعد القاقوم الأبيض الناصع فهي قليل من كثير من الحيوانات التى تتوسل بهذا الحلّ الفريد العجيب .

إننا نجهل لحد الآن الشرح اللازم الذى يفسر لنا كيف يمثل هذا الشعار الشتوى الأبيض دورية متأصلة فى الجنس خالية من أىّ صبغة للشعر أثناء

مهبط السنة كما أننا لا نعلم مدى صحة القول من أن البياض يعنى أن البرد له تأثير ذاتى مباشر على العمليات الكيماوية فى الجسم وعلى الدورة الدموية فى الجلد. إننا على كل حال بانتظار حقائق جديدة تكشف لنا ما عُمِّىَ علينا من هذين الأمرين.

ونحن لو جئنا نقتفى آثار القطا الجبلى الأبيض وهو يتنقل وسط الثلوج التى تغطى التلال العالية أصبح لزاما أن نقنع بأهمية البياض من الوجهة الوقائية إذ أنه يحلّل الطير بقناع يخفيه عن الأعين. وهذا رأى لا بد من قبوله فى الحال. غير أنه لو تأملنا كيف يكون الأرنب الجبلى ظاهرا جليا عندما تنتصب وراء موقفه أكوام الثلج فسرعان ما تهاجمنا الشكوك وتطغى علينا الريب ونكون عندئذ على استعداد لرفض التفسير السابق الذكر. وخصوصا بعد أن نعلم أن (القاقوم) ليس له فى الغالب عدوّ يخشاه حتى يتحوّل إلى القاقوم الأبيض. أما إذا قيل إن الضوارى الروّاغة قادرة على الانسلال إلى فريستها من مثل (الطرمحان) و (الطيهوج) وهما نوعان من القطا يعيشان وسط الثلج فى الجبال فبالامكان عندئذ الردّ على ذلك بقولنا إن القطا الجبلى الأبيض ظاهر غير خفىّ فى محيط غير أبيض. وإذن فنحن مضطرين أن نبحث عن مغزى أعمق وأدق فيما يتّصل بكل من دورية البياض للطرمحان والقطا الجبلى ومن دوام البياض الذى يكسو البوم الثلجي والدبّ القطبى.

ولعلنا نستطيع أن نتلمّس هذا اللغز البيولوجى بالتفسير التالى: وهو أن البياض فى الأجواء الباردة يتفق وجوده اقتصاديا وحاجة الحيوان من ذوى الدم الحار لأنه لا يكلّف صاحبه خسارة تذكر من ينبوع الحرارة الغريزية الثمين وهو من الوجهة الفسيولوجية أفضل كساء فى مقدوره أن يحتفظ دائماً بحرارة الجسم الضرورية لتسيير كافة العمليات الكيمياوية بسهولة وسرعة وإتقان، وهو كذلك أفضل رداء يرتديه الحيوان فى الأجواء الحارّة لأنه قادر فى هذه الحالة على أن يمتصّ من الحرارة الخارجية أقل مما يمتصه أى لون آخر.

الرقاد فى المنخفضات :

وهذا هو الأسلوب الثانى من الأساليب المتبعة لمواجهة حدة الشتاء . إنه الاستسلام للنوم العميق فى أوكار منخفضة داخلية دون ما حسحسة أو كلام . والسبب فى ذلك هو أن الهبوط فى الوارد يحتم تقليل المصروف أو حتى إيقافه بالمرة وهذا هو الحل الوحيد الذى يجب إقراره آنئذ .

تأمل أنواع القواقع ترها تندفع للتفتيش عن مخابىء وفرجات فى الجدر المتداعية حتى إذا ما اطمأنت راحت فيها مدة أشهر البرد سابتة هامدة ساكنة بعد أن تحكم سدّ أفواهها القشرية بغطاء من المدر والجير الصلب ، وهى على هذا لا تفقد أى شىء من وزنها ولا تضيع بالانحلال جزءا من أنسجتها . حتى إذا ما وصلت درجة حرارة المحيط إلى نقطة الانجماد شرع القلب فى بعض أنواعها مثل قواقع الرياض بالضرب أربع مرات فى الدقيقة الواحدة بدلا من أربعين كان يضربها أيام الصيف .

إن ذلك ولا شك أسلوب قاس واختبار فى المعيشة مرير . ولكنه بالرغم من كل الأحوال المذكورة أسلوب يمنح السلام ويمنّ بالأمان ويقى من الموت وله عياره فى هذا الوجود على الدوام .

والجدير بالذكر هو أن العثّ والفراش يتبع كل منهما فى الغالب نفس هذه الطريقة التى تتبعها القواقع لتأمين السُبات الشتوى ، إذ نجدها تمكث مختفية داخل الشرانق مدة أشهر البرد حتى لتبين وهى بأوضاعها المختلفة أشبه شىء ببذور النبات . هذا ولا يفوتنا أن نشيد إلى أن التحولات الكيمياوية فى كل من الحالتين المارّ ذكرهما لا تنى قائمة على قدم وساق وخصوصا إذا خفّت حدّة الشتاء وصارت أيام الربيع على الأبواب .

وإليك مثل آخر فى الضفدع البالغ : إن هذا الحيوان يقتات عادة على دود الأرض والبزّاق وبعض أنواع الحشرات والديدان الصغيرة مما لا يستطيع الحصول عليه فى أيام الشتاء القارسة ، تلك الأيام التى من شأنها أن تجلب العسر وتذهب

باليسر ، وعليه فإن الضفدع حالما يشعر بلذعة البرد يتعجّل طريقه إلى أحد الثقوب الكائنة على الشاطيء أو على سطح أنبوب عاطل من أنابيب تصريف المياه وحتى بين طيّات الوحول أحياناً كى يستكن فيه ويغرق فى نوم هادىء عميق .

وما يفعله الضفدع تفعله العظاية عديمة الأطراف ، والديدان البطيئة ؛ حيث تكمن عادة بقرب حواشى المجارى المطحلبة وفى المخابىء الكائنة بين الأحجار وأكداس الدريس ملتفة على بعضها بشكل حزم تحتوى الواحدة منها على عشر أو يزيد . ولايستبعد أن نعثر بينها — وهى بهذا الوضع — على عقد كبيرة من الأفاعي الغافية . وقبل أن ننتهى من هذا البحث علينا أن نفهم بأن هذا النوع من النوم الشتوى هو غير مايدعى بالتشتية الحقيقية لأن هذه الأخيرة تخصّ فقط بعض أنواع اللبائن لاغير وليس لبقية الأنواع علاقة بها بصورة مطلقة .

والواقع أن حرارة الجسم فى الحيوانات باردة الدم كالزواحف والبرمائيات والأسماك تهبط فى الشتاء حتى لتكاد تقترب من حرارة الوسط الذى تعيش فيه . ولذا نجدها ترجّح الانزواء فى المخابىء المنعزلة والحفر المستورة لدفئها ، ومع ذلك فقد يصاب الجسم عندها باليبوسة ، غير أن ذلك لايؤدى بالحيوان إلى الموت إلا إذا أصيب القلب بالجمود ، وعند ذاك فقط علينا أن نتوقع بأن الرقدة أبدية ليس للحياة فيها من نصيب أو عود .

ومما يدهش حقاً هو ندرة البقاء فى حالة ما إذا كانت الحياة الاعتيادية للحيوان ذات فعّالية عنيفة ، ولكن ليس من الصعوبة بمكان أن نتفهّم علة دوام الجنس عندما نشاهد إحدى الحشرات مثلا وهى تقضى الشتاء فى دور عذراء حية ملتحفة بأرديتها بكل دقة و إتقان . ومن هذه الحالات أمثال أخر عديدة ، منها التجاء ملكة الزنبور البالغة إلى فجوة أو شق قديم من ساق شجرة معمرة واختفاء ملكة النحل المسنّة فى بطن إحدى الحفر الدافئة التى تطلّ على ضفاف شاطىء معشوشب .

التشتية أو نوم الشتاء الحقيقي :

وهى كما أسلفنا تخصّ بعض أنواع اللبائن المعروفة مثل القنفذ والمرموط أو فأر الجبل والزغبة والخفاش وإليك سبب ذلك موجزا : إن أنواعا من اللبائن كالتى ذكرت آنفا مصابة بنقص قوّة الدم التى تمتلكها بقية اللبائن وكل أنواع الطيور ونعنى بها القوّة التى تنظّم إنتاج الحرارة وصرفها بحيث لا تخل بميزان حرارة الجسم بل تبقيه على قرار ثابت معتدل . وإذن فالحيوانات الشاتية هى تلك اللبائن التى ليس فى مقدورها ضبط حساباتها الخاصة بدرجات الحرارة ولذا لا تري بدا من أن تستسلم للنوم إذا حلّ الشتاء ، وقد أخضع برده القارس مواطنها لسلطانه الجبّار وذلك لكونها تصبح عاجزة عن المقاومة فى نزاع غير مجدى فتنقاد مرغمة لذلك الإيقاع الطبيعى الموروث الذى يدفعها للانسياب غريزيا إلى أوكار خفّية مريحة تكون عادة أدفأ من المحيط الخارجى . وهى بهذا يشبه حالها حال الزواحف ذوات الدم البارد فلا يؤدّى مكوثها فى هذه الزوايا خلال أشهر الشتاء إلى الموت اللهم إلاّ إذا اندفعت للتشتية فى العراء فحينئذ يصبح هلاكها محتما وفناؤها أكيداً .

التكمّش فى أجرام صغيرة :

وانظر إلى السوسن والخزامى و (الحُلحل) تجد أن لها أسلوبا آخر للقاء الشتاء وهو أن ينزوى جسم النبتة ويلتئم ثم يتجمّع بحجم صغير بحيث يصبح عرضة لأقل ما يمكن من المؤثرات الخارجية وهكذا لا تابث أوراق النبتة أن تنسل عنها فوراً وتتساقط مرة واحدة من مرابطها كما تترك أفراد الطليعة مراكزها القائمة على الحدود حينما يداهمها العدوّ ويكرهها على الاستسلام ، أما البرعمة فتظل كأسفين أو رأس رمح فى مضرب الشتاء المنتصب .

ولعلنا لا نرى أمتع من أسلوب النبتة المسمّاة ( بذات الأكياس ) فى ملاقاة موسم البرد والصقيع . إن هذه النبتة هى من النباتات (المئانية) وهى ضرب من الأنواع المائية يعيش قرب الخلجان والبحيرات ويقتات على براغيث الماء التي يقتنصها بواسطة

شباك صغيرة منتشرة على سوقه الطافية . فى الخريف تمتلىء البراعم الانتهائية بالزاد الاحتياطى الوفير حتى إذا آن أوانها سقطت فى الماء وغطست إلى القاع الدافى لتمكث هنالك فى مكمنها المريح إلى أن يحلّ الربيع وعندئذ تخفّ وتطفو كرة أخرى على سطح الماء و بذا تعيد دورة حياتها الأصلية من جديد .

أمّا ( الإدخار ) فحلّ آخر بديع يختص به بعض الحيوانات فالسنجاب بأهرائه المشحونة بالبندق يحاكى غريزيا ربّة البيت الماهرة . و ( الهمستر ) وهو نوع من الجرذان له على كل جنب من فكّيه كيس تحت الجلد ينقل بواسطتهما الحبوب والحمّص والبلوط إلى مخازنه الشتوية ، فهو بتلك العنابر المملوءة بالحشيش والحبوب يقلّد بالغريزة عمل الفلاّح النبيه .

ومن المفيد أن نتعرّف قليلا إلى نوع من النمل يدعى بنمل البحر الأبيض المتوسط أو ما يسمّى علميّا ( افنو كاستر ساردو ) . إن هذا النمل يعيش فى حفر تحت الأرض ولكنه لا يخزن شيئا بل يزدحم على بعضه بشكل كتل كروية تعطى لنظام مجتمعه طابعا خاصّا ، وكيفية ذلك هى أن جماعات النمل تشتبك فى تلك الكتل مع بعضها البعض متلازمة بواسطة الفكوك وأرساغ الأقدام وهى تحمل فى أحضانها أى فى مراكز الكرات البيض واليرقات والشرانق . أليست هذه الجماعات وهى فى وضعها هذا تعطينا صورة أولية ولكنها واضحة من صور المجتمع الأممى ، أفى ذلك شك ؟ ولقد دلّ الفحص بأن الكتلة الواحدة تعدّ من ٣٠٠ إلى الألف نملة وكل منها خال من الذكور وليس فيه أكثر من ملكة واحدة . والغريب أن هذه الكرة تظهر فى الشتاء صلبة متينة لا يفصم عراها بسهولة وخصوصا إذا لم تغط بالتراب ؛ أما إذا جاء الصيف فإنها تصبح بطبيعة الحال مرنة قابلة للحلّ والتمدّد باستمرار . والذى يهمّنا من كل ذلك هو أن هذا الوضع البسيط الذى نشاهده هنا لدى جماعة متضامة لا بد وأن يكون نقطة البداية التى أدّت إلى إنشاء تلك

العمارات الشاهقة من تلول قرى النمل حيث أعان الخزن الوفير فيها على خلق حياة اجتماعية للنمل أكثر إتقانا وأبعد أصولا .

الهجرة :

وتلك هى مداراة الشتاء ومصانعته بالخدعة مما أدى إلى اعتبارها بحق أدق الحلول جميعا على الاطلاق وهى وسيلة مهرت بها الطيور المهاجرة التى لا تعرف ( بالمعنى الحرفى ) وجه الشتاء فى كل عام من أعوام عمرها . ولتوضيح ذلك نقول : — لقد تأصّل فى تكوين الأغلبية الساحقة من طيور المنطقة المعتدلة الشمالية غريزة الإجتياز فى فصل الخريف ( من مناطق التفريخ التى تكون فى الغالب أبرد جوا من بقاع الهجرة ) إلى أماكن مريحة تقع فى أصقاع المنطقة الدافئة الجنوبية . والواقع هو أن عدم مواجهة الشتاء والإفلات منه بالمرّة هو أدقّ الأساليب التى أبدعها الحيوان حفظا لسلامته من شرور هـذا الموسم المربدّ . ويتضح لنا ذلك نسبيا من شواهد معروفة وهى أن أغلبية طيور الكروان ( بفتح الكاف والراء ) وهو طائر مغرّد تكتفى بالانحدار من أطراف المستنقعات المجدبة إلى الحقول والمزارع المشرفة على السواحل . كما أن طيور الزقزاق أو النبّاح ( بضم النون ) تقنع بالاجتياز فقط من ( ابردينشير ) فى انكلترا إلى ايرلندة . والجدير بالملاحظة هو أن أنواعا مختلفة من الطيور التى اعتادت أن تعيش فى أقصى الشمال مثل طائر ( السكلة ) ( بفتح السين والكاف واللام ) من فصيلة الدجّ ( بضم الدال ) وطائر أم رباح وطائر الدرسة الثلجى ( بضم الدال ) والكثير من الطيور الغوّاصة وقليل من البطريق تلوذ كلها فى الشتاء بالجزر البريطانية وذلك لملاءمة جوّها وموافقته لها فهى إذن ضيوف الجزر فى هذا الموسم .

الاختزال فى العدد :

وهو مايتمثل لنا فى عشّ (الزنبور) الخاوى ، إذ يبتلى سكانه قبل ذاك باختزال مخيف لا يبقى على أثره سوى الملكات الصغيرات اللاتى يظللْن مدة الشتاء وحيدات

وهن مختبئات سابتات فى الأوكار الدافئة الواقعة فى ساق شجرة منخوبة . أما تفصيل الحال فهو أنه عندما يوشك الخريف أن ينقضي تحلّ فى عشّ الزنبور نكبة قاهرة ومأساة مرعبة كالحة تأتى على جميع اليرقات الموجودة فى الخلايا فلا تبقى منها ولا تذر وذلك لأنها تلتهم بشراهة فتكون ألذّ غذاء للأميرات . إن هذا الإفناء بالجملة الذى يصيب الأفراخ لا يتوقع حدوثه إلاّ بمنجل الموت الحادّ الذى يصطحب الشتاء . ولكن ذلك لا يحصل . ومن يدرى فلعل هذا الالتهام يعين الملكات الصغيرات على أن يجتزن أشهر الشتاء بسلام وهن وادعات فى المخابىء المصونة . والمعروف أن كل ذلك يحصل أيضا بقضّه وقضيضه فى خلايا النحل فتلك الجماعات الغفيرة التى عاشت فى الصيف لا يبقى منها فى الشتاء سوى الملكات الناشئة لا غير .

إقصاء وحذف :

إن كل ما ذكرناه آنفا هو مجمل لحالات تؤدّى بنا طبيعيا إلى الحقيقة المعروفة فى تاريخ حياة الشتاء ألا وهي الغربلة أو التنقية . فالشتاء فى الواقع بالرغم من كونه الموسم الذى تتذوّق فيه المخلوقات طعم الراحة والسكون فهو فى نفس الوقت فرصة قاسية تبتلى فيها الأحياء بالإقصاء والغربلة دون ما هوادة أو لين . ومما لا شك فيه أن الراحة والنوم والهدوء غالبا ما تكون شروطا ضرورية لبعث النشاط والهمة والاندفاع خلال الربيع القادم . ولو شئنا أن نزيد لقلنا إن الغربلة والتذرية والتشذيب والحذف والإقصاء مما نجده حتما فى صلب أعمار الشتاء كلها عوامل فعّالة قويّة من شأنها أن تخلق ربيعا بعد ربيع مما لا نهاية له فى سلّم التطوّر المتعالى الشامخ .

# التباين والتشابه في المخلوقات الحية

« إن الكأس المصدوعة يسيل منها عصير الكروم ، والريحان الذابل ؛ إذا وطئته قدماك تضوع شذاه بين خطاك » .

يختص علم الحيوان بدراسة الحيوانات من حيث تركيبها وبنيتها ووظائفها وعلاقتها بالبيئة التى تعيش فيها وهذا العلم شقيق علم النبات الذى يبحث عن جميع المخلوقات النباتية وكلاهما فرعان من علم شامل هو البيولوجيا أو علم الحياة .

إن المخلوقات الحية من نبات وحيوان تكتسب ميزات مشتركة لا نجدها فى الموجودات الجامدة فهي تتغذى وتنمو وتتكاثر ، وعلى ذلك يمكننا أن نعرّف الحياة بالحالة التى يكون فيها المخلوق قادرا على أن يتغذى وينمو ويتكاثر . بيد أن هذا النمو يختلف كثيرا عن نمو قطعة صغيرة من الثلج عند تدحرجها على سفح الجبل إلى أعماق الوادى كما أنه لا يشبه نمو بلورة من ملح معين وسط محلول من السوائل ذلك لأن نمو المخلوق الحىّ لا يتم بإضافة بعض المواد الجديدة إلى سطحه الخارجى بل فى تسرب جزيئات المادة المضافة خلال أدق الأجزاء الموجودة فى جسمه وهذا ما يسمى أحياناً بالنمو الداخلى . أما التكاثر أو التناسل فنعنى بهما تكوين مخلوقات جديدة من جراثيم صغيرة تنفصل عن الجسم الحىّ المولّد وتصبح بعد أن يكمل نموها مشابهة له .

ولا بد لطالب هذا العلم أن يعرف قبل الخوض فى الموضوع الفوارق الأساسية بين النبات والحيوان . والواقع إن التمييز بينهما سهل غالبا وقد يشكل أحيانا لعدم وجود مقاييس ثابتة يمكننا الاعتماد عليها ، فقد لا يصعب على الطفل مثلا أن يعلم أن الحيوان هو المخلوق الذى له القدرة على الهروب من العدو حتى لا يقع أسيرا فى يده وذلك بعكس النبات الذى يفقد تلك المقدرة فى المقاومة فلا يبدى حراكا أمام أى اعتداء كان . والحقيقة أن المعنى الذى انطوت عليه فى الأصل كلمة الحيوان هى الحركة الذاتية . ولكن مهلاً ! فقد أظهرت بعض الأفلام السينمائية للجمهور بصورة جليّة أن للنباتات أيضا نوعا من الحركة لكنها على كل حال لا تضاهى بالطبع حركة الحيوان فى نشاطها وسرعتها .

## لماذا يأكل الحيوان النبات :

إن البحث عن الفوارق الأساسية بين الحيوانات والنباتات يقودنا لا محالة إلى دراسة طبيعة الغذاء الذى يختص به كل منهما على حدة . فالحيوان حسب التعريف العلمى هو المخلوق الذى له قابلية الحركة والذى يتطلب لمعيشته نوعا من الطعام يتكون من مركبات كيمياوية معقدة تعرف بالزلاليات يأخذها غالبا فى حالة الصلابة ويهضمها فى جوفه .

أما النبات من الجهة الثانية فبمقدوره أن يركّب إذا كان معرضا لنور الشمس مادة البروتوبلازما الحية وذلك من مواد فى غاية البساطة . وتتم هذه العملية فى النباتات الخضر بمساعدة اليخضير ( الكلوروفيل ) ، فإن هذه المادة تسهل اتحاد الكاربون من غاز ثانى أوكسيد الكاربون الموجود فى الهواء بالماء لتكوين النشا ثم السكر ، وفى حالة الحصول على بعض المواد الأزوتية من التربة تنقلب تلك المركبات الناتجة إلى زلال . ومن هذا نعلم أن الحيوان ليس فى طاقته أن يركب من المواد العضوية بروتوبلازما حية حتى ولا يمكنه ذلك من مشتقات الزلال نفسها كالحوامض الأمينيّة وهى مركبات جاهزة أبسط فى تكوينها من المركبات الزلالية ( البروتينية ) التى تحتوى عادة على الأزوت بدرجة واحدة فقط . ولما كان الحال كذلك أصبح فى حكم المحتم أن تندفع الحيوانات الكاسرة فتفترس الحيوانات الآكله للحشائش للحصول على الأزوتيات الضرورية . وهذه الأخيرة تتكل على النبات مباشرة إذ تستمد منه تلك المواد بطريقة أدق . وهكذا أصبحت جميع الحيوانات فى النتيجة عالة على النباتات تكتسب منها قوتها اللازم وفى ذلك مجال لنموها وتكاثرها .

إننا نجد عند البحث عن الكائنات الدنيا التى يكون معظمها مكروسكوبى الحجم — أنه من الصعب جداً إذا لم يكن مستحيلا تمييز الحيوان عن النبات

بعكس ما إذا كان هذا التمييز جاريا بين المخلوقات الراقية من المملكتين ، ففى هذه الحالة تظهر الميزات الفارقه بارزة للعيان حيث نشاهد أن الحيوان ملزوم بالتفتيش عن غذائه وله من حركته وانتقاله ما يعينه على ذلك ويساعده على التزاوج السريع كما أن وجود بعض الأجهزة الدقيقة التركيب في جسمه كالجهازين العصبى والهضمى يدل على أن له جسما أعقد بكثير من جسم النبات .

إن نظرية التطوّر قد أبدلت نظرة العالم للحيوانات إذ أثبتت أن الحيوان هو مجموعة تكيفات لأحوال الحياة المتغيرة باستمرار ، وذلك من جراء التنازع القائم على قدم وساق بين المخلوقات الحيّة ، بقصد المحافظة على النفس والمحافظة على النوع . ومن الجدير بالذكر إن التنازع لابد من وجوده فى كل مناطق العالم المسكونة بالأحياء .

## تكيّفات الحيوان :

يظهر التكيف جليا عند النمر والقط وذلك فى التعقب وملاحقة الفريسة وكيفية قبضها والانقضاض عليها ، فالنمر مثلا يسير وراء فريسته دون أن يحدث صوتا إذ يخفى مخالبه فى أغلفة خاصة ولا يمشى إلا على أصابعه فقط متتبعاً ومعتمدا على قوة حاستيه الشامة والسامعة بينما يعينه شارباه الطويلان فى قياس وسعة الثغور الضيّقة بين الأدغال الكثيفة ، وينتهى الصيد عادة بقفزة سريعة وقويّة جدا تبرز أثناءها المخالب الصلبة من مكامنها فتعين الأنياب الحادة فى القبض على الفريسة قبضة لا مفر منها . وهناك أنواع من اللبائن — الحيوانات ذات الدم الحار والتى ترضع صغارها — مثل الفقمّة ( عجل البحر ) والحيتان ، أصبحت بتكيفها الثانوى قادرة على المعيشة المائية حيث نجدها قد اكتسبت الشكل الظاهري للأسماك .

أننا عند ما نتفهم ميّزات آكلة اللحوم ( المفترسة ) نجد أن هناك فروقا بين

بعضها البعض أو تشابها بين الواحد والآخر مما يدل على قرب الصلة أو بعدها، فالكلب والذئب والثعلب وابن آوى كلها حيوانات متقاربة أكثر من تقارب أى منها إلى القط والنمر والأسد والفهد ولهذا السبب صنّفت الجماعة الأولى تحت فصيلة لا تشابه فصيلة الفرقة الثانية فسمّيت الأولى فصيلة الكلب ودعيت الثانية فصيلة القط ، وعلى هذا القياس وضعت الدببة تحت اسم فصيلة الدب والضبع تحت إسم فصيلة الضبع . ولكن عند ما نتأمل قليلا نشاهد أن أفراد الفصيلة الواحدة لاتخلومن بعض الاختلافات التى تتعلق مثلا بهيئة الأسنان أو بشكل المخالب وهذا يضطرنا لعزلها إلى جماعات أصغر تسمى بالأجناس التى تتشعب بدورها لوجود بعض التباينات بين أفرادها إلى أنواع .

لقد ابتكر العالم الأسويدى ( لينوس ) فى تصنيف الحيوان و( النبات أيضا ) طريقة التسمية المزدوجة، وهذه الطريقة تعنى أن الحيوان الواحد يعرف دائما باسم مزدوج ؛ الكلمة الأولى منه اسم للجنس الشامل لجميع الأنواع التابعة له والكلمة الثانية اسم للنوع الخاص بذلك الحيوان والكلمتان تنتهيان بأداة لاحقة ، لاتينية التركيب ومن مسميات بعض المناطق أو الموجودات . ويقدم اسم الجنس عادة على اسم النوع ويكتب أوله بحرف كبير إشارة إلى العلمية . فمثلا إن القطة الأهلية تدعى Felis domestica والنمرة Felis tigris والأسد Felis leo وبما أن أسماء الحيوانات تختلف كثيرا باختلاف المناطق وحتي فى أجزاء المنطقة الواحدة أصبح الاسم العلمى ذا فائدة كبرى فى تسهيل البحث على طالبيه .

ولكن قد يحدث أن لا تتفق أفراد النوع الواحد ببعض الصفات العامة إذ يكون بينها تباين طفيف جدا فى الميزات التفصيلية ، فمثلا نشاهد أن بعضا من القطط الأهليّة لا ذيل لها والبعض يملك شعرا طويلا مثل القطط الفارسية ولمعرفة هذه بدقة يقسم النوع إلى زمر ؛ كل زمرة منها تدعى ضرب للهرّة البيتية

إن هذه الضروب الناتجة بتأثير الانتخاب الطبيعى تدعى بالعروق أو الأنسال كما نجد ذلك فى الحمام : فهناك حمام الزاجل والحمام ذو الكيس والحمام ذو الذنب المروحي والقمرى والفواخت وغيرها من أنسال الحمام ، التى ولو كانت تختلف نوعا فى الهيئة والحجم إلا أنها من أرومة واحدة هى حمامة الصخر الزرقاء . أما ( الدجاجة الهندية ) الصغيرة المسماة بدجاجة الغاب فتعد الجذع الأصلى لجميع تنوّعات الدجاج التى منها الليغورن والمينوركاس والوينديات والاوربنكتون وغيرها .

لقد سعى علماء الحيوان كثيرا فى اتباع طريقة طبيعية فى التصنيف وتحاشوا الطريقة الصناعية لأن الطريقة الثانية قد تجر مثلا إلى جمع الخفاش والطير تحت عنوان واحد على أساس وجود الجناح عند الطرفين وتصنيف الحيتان والأسماك فى مرتبة واحدة لمعيشتها المائية ولوجود الزعانف فى أجسامها . غير أن الدراسة الدقيقة فى المرفولوجيا ( علم تركيب الأعضاء ) والهستولوجيا ( علم الأنسجة ) والأنبريولوجيا أو (علم الأجنة) تفيدنا أن كلا من الخفاش والحوت له الميزات الأساسية لذوات الأربع ولها قرابة متينة باللبائن . وعلى ذكر الخفاش والحوت علينا أن نشرح للقارىء اصطلاحين مهمين فى علم الحيوان هما ( الهمولوجيا ) أو التعادل فى التركيب و ( الأنولوجيا ) أو التعادل في الوظيفة فاذا كانت أجزاء جسمين لحيوانين مختلفين تحتل موضعا معينا فى كل من الجسمين وتنمو بصورة واحدة نقول عندئذ إن لها التعادل فى التركيب بصرف النظر عن الوظيفة التى تقوم بها وبالعكس إذا ما قامت هذه الأجزاء بنفس الوظيفة واختلفت مواضعها فى الجسمين أو نمت بطرق مختلفة كان لها التعادل فى الوظيفة فأجنحة الخفاش والطير لها ذلك حيث نراها تقوم بنفس الوظيفة أو العمل ولكنها تنمو أيضا بنفس الطريقة فكلاهما ( الجناحان ) أطراف محوّرة ولذا كان لها التعادل فى التركيب أيضا . وبالعكس نجد أن أجنحة الطير وأجنحة الحشرات لها التعادل فى الوظيفة وليس لها التعادل فى التركيب لأن أجنحة الحشرات نتيجة نموّ ظاهرى من جلد الحشرة وليس نتيجة تحوير بعض الأطراف .

إن الهمولوجيا أو التعادل فى التركيب اصطلاح لا يستعمل إلا فى المشابهات التى يعتقد بها أنها تشير إلى القرابة فى الدم ، وللالمام بذلك علينا أن نحصى جميع التغيرات التى تطرأ على الفرد عند نموه الجنينى ( أو ما يسمى علم الأنتوجونيا ) وفى ذلك ما يرشدنا إلى أن الطبيعة أثناء ذلك الدور تلخص فى الجنين بهذه التغيرات تاريخ النوع (أو الفيلوجينى) ، أى أنه يتشكل بأشكال أسلافه واحدا بعد آخر إلى أن يأخذ فى النهاية شكل الجنين الإنسانى وهذه هى خلاصة نظرية (التلخيص) .

# قضايا حيوية في علم الحياة

هل يستطيع الجزء أن يرى الكل .

« توفيق الحكيم »

تقدم علم ( البيولوجيا) فى الثلاثين سنة الأخيرة تقدما هائلا ، والأرجح أنه لم يدانه أثناءها بهذا التقدم وبالاكتشافات العديدة التى تمت فى ساحته علم آخر . وهو مع كونه علما يهم كل فرد فى هذا الوجود سواء من طلب الاختصاص فيه أو من رغب فى اكتساب المعلومات لتفهّم بعض حقائق الحياة ، إلا أنه ولا شك يفوق العلوم الأخرى بشدة ضرره عندما يكون الإلمام بفصوله سطحيا أو تكون المعرفة فيه ناقصة وإذ أنه من العلوم التى تبعث فى النفس نزعات حادة تدفع إلى العمل على مبادىء ذات أهداف موحدة .

لقد أثارت النظريات الحديثة كنظرية داروين مثلا حول مبدأ النشوء والارتقاء ضجة كبرى فى الأوساط العلمية دامت عدة سنوات ، وبعثت إليها سهام الانتقادات الدينية والسياسية من جميع الجهات . ومما أدى إلى تضارب فى الآراء حول حقيقة الحياة فاكتنف الموضوع غموض تام لعدم صحة أكثر تلك الآراء ولقدم عهدها وهذا مما يؤسف له بالطبع لا سيما وأن فائدة البيولوجيا عامة تهم السياسى والاجتماعى والبدوي على السواء .

إن الاكتشاف العلمي الأخير المعروف بقوانين (مندل) حول التسافد أو التزاوج المختلط قد أصبح اليوم نظرا لبساطته وقصة تاريخه المجيد من المعلومات العامة تقريبا المنتشرة بين جميع الطبقات. ولكن بالرغم من ذلك نجد فى النتيجة أن الناس لا يزال معظمهم يقف فى الغالب موقف المعارض تجاه ما يحسبونه مهزلة الأقوام المتمدنة وقد لا يتخلف مثل هؤلاء الناس من تطبيق القوانين والأنظمة على كثير من أعمالهم التافهة التى تشبه مثلا قولهم ( متى وأين يمكننا شراء الدخان والسجاير ) بينما نراهم لا يضعون العقبات فى سبيل المتزوجين من المعتوهين وراثيا والمصابين بضعف أجهزتهم العصبية أو الذين لهم أسلاف أصيبوا بالخبل أو الجنون ولا يمنعون الزواج بالمسلولين أو الذين لهم الميول الظاهرة أو الكامنة للاجرام ، أقول بالرغم من أنهم يعلمون

أن الهيئة الاجتماعية هى التى ترفع على عاتقها عبء المسئولية التى يحملها إياها مواليد هؤلاء المجانين أو المجرمين ، بيد أنهم فى الوقت عينه لا يتوانون عن السؤال من آبائهم أو أقاربهم بدفع الأجور التى تتطلبها المؤسسات العامة للانفاق على مواليدهم وهم فى مستشفيات المجاذيب أوفى مصحات السل . يوضح لنا هؤلاء المعارضون مسعاهم فى تحسين نسل المواشى والأنعام لاستحصال النوع الجيد من الصـــوف ويبينون لنا استعدادهم التام لتطبيق ما يلقيه عليهم ( بيفين ) بخصوص الطريقة التى اكتشفها زراعة الحنطة للحصول على النوع الأكثر إنتاجا والأشـد مقاومة لمرض الصدأ أوما يسمى بتدرن الحنطة . وينظرون بأم أعينهم إلى مربّى الخيول فيرونهم حاضرين أنىّ شاءوا ومتى أرادوا لإنسال أى نوع من الخيول الاعتيادية ، ولـكن عندما تصل هذه الفئة المخالفة إلى قضية تحسين السلالة البشرية والنوع الإنسانى ( هذا إذا صرفنا النظر عن قانون التعقيم الجنسى الذى سنته مؤخراً حكومة الولايات المتحدة ونفذته فى جميع دويلاتها ) نراها تقف مكتوفة الأيدى لا تبدى حراكا . والحق أنه من الصعب علينا أن نجزم إذا كان فى الامكان التحكم عمليا فى ذرية الإنسان كما أنه لا يمكننا القول فيما إذا كان أطفال المعتوهين هم أشد خبلا من أطفال بقية الناس الاعتياديين فقديجوز أن يكون كذلك أو بالعكس ، وعليه فمن الضرورى جداً أن نلم بمعلومات أخرى جديدة وكافيـة تكون عن قوانين الوراثة البيولوجية أدق مما لنا منها فى الوقت الحاضر .

إن جميع القضايا المتعلقة بالأمور المذكورة حديثة العهد فالإنسان القديم بانتقاله التدريجى من طور الحيوان المطلق صحبته ظروف قاسية جدًّا أبقت فى الحياة ما كان من أفراده قوي الجسم حاد الذكاء وأماتت منه الضعيف القليل الفطنة والبطىء الحركة إما جوعا لعدم حصوله على الغذاء الكافى أو أنه انساق طعمة لأعدائه الـكثيرين وفريسة لمن حوله من الوحوش . هذا ما كان بالأمس ؛ أما اليوم فقد تبدلت الحال

وأخذت الهيئة الاجتماعية على عاتقها الاعتناء اللازم لراحة مثل هؤلاء التعساء الذين لم تمنحهم الطبيعة قوة كافيـة فأصبحوا يتنعمون بما لديهم ويعيشون وسط عوائل خاصة يؤسسونها لهم .

طبيعة الحياة :

يستهل الطالب ببحثه السؤال عن ماهية الحياة وحقيقتها فيجابه صعوبة قوية فى إدراك المعنى الحقيقى لها وخصوصا عنـدما يعلم أن لا فرق مهم من الوجهتين الفيزياوية والـكيمياوية بين خواص المادة الحية والمادة الجامدة ، فالعناصر الداخلة فى تركيبهما — كالـكاربون والأكسجين والناتروجين — متشابهة فى الطرفين وهي تتحد وتفترق فى كلتا المادتين بنسب معينة تابعة جميعها إلى القوانين الكيميائية المعروفة إلا أننا نجد أن هذه العناصر تتحد فى البروتوبلازما — وحدة جميع المواد الحية — بصورة أعقد وبطريقة أدق مما هى فى تركيب المواد الجامـدة . إن علماء الفيزياء والـكيمياء ينظرون إلى الجسم الحى كما كينة تشتغل باستمرار لتكيف نفسها دوما وفق عوامل محيطها والـكيمياوى يزيد على ذلك بقوله : أن التفاعلات الـكيمياوية بين عنصرى الـكاربون والأوكسجين لا بد من انبعاث طاقة حرارية من نتيجة هذا التفاعل وقد لا ننكر ذلك فـكلنا يعرف أن احتراق الفحم يبعث الينا هذه الطاقة التى نستغلها فى تحريك الآلة البخارية . والبروتديات أيضا هى من جملة المركبات الـكيماوية المعقدة وغير الثابتة إذ تنحل بسرعة عند اتحادها مرة ثانية بالأوكسجين وتطلق الطاقة الحرارية المعروفة . إن هذه البروتيديات هى من أهم محتويات البروتوبلازما وفعاليتها الـكيمياوية التى تتم عند اتحادها بالأوكسجين هى التى تجهز الجسم الحى بالطاقة المطلوبة ولهذا السبب نجد أنه من اللازم أن تجدد البروتوبلازما فى الحجيرات الحية دوما بواسطة التغذية ، وفى عين الوقت يجب أن

ندفع إليها الأوكسجين الضرورى للاحتراق خلال أجهزة التنفس كما نمد الآلة الحديدية بالنار ونفتح لها مجارى من الهواء لإكمال الاشتعال وسنتكلم بعدئذ فى موضوع خاص عن الفعالية الميكانيكية للجسم الحىّ مع بيان تركيب الأعضاء مفصلا عندما نصل إلى أجهزة الهضم والدورة الدموية ، ولكن لنعلم من الآن أن الجسم الحىّ له ما يجعله فى مستوى أرقى من الآلة البخارية الحديدية لأنه يمتاز بخاصية التكاثر والتوالد .

مكانن المستقبل :

تصوّر ( صموئيل بطلر ) ما كنة المستقبل وهى فى دور الكمال فقال عنها : أنه سيكون فى مقدورها أن تلد. أما نحن فلا يسعنا رغم هذه التصورات الخلابة التى جالت فى فكر هذا المخترع الكبير عن الطفلة الوديعة ( العدة الصغيرة ) وهي تلعب مرحا أمام أمها الآلة الكبيرة أن نعتقد بإمكان حصول هذه الولادة أو باحتمال وقوعها . أما الجسم الحىّ فلم يزل منذ ملايين السنين ولودا يمتلك خاصية التكاثر والتناسل بحيث أظهر للوجود أشكالا متنوعة من المخلوقات تحت عنوانين : النبات والحيوان ؛ أشكال ذات تراكيب دقيقة ومعقدة فى صور وكيفيات لا يحصى نطاقها ولا يمكن وضع حجومها تحت حصر : نماذج من جمال بديع زاهى الألوان وهيئاته الموضوعة جنبا إلى جنب تتراءى للناظر المعجب بها غريبة الشكل أخاذة فى حسنها أو غير جذابة تعافها النفس ولا شك أننا عندما ندرس إلى مباحث النشوء والارتقاء سيكون فى مقدورنا أن نتتبع قصة الحياة المدهشة وهى تولد وتبعث الحياة على ممر السنين وإلى الأزل فنقرأ نظريات : لامارك وداورين ووايزمن وغيرهم ؛ التى ابتدعوها بنبوغهم لتفسير هذا التباين فى الأشكال والنماذج ولتأويل ظهور الإنسان على الأرض . وحينما نصل إلى البحث عن قوانين منذل ونتعمق كثيرا فى التحقيق والاستعلام عن خفايا الوجود وسر الحياة سنقدر حينذاك

أهمية العقبات التى تقف فى سبيل المصلحين الاجتماعيين ورجال تحسين النسل البشرى فنعمل على إبداع فكرة مشتركة عن القضايا التى إدرجناها فى مستهل هذا البحث .

إن هذا الدرس الذى بدأنا به حول علم الحياة هو تمهيد لعلم واسع النطاق هو أشبه شىء بشجرة شامخة ذات فروع وأغصان متشعبة تمتد إلى كافة الجهات والنواحى .

# بماذا ندان لعلم النبات

« إيه يازارا أن أثمارك ناضجة !
غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك » .

تحتاج دراسة النباتات إلى الخوض فى عالم يختلف سكانه عن سكان عالم الحيوان بكثير من الصفات ، فإن أفراد العالم الأول تأكل بغير فم وتتحرك بلا أطراف ، وتبصر بلا أعين ، وتعيش بدون أن يساعدها دماغ أو جهاز عصبى فى حياتها — وهى على الدوام تشكل فرق الطلائع التى تستكشف الأرض وتحتل البقاع تمهيداً للمخلوقات الحية التابعة ، فالحيوانات لا تستطيع أن تتقدم فى هذه المناطق إلا بعد أن يتم فيها الاستيطان بواسطة النباتات والأعشاب . وزيادة على ذلك فإن النباتات هى العامل الأساسى فى تحويل الأرض إلى تربة خصبة تسهّل لغيرها من النباتات العليا العيش فيها . ولنأخذ لذلك مثلا : عمل بعض النباتات الصغيرة المعروفة كالحزاز أو بهك البحر Grey Lichens إن هذا النوع من النبات يعيش على الصخور حيث تنفذ فروعه فى أجزائها ، وهكذا نراه يساعد قوى الطبيعة كالمطر والصقيع والرياح فى تكسير تلك الصخور وتحويلها إلى فتات أو ذرات معدنية التى هى الأصل فى تكوين التربة . وقد يمرُّ على مثل هذه النباتات الدنيا أجيال عديدة وهى تتكاثر وتعيش وتندثر على التربة قبل أن تحوّلها إلى أرض خصبة حتى تصبح بعدها موافقة وصالحة لمعيشة النباتات العليا ، وإن عملية إخصاب التربة لا تقوم بواسطة النباتات الحية فقط ، بل إنها تستمر أيضاً بعد هلاكها ، فإذا جردت الأرض من أعشابها ترجع لا محالة عاجلاً أو آجلاً إلى حالتها القاحلة التى كانت عليها قبل أن تستوطنها تلك النباتات .

اكتسبت النباتات الخضر بمساعدة مادتها ( اليخضير أو الكلوروفيل ) القدرة على تركيب المواد الغذائية التى اعتمدت هى وجميع الحيوانات والمخلوقات الحية الأخرى عليها فى معيشتها وحياتها . إن هذه المواد الغذائية التى تركبها هذه الأنواع من النباتات هى على صنفين : السكريات (الفحميات) والازوتيات ، فالصنف الأول منهما مركبات تتكون من ثلاثة عناصر : الكاربون والهايدروجين

والأوكسجين . والصنف الثانى مركبات تتكون من العناصر الثلاثة المذكورة آنفاً ، مضافاً إليها الأزوت وعناصر أخرى غيرها . ولتركيب السكر تحتاج النباتات الخضر إلى بعض المواد الخام التى تحصل عليها من الهواء ، وهى الماء وغاز ثاني أوكسيد الكاربون و إلى طاقة لتسيير عملية التركيب تستمدها من نور الشمس ، تؤخذ هذه الطاقة وتخزن مؤقتاً مع عناصر المركبات الخام فى المواد الغذائية المتكونة فتبقى كذلك زمناً و بمجرد أن تتحد هذه المواد بالأوكسجين تحترق وتبعث بالمواد الخام الأوليّة إلى الهواء كرة ثانية بعد أن تنطلق منها الطاقة المخزونة حرّة ، وبهذه الطريقة تجهز النباتات وموادّها الغذائية الطاقة اللازمة لجميع المخلوقات الحيّة .

إننا بدراستنا طريقة التغذية في النباتات تتكشف لنا الحقيقة الآتية : « وهى أن المواد التى تستعملها النباتات لبناء أعضائها هى نفسها المستعملة بواسطة الحيوانات كما أن القوة المستخدمة عند الطرفين فى العمليات الحيوية تكون مقتبسة من مصدر واحد هو الشمس ، غير أن النباتات الخضر تكون دوماً الجامعة للطاقة ، فكل جزيئة من الطعام التى تركبها فى معاملها تشبه بطارية خازنة ، وعند ما تنحل هذه الجزيئة بواسطة التغذية الحيوانية أو النباتية تتحرّر الطاقة المذكورة وتتبدد ، والنباتات الخضر تقوم بهذه العملية فى نور النهار بدرجة عالية بحيث تكون المركبات الناتجة كافية ليس فقط لسد حاجة النباتات والحيوانات فى بناء أجسامها ، بل إنها تجهز الإنسان كذلك بالطاقة الضرورية للحياة .

القوّة المستحصلة من النبات :

كانت النباتات ولم تزل بواسطة فعاليتها المذكورة سابقا الأصل فى تكوين وقود العالم كالبت والفحم الحجرى . ومن المناسب هنا أن نذكر بإيجاز مصدر الطاقة المخزونة فى هذا الفحم .

أشرقت الشمس فى عصور الحياة القديمة على أوراق النباتات الخضر التى عاشت

حينذاك فى الغالب وسط الآجام والمستنقعات وبالطبع إن قسما كبيراً من هذه الطاقة الشعاعية كانت قد امتصت بواسطة الأوراق الخضر واستخدمت لعمل السكر الذى استهلك أكثره ولا شك فى تغذية النبتة مدة حياتها ، غير أن الكمية الباقية منه بعد أن مرت بسلسلة من التحولات الكيمياوية البسيطة — أصبحت جزءاً من الهيكل الخشبى الذى يسند النبتة ويقومها ، وهكذا إلى أن ماتت النبتة فطمرتها الأطيان وساعدت فى تحنيطها قبل أن يكمل تفسخ الخشب فيها . وعلى هذا لم يطرأ على العناصر — الكاربون والهايدروجين والأوكسجين — التى اتحدت قبلا تحت تأثير نور الشمس أى تغيير ؛ فبقيت الطاقة المذكورة كامنة وهى تبقى كذلك إلى أن يستخرج الفحم ويملأ به مرجل الآلة البخارية ، وعندئذ يتحد بالأوكسجين ويتحول إلى غاز ثانى أوكسيد الكاربون وبخار الماء ويطلق الطاقة التى خزنت فيه منذ أمد بعيد . وهكذا نجد أن النبات يجهز القوة المطلوبة للحيوان وللمشاريع الصناعية بصورة متماثلة . وقد يفكر الإنسان فيلتجئ إلى قوى المياه لاستحصال الطاقة الكهربائية واستخدامها فى تحريك معامله ، إلا أنه ولا شك يضطر إلى أن لايستغنى فى الأخير عن النبات فى الحصول على الكاوتشوك ( الصمغ المرن ) والصمغ الهندى ليعزل بهما الأسلاك البرقية عن بعضها ، كما أنه لا يمكنه أن يستغنى عن الدهان لتزييت الآلات المتحركة .

## علاقة النبات بالحيوان :

وهنا سنعرض مظهراً آخر لبيان فضل النبات على الحيوان ، فقد دلت الاكتشافات المتوالية على أن بجانب الطاقة والمواد الغذائية التى تمنحها النباتات لبناء الأجسام توجد مواد أخرى غيرها ذات تراكيب معقدة لا شك أنها تلعب دوراً مهماً فى حياة الحيوان كأدوية طبيعية واقية ، بحيث يمكن أن نقول إن عدم وجودها يسبب سوء التغذية ونقصاناً فى النمو الطبيعى للجسم . إن هذه الأغذية الإضافية تدعى بالڤيتامينات ، وهى من محاصيل النبات الأساسية .

لقد غيّر علم الكيمياء — بفضل الاكتشافات التى وصل إليها علماؤه — فكرة الصلة بين عالمى الحيوان والنبات ، إذ استنبط الأخصائيون فى الوقت الحاضر طريقة لتركيب السكر من مواد صلبة بسيطة ، كما أنهم تمكنوا من تركيب البروتينات ( الزلاليات ) التى هي أهم محتويات المادة الحية ، وتوصلوا إلى بعض الوسائل التى تزيد من فعالية التركيب الزلالى فى النبات . إن النايتريتز (الآزوتيت) هى من أول المركبات اللاعضوية (المعدنية) لعنصر الأزوت التى يعتمد عليها النبات فى تركيب المواد الزلالية ، وهى مركبات قابلة للذوبان فى الماء ووجودها فى التربة الخصبة ناتج عن فعالية بعض أنواع البكتريا التى تعمل عملها فى بقايا الحيوانات والنباتات . غير أن هذه الفعالية بطيئة جداً ، ولذا كان الإنتاج من هذه المركبات قليلا ، وفضلاً عن ذلك فإن الأمطار والمياه الجارية تذيبه فينساح معها وينتشر فى مناطق واسعة ، ولهذا السبب أصبحت هذه الأملاح نادرة جداً لقلة كمياتها ، فأخذ الناس منذ القديم سداً لهذه الثغرة وتلافياً للنقص في تكثير كمية النتروجين فى التربة بطرق صناعية ، وذلك باستعمال السماد الحيوانى وخلطه مع التراب ، ومع هذا فإن محاصيل العالم الزراعية بقيت محدودة لقلة الأسمدة ، فما كان من علماء الكيمياء فى الوقت الحاضر ، إلا أن سعوا فى إيجاد وسيلة يزيدون فيها المنابع الطبيعية لمركبات النتروجين ، فاستنبطوا أخيراً الطريقة الكهربائية فى توحيد بعض العناصر الأساسية مع عنصر الآزوت ، وأخذوا بصنع تلك المركبات الضرورية بمقاييس عالية جداً ، وهى التى دعوها بالأسمدة الصناعية .

تصنيف النباتات :

أن عالم النبات هو الذى يعول جميع ما فى البحر والبر من مخلوقات حيّة ، وجماعات أفراده سواء كان منها الراقى أو المنحط يقوم بهذه المهمة خير قيام : فالنباتات البذورية ( كالفصيلة الصنوبرية أو المخروطية والنباتات المزهرة ) تجهز لنا المواد

الغذائية وخيوط النسيج كالقطن والكتان والقنبس الهندى والقنب والأخشاب والراتينج (وهو نوع من الخشب السريع الالتهاب) والكاوتشوك والصمغ الهندى والكافور والشمع والزيوت والوارنيش والبهارات والتوابل والعطورات والأصباغ والعقاقير هذه هى النباتات التى تعول الحياة على وجه البسيطة ، أما الأشنيات مثلا وهى من أقسام النباتات غير الراقية التى تحتوى على عشب البحر وكثير من النباتات المكروسكوبية فإنها تعول الحياة المكتنفة في البحار .

إن أدنى شعب المملكة النباتية تشمل ما عدا الاشنيات التى ذكرناها آنفا الفطريات أيضا ويشمل هذا القسم (الكما) و (الفطر) بنوعية السام وغير السام ويضاف إلى ذلك الخمائر والعفن ، والفطريات هذه تنقصها المادة الخضراء (الكلوروفيل) ولذا أصبحت عاجزة عن أن تقيت نفسها ولكنها كسائر الحيوانات يجب أن تحصل على غذائها من مصادر خارجية فالفطر مثلا إما أن يعيش عيشة الطفيليات على مواد حية أخرى يسلب منها بعض الغذاء ويشاركها فى قوتها وإما أن ينمو على المواد العفنة أو الرمم فيدعى عندئذ ( رمّام ) . ومن هذه الوجهة نجد أن الفطريات تشبه بحياتها البكتريا وهى جماعة ثالثة من جماعات المملكة النباتية التى تمتاز بتركيبها البسيط وبدقة حجمها فلا ترى إلا بواسطة المكرسكوب (المجهر) فالفطريات والبكتريا فضلا عن كونها من أدنى المخلوقات النباتية مرتبة فإنها تلعب دورا هاما فى العالم وفى حياة المخلوقات الأخرى ، فأهمية الخمائر فى معمولات الخبز والخمر معروفة للجميع كما أن البكتريا هى الأصل فى خصوبة التربة ، وهذه النباتات البسيطة هى من مسببات حفظ الصحة العامة فى العالم فمن فعاليتها المستمرة تتفسخ بقايا الأموات شيئا فشيئا حتى تنحل إلى مواد بسيطة غير عضوية لا تزيد عن المركبات التى استعملتها النباتات فى بادىء الأمر فى عملية تركيب الأغذية . وهنا لا بد من أن نقول إنه بالرغم من الأعمال العجيبة التى تمت على يد علماء الكيمياء العملية بقى عالم النبات وسيبقى إلى ماشاء الله المنبع الرئيسى الذى تستقى منه المواد اللازمة والطاقة الضرورية

لإعاشة الحيوانات جميعها ومنها الإنسان ولتقويم الحياتين الاجتماعية والصناعية فى العالم .

ويجدر بنا قبل أن نبدأ بدراسة أشكال النباتات وتراكيبها الداخلية وأحوال معيشة أفراد كل نوع منها أن نعرّف القارىء بالأقسام الرئيسية للمملكة النباتية مشيرين باختصار إلى أهم الميزات التى يختص بها كل من هذه الأقسام :

تصنّف المملكة النباتية إلى أربع شعب أساسية وهي :

١ — النباتات المزهرة وتشمل جميع النباتات الوردية سواء كانت أشجاراً أو أعشاباً أو انجما وتسمى اصطلاحا بالنباتات ظاهرة الإلقاح . إن كل أفراد هذه الشعبة لها الجذر والساق والأوراق ويعترض كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة شبكة دقيقة جداً من الأوعية التى تدعى بالعروق ولذا دعيت بالنباتات الوعائية وكلها تعطى بذورا . إن لهذه الشعبة قسمين :

(ا) وعائية البذور :

وفيها تكون البذور مغطاة بأغلفة واقية وإن أكثر أنواع النباتات البذورية ينتسب إلى هذا القسم .

(ب) عارية البذور :

وهى عكس ذلك إذ تفقد تلك الأغلفة التى تحيط ببذورها ويشمل هذا القسم النباتات المخروطية ( الصنوبرية ) كالشربين والصنوبر وشجر اللاريس . أما بقية الشعب فتشمل جميع النباتات غير المزهرة ويصطلح عليها اسم النباتات عديمة الأزهار ( مكتومة التناسل ) فهى لا تزهر ولا تعطى بذورا . أما الوسيلة العامة للتكاثر فيها فهى طريقة التوالد بالسبورات .

٢ — شعبة النباتات السرخسية :

وسميت كذلك لأن السرخس هو من أهم أفرادها وتشمل النباتات

الوعائية عديمة الأزهار وأشهر أنواعها نبات مخلب الذئب ونبات الكينات أو ذنب الحصان ( وهو نبات مدرّ للبول ) .

٣ — شعبة الطحلبيات :

وتشمل الطحلب والكبديات وهى نباتات ليس لها جذور ولا أنابيب وعائية .

٤ — شعبة الثالوفايت :

وهى الشعبة الرابعة والأخيرة تحتوى على المخلوقات النباتية البسيطة التركيب ( والدنيا ) فى طرق معيشتها وأدوار حياتها ، وهى نباتات خفية التزاوج وعديمة الأزهار وليس فيها تفاوت أو تمييز بين الجذر والساق والأوراق. تسمى النبتة الواحدة منها ( ثالوس ) ومعظمها مكروسكوبى الحجم والشعبة هذه لها أربع فرق :

( ا ) الاشنيات وتحتوى على مادة الكلوروفيل وذلك مثل ردغة المستنقعات الخضراء وعشب البحر .

(ب) الفطريات وتنقصها المادة الخضراء وأشهرها الكمأ والفطر والخميرة والعفن .

(ج) البكتريا وهى من الفطريات الدقيقة الحجم ولها أهمية كبرى فى حياة الإنسان والحيوان كما أسلفنا .

(د) حشائش البحر وهي نباتات مركبة من الفطريات والاشنيات تعيش مع بعضها مشتركا .

# الأنثروبولوجيا أو علم دراسة الإنسان

« وخلقناكم أطواراً » .

يعتبر علم (الانثروبولوجيا) بأوسع معانيه علماً شاملاً لايخص دراسة الإنسان وحياته الاجتماعية فقط ، بل نجده يبحث عن كل موجود على ظهر البسيطة ، ونطاقه الواسع يدعونا إلى الاختصاص به ، فقد تفرعت منه عدّة فروع وفصول مستقلة لها ما يربطها ببعضها و بالعلوم الطبيعية الأخرى كثير من الصلات . إن أهم هذه الفروع هى :

١ — الانثروبولوجيا الطبيعية ، وتخص دراسة الإنسان كحيوان فتبحث عن صلته ببقية المخلوقات الحية وعلاقته معها من حيث شكل جسمه وتركيب أعضائه وتفصيل الفوارق التى تظهر آنا بعد آن بين أفراده مع بيان كيفية معيشة كل الهيئات التى تشكلها هذه الأفراد وتأثير بيئة كل منها عليها بما فيها من تأثير الأغذية ، وكذلك ما تكسبه فى محيطها من قوة المقاومة الطبيعية أمام الأجواء والأمراض الموجودة فيه . و إذن فلابد أن نستعين فى هذه المباحث ببعض العلوم الأخرى لتكون دراستنا فى هذا الفرع كاملة ودقيقة ، فنعتمد ببحثنا على علم البايولوجيا (علم الحياة) وعلم التشريح وعلم الأنسجة (الهستولوجيا) وعلم البكتريا وعلم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وعلم الحشرات والجغرافية وعلم النباتات وعلم الآثار القديمة مع الإحاطة بقانون مندل .

٢ — الانثروبولوجيا الاجتماعية وتبحث هذه عن الإنسان كحيوان اجتماعى يهتم بأفراد نوعه بكل علاقاته من زواج ووراثة ، وتوضح لنا الصلات القبيلية أو الدولية كالحرب والتجارة والدين ولدراسة كل هذه المواضيع علينا مراجعة علم النفس أو السيكولوجيا .

٣ — الانثروبولوجيا الصناعية أو علم الفنون والصنائع ، وهذا يعتبر الإنسان كعامل وصانع وزارع ، فيبحث عن حِرفه منذ أقدم الأزمنة حينما كان يستعمل أدواته الحجرية ومِنْوَاله الخشبى إلى أن توصل إلى اختراع الطيارة والمحركات

الجديدة . إن هذا الفرع من الانثرو بولوجيا له مساس كبير بأكثر العلوم الطبيعية وخاصة الجيولوجيا وعلم النباتات والكيمياء وغيرها ، كما أنه يكتنف الانثرو بولوجيا الاجتماعية إلى حد كبير بدرجة أنه لا يمكن أن يدرس أحدهما دون الآخر ، وفي الواقع إن الفارق بينهما علمى بحت . فمثلا هناك فى بعض المناطق الاسترالية وخاصة فى الجزر المحيطة بتلك القارة تكثر بعض القبائل المتأخرة التى تعيش على البساطة : إن فى هذه القبائل رجالا يقومون بحياكة أنواع من الملبوسات الوطنية والعامل بينهم لا يفتأ ينشد بعض الأغانى الشعبية إلى أن ينتهى من حياكة الملبوس فإذا صادف أن نسى إحدى الكلمات فى أغنيته أو أخطأ فى تلفظها عليه أن يعود ويشرع بعمله من جديد لاعتقاده — كما هو فى اصطلاحنا — أن حظ اللابس يعثر فى هذه الحالة ويكون لباسه شؤما عليه . كما أننا نجد أن أكثر الحرف كصناعة الحديد فى أفريقيا ، أو كبناء البيوت وعمل القوارب فى مقاطعة ( اوشينيا ) لها عمال مختصّين يقومون بها دون غيرهم ، بحيث لا يسمح لغيرهم بمزاولتها أما هؤلاء فيعيّنون من بعض أفراد العشائر أو العائلات التى تلمّ بالأغانى الشعبية والعوائد القومية وعلى هذا الأساس نشاهد فى بعض جزر الباسفيك ظاهرة عجيبة جداً لها علاقة كبرى بهذه العوائد فإن مهنة الحياكة وحتى مهنه بناء الزوارق قد ماتتا وذلك لفناء العائلات التى كان لها إلمام بهذه الطقوس وكان لها وحدها الحق بمزاولة هذه الأعمال ومن هذا نستدل أن الوراثة والعادات والمهن مترابطة ببعضها ويصعب تفريقها كما أنه لا يمكن دراستها مع الفائدة المتوخاة إلا سوّية .

إن فى علم الانثرو بولوجيا بعض الاصطلاحات منها ( اثنوكرافى ) و ( اثنولوجى ) ووجود هذه التعابير كان سببا فى ورود تعاريف شتى أدت إلى بعض التفاسير . وبالإجمال نقول إن التعبير الأول يأخذ الإنسان مدارا للبحث فى الحياة القبلية وذلك من الناحيتين الاجتماعية والأدبية فهو تعبير وصفى كما يشير إليه المعنى أما التعبير الثانى ( اثنولوجيا ) فيأخذ الجماعة القبلية مدارا للبحث فى العالم كله

وهو فى ذلك يستعير جميع مدلولاته من (الاثنوكرافيا) فهو إذن تعبير تقارنى لاغير. والاثنولوجيا تعتمد كثيرا على الانثرو بولوجيا الطبيعية ، ومن المحتمل أن يكون سبب الارتباك الظاهر فى التعبير متأت من استعمال كلمة (اثنولوجي ) في الافرنسية التى تعنى الانثرو بولوجيا الطبيعية .

الكتابة وأثرها فى تقدم الإنسان :

كثيرا ما تستعمل كلمة التقدم أو المدنية كحد فاصل بين الأزمنة الحاضرة وعصور الأزمان القديمة ، ولكن أين يقع هذا الحد الفاصل ؟ وأين هو موضع العزل ؟ لقد استعمل البعض لفظة الهمجية مشيرا إلى جميع الأدوار التى سبقت العصر الذي توصل الإنسان فيه إلى اختراع طرز من الكتابة والخط ، غير أن الكتابة لا تستوجب أن تكون المستوى الذى يوزن به تقدم البشرية فشعوب ( المايا ) فى أواسط أمريكا كان لها نوع من الكتابة الهروغليفية الراقية وكان لها إلمام كبير بصناعة النسيج وخاصة الحلل المزركشة الجميلة وعمل الفخار والخزف الممتاز فضلا عن كونها كانت تقيم من الأبنية العصرية ما يقف أمامها الفرد مسلوب العقل ومع هذا فإن هذه القبائل لم تكن تعرف المعادن . وكان أهالى ( بيرو ) — فى العصور التى سبقت اكتشاف أمريكا — من أعاظم النساجين بحيث لو انقرض فن النسيج من الدنيا القديمة لعامل ما لأصبح فى الإمكان إحياؤه من جديد من مقابر بيرو البالية ، أما مصنوعاتهم الخزفية وفنهم المعمارى ونظمهم الاجتماعية فكانت تفوق بدقتها ما كان عند شعوب المايا وفضلا عن كل هذا لم يكن لديهم معرفة بالكتابة اللهم إلا ما قد تركوه لنا فى سجلاتهم التاريخية المنظمة بطريقة عمل العقد على الحبال . وكانت قبائل ( البتاك ) الهمجية التى عاشت فى جزيرة سومطرا قديما تستعمل نوعا من الكتابة الخطية ومع ذلك فإنها لم تكن تملك تلك الثقافة التى تجعلها فى مصاف الثقافات القديمة لسكان أواسط وجنوب أمريكا . إن مدنيتنا الحاضرة لا زالت تمشى وفق القواعد الانثرو بولوجية ، ويظهر ذلك جليا إذا أمعنا

النظر فى تأثير وسائل النقل الحديثة وتقدمها في تغيير حياة الإنسان وتبديل طراز معيشته فنجده بيّنا لا يحتاج إلى برهان ولو كان هـذا التأثير أدنى نسبياً من تأثير اكتشاف الحديد أو اختراع القوس . من كل هذا يمكننا أن نقول إن التقدم أو التمدن قد ظهر فى الوجود منذ أن اندفع الإنسان إلى التجوال والتحول من مكان إلى آخر ، أحيانا برغبته وغالباً اضطرارا وقهرا من جراء التغيرات الجوية وسعيا وراء الحيوانات السائمة التى يعتاش عليها وهذا ما أدى بالطبع إلى الاختلاط والتزاوج بين جماعات البشر النازحة من الأصقاع النائيـة وبذا أصبح من المحتم انتشار المعارف والفنون ومختلف المهن والبدء بزراعة النباتات الغذائية . ولنضرب لك مثلا عن زراعة (الذرة) فقد كانت الذرة تزرع أولا فى أمريكا ولم تترك أراضيها حبة واحدة قبل زيارة ( كولومبس ) لتلك القارة ، ولـكن لم يمر بعد هـذا قرن واحد إلا وأصبحت الذرة من الحاصلات الزراعية لنصف قارة أفريقيا ، ولا ننس أن الهجرة لها تأثيرها الـكبير فى مزج العروق البشرية وخلط الثقافات ببعضها وهذا ما يقرب الانثرو بولوجيا والتاريخ إلى كليهما .

إن الانثرو بولوجيا علم حديث والآداب التاريخية حتى عصرنا هذا لم تكن قد أعدت له المـكانة اللائقة به وهو يعتمد بالأكثر على الألواح التاريخية ولا يعير أية أهمية للأحاديث والروايات التى ينقلها التاريخيون المغرضون ، وعند عدم وجود الـكتابات والمخطوطات يكتفى بما تنقله إليه الذاكرة . فقد نجد فى (زيلندة الجديدة) مثلا أن أولاد الطبقة الراقية يلقنون تاريخ قومهم فى مدارس خاصة أنشئت لهذا الغرض ومن جملة الشروط المطلوبة من المعلم والمتعلم فى هذا التدريس الصدق فى القول ، ويقال أن الزعيم الواحد من تلك القبائل يمكنه أن يسرد من الحافظة رأساً حوادث تاريخية وأحاديث مهمة عن السلف ويذكر سلسلة النسب بكاملها حتى ليملأ حديثه صفحات كتاب ضخم . وإن نقل الأخبار من الذاكرة معروف أيضا فى الأواسط الأفريقية حيث إن رئيس القبيلة ( كما يحدث فى قبائل بوشنجو )

ملزم أن يلقى على المجموع فى حفلة تنصيبة تاريخ عشيرته ويعدد أسماء أسلافه بكل دقة وقد يحدث أن يصحح كلامه أحد رجال القبيلة الذين بلغوا من الكبر عتيا .

عادة المحافظة على القديم :

إن النوع البشرى مع استعداده الكافى للتقليد وحب الاستعارة واكتساب المعارف الصناعية والزراعية من بعضه البعض فإننا نجده بطيئاً فى هذا الاكتساب وذاك ما يجعله يمتاز بالمحافظة على القديم ومتمسكا به إلى درجة قصوى . وقد يعتبر القديم حديثاً فى وقته فهناك كثير من الآلات الصناعية والأدوات التى اخترعت فى الماضى موجودة الآن ولكن تغيرت وظيفتها وتبدلت وجهة استعمالها عما كانت عليه فى أول اختراعها وليس أدل على ذلك من الاكتشافات التى تمت فى غرب أفريقيا وأواسط أوروبا وفى جزر الملايو فقد وجد علماء الاحافير كثيرا من الأدوات الحجرية والذخائر والآثار المنقوشة على الأحجار التى لا يعرف عنها السكان الحاليون فى تلك الاصقاع شيئا وتعتبر عندهم كأحجار تهدمت بواسطة الصواعق وقد وجد فى أماكن عديدة من (غينا الجديدة) بعض المدقات اليدوية المصنوعة من الحجر كان قد استعملها الأهلون فى الأزمنة التاريخية كطلاسم أو أحجار سحرية تدفن فى المزارع لتجلب الخصب إلى أراضيهم وتزيد من حاصلات مزروعاتهم ، ولا يستعمل سكان (غينا الجديدة) فى الوقت الحاضر الحبوب والأطعمة الزراعية التى تحتاج إلى استخدام تلك المدقات الحجرية غير أن بقاء مثل هذه الأدوات الحجرية إلى الآن غير مناحى استعمالها عندهم لأغراض أخرى وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأنهم يملكون ثقافة قديمة مؤسسة على أصول اقتصادية متعددة .

أما من حيث استخدام العلم لإكمال حاجيات الإنسان الحاضرة والمستقبلة فيمكن أن يقال عنه الشىء الكثير ، والحقيقة أن الانثروبولوجيا لم يكن سجلا للعادات الهمجية الغريبة فقط بل ولم يكن كذلك موسوعة قصص وحكايات تبحث عن طرق المعيشة التى انتهجتها الشعوب المختلفة خلافا لما نألفه نحن ولكنه فوق ذلك

يرينا أيضا بكل وضوح قواعد الاحتكاك الذى لامفر منه بين ثقافات هذه الشعوب فى الأحوال الحاضرة. نعم ربما ادعى الشماليون بأن لهم الأسبقية فى استعمار بعض الأصقاع الجديدة ولكن هذا الادعاء بعيد عن الصواب؛ صحيح أن جماعة من الاسكندينافيين (النورزمن) كانوا قد اكتشفوا الجزيرة الخضراء وقسما من بقاع أمريكا إلا أن الاستعمار الحقيقى كما نعلمه تاريخيا بدأ بالفعل فى عصر القائد المقدونى الشهير اسكندر الكبير وذلك حينما استوطن فريق كبير من اتباعه فى شمال غربى الهند وأدخلوا الفن الإغريقى فى تلك المناطق، وهناك كثير من الأمثلة التى تظهر لنا جليا احتكاك الثقافات المختلفة بعد أن تم الاستعمار فيها ومن جملة هذه الشواهد هجرة الصينيين إلى تركستان وسفر البرتغاليين إلى غرب أفريقيا وإلى جزر الهند الشرقية ورحلة الدانمركيين إلى جنوب أفريقيا وذهاب الافرنسيين إلى الهند وغيرها. إن في إدارة الشعوب التى تختلف من وجهة حياتها الاجتماعية ومناحي تفكيرها يكون علم الانثروبولوجيا أكبر عون لتسهيل هذه الإدارة.

أغلاط أساسها الاختلاف فى التأويل :

ربما اقترف الحاكم الإدارى غلطة صغيرة ولو كانت تتعلق بآداب المعاشرة والسلوك بحيث لا يمكن تلافيها وإعادة المياه إلى مجاريها إلا بعد بضع سنين. ومن المحتمل أن لا يحب السكان حاكما من العرق الأبيض وذلك لمجرد كونه من هذا العون ولو كان فى حوزته سلطة مالية واسعة وفى يده قوة سحرية تستولى على إدراك الشعب المحكوم إلا أن اعتباره وكرامته يتوقفان بالدرجة الأولى على شخصيته، وفى التاريخ بعض الشواهد التى دلت على حصول مثل هذه الأغلاط والتى كان يمكن تلافيها لو استمع مرتكبوها إلى عدد من المحاضرات فى مبادىء علم الاجتماع فمثلا : نشبت حرب « الموري » سنة ١٨٤٥ على أثر أن قطع أحدهم صارى العلم الإنجليزى الذى كان منصوبا على بناية إحدى الدوائر في كورورريكا فى زيلندة الجديدة فقد كان هناك نزاع حول امتلاك بعض الأراضى بين الأهلين والمحتلين،

ومن عادة الأهالى أن يقيموا عمودا من الخشب فى الأرض إعلانا منهم بحق امتلاكها فما كان من طالب آخر إلا أن احتج وقطع ذلك العمود المنصوب . ومن هنا نشأ الخلاف لأن فى انكلترا يعدون قطع صارى العلم أهانة كبرى للعلم البريطانى وبذا اشتد النزاع واندلعت نيران الثورة على أثره فى البلاد ودامت كذلك زمنا طويلا .

أما حرب «البوكسير» التى وقعت فى بكين فى الصين فلم يكن بتعدى العامل فى إثارتها إضافة برج (مسلة) إلى الكنيسة التبشيرية فى المدينة المذكورة . فقد كان الاعتقاد الصينى أن أرواح الأموات المقدسة تنتقل فى الهواء على علو متوسط ، وبناء على هذا لا يمكن أن تقام هناك ابنية عالية تعيق مسراها فى الهواء فلما كان فى تعلية بناية الكنيسة المشار إليها العامل الأول فى إثارة تلك الحرب الضروس . وهكذا يمكننا أن نورد شواهد عدة من هذا القبيل وخاصة فيما يتعلق بنتائج الاصطدامات التى حصلت بين آراء الأمم الغربية ومعتقداتها الدينية بآراء ومعتقدات الشعوب ذات الحضارة الأولية ؛ ونحن لا يمكننا أن نتصور عظم القوة التى تبديها مثل هذه الشعوب أمام أى محاولة أجنبية يقصد بها محو معتقداتها و إماتتها .

## آداب سكان البحار الجنوبية :

بناء على عدم وجود غذاء جاهز للأطفال فى المناطق الاستوائية فإن دور الرضاعة يستمر فيها إلى ما يقارب الثلاث سنوات ، وفى هذا الدور لا يقترب الرجل من زوجه لاعتقادهم أن أى ميل أومودة يظهره أحدهما للآخر يكون له التأثير الكبير على صحة المولود وربما أدت هذه الصلة «إن حصلت» إلى مجافاة غليظة بين الزوجين . وفى (ميلانيسيا) مثلا نجد الرجل يلتجىء فى هذا الدور إلى دار النادى حيث يجتمع مع بقية الرجال والشبان العزّب لإقامة بعض الحفلات والسهرات أشبه بما تقيمه الجمعيات الماسونية فى أوروبا ، وفى هذا النادى يبيت الأولاد الذين قاربوا دور المراهقة تحت إشراف الكبار . وقد حدث ويالأسف أن احتجت

بعض الإرساليات على هذه المؤسسة مدعية أنها من المعاهد الوثنية فأمر بإغلاقها رسميا، وكان من نتائج ذلك أن اضطر الرجال المتزوجون للذهاب إلى مساكنهم واندفعوا بغريزتهم البشرية إلى مجاورة نسائهم وبذا ولد لهم أطفال غير مرغوب فيهم من الوجهة الصحية فتفشت بينهم عادة قتل الأطفال .

أما شبان القرى فلم يعودوا تحت إشراف كبارهم فأخذوا يسعون بملاحقة الفتيات وكان هذا أساسا فى تهديم صرح الآداب العائلية و إبادة الأخلاق الشعبية الفاضلة . هذا مثل آخر يبين لنا أهمية علم الأنثروبولوجيا فى إيقاف مثل هـــذه التدخلات غير الضرورية فى قضايا المؤسسات التى ينشئها الرجال المسنون من السكان وهى ولو بدت فى الظاهر غريبة بنظامها وأصولها إلا أنها لا تعدم الفائدة العامة التى تخص تلك القبائل .

# أين ينتهي العلم

خدمة الإنسان غاية العلم فى نظر البسطاء
ولو سئل عالم فى ذلك لابتسم وقال :
« مالى وللانسان ! إنما أنا أبحث عن سر
أسلوب الصانع الأعظم » .

توفيق الحكيم

حدثنا « فرنسيس كارتر » فى صحيفة هيرالد تريبون النيويوركية : أن « باستور » لم يعتبر اكتشافه للجراثيم إلا برهانا لوجود القوة الحكيمة الخالقة ، وأن « مليكن » لم ينضب معين إيمانه بعد اكتشافه قلب الجزيئة ، كما أن « نيوتن » اعتقد قبلهما أن له ذاتا .

حقا ليس هناك من نزاع بين العلم والدين . فالعلم — فيما يرى كارتر — لا يبحث إلا فى النواميس المدبرة للعالم ، وهو خال من المعارف الخاصة التى لها مساس بالإيمان وكل قول يأخذ بمثل هذه المعارف لا يمكن أن يكون له قيمة أعظم مما لو أخذ من مصدر آخر ، والواقع أن اكتشافات العلم لا تنفى وجود الخالق وإذا ما أبطلت الاكتشافات الحديثة ما سبقها من نظريات قديمة فهذا لا يعنى إنكار العقيدة بالله العظيم جل جلاله . وهذان العالمان الكبيران — نيوتن والسر الفرلودج — وهما المشهوران فى عالم الكهربائية نجدهما على إيمان وثيق فى معرفة الخالق العظيم .

وإذا تأملنا فى المبتدعات الخطيرة فى علم الفلك التى مكنتنا من تحليل مركبات النجوم البعيدة بطريقة متقنة كما لو كنا نفحص قطعة من الفولاذ فى المختبر ، وفى تلك الطرق المضنية التى أصبحنا نستطيع بواسطتها قياس فاعلية الدماغ أو أجزاء الفحوص الذهنية لوجدنا أن كل عمل من هذا القبيل لا يضاهى نتائج فحص فاعلية الجهاز السلكى الأوتوماتيكى الذى بواسطته ترسل الروح أوامرها إلى العالم الخارجى . وعليه فمن اللازم أن نبقى على بينة من أن القوانين المكتشفة ليست إلا عبارات وقتية مما تفهمناه نحن الآن وما آراء عظماء الطبيعيين العديدة إلا نظريات قطعية للزمن الحاضر فقط . أما رأى هؤلاء فى ماهية الروح وفى القوة السامية حتى وفى الحياة الأخرى فإنه لا يختلف عما لدى أبسط مخلوق فى الوجود .

---

# تعريف السيكلجة أو علم النفس

« وهو علم الطبيعة البشرية الغامضة »

عند البحث عن موضوع من المواضيع لا بد أن يستهل بمقدمة مختصرة تعرّف ذلك الموضوع وتبين حدوده ، فإذا رغبنا فى درس علم النبات مثلا نفتتح الدرس بجملة تقول إن علم النبات درس يبحث عن حياة النباتات وأنواعها وأفعال أعضائها . غير أننا إذا أقدمنا على تعريف السكلجة نجد صعوبة كلية فى إعطاء تعريف شامل يجمع شتات جميع مواضيعه المتفق عليها في أكثر الكتب كالذاكرة والانفعال والتعلم والتفكر وتكوين العادة والملاحظة والتخيل وغيرها والتى درست بتفصيل كل على حدة .

فإن قلنا إن السكلجة هى دراسة الواعية أو الفكر فهل يكفى هذا ليفهمنا صورة واضحة عن معانى هاتين الكلمتين كما لو عرّفنا معنى الكلمتين « العنصر أو الفلز فى الكيمياء » ، أو هل فى استطاعة أحد أن يفهم معنى كلمة الفكر ولو شرحت إليه ببضعة أسطر . وعلى كل حال فالواجب يحتم علينا بيان تعريف أساسى يكون أقرب إلى الحقيقة والواقع وهذا ما سنجتهد أن نصل إليه وعند ذاك نعلم أن السكلجة من ألذ العلوم وأصعبها .

ومن المعروف أننا نفقد الوعي عند السبات أو الإغماء وعلى هذا يمكننا القول بأن حياتنا الواعية هى عبارة عن حياتنا العملية التى نشعر فيها بالموجودات حولنا أو بما نحس به ونرغب فيه ، والوعي ليس بمادة بل صفة خاصة تتعلق بأفعالنا العقلية الباطنية التى ندعوها بالملاحظة والتفكر والحس والشعور وغيرها ، وإذا ما ذكر علماء السكلجة الأقدمون بأن علم النفس هو عبارة عن دراسة الوعي فإنهم يقصدون بهذا أنهم درسوا كل هذه الأفعال عن الإنسان دراسة لا بأس بها .

وهنا لنفرض أن شخصا ألحق بك ضررا فى الماضى فكلما تشاهده أو تذكره ينبعث فيك ( على الأرجح ) شعور الكره أو البغضاء ، وإذا ما مر بك زمن

ينسيك إياه فإنك لازلت فى الوقت عينه كارها له ولو كنت ناسيه أو ساهيا عنه أى إن كرهك له صفة فيك كنتيجة لعلاقات سابقة بينك و بينه تثبّت من حين لآخر شعور الكره فيك ولو لم تكن واعيا له فى وقت من الأوقات ، فيصح إذن أن نقول عن هذا الشعور إنه صفة عقلية فيك وليست بجسمية كلون العين أو الشعر . و بناء على ذلك نجد أن هناك كثيرا من العوامل كهذا النوع التى يجب أن يحسب لها حساب قبل أن نعرف تماما أفعال الوعى فى الإنسان ولوجود هذه العوامل كفّ أكثر السكلجيين عن تعريف علمهم بأنه علم يهتم بدراسة الوعي إذ أن التعريف يجب أن يتضمن مع حقائق الوعي جميع الأحوال التى تعيّن هذه الحقائق .

وبالإضافة إلى ما مر نجد اعتراضا آخر لهذا التعريف لا يقل أهمية عن الأول وهو أن دراستنا للوعى تقتصر مباشرة على أنفسنا فقط ولكن أليس فى الإمكان أن نستدل من سلوك الآخرين على أن للناس صفة الوعي أيضا ؟ حتى إذا كان عن طريق اللغة لأن اللغة وهي القيام بعمل سلسلة من الأصوات الخاصة بالفم والحنجرة هى أيضا شكل من التصرفات أو السلوك الذى يبدو من الإنسان والحيوان ما دامت تصف لنا انفعالاتها وأفكارها بالكلمات. من كل هذا استخلص علماء السكلجة حديثا تعريف علم النفس فقالوا : أنه درس للسلوك والتصرف ، و إننا بهذا التعريف نستطيع أن نتفهم الشيء الكثير من أسرار هذا العلم ويبقى من يلتزم بإطلاق التعريف على دراسة الوعى حاصرا بحثه عن وعى نفسه ولذا يصعب عليه أن يتوصل إلى نتائج صحيحة شاملة تنطبق على هذا وذاك وأولئك أجمعين .

و بناء على هذا يصبح من الواجب أن ندرك معنى التصرف ؛ كلنا يعلم أن الموجودات تقسم طبيعيا إلى قسمين ( نسمة ) و ( موات ) والتصرف لا يمكن أن يطلق إلا على القسم الأول حيث إن المواد أو الكائنات الجامدة تتغير بتغير المؤثرات الخارجية بينما الأحياء تسير وتعمل بفعالية داخلية نحو غاية أو هدف هو من صالحها كما يظهر ذلك من هجرة الطيور مثلا أو من قيامها بعمل الأعشاش لتبيض

وتربى أفراخها فيها وبهذا تتميز النسمة عن الموات بتصرفاتها تفريقا لها عن الحركات الميكانيكية التى تظهر على الموات بصورة عامة .

وهنا لا بد من أن نلفت النظر إلى نقطتين هامتين :

الأولى : عندما نذكر أن الإنسان يعمل بقصد الوصول إلى نتيجة يرتضيها نعنى بذلك أنه يعمل لإنجاز واجب أو عمل كان قد افتكر به سابقا قبل الشروع فيه ، وإذا قلنا إن الأحياء جميعها تعمل تقصدا فهل يعنى ذلك أنها تؤدى ما يؤديه الإنسان وهل للزلنطح أو الديدان قوة تتصور فيها نتائج العمل قبل الشروع فيها . إن الجواب على ذلك لا يأتى صحيحاً إلا بعد أن القيام بتجارب عديدة لدرس تصرفات الحيوانات ومقارنتها بتصرف الانسان فإن كان هناك شبه بين النوعين من السلوك ولو كان بظروف خاصة فقط حكمنا على أن لبقية الحيوانات مقاصد واعية. والواقع أن سلوك أنواع شتى من الحيوانات تتشابه من بعض الوجوه وسلوك الإنسان ولكنها تختلف عنه من وجوه أخرى .

والثانية : قد لانجد جميع أعمال الإنسان وتصرفاته مساقة بمقصد واع، إذ فى الإمكان مثلا أن يمشى إنسان فى الطريق وهو مشغول البال فلا ينتبه إلى جهة سيره وعلى كل فانه يقصد الغاية دون أن يضيعها، ولا يبعد أن يكون للانسان كثير من هذه التصرفات الميكانيكية التى اكتسبت بالعادة وتلوح بادىء ذى بدىء أن لها شأنا ضعيفا أو ما يقرب من العدم من الفعالية الواعية .

# حجر الماس

« الحجر الكريم الفائق
معشوق الأثرياء . »

أذاعت الجمعية الجغرافية الوطنية فى أميركا فى نشرتها المسماة « صحيفة الأخبار الجغرافية » مجمل التبدلات التى طرأت على حركة الماس وذكرت شيئا عن تعدينه واستعماله فقالت : —

هبطت واردات الماس عام ١٩٣٠ كثيرا فقد بلغ النقص ثلث الوارد قبل عام من التاريخ المذكور ، وكان زنة هذا الوارد ما يقارب النصف مليون قيراط و يقدر ثمنه بستة ملايين من الدنانير . وتعلل زيادة الوارد من هذا الحجر الكريم حتى أيام الكساد نسبة إلى السلع الأخرى بأن الماس لا يستعمل فقط فى أمور الزينة والتبرج المتطلبة من قبل النساء والرجال بل إنه يستهلك كذلك فى الصناعات المختلفة الدقيقة و يصرف لكل ذلك من منتوجه بما يقارب ٥٠ ٪ فى المائة من المحصول سنويا فمنه تصنع مثاقيل مختلف الساعات والموازين التى يخصص بعضها لقياس الزمن أو التيارات الكهربائية ، ومنه تستعمل معظم الآلات الدقيقة والأجهزة الثمينة المعدة المختبرات الكيمياوية . إن قسما من هذه الأجهزة يحتوى على ثقوب صغيرة جدا يمكن بواسطتها تحضير أسلاك دقيقة من المعادن النادرة كالذهب والفضة والذهب الأبيض « البلاتين » التى تستحضر منها خيوط الآلات الكهربائية وبصلات الراديوم إلى آخر ما هنالك من المصنوعات الفنية . وفيما عدا ذلك نجد استعمالات صناعية أخرى لهذا الحجر وهى عمل آلات لحرق الزجاج والخزف وأمثالها من المواد الصلبة و إعداد أجهزة تستعمل فى البرم والخرط كابر النقش والحفر والشفرات الحادة لزرف الرخام والحجر .

إن الماس المستهلك للأغراض السالفة الذكر هو بالطبع من النوع الردىء أو المتوسط فى الجودة وهذا يزيد محصوله عن نصف مايستخرجه العالم من الماس عموما ، وهو بالطبع ذو قيمة أقل بكثير من النوع الممتاز الذى يستفاد منه فى عمل المجوهرات والحلى . إن أكثر من ٨٥ ٪ فى المائة من الماس الموجود الآن فى أقطار المعمورة

يستورد من قارة أفريقيا ، ونصف هذا المقدار يصدر من مناطقها الجنوبية . أما الولايات المتحدة الأميركية فهى أكثر الممالك العالمية استهلاكا للماس وهى فى الواقع تستورد جميع ما يستخرج من مناجم أفريقية الجنوبية .

تقدر كمية الماس المستخرجة عام ١٩٢٩ بكتلة مكعبة الشكل طول ضلعها ٥ أقدام ونصف ويقارب ارتفاعها قامة إنسان متوسط الطول أما وزنها فيبلغ طنا ونصف الطن .

إن الأراضى الغرينية ذات الرسوبات المحتوية على الماس كانت إلى سنين متأخرة المنبع الفياض لهذا الجوهر الثمين حتى إذا ما تقدمت طرق التعدين صار فى الإمكان الحصول على كميات كبيرة من الماس بطريقة الحفر العميق فى مجارى البراكين المندرسة منذ عشرات السنين بعد عزل الأحجار المعدنية من التراب والصخور . وإن أعظم هذه المجارى يقع فى جنوب القارة الأفريقية قرب منطقة « ريثوريا » حيث اكتشف عام ١٨٩٠ واستطاعت يد الانسان الجبارة من حفر خندق عظيم يقارب عمقه من الألف قدم بعد أن أزيح من هذه الحفرة ١٣٠ مليونا من الأحمال كلها من الطين الخزفى الأزرق . فأصبح هناك هوة تحير الألباب فى مقدورها أن تبتلع بعض ناطحات السحاب الأميركية ، وبهذ استخلص الحفارون من مواد هذا المنجم الواحد ما يقارب الثلاثة ملايين قيراط من الماس تقدر بـ٣٢ مليونا من الدنانير .

أما المناطق الغرينية الأخرى المهمة فقد اكتشفت قبل ذلك بسنة أو مايقاربها فى ( نماكولند ) فى الجهة الشمالية من رأس ( بوفنس ) في جنوب أفريقية حيث وجد الماس فيها بين طيات الرمال على طول ساحل البحر . وامتد عمل الحفر فى أراضى واسعة جدا . أما طريقة التنجيم فى هذه الجهات فقد اقتصرت على غرف الرمال بواسطة المجارف البخارية أو الكهربائية وشحنه بعربات مسطحة حيث ينقل ليصفى ويعزل عنه الماس وبهذه الصورة استحصل من الماس فى السنة التى

ابتدأ فيها الحفر بما يقدر ثمنه بـ ( ٤٠٠٠٠ ) من الدنانير . وبلغ أحيانا زنة الماسة الواحدة بـ ( ٨٥ ) قيراطا . ووجد أن الرسوبات المستخرجة من منطقة ( نما كولند ) مخلوطة بكثير من صدف المحار الذي عاش فى الأزمنة القديمة قبل التاريخ وكانت هذه بالحقيقة أكبر عون للباحثين فى استكشاف تلك الرسوبات الرملية لأنها إن وجدت فقد نجد معها الماس لا محالة .

والمعروف أن هناك نظريتين عن أصل الماس فى هذه المنطقة : أولاهما تدّعى بأنه جرف بواسطة مياه البحار من الجبال الداخلية القريبة فغطاه الرمل بطبقة كثيفة وستره عن الأعين ؛ أما النظرية الثانية فترجع أصله إلى أعماق البحر حيث دفعته الأمواج من هناك إلى الشواطىء بمعونة فعالية البراكين وجيشانها فى العصور السالفة .

NEW YORK UNIVERSITY
LIBRARY
OF GERMAN

# الجرّاد

معيشته ، طبائعه ، طرق مكافحته

## الطبائع العامة :

الجرادة حشرة صغيرة من الحيوانات غير الفقرية التابعة لشعبة المفصليات ؛ يبلغ طول جسمها ستة سنتمترات ، ويكون لونها فى الغالب أحمر قرنفليا أو أصفر ولها زوجان من الأجنحة : الأمامية منها مرقطة ببقع غامقة أوسوداء ، أما الخلفيَّة فشفافة ومزينة باللونين الوردى والبنفسجى .

يجرى السفاد (المرادفة) بين الجراد فى أوائل الربيع ، وذلك عندما يكمل نضوج الأعضاء التناسلية فيها ، وبعد الانتهاء من التلقيح تموت الذكور وتضع الإناث سوءها( بيضها ) بعد ماتَمْكُنْ ( تجمع البيض في جوفها ) مدة قليلة . وكيفية وضعه أنها تحفر لهذا الغرض ثقباً في الأرض يبلغ عمقه عادة عشرة سنتمترات على الأكثر ، وذلك بمساعدة جزئها الخلفى حيث يوجد فيه عضو خاص للحفر يدعى «ذنب الجرادة» ، تغرزه فى التربة وتضع منه بيضها فى الحفرة ، بعضه بجانب بعض على شكل عنقود ، ويبلغ معدل عدد البيض فى هذه الكتلة ثمانين بيضة . وبعد وضع البيض تفرغ عليه الجرادة بصاقها (لعابها) وهى مادة تشبه رغوة الصابون إلا أنها لزجة وتجمد حالاً عند ملامستها الهواء ، فتحفظ بذلك البيض من هجمات النمل وغيره من الحشرات المفترسة . وقد تستغرق عملية حفر الواحد من هذه الثقوب وإكمال وضع البيض فيه مدة تتراوح بين الساعة والساعتين ، إذ تتوقف على نوع الأرض ودرجة صلابتها ، وتموت الأنثى فى الغالب بعد وضعها البيض ببضع ساعات .

## كيفية الحركة :

تضع الأنثى بيضها عادة فى الجهات الرطبة ، وتفضل نادراً ضفاف الترع والسواقى والأراضى المزروعة المسقاة حديثاً ، ويفقس البيض بعد مدة قصيرة

لا تقل عن الثلاثة أسابيع ولا تزيد عن الخمسة ، فتنبعث منه اليرقات الدودية الشكل التى تأخذ طريقها إلى سطح التربة بمساعدة حركتها الدودية الخاصة ، فيمر عليها دور الانسلاخ التمهيدى حيث تتطوّر إلى حشرة صغيرة لم تنبت فيها الأجنحة المعروفة ، وتسمى عندئذ بالحوريات أو الدبا ( الواحدة دباة ) بفتح الدال وتعرف عند العامة باسم النطاط أو الزحاف ، وتكون إذ ذاك قادرة على الحركة بطرق عديدة مختلفة أبسطها ما يدعى بالدبيب أو الزحف ، ولم يعرف حتى الآن ماهية العمل الميكانيكى الباعث لهذه الحركة ، ولكن من المظنون أن جميع الأرجل الست فى الزحاف الواحد تشترك فى هذه العملية ، ومع هذا فإن الزوج الخلفى لا يلعب دوراً هاماً أثناء هذه الحركة كبقية الأرجل ، وقد قدر الأستاذ « نيكولسكى » معدل سرعة الزحف فوجده يقارب الثلاثة والعشرين قدماً فى الدقيقة الواحدة غير أن هذا الرقم لا يدل على حقيقة ثابتة بناء على اختلاف الحركات أثناء المهاجرة والرحيل .

تسلّق الأشجار والسباحة :

والتسلق نوع من أنواع الدبيب ، وبه يستخدم الزحاف الزوجين الأماميين من أرجله فى أول الحركة ثم الزوج الخلفى وهكذا بصورة متتالية وعلى استمرار ، فتكون الحركة أشبه بالنط أو الوثب ، ولاشك أنها نتيجة أجوبة لمؤثرات خارجية . إن الزحاف والحشرات اليافعة من أنواع عديدة كثيراً ما تخوض المياه سباحة ، ومنه ما يعيش قرب الماء ويسبح فيه غالباً بين آن وآخر أو يقضى حياته على الحشائش المائية مدة من الزمن ، وقد ظهرت بعض التكيفات والتحورات فى تركيب أجسام هذه الحشرات السابحة نتيجة حياتها المائية ، وذلك كاتساع حواشى قصبة الرجل والأقسام الأولية من المفاصل ( رسغ القدم ) ، ولتعلم أن الحركة الميكانيكية فى السباحة لا تختلف عن القفز إلا أن للأرجل الخلفية هنا دوراً هاماً إذ هى التى تثب فى بادئ الحركة . والحشرة السابحة تخفى نصف جسمها تحت سطح

الماء حاملة كمية غير قليلة من الهواء، داخل جزئها الظهرى المتقدم ، وهو المدعو بـ«البروتم» . وبذلك يسهل على الحشرة التنفس خلال الفتحات أو الثغور التنفسية الصدرية ، وإذا ما أرادت تبديل الهواء رفعت جانبها قليلاً فوق الماء ، فيبرز ظهرها المتقدم ويلامس الهواء الخارجى ويحصل على كمية منه ، وهذا هو السبب الذى يجعل الزحاف قادراً على السباحة مدة طويلة تتجاوز الـ ٢٨ ساعة على سطح الماء دون أن تختل موازنته ، أو أن يموت اختناقاً .

الطيران :

وهذا لا يكون إلا عند الحشرات الكاملة النمو ( اليافعة ) . ويبدأ الطيران بوثبة يتبعها نشر الأجنحة إلا أن الوثب غير ضرورى دائما ، لأنه قد يكون الطيران من فوق الأشجار ، وعلى كل تبقى الأجنحة الخلفية (وتسمى القشران بضم القاف ) والأجنحة الأمامية أو الأغماد ( وتسمى الظهران بفتح الظاء ) أثناء الطيران منعزلة بعضها عن بعض فى الخفقان حيث تكون الحركة فى اتجاهات مختلفة ولا تتوافق فى أوقاتها ، ويقترب زوج القدم الأمامى نحو الصدر كما هى الحال وقت السكون ، وينحنى الزوج الخلفى انحناء بسيطاً نحو الركبة .

ويمكن أن يكون الطيران عديم الفعالية (سلبياً) ، وذلك حينما تجرف الرياح سرباً من الأسراب فى اتجاهها . والشائع أن للأكياس الهوائية أهمية كبرى فى الطيران فهى امتلائها بالهواء تقليل للثقل النوعى لجسم الحشرة ، غير أن هذا الاعتقاد خطأ محض ، إذ لا يمكن للحويصلات الهوائية من تنقيص الوزن النوعى للجسم ما دام هناك اتصال دائمي بين الهواء الموجود فى هذه التجاويف وبين الهواء الخارجي ، وهما فى الغالب بدرجة واحدة من الضغط .

المنبهات الخارجية وتأثيرها فى حركة الجراد :

إن كل الحركات التى تقوم بها الجرادة الواحدة هى عبارة عن أفعال انعكاسية أى أجوبة لمؤثرات خارجية ، وقد يؤدى حصول بضع حركات انعكاسية ناتجة

من عوامل كثيرة تعمل عملها فى وقت واحد إلى تصرف معقد لا يمكن فهمه إلا بالتحليل الدقيق ، وحتى الآن لم يتمكن الباحثون من درس هـذا التصرف دراسة وافية ولهم فى ذلك شذرات أو شروح بسيطة لا تفى بالغرض المطلوب .

١ — المنبهات الميكانيكية — وهذه يختلف تأثيرها حسب المكان والعوامل المحيطة ، فمثلاً إذا ضغطنا على إحدى سيقان الجندب لشاهدنا فيه حصول شلل وقتى يستمر حيناً قصيراً أو طويلا حسب درجة حرارة الجو ، فهو يدوم من ٤ إلى ١٠ دقائق فى درجة الحرارة ١٣ سنتغراد ، ويدوم أقل من ذلك فى الأيام الحارة ، وقد لا يحصل بتاتاً فى أوقات القيظ الشديد . والقفز هو بلا شك حركة انعكاسية إذ قد شوهد أن الأرجل الخلفية تبدأ عملها عند أدنى لمس يصيب البطن من الجهة السفلى قرب الظهران ( الأغماد وهي الأجنحة الغليظة ) وهـذا ما يحصل عادة فى الطبيعة عند احتكاك البطن بسطح الأرض أثناء الدبيب . ومن الوسائط أو المنبهات الميكانيكية التى تؤدى إلى حركات عكسية هى اهتزازات الأمواج الهوائية التى تؤثر على ما يظهر على الأجهزة السمعية للحشرة ، كما أن الاقتراب السريع من حشرة ساكنة يؤدى إلى حركتها من مكانها والابتعاد عنه قفزاً . وإذا كان الاقتراب منها بصورة بطيئة وخفيفة جداً بحيث لا تسبب خطران فى ذرات الأرض أو الهواء عند تلك المنطقة ، فعندئذ قد تبقى الحشرة ساكنة . هذا وليس من المستبعد كذلك اندفاع هذه المنبهات خلال الحاسة النظرية ولو كانت فى الحقيقة ذات أهمية ثانوية .

ومن جملة الحركات الانعكاسية المهمة المعروفة للحشرات هى ما تدعى بمط الأرجل الخلفية أو ( أوتوتونى ) ويحصل ذلك عادة عند تعرض ساق الرجل أو أى جزء من أجزاء البدن للضغط أو لمنبه آخر كالتيار الكهربائى الذى يستفز الكتل العصبية فى الميزوثوركس . وقد يكون ذلك تحت تأثير السم بعد وضع الحشرة فى قنينة (السايناید) مثلا ، ولابد أن تحصل هذه الحركة لأول مرة أثناء مرور الحشرة

فى أدوار الانسلاخ حيث تسعى لتحرير أرجلها الخلفية من ثوبها القديم .

وهناك خاصة ثانية للجراد والجندب وهى انبعاث السائل الأصفر ( دبس ) من الفم كلما مسكت الحشرة باليد وقد درس هذه الظاهرة الأستاذ ( رابود ) فقال عنها إنها حركة انعكاسية للمعدة تسبب انصباب محتوياتها إلى الخارج وذلك بسبب الضغط الحاصل على الميزوثوركس والميتوثوركس أو الجزء الأمامى للصدر وقواعد الأقدام وفى بعض الأحيان يصحب هذه الظاهرة نزيف ينبعث من بضع مناطق فى الجسم ، والأرجح أنه يحصل من اندفاع افرازات غددية مكروسكوبية منتشرة على سطح هذه المناطق ويقول البعض إن هذه السوائل هى عبارة عن دم الحشرة الذى يسيل من منتفخات موجودة فى القسم الظهرى المتقدم ، غير أنه سرعان ما تندمل هذه الجروح دون أن تبقى لها أثراً بعد أن تترك الحشرة وشأنها ولم يعرف حتى الآن التركيب الكيماوى لهذا السائل .

إن كل هذه الظواهر التى تبديها الحشرة فى مثل هذه الأحوال هى عبارة عن سلاح تدفع به غائلة العدوّ وتحفظ بواسطته نفسها إذ أن العدوّ سرعان ما يطلق سبيلها عندما تتدفق هذه الإفرازات إلى الخارج .

وفى الواقع إن خروج اليرقات إلى سطح الأرض بعد أن تفقس عنها البيوض لا يمكن أن يفسر إلا على قاعدة تأثير المنبهات الميكانيكية وذلك من جراء الضغط الحاصل من التربة المحيطة باليرقات نفسها ثم إن اتجاه الحركة يتعلق بقوة الجذب وهى أيضاً منبه ميكانيكى وهذه القوة هى ذاتها التى تعين اتجاه الحركة للزحاف عند التسلق على الأشجار ليلا وتسمى هذه الحركة التى تحصل تحت تأثير الجاذبية « الاتجاه نحو مركز الأرض » ومن ذلك نعلم أن لليرقات اتجاها سلبيا بالنسبة إلى تلك القوة .

٢ — تأثير الحرارة — يمكننا إن نقول أن الزحاف يحتاج إلى حرارة معينة تناسبه للمعيشة فى محيطه فلو أخذ زحاف وجمّد تحت درجة الحرارة ٥ س لمدة

٣٠ دقيقة حتى يصبح جسمه قابلا للقصف ، ثم أخذ وعرض إلى نور الشمس لرأينا انتعاشه ورجوعه إلى الحالة الأولى ، غير أن هذا لا يصح دائماً فنادراً ما تعود الحياة للزحاف بعد انتشاله من محيط درجة حرارته تساوى — ١٤ س. كما أن ارتفاع درجة الحرارة إلى ٥٠ س يؤدى أيضاً إلى شلل فى أعضاء الأرجل الخلفية وقليلا ما تعيش الحشرات فى جو حرارته تقارب ٥٧٫٧ س أكثر من ١٠٫٥ دقائق .

وتتباين طبائع الحشرات حسب اختلافها وحسب درجات الحرارة فزحاف الجراد المراكشى مثلا يذهب فى دور سبات عميق فى درجة ١٠ س بينما نجد أن الجراد الرحّال يبدأ دور سباته الناشىء من الحرارة عند الدرجة ٤٠ س وفى الدرجة ١٦ س أثناء هبوط الحرارة واشتداد البرد ليلا وإذا ارتفعت الحرارة أكثر من ذلك تسبب ازدياداً فى النشاط والحركة إلى حد محدود ، وأوفق حرارة للجراد الرحّال التى تزيد فيه فعاليته بين ١٥ — ٤٠ س . وقد عملت تجربة لتقدير الحرارة الضرورية لمثل هذه الحشرات فأخذت قطعة من الزجاج مغطاة بورق خفيف ووضع عليها عدد من الزحاف ثم عرضت الزجاجة إلى الحرارة بواسطة مصباح كهربائى بحيث تمس أولا مركز القطعة وكانت الحرارة فيه فى الدرجة ٦٠ س وتقل بالطبع كلما ابتعدنا عن المركز ، فشوهد أن الزحاف يبتعد عن نقطة المركز ويشكّل دائرة منتظمة حوله فى المنطقة التى تكون درجة حرارتها بين ٣٦٫٦ و ٣٧٫٧ وقد أعيدت هذه التجربة مرات عديدة فكانت النتائج متساوية . نستدل من كل ما تقدم أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب الازدياد فى فعالية الحشرة ونشاطها فتزداد حركاتها الانعكاسية ولو كان ذلك بتأثير عوامل أخرى ، والحرارة تزيد فى طول قفزة الزحاف وفى سرعة جماعات اليرقات المتنقلة من مكان إلى غيره ومما لا شك فيه أن نزول الجراد من الشجر إلى الأرض هو نتيجة اختلاف فى درجة الحرارة الجوّية والأرضية معاً مما يؤدى بالجراد إلى أن يتجه بالانجذاب الإيجابى نحو الحرارة ، ولكن إذا ارتفعت الحرارة أكثر من الدرجة التى ينبغى أن تكون أو الدرجة الأوفق فيصبح الانجذاب عندئذ سلبيا .

(٣) تأثير النور : ويظهر ذلك جلياً بعد انقضاء دور الانسلاخ ، فالجراد المراكشى يجتمع دائماً فى الأيام التى تغطى فيها قطع الغيوم جزءا من نور الشمس فى المناطق البيضاء المنيرة . ويلوح لنا أن الانجذاب للنور يختلف حسب أنواع الحشرات فمثلا يشاهد أن النور الصناعى يجذب نحوه فى الليل عدداً غير قليل من أنواع الجراد التابعة لفصيلة (أكريديدى) وكما أن سرعة فاعلية النور تتغير حسب نوع الحشرة فهي تتوقف أيضاً على طبيعة النور فتكون على أشدها فى نور الشمس وتكون على أقلها فى النور المختلط وتنعدم بتاتاً عندما نغلق جميع عيون الحشرة البسيطة منها والمركبة ، وقد دلت هذه التجارب على أن هذه الحيوانات الحشرية تتأثر برؤية الأشباح فقط ولهذا يمكن الاقتراب من الحشرة الواحدة وقبضها على شرط أن يتم ذلك بتؤدة وسكون .

(٤) تأثير العوامل الكيماوية : إن انجذاب الجراد لبعض المواد الكيماوية السامة حقيقة تعرفها الأكثرية ولو كان التأثير هذا بسيطاً على العموم . وقد نجد هناك مواد ينجذب نحوها الجراد انجذاباً إيجابيا وأهم هذه المواد هو الماء فكثيراً ما شوهد أن بعضاً من أنواع الجراد يحط على نباتات لا يعيش عليها البتة ولا يقتات بها ولكنه يقبل عليها لكونها تحوى على كميات كبيرة من الماء . والماء بحد ذاته له أهمية فسيولوجية كبرى للجراد حيث إننا نشاهد أثناء الصوم الذى تقوم به الحشرة نقصاً بينا فى وزن جسمها وسببه قلة الماء المشروب وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الجرادة الجائعة لاتستغنى عن شرب الماء أبدا . ومن الأمثلة الأخرى للمواد التى يقبل عليها الجراد هو مركب « خلات الأميل » والخلاصة أن الحشرة معرضة لكثير من المنبهات الخارجية من نور وحرارة وضغط ومواد كيمياوية وغيرها وكما أن هذه قد تؤثر على الجسم بصورة منفردة فقد يحصل أن يقع تأثيرها مشتركا فينتج عملا واحدا وهكذا نجد أن سرعة القفز مثلا قد تحصل من ازدياد فى درجة الحرارة فقط أو بتأثير مزدوج لمنبهين ميكانيكى وحرارى أو غيرهما معاً .

طبائع التغذى والعوامل المؤثرة عليها :

إن الحشرات ومنها الجراد مشهورة بالشره العظيم إذ أنها تبتلع كل شىء تجده فى سبيلها عند تجوالها ورحيلها ويتكون معظم طعام الجراد من الأجزاء الخضر لأكثر النباتات المزهرة وقليل منها يعيش على النباتات الأشنية التى تكثر فى التربة الغنية بالمواد العضوية الأرضية ، وقد يندر أن نجد البعض من هذه الحشرات يعيش على غذاء الحيوانات البروتينية . وانتخاب الأغذية النباتية يختلف باختلاف أنواع الحشرات ويمكن أن نقول على العموم إن معظم أنواع الجراد يفضّل من النباتات : « الفصيلة العشبية » أما الأشجار والعوسج والأدغال فتقبل عليها بضعة أنواع محدودة من الحشرات ليس إلا . أما الجراد الرحّال فهو من الحشرات التى تأكل جميع أصناف الطعام ، وله ميل شديد إلى أكل القصب وأوراقه وإذا لم يجد فى سبيله نباتات من الفصيلة العشبية فسرعان ما يهاجم نباتات أخرى من (الفصيلة البقولية) أو غيرها حتى ولو كانت تلك النباتات من الأنواع السامة . وقد دلت الاختبارات على أن مثل هذه النباتات له ضرر كبير على الحشرات نفسها فهى تعوق مثلا نمو الأعضاء التناسلية فيها وتؤثر عليها تأثيراً سيئا . وكلما زاد عدد الزحاف كبر ضرره بالأعشاب والخضر . وإن لكل نوع من الأنواع أصنافاً محدودة من النباتات يقتات عليها غير أنه لا يمكننا أن نحكم بأنها لا تتعداها إلى أصناف أخرى فكثيراً ما يشاهد البعض من الحشرات السابحة تهاجم النباتات لقرض أوراقها الخضر وتمزيقها فقط دون أن تأكلها ، وهذا ما تعمله أسراب الجراد الرحّال أيضاً عندما تهاجم الحقول وتسطو على المزروعات فتقضم سيقان نباتاتها وتجردها من أوراقها وتنثرها الأرض دون أن تبلعها . وهناك أنواع أخرى تأكل أمواتها وقد سعي (نيكولسكى) كثيراً لتربية الجراد الرحّال على طعام الحيوان فكانت النتيجة فاشلة سيما وأن الزحاف الرابى وفق ما ذكر لا يقدر من إتمام عملية الانسلاخ بنفسه فيموت عاجلاً

أو آجلا . والجراد على العموم له المقدرة الكافية على البقاء حياً عدة أيام دون أن يشرب فيها الماء أو يتناول الطعام ، وفى الواقع إن الجراد المراكشى يمتنع عن أخذ غذائه وشرابه فى دوره الأول مدة ستة أيام أما الجراد الرحّال فيبقى كذلك مدة لا تقل عن السبعة أيام ونصف اليوم ويستمر صائماً من الدور الثانى إلى الرابع مدة ستة أيام أما فى الدور الخامس فيمكنه العيش بلا غذاء مدة تسعة أيام . هذه هى أدوار الصوم التى تتعاقب على الحشرة الواحدة وينقص وزن الجسم أثناءها نقصاً عظيما يتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين بالمائة من وزنه الأصلى ، وعند الموت يكون النقص فى الوزن بيناً وهو يرجع بالأكثر إلى فقدان كميات المياه وليس إلى تفتت المادة القشرية اليابسة . وتزداد نسبة التغذى بازدياد نمو الزحاف وانتقاله من دور إلى دور حتى تصبح عشرة أضعاف مما هى والحشرة فى الدور الأول ، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الحشرة الواحدة لا تهضم وتمثّل كل ما تبتلعه بل تدفعه إلى الخارج مع البراز دون تغيير وقد تأيد ذلك بالاختبار فكان أكثر محتوياته أليافاً نباتية وقطعاً من الورق لم تفقد شكلها . هذا وليس لدينا استدلالات علمية كافية تفيدنا عن كمية ما يأكله الجراد فى كل دور وبالإجمال يمكننا أن نقدر ما تستهلكه الحشرة الكاملة من الطعام بنصف ما استهلكته فى جميع أدوارها اليرقية . وأوقات التغذية مهمة جداً لعلاقتها الشديدة بطرق المقاومة فالزحاف مثلا يمتنع عن تناول الطعام بعد كل سلخة وهو يدوم فى الجراد الرحّال زمنا يتراوح بين ١٢ — ٢٤ ساعة ويبدأ دائماً فى صباح اليوم التالى الذى يعقب يوم الانسلاخ دون أن تضعف من حدّته الظواهر الجوية مهما كانت . والسبب الفسيولوجى الذى يحتم هذا الصيام كما يعتقده (كولاجن) هو وجود المواد الغذائية من صفار البيض ونحوه فى معدة الحشرة إثر فقسها عن البيض وهي التى تعتمد عليها أثناء مرورها بأدوار الاستحالة وحالما تأتى عليها الحشرة وتنتهى من هضمها تبدأ تشعر الحشرة بالجوع فإذن واعتماداً على هذا لا يمكننا أن نجزم بوجود دور للصيام أثناء نمو الحشرة . والحرارة

عامل آخر مهم فى التغذية فهبوطها يقلل مقدار المستهلك من الأغذية بواسطة الزحاف وذلك فى دوريه الأول والثاني ، على أن هذا التأثير يمسى ضئيلا فى الأدوار المتأخرة ، أما الحشرات اليافعة فتدوم تغذيتها بالخضر والنباتات مادامت درجة الحرارة تقارب الـ ٢٠ س وتتوقف إذا زادت فوصلت (٣٢) س . وهذا ما يفسر لنا أيضاً تأثير الحرارة على الأعمال الفسيولوجية الأخرى إذ تزيدها كلما ارتفعت إلى حد محدود ثم تضعفها فتخمدها أخيراً ولذا دعى ذلك بـ (الخمود الحرارى) وهكذا اختلفت كمية التغذى أيام الصحو والمطر حسب ازدياد الرطوبة الجوية ووفقاً لتأثير النور على فعالية الحشرات ، وقد قال ( فالوفا ) إن معدل مدة الصيام عقب كل انسلاخ هو ٢٠/٢٧ ساعة والصيام يحصل بالتدريج ولا يكون فجائيا .

## طبائع الجراد المتجمع :

إن خاصية التجمع أو المشى أسرابا صفة من صفات الجراد ومن السهل جداً أن نشاهد الجراد وهو يكوّن هذه الأسراب فى بداية التفقيس حتى يصل إلى دور الكمال ، ومن الأفضل أن نحدد كلمة « الأسراب » للجراد الكامل ( اليافع ) ونطلق على زمر الزحاف كلمة «جماعات» أو ماتسمي بالانكليزية (باندز) وتتوقف خاصية التجمع على قوة حيويّة كامنة فى أنواع الزحاف تسوقها : أولا — إلى أن تعيش سويّة مع بعضها وثانياً — إلى أن تقلد الأفراد فى الجماعة الواحدة حركات بعضها البعض وهذه بالطبع نتيجة أفعال انعكاسية بسيطة ولو كنا نجهل فى الوقت الحاضر قواعدها العلمية المبنية عليها . والخاصية الأولى تختلف حسب شدتها حتى فى أفراد النوع الواحد فالزحاف الذى يكون على أبواب دور الانسلاخ له مايشغله عن التجمع موقتا فرغبته للاجتماع قليلة نسبيًا ولا نعرف حتى الآن إذا كان للقوى الشمّية والناظرة عمل كبير فى خلق هذا الميل أم لا . أما الخاصية الثانية فتدعو إلى تقليد الحركات وجعلها أعمالا انعكاسية تتسبب إما عن منبهات ميكانيكية مبعثها حركة الهواء وتذبذب ذرات التراب أو عن النظر ، إذ يظن البعض أن حركة الأشباح

على شبكة عين الزحاف تولد حركة انعكاسية فى أقرب موجود مجاور على نفس الاستقامة ، وهكذا تنتشر الحركة الواحدة بين كل أفراد الجماعة بسرعة فائقة ، هذا إذا فرضنا بأن كل الشروط الباقية كانت متوفرة وذلك كالحرارة مثلا التى تنبه الحشرة فتدفعها إلى العمل .

## كيفية تشكل الجماعة :

لا شك أن أكثر أنواع الجراد يسعى لوضع بويضاته بكميات وفيرة فى حفرة واحدة ، فبناء على ذلك نجد أن الزحاف الذى يفقس عن هذه البويضات له الغريزة التامة لتشكيل الجماعات سيما وأنه منذ خلقته يحتك بإخوته احتكا كا يكاد يكون اجتماعا طبيعياً . وهكذا يتكاثر عدد الجماعة بالتدريج بعد انقضاء دور الانسلاخ التمهيدى فيتكاثف الزحاف فى مناطق صغيرة على هيئة عوائر مبعثرة هنا وهنا لك حيث تتراءي للناظر كأنها بقع سوداء تلطخ سطح الأرض . ولما كان له الميل للانجذاب نحو النور و الحرارة نراه يسعى دائما بحركاته الأتوماتيكية إلى تشكيل الجماعات و فى أيام الشتاء القارسة نراه يجتمع فى الغالب بين الصخور والأحجار وفى وسط النباتات والأعشاب حيث تكون الحرارة موافقة ومساعدة للحشرة على حماية نفسها ووقايتها من برودة الجو .

## حركة الجماعة :

إن حياة الزحاف اليومية بسيطة جداً فهو يقضي معظم أوقاته فى النهار تحت أشعة الشمس بشكل جماعات عديدة متفرقة عن بعضها ، وفى الليل يزحف تحت الصخور أو يتسلق الأشجار بصورة زمر من أفراده فيصرف طول ليله هناك دون أن يبدى حراكا لشدة البرد ويبقى كذلك فى سكونه أو سباته فلا يستفيق إلا وقت بزوغ الشمس فى صباح اليوم التالى ، وعندئذ يهجر الأشجار ويذهب بجماعاته إلى حيث يجد الحرارة الكافية من نور النهار . وهذا الاندفاع ناتج على

الأرجح كما قلنا آنفاً من حركات انعكاسية تبعثها فيه منبهات الحرارة أو النور أو كليهما معا ؛ فقد دلت التجارب على أن حرارة الأرض تزداد فى الصباح أكثر بكثير مما تكون عليه حرارة الأشجار حيث بات الزحاف ليلا وعلى هذا تنجذب إليها جماعاته فتنزل بالتدريج من على الشجرة بعيد أن تسخن ويزول عنها خمودها . أما درجة التسخين فإنها تختلف بالنسبة إلى الأنواع والأطوار فهى فى زحاف الجراد الرحّال تتراوح بين ١٤ — ١٥ درجة س وذلك عندما يكون فى الدور الأول من الاستحالة وتعادل ١٥ — ١٦ درجة س وهو فى الدور الثانى وهكذا تتناسب تناسباً طردياً مع ازدياد العمر وكلما زادت الحرارة فى شدتها ظهرت فى الزحاف رغبة قوية للأكل والشرب . وقد تباينت الآراء عن الوقت الذى تتغذى فيه هذه الجماعات فمنها ما يقول انه يبدأ قبل النزول من الشجرة ومنها ما يقول بالعكس وليس لدينا فى الوقت الحاضر ما يثبت هذا أو ذاك وكل ما توصلنا إلى معرفته هو أن التغذى يتوقف على الحرارة كما يتوقف على رطوبة الجو أيضاً . وهكذا تبدأ الزمر الصغيرة في القفز والانتشار حتى تشغل ساحات واسعة مكوّنة جماعة واحدة أقل كثافة وتزاحماً مما كانت عليه زمرها ، وحينئذ تستعد هذه الجماعة الكبيرة بصرف النظر عن الجماعات الأخري إلى الرحيل بصورة غير منتظمة . ولنعلم من الآن أن ليس لهذه الهجرة من هدف مقصود بل إنها مجرد هجرة لا غير . وتلخص حركة هذه الهجرة بما يلى : —

بعد أن تكتسب أجسام الزحاف السخونة الكافية تبدأ بعض أفراد الجماعة الواحدة فى الوثب قليلا فلا يمضى زمن طويل حتى تقلدها الأفراد الأخرى بحركاتها نتيجة أفعال انعكاسية تمارسها زمرة من بين المجموع فتطير وتقود الكل وراءها فى اتجاه واحد تعيّنه الحالات والظروف الخارجية التي نجهلها ونشك فى أسبابها وعواملها . وإذا سارت الجماعة فى طريقها فلا يعود يوقفها شىء البتة وحركتها حركة عمياء لا تلتفت أثناءها إلى المصير . ويتوقف شكل الجماعة عند السير على

الصدف أيضاً ، ومن أمثال المؤثرات فى ذلك استواء الطريق ودرجة انبساطه واختلاف كثافة الحشائش المارّة بها وشدة هبوب الريح وغيرها وهى بلا شك تسلك السبيل الذى تجد فيه المقاومة على أقلها أثناء هذا الزحف الهائل . فزحاف الجراد الرحّال مثلا يسير فى حرش القصب على هيئة خطوط ضيقة على طول المنعطفات التى رسمتها الماشية و إذا صادف أن تقاطعت جماعتان مختلفتان فى اتجاه سيرهما يختلطان ويكونان جماعة واحدة تستمر فى حركتها حسب اتجاه إحدى الجماعتين الأكثر عدداً ولا يعوق هذا السير عقبة من العقبات ، فالجماعة تتحرك فوق الروابى وعلى الصخور وفى أعالى المستنقعات والحفر حتى بين الثقوب والأحجار ولكن إذا صادفها حائط أملس لا يمكن عبوره تغيّر عند ذاك اتجاهها الأول وتسير فى جهة ثانية . ويقطع الزحاف المجارى والقنوات سباحة بواسطة الوثب الاعتيادي حتى يصل الضفة الثانية ، ويحصل الوقوف عادة عند ظهور أى اختلاف فى درجة الحرارة أو بالأحرى عند ما تهبط شدتها عند الأصيل فتقف الجماعة عن الزحف بالتدريج ، ولكن علينا أن لا ننسى أن هذا الوقوف قد يتم وسط النهار أيضاً فليس ببعيد أن تزداد الحرارة إلى درجة تسبب الهمود فى أجسام الزحاف كما أشرنا إليه آنفا وحينئذ يأخذ الزحاف طريقه إلى أعالى الأشجار أو بين الأحجار فيلتجىء هناك مدة الظلام . ويقول ( نيكولسكى ) إن هذا الالتجاء يحصل فى المساء من جراء ازدياد درجة حرارة الجو بالنسبة إلى درجة حرارة الأرض وعلى هذا ينتقل الزحاف إلى المنطقة الأولى فيتسلق الأشجار ولكن هناك أيضا من يقول إنه ناشيء من عامل الانجذاب نحو النور إذ يتسلق الزحاف الأشجار ليحصل على أشعة الشمس الآفلة تحت الأفق وهناك تقل فاعليته بسبب الهمود الذى يعتريه من البرد و بذا يذهب فى سبات عميق طول الليل .

هذه هى حياة الزحاف اليومية التى لا تتغير إلا بتغير الظروف الخارجية فإذا كان اليوم بارداً قضى نهاره على الأشجار ساكنا ، كما أنه من المحتمل أن يحصل له

سبات موقت إذا ما انحجبت الشمس بقطع الغيوم وسترت أشعتها عنه . أما أسباب حركة الجماعات فلها فروض عدة منها: أولا — تكون هذه الحركة منقادة لعامل التفتيش عن الطعام غير أن الواقع ينفى ذلك فنزول الزحاف من أعالى الأشجار وتركه أثناء جولانه أحسن المناطق الغذائية لمهاجمة أراض قاحلة صحراوية أو عدم وقوفه عند بعض البقع الغنية التي يصادفها في طريقه لدليل قاطع على أن طلب الغذاء ليس العامل الأساسى فى المهاجرة .

فليس لنا والحالة هذه إلا أن نقبل الفرضية الثانية ، وهى : تأثير درجة الحرارة والحالات الجوية . وهذه توضّح لنا أسباب تلك الحركات ، سواء وجد الغذاء أم لم يوجد ، إذ أنها تتحد فى تأثيرها كعامل واحد يزيد أو ينقص من التوتر العصبى « نيرفس تينشن » للجماعة الواحدة ، فيؤدى حتما إلى حركتها ، كما أن تلوّن جسم الزحاف ، وخاصة المناطق الظهرية منه بالصبغة السوداء له من الأهمية التى لاتنكر فى امتصاص أشعة الشمس كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وبذا تدفع الحشرة إلى العمل بتغيير طباعها ، وهذا ما يسمى بالتلون السربى (سورمنك كلريشن) .

## طبائع الأسراب الطائرة :

إن نمو الأجنحة فى الأنواع التى تشكّل الأسراب يقود إلى بعض التغيرات فى طبائع الحشرات: فهو يخفف من طبيعة التجوال ويجعل الجراد يقضى معظم أوقاته فى النهار على الأشجار دون أن يتأثر أو يجيب إلى منبه الحرارة فضلا عن كون الزحاف أصبح الآن حشرة كاملة حرة بانتقالها وقد قويت وتصلبت فيها عضلات أجنحتها الملونة . والطيران يحتاج إلى حرارة معينة تتراوح فى الجراد المراكشى بين (٣١—٣٣٫٥) درجة س أى أكثر بقليل مما تحتاجه جماعات الزحاف المهاجرة .

ويبدأ الطيران عادة بأن تأخذ أفراد من الجراد بالتحليق حول أخواتها وتبقى كذلك مدة وهى تحوم بشكل دوائر عريضة وتئز أزيزاً متواليا ، وعلى هذا النحو

تجتمع الأسراب الكبيرة إلى أن يحين الوقت للرحيل والمهاجرة ، وعند ذاك يأخذ السرب اتجاها معينا لا يغيره طول مدة الهجرة ، وقد يستمر الجراد على الطيران أثناءها من يوم إلى ثلاثة أيام مع لياليها يقطع السرب فيها مسافات واسعة ويكون على ارتفاع بعيد عن الأرض يكاد لا يرى أحيانا بالعين المجردة ، ومن المحتمل أن يكون لاتجاه الريح دخل كبير فى تعيين جهة السير . هذا ولم نعلم حتى الآن ما هو تأثير العوامل الخارجية على سرعة الطيران أو على علو هذه الأسراب عن الأرض ومن المؤكد أن العوامل الفسيولوجية هى السبب الرئيسى فى المهاجرة ، فنمو الأعضاء التناسلية فى الجراد وما يعقبه من تغيرات داخلية يدفع الحشرات إلى الطيران الذي يسبق السفاد ( الجماع ) دائما وفى كل الحالات، إذن فالطيران لم يخرج عن كونه (حفلة عرس) لا غير وهى لا تبطل أو تنتهى إلا إذا أصبحت الظروف الجوية غير موافقة أو أن تكون جميع الجسميات الدهنية فى الحشرة الواحدة قد استهلكت بالتأكسد فيصحبها غالبا تضييق أو تصغير فى الأكياس الهوائية . وعند الوقوف أو الحط يسلك السرب الهيئة الأولى التى قام بها قبل المهاجرة فتأخذ بعض الأفراد بالحوم بصورة دوائر إلى أن تهبط ويكون حينئذ قد حان وضع البيض .

وهناك فروض أخرى تشرح أسباب المهاجرة فمن قائل إنه نقصان فى كمية الغذاء فى مناطق التفريخ وعلى هذا تضطر الأسراب للذهاب فى التفتيش عن مرابع جديدة ؛ غير أن هذه الفرضية لم تجد قبولا ؛ فكثيرا ماتشاهد الأسراب الكبيرة وهى تقصد محلات فقيرة فى الطعام وتفرّخ هناك دون أن تلتفت إلى كميات الغذاء الموجودة فيها . ويظن ( روزيكوف ) أن السبب هو فاعلية الطفيليات كالقراد والذباب مثلا على هذه الحشرات التى تزعج الجراد وتطرده من محلاته وقد نقض هذه النظرية صاحبها بنفسه إذ قال إن الجراد ينقل كثيرا من هذه الطفيليات إلى مواطنه الجديدة فيأخذ إليها مثلا الذباب الوالد لليرقات وغيرها من بيوض

الحشرات أعداء الجراد . كل ذلك يدعونا حتماً إلى ترك نظريات وفروض أمثال هذه تقبل بطبيعتها الجدل الطويل والمناقشة الحادة .

## الطرق الفنية لمكافحة الجراد

يدعى بعض العلماء أن أضرار الجراد في الزراعة لا يمكن إحصاؤها وتقديرها لكثرتها ولذلك فإنهم لا يؤمنون بأى طريقة تتخذ لمقاومتها إلا إذا كانت تكلف المبالغ الباهظة للقيام بالعمل على أحسن وجوهه ، والواقع أن هذا الرأى بعيد عن الصواب ، لأن الواجب علينا مقاومة هذه الحشرات عدوة الإنسان بطرقٍ فنيّة تضمن لنا النجاح فى النهاية دون أن تكلفنا المبالغ الطائلة .

١ — طرق المكافحة الآلية ( الميكانيكية ) وأهمها :

(ا) إتلاف البيض :

إن حرث الأرض وكربها لإتلاف بيض الجراد وهو فى قشوره عملية مفيدة جداً ، فهى تعرّض قسما كبيراً من هذا البيض لأشعة الشمس وللهواء الخارجى فتموت الأجنة فى داخله أو تأكله الطيور فيبيد معظمه ، وقد لا يفوتنا أن ماتقوم به هذه الطريقة من خدمة لزهيدة جداً ، إذ من الصعب علينا أن نتلف جميع البيض ، وخاصة إذا كانت الأراضى التى احتلتها أسراب الجراد واسعة ومجهولة . هذا عدا كونها تستنزف مصاريف وجهود بليغة تدعونا إلى هجرها ، ولكن رغم كل ما ذكر عنها نجدها كثيرة الشيوع فى بضعة أماكن أهمها أسبانيا و بلاد المغرب فى شمال أفريقيا ، وهنا قد يستخدم العمال لجمع البيض بأنفسهم فيتلفونه باليد و يبيعون قشوره بأسعار محدودة يعينها الوزن والقانون .

(ب) إهـــلاك الزحاف و إبادته :

وهذه طريقة أولية استعملها الإنسان منذ القدم ولم تزل تستعمل فى الممالك المتأخرة فى الحضارة والعمران لقلة أجرة العامل فيها . وفى هذه الطريقة لا تزيد

الأدوات المستعملة عن شبكة لقنص هذه الحشرات غير الكاملة ، وقد نجد فى بعض البلاد كهنغاريا مثلا آلات أرقى من هذه بدقتها ونتائج استعمالها فهناك « مصيدة الزحاف » و« آلة قاتلة الزحاف » فالأولى عبارة عن صندوق خشبى مغلوق من جميع جهاته ومتصل من الاسفل بلوح عريض من الحديد فاذا ما سحب الصندوق على وجه الأرض يحتك اللوح العريض بالزحاف ويلتقطه واحدا بعد آخر ويقذف به داخل الصندوق خلال فتحة صغيرة فى وجهه وتجر هذه الآلة إما بواسطة الرجال أو الخيل حيث يجمع الزحاف بعدئذ فى أكياس صغيرة ويرسل طعاما شهيا للفراخ أو يجفف لأمور أخرى .

أما آلة ( قاتلة الزحاف ) فهى أشبه بالمصيدة المذكورة آنفا إلا أنها أبسط تركيبا فهى عبارة عن لوح من حديد مزئبق أو من قصدير له فى خلفه قارورة مصنوعة من نفس المعدن تحتوى على نوع من الريث يهلك الجندب أو الجراد ، غير أن مثل هذه الآلة لا تستعمل عادة إلا لجمع مفردات هذه الحشرات الطائرة هنا وهنالك فى الساحات الصغيرة لبعض الحدائق إذن فهى قليلة الأهمية ولا يمكن الاعتماد عليها دائما وفى كل الأحوال .

(ح) إحراق الزحاف :

وهذه الطريقة شائعة فى أكثر البلدان لإهلاك جماعات الزحاف الصغيرة وأبسط أساليبها هو الإحراق بالقش وسعف النخيل ، وهناك آلة معدة لهذا الغرض يستعملها اليوم أهالى تركستان الروسية وهى عبارة عن مستودع أو صهريج يحتوى على البترول وله أنبوبة من حديد منتهية برأس لولبى يدور بسرعة فائقة يحمله العامل على ظهره فإذا أشعل ذروة اللولب وضغط على البترول بزر مخصوص يتبخر الغاز عند اللولب فيبعث بلسان طويل من اللهيب يوجه نحو الزحاف فيحرقه ، وقد ترك كثيرون استعمال هذه الآلة لخطورتها . وقد يستعمل البعض طريقة (الرشق بالنار) وهى كما يفهم من اسمها طريقة تستلزم رمى ألسنة النيران إلى أبعاد صغيرة تتجاوز

الـ ٢٥ مترا فى الطول و٣ أمتار فى العرض، وهي طريقة ناجعة إلا أنها تكلف كثيراً أى بما يقرب من ستة أضعاف ما تكلفه المواد السامة ورغما عن ذلك فهى مستعملة فى بعض الجهات كسوريا وفلسطين وقد كانت تستعمل فى العراق أيضا .

( د ) الخنادق والحواجز :

وهى من أهم الطرق وأكثرها شيوعاً فى معظم الأصقاع الغربية والشرقية وبها تصاد اليرقات والزحاف فى خنادق ذات جدران عمودية، وبما أن سير الجماعات لا يكون إلا فى اتجاه واحد فيمكن حينئذ أن تحفر الخنادق وفقاً لذلك الاتجاه وحسب ما تقتضيه الأحوال .

أما إقامة الحواجز فلا تختلف عن طريقة الخنادق بشىء ، وقد استعملت فى بادىء أمرها فى «قبرص» حيث أقيمت لإبادة الحشرات من هذا النوع عواميد من الخشب على شكل جدار عريض مغطى بصفائح الحديد المزنبق ، ويلزم قبل الشروع بعمل كهذا معرفة الاتجاه الذى تسلكه جماعات الزحاف وقت المساء أي قبل أن يبيت الزحاف ليله وعندئذ يمكن إقامة الحواجز فى وجه سيلها الجارف. ويشترط الابتعاد عن الحشرات لئلا تغير اتجاه سيرها . وأفضل الحواجز ما كانت مستقيمة وعامودية على سطح الأرض وذات طرفين معوجين ↓ أى بهذا الشكل تتقدمها خنادق صغيرة متفرقة تغطى فتحاتها صفائح عريضة تمنع خروج ما دخل فيها من الزحاف ، وهكذا يتم صيد هذه الحشرات بسهولة تامة وبعدئذ إما أن تحرق أو تدفن تحت الأرض فى تلك الحفر .

٢ — الطرق الكيمياوية :

وهى الطرق التي ترمى إلى استعمال السموم المختلفة لقتل الحشرات بطرق شتى فتستعمل بشكل مساحيق أو محاليل أو غازات أو معاجين ويتوقف تأثير هذه السموم على نوع المادة القاتلة وكميتها ، وهى إما أن تكون ذات تأثير خارجى أو بالعكس حيث يكون تأثيرها عظيما على الأجهزة الداخلية للحشرة .

(ا) المواد القاتلة : ذات التأثير الخارجي

وهى التي تقتل الزحاف بمجرد اللمس وتمتاز ببساطة استعمالها ورخصها فهى تستعمل كل آن وكل حين دون ما تعب أو تكليف وأكثر هذه المواد شيوعا هى الزيوت المعدنية المختلفة مثل البترول النقى (الكيروسين) وبعض مستحلبات الصابون. إن هذه المواد المذكورة ولو كانت رخيصة بحد ذاتها إلا أنها أغلى ثمنا من مركبات الزرنيخ كما أنها لا تفيد إلا إذا كانت فى محاليل مركّزة تضر بالنبات والشجر ، ولذا كانت الأخيرة أكثر استعمالا . وقد شاعت طريقة استعمال الزيوت فى بلاد الأسبان والبرتغال (الأندلس) وفى جنوب أمريكا حيث تعتبر المواد الزرنيخية مواد سامة خطرة على السكان والحيوانات الأهلية .

(ب) المواد السامة ذات التأثير الداخلى :

ويتم استعمالها أما بتذرية السمّ على المأكولات الطبيعية للحشرات أو تقدّم بصورة معجون أو طعم يعمل خصيصا لذلك، والوسيلة الأخيرة أفضل من البقية لكونها أكثر اقتصادا وأشد تأثيرا. وأهم المواد المستعملة هى ( زرنيخات الصوديوم) و ( خضرة باريس ) . وتعمل هذه المركبات بصورة محاليل مركزة ويخلط فيها قليل الدبس أو العسل لإغراء الجراد .

ويتم رش هذه المحاليل فى أوقات معينة تتوقف على أنواع هذه الحشرات وطبائعها فمثلا إذا كانت طبيعتها البقاء فى محل واحد دون أن تهاجر فيلزم عندئذ أن يكون الرش على الأشجار والخضر مستمرا طول النهار ، وإذا كانت بالعكس رحالة فيجب أن يتم الرش فى المساء وليس أثناء النهار حيثما يكون الزحاف متجولا هناك وهناك ، ولكن على شرط أن ينجز العمل على يد رجال مدربين ومجهزين بالآلات الفنية اللازمة وإلا ازداد الضرر على المنفعة ولما كان الحال كذلك فقد أصبح استعمال هذه الطريقة نادرة جدا .

وأهم ما يستعمل فى هذا الباب هو :

١ — المعاجين السامة :

وهذه الوسيلة تشرح خاصيّة الانجذاب الإيجابى عند هذه الحشرات لبعض المواد الكيميه وهى أفضل كل الطرق وأهمها . ويتكون المعجون عادة من ثلاثة مخاليط : ١ — الحامل ، ٢ — السم ، ٣ — المادة الجاذبة . فالحامل إما أن يكون قطعا من الخضروات الممزوجة بالمحاليل السامة أو أن تكون مواد عضوية خلاصتها دمن الحيوانات مخلوطة ببعض الأملاح الزرنيخية ، ولكن يفضل على هذه نخالة الحبوب ، وقد استعاض عنها مؤخرا علماء الحشرات فى أمريكا بنشارة الخشب ويستحسن استعمال خليط هاتين المادتين لانجذاب الأنواع إليه أكثر مما لوكانت منفردة ، وفى بعض الأماكن يستفاد من حبوب القطن وجذور الشمندر لنفس الغرض ، والأخير أى الشمندر ذو تأثير عظيم وذلك بالنسبة لإمتصاصه المواد السامة بما يقارب ثلاثة أضعاف ماتمتصه المواد الأخرى . ومن الخواص الرئيسية للمادة الحاملة هى أن تكون قابلة لامتصاص الماء وحفظه مدة طويلة من الزمن وأن تكون رخيصة وذات قوة لجذب الجراد نحوها وهذه الصفات تجتمع كلها فى جذور البنجر كما دلت التجارب على ذلك .

أما من جهة السم فقد شوهد أن مركبات الزرنيخ صالحة جداً لهذا الشأن وقد عرف أخيراً قيمة ( الزرنيخ الأبيض ) بقوة جاذبيته للحشرات فضاق بذلك الزرنيخ الفج وخضرة باريس وطالما استعملت مخاليط مركبات زرنيخات الصوديوم والزرنيخ الأبيض مع خضرة باريس بنسب مختلفة معينة لفعلها القوي فى الإهلاك والإبادة .

أما العامل الجاذب فى المعجون فيتكون من الدبس أو العسل أو المواد العطرية المستخرجة من البرتقال والليمون ولم يعرف لحد الآن أهميه هذه المواد الإضافية فى التأثير على الحشرات . وأن أفضل مجهزات المعجون ما كان منها معمولا بواسطة المكائن الخاصة التى تخلط العناصر جميعها بعضها مع بعض بالتساوي وفى الأخير يضاف إليها الماء هذا إذا كان السم غير قابل للذوبان فى الماء أما إذا كان بالعكس

فكل ما يجب عمله هو أن تمزج المواد بمحلوله ثم توزع حسب الأصول وذلك بإعداد هذا الطعم ووضعه فى أكياس خاصة يحملها العمال أو الفلاحون لتوزيعها فى الأمكنة والجهات المقصودة بكميات محدودة لا تزيد على معدل ٢ — ٤٠ كيلو فى كل فدان ، وقد يتم التوزيع بواسطة عربة نقل تأخذ الطعم فى المساء أو عند الفجر . والمهم فى هذه الطريقة بعد كل هذا والذى يؤدى إلى النجاح التام هو ضبط وقت التوزيع لا غير .

إن فوائد هذه الطريقة ( طريقة استعمال المعاجين ) تتلخص فيما يلى :

١ — رخص العمل والمواد ، ٢ — عدم احتياجها إلى آلآت كثيرة ، ٣ — حسن تأثيرها فى معظم الأحوال و بساطة تطبيقها .

أما المحذور فيها فهو سهولة وقوع خطأ أو إهمال قد يجر إلى تسمم بعض الحيوانات الداجنة ، ولكن قد دلت التجارب العديدة التى أجريت فى أمريكا و بلاد الروس بأن لا خوف من استعمال هذه المعاجين بشرط أن تراعى فيها الدقة التامة وضبط المقادير المطلوبة من هذه المواد السامة عند تركيبها أما الحوادث والأضرار التى قد تنجم من وراء استعمالها فتكون بالأكثر ناتجة عن إهمال المزارعين أنفسهم الذين لا يعتنون فى تنظيف أياديهم قبل تناول الطعام .

٢ — التذرية بواسطة المساحيق السامة :

ويستعمل فى ذلك مسحوق زرنيخات الصوديوم وقد دل استعماله بأنه لا يقل أهمية عن بقية المواد ذات التأثير الداخلى ، فقد يقتل الحشرات بتسميم مجساتها فقط فتموت بعد مرور أربع أو خمس ساعات بعد الإصابة ، ومفعول هذه المساحيق خارجى فلا يؤثر على الأجهزة الهضمية ، وقد زاد استعمال هذه المساحيق فى أيامنا الحاضرة وخصوصا بعد أن قامت الطيارات بقسطها من الخدمة في هذه التذرية . والخلاصة أن هذه الطريقة مع كونها تحتاج إلى مجهود كبير وخصوصاً عند وجود جماعات من الجراد المتفرق وفى حالة رداءة الطقس وعند هبوب الرياح فضلا عما

يمكن أن تجلبه من الأخطار للحيوانات الأهلية فإنها تكون على العموم نافعة جداً فى المناطق الواسعة التى يكثر فيها فراخ الجراد إلى حد عظيم .

٣ — الغازات السامة :

وأهمها ( غازات الكلورين ) وقد استعملت فى روسيا فأعطت نتائج زهيدة لا يعتد بها فضلا عن كونها ألحقت بالعمال وسكان الأرياف بعض الأضرار . ولكن شرعوا أخيراً باستعمال مركب «سايناييد الكالسيوم» المولد لغاز (السايانو) بعد تعرضه لرطوبة الجو إذ يرش على الأرض حيث مساكن الجراد وأفراخه فيأخذ بالتفاعل مع الماء الموجود فى التربة أو مع بخاره الموجود فى الهواء فينبعث منه الغاز السام الذى يخنق كلا من الزحاف والجراد على السواء حيث يدخل خلال الأجهزة التنفسية خلال مدة لا تتجاوز الساعتين .

٣ — وسائل المكافحة الزراعية :

وقد ذكرنا منها آنفا إتلاف البيض بالحراثة وقلب التربة حتى تتعرض لنور الشمس ، والواقع أن هناك صلة قوية بين الحالة الزراعية فى بلد ما وفاعلية الجراد ، فإن انتشار الزراعية فى بعض الأمكنة قد يجر إلى إبعاد بعض أنواع الحشرات عنها لكونها أصبحت غير صالحة للتوليد والتفريخ ولم نعلم حتى الآن ماهية العوامل الرئيسية التى تلعب دورها فى مثل هذه الظروف .

٤ — الوسائل البيولوجية :

وتتلخص بالاستفادة والانتفاع بالطفيليات وقد جرّب « بارتكنسكى » (الذرّاح) فتلمّس فائدته العظمى فى إبادة كثير من الأنواع غير أن للذرّاح مناطق مخصوصة يعيش فيها دون أن يتعداها حتى ولو كانت المناطق الموبوءة مجاورة لمنطقة أخرى لا تختلف عنها بعواملها الطبيعية ، إذن فلا يمكن الاعتماد على هذه الطريقة دائما وخصوصا بعد أن تأكد لدى الفاحصين أن الذرّاح عامل يوقف تكاثر

الحشرات عند حد ، وهو بعد أن يعمل عمله يتناسل فيزيد عدده وينقلب عدواً يضر بالمزروعات والحشائش . ومن الطفيليات التى تستخدم لإبادة الجراد هو « الذباب المفرّخ » للدود المسمّى (لارفيبورس) ، غير أن الصعوبة التى تعترض هذه الطريقة هو عدم إمكان مكافحة الجراد بهذه الطفيليات مادمنا لا نتمكن من أكثار عددها بالنسبة إلى ماتولده الحشرات نفسها .

٥ — الانتفاع بالطيور :

إن الطيور النافعة والآكلة للجراد معروفة من قديم الزمان ولم يفت بعض الحكومات أهميتها فوضعت قوانين صارمة لصيانتها وحفظها من جور الإنسان الجاهل . إن مهاجمة الجراد بواسطة الطيور أمر يستلزم وقتا طويلا واعتناء زائداً وليس فى مقدور الإنسان أن يجعل الطيور واسطة رئيسية للدفاع عن نفسه ومزروعاته ضد الحشرات وذلك لكثرة هذه وقلة عدد الطيور النافعة وتفنن الحشرات فى طرق توليد فراخها و إعداد جيوش محتشدة منها بوقت قصير .

٦ — الطريقة الميكولوجيـة أو البحث عن الفطريات :

إن تأثير الأمراض العفنية أو الفطرية التى تصيب فصيلة الجراد فتهلك منه العدد الكبير أمر يوجب الانتباه إليه ، وقد أجرى العلماء كثيراً من التجارب فى جنوب أفريقيا فوجدوا أن هناك نوعاً من النبات يحتوى على (ميوكر) ، وهو نوع من أنواع الفطر ، وعلى (العفن) وهو يتطفل على الجراد ويمرضه فيميته . وهذا النبات يحتاج إلى وسط صناعى موافق يزرع فيه تحت تأثير جو معتدل رطب إلى درجة محدودة ، فإذا حصل ذلك فإن انتشار هذا الداء بين الحشرات أمر محتم . إن كل الشروط المذكورة تقف فى أكثر الأوقات عقبة كئوداً أمام المزارعين مما يجعلهم يهملون هذه الطريقة .

٧ — الطريقة البكتيرية :

اكتشف « ده هرل » نوعا من الباسلس يسمى ( كوكوباسلس اكريدورم ) من خواصه أنه ينشر نوعاً من الوباء بين الجراد المهاجر ، فأخذ باستعماله فوراً ونجح فى مهمته بعض النجاح ، ورأى أن هذا الباسلس إذا أصاب سرباً من الأسراب لا يقف عنده بل يتعداه إلى غيره ، وهكذا يفنى جميع الأسراب الموجودة فى منطقة يقارب قطر دائرتها الثلاثين ميلاً فى مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام ، وقد أخذت بعض الممالك كالسودان وإيطاليا وكندا والقوقاز وتركستان وجزائر القلبين بالعمل بموجب هذه الطريقة ، فكانت النتيجة حسنة للغاية . ولما كان يعيش مع هذا الباسلس أنواع أخرى تماثلها بالمفعول والعدوى ولم يتوصل العلم لغاية الآن إلى التفريق بين هذه الأنواع المختلفة حتى يعرف من بينها العامل الرئيسى فى قوة الإبادة اضطر الأكثرية لهجر هذه الطريقة ، والأمل قوى لمعرفة هذا السر ، فإذا تم كانت هذه الطريقة من أدق الطرق فى المكافحة .

والخلاصة أن طرق المكافحة عديدة ونجاح أى منها يتوقف على ثلاثة أمور :

١ — يلزم أن تكون القيادة تحت نظارة أخصائيين يعرفون كيف يديرون العمل بالدقة اللازمة .

٢ — يلزم أن يكون العمال مأجورين وليسوا منقادين انقياداً إجبارياً دون أن يمنحوا الاجور اللازمة لقاء أتعابهم .

٣ — يلزم أن تتفاهم الدول بعضها مع بعض فى هذا المضمار فتتكاتف فى الجهاد وتمهد بذلك الطريق أمامها ، وعندئذ يمكنها أن تزيل كل صعوبة تقف فى سبيل سعادة الإنسانية .

# الصحة العامة

وتطبيق القواعد الصحية.

ليس بين خدمات الحكومة وأعمالها أمر له المقام الأعلى مثل صيانة الصحة العامة ، فلا شيء يوازيها فى الأهمية ، لأن صحة الفرد هى أس النشاط والكفاءة و بدونها يعجز المرء عن أداء واجبه مهما كان بسيطاً ، وصحة المجتمع كصحة الفرد ضرورية للرفاه والنجاح ، وعلى هذا لا يمكن أن يترك أمر الوقاية الصحية للناس يتصرف بها كل منهم كيفما شاء ، إذ فيهم من يدرك ضرورة المحافظة على صحته وصحة عائلته ضد الأمراض ، وفيهم من لا يدرك خطر الإهمال فى هذا على نفسه وعلى من جاوره ، وكما نجد البعض ممن يعرف كيف يقاوم الإصابات الخفيفة التى تعتريه فيحافظ على جسمه حتى تساعده الظروف ضد كثير من العلل والأمراض ؛ كذلك نجد كثيراً ممن لم يحصل على معلومات كافية لصد غائلة مثل هذه الإصابات عنه ، فيتجرع من الآلام ما يضنيه ، ومن العذاب ما يشقيه . ولا يبعد أن تكون الأمور السياسية أو غيرها شاغلاً للانسان ، فلا يعير بعدها النظافة اهتماماً ، ولا شك أن مثل هؤلاء عند تعرضهم للأمراض يصبحون خطراً لمن حولهم أجمع .

إن ازدحام الملايين من الناس اليوم فى المدن الكبيرة وانتشار وسائط النقل وسرعتها بين أنحاء المعمورة مما أدى إلى تقصير المسافات والتقارب بين مختلف الجماهير من سكان الدنيا بعكس ما كانت عليه فى العصور السالفة ، كل ذلك حتم التشديد فى مراقبة الصحة العامة والمحافظة عليها ، و بذا أصبحت من أوجب واجبات الحكومة وأقدسها .

## الوقاية الصحية قديماً وحديثاً :

ليس بين العلوم المعروفة علم زها ونما مدة القرن الماضى كعلم الطب الوقائى . لقد كان الناس قديماً ينظرون إلى الأمراض كعقاب تنزله الآلهة على من أساء إليها

من فرد أو جماعة ، فإن تفشى الوباء فى مكان ما هرع سكانه حالاً لأداء بعض الطقوس الدينيـة ، وأقدموا على نحر الضحايا هنا وهناك فى سبيل ترضية الآلهة وطلب الغفران منها . وقد ادّعى الطب حينذاك رجال كان لهم إلمام بالسحر والشعوذة ، فأعلنوا أن فى إمكانهم ردع هذه الأمراض وتخفيف وطأتها ، ومع هذا فالأوبئة كانت تجتاح بدون توقف مناطق واسعة وقارات لمدة عشرة قرون أو ما يزيد . أما الحقيقة المرّة فإن هؤلاء كانوا يجهلون تماماً أسباب هذه الوافدات وكيفية انتشارها وطرق الوقاية منها . وقد قيل إن (الموت الأسود) الذى طغى على أوروبا فى القرن الرابع عشر أهلك ثلث سكان انكلترا كما أباد مُدناً عامرة برمتها . وكان لزاماً والحالة هذه أن تزول كثير من الخرافات من أفكار الناس حتى تتقدم المعلومات الصحية ويكون لها تأثيرها الحسن ، ولذا فقد أبطأت قروناً إلى أن كشفت عن نفسها للناس فخفّت وطأة العلل ، وباستطاعتنا أن نذكر أن الوقاية الصحية لم تصل الدور الذى يمكن أن تسمى به علما إلا فى أيامنا الحالية .

والواقع أن الوقاية الصحية لم تستقر على قاعدة علمية إلا بعد أن اكتشفت نظرية الجراثيم فى الأمراض المعدية واعترف بها ، وهذه النظرية البسيطة فى قواعدها الأولية هى التى قلبت رأساً على عقب كل ما كان عالقاً فى أدمغة الناس من أسباب الأمراض المعدية وطرق الوقاية منها حيث كان فى مقدورها أن تقدم لهم التفسير المقبول عن كثير من الأمور التى كانت تعد إلى ذلك الوقت من الأسرار الغامضة .

والعجيب أن العالم صرف عصوراً بعيدة فى اكتشاف هذه النظرية ، ومع أن البعض فى أيام الأمبراطورية الرومانية اشتبه بوجود علاقة بين المرض والقذارة ، غير أنه لم يستطع أحد أن يكتشف ماهية هذه العلاقة بصورة مرضية إلا بعد مضى ألف وخمسمائة سنة ، فيالطول الزمن الذى كلف العالم أن يتقدم فى المعرفة من مرحلة إلى أخرى أعلا منها .

عوامل الأمراض المعدية :

تقول نظرية الجراثيم بوجود مخلوقات عضوية صغيرة جداً لا تعد ولا تحصى تسكن الهواء والتراب وعلى الأجسام وفيها دعتها بالجراثيم أو الميكروبات ، وهذه الجراثيم الحية دقيقة للغاية بحيث لا ترى بالعين المجردة ، ولدقتها تجتمع آلاف منها على رأس دبوس أو فى قطرة من الماء ، ويمكن مشاهدتها بمعونة المكبّرات القوية .

إن أكثر هذه المكروبات من نوع البكتريا ، وهى نباتات دنيئة معظمها غير مضر ، والبعض منها يقوم بخدمات نافعة للانسان وبدونها لايستطيع عمل جبنه أو خلّه أو خبزه ، وفيما عدا ذلك فهى سبب التفسخ العضوى من أى نوع كان كتعفن التفاح مثلاً وفساد الزبدة والحليب .

ولهذه الجراثيم — حيث تكون الأحوال ملائمة — قوة للتكاثر مدهشة فى سرعتها ، ومعظم أنواعها يتكاثر بالانقسام البسيط ، وهو مايعرف بـ (الانشطار) ، أى إن الواحدة منها تنقسم إلى قسمين ، وهذان إلى أربعة وهكذا بالتوالى الهندسى . والانقسام المتعاقب يتم ببضع ساعات ، وهذا هو السبب فى جعل ما يعد اليوم منها على الأصابع ألوفاً وملايين غداً ، وبمعونة الميكروسكوب أو المكبر نستطيع أن نفحص ونشاهد أنواعها المعروفة ، إذ أنها تكتسب أشكالا متنوعة وميزات خاصة . ومع أن أكثر هذه العضويات غير مضر نجد البعض منها خطراً يهدد الصحة إن استطاع النفوذ داخل الأجسام الحية ، ولهذا دعيت جراثيمه بالمكروبات المرضية أو المعدية .

والجسم الإنسانى بحد ذاته يكوّن البيئة الصالحة لمثل هذه العوامل المرضية ، التى لايقدر أكثرها أن يعيش خارج الجسم إلا لمدة قصيرة فقط ، والجراثيم المذكورة تجد سبيلها إليه عن طرق شتى أظهرها عن طريق الطعام والشراب الذين يستهلكهما الإنسان ، ثم عن طريق لسع الحشرات الناقلة وهى إن حلّت فى أنسجة الجسم الحي تكاثرت فيها بسرعة فائقة فتولد فيها مواداً سامّة من شأنها أن ترفع

حرارة الجسم الاعتيادية إلى حالة ندعوها بالحمّى ، فإن كان الجسم قويا نشيطا تغلب عليها فى أكثر الأحايين وأماتها لأن التامور (وهو دم الحياة) فى الوضع الاعتيادى يمتلك قوة دفاعية هائلة ضد تأثير الجراثيم المرضية أما إذا كان بالعكس ضعيفا فان هذه القوة الدفاعية أو المناعة تقل وتفتر فتتسلط الجراثيم ويكون لها عليه اليد العليا .

كيف نصاب بالرشح أو الزكام :

ذكرنا فيما سبق أن هناك طرقا مختلفة تستطيع بها الجراثيم من النفوذ إلى الجسم الحىّ فتسبب له العلة ؛ والزكام يبين لنا إحدى هذه الطرق . وفيما يلى بيانا نشرته إحدى شركات التأمين على الحياة يتضمن كثيراً من الشىء المطلوب معرفته عن الزكام :

« قد يظن المصاب بالزكام أنه رشح عادى لا أهمية له ولا خطر منه وعلى هذا لا يعيره التفاتا ولا يأخذ حذره منه فيسعى فى إزالته بالطرق الصحية المعروفة ولكن مهلا فإن الرشح العادى قد يؤدّى إلى أمراض وبيلة كالانفلونزا والحصبة والحمى القرمزية والسعال الديكى وذلك لأن هذه الأمراض تستهل أيضا بزكام أو التهاب بسيط فى الحنجرة ، والزكام يعقبه غالبا ذات الرئة أو يكون مقدمة للاصابة بمرض السل أو غيره وقد ينزل بالإنسان سلسلة من المصائب المؤلمة وحتى لو كان الزكام بسيطا فيجب أن لا يترك بدون معالجة والزكام يستهلك من الدراهم والدنانير أكثر من أى مرض آخر وهو السبب فى تأخير المصاب عن واجباته أوقات طويلة والأدهى من هذا وذاك أن نجد سهولة العدوى فى الزكام قد تؤدي فى النهاية إلى الهلكة . »

إن هناك نوعين من الزكام الإعتيادى (١) الرشح الذي يصاب به الفرد من نفسه دون واسطة (٢) الرشح الذى يصاب به من الغير . والضعيف البنية أو من حصل له التهاب فى اللوزتين أو فى الأنسجة الغددية خلف الأذنين يصاب بأحد هذين النوعين على السواء .

إن جرثومة الزكام المنبعثة فى الهواء من سعال المريض أو عطاسه تدخل إلى جسم سليم إما مع الهواء عن طريق الأنف والحنجرة أو عند إستعمال أو ملامسة

مالم ينظف من آنية المصاب أو أثاثه والأرجح أنها تنتقل بالمصافحة أيضا .

ولما كان الزكام مرضاً شديد العدوى وقد يعقبه أو صاب خطرة أو قد يكون فى دوره الحاد مقدمة لمرض عضال أصبح من المحتم عزل المصابين والإعتناء بهم اعتناءاً كافيا على أن يتم السعال والعطاس أثناء ذلك فى مناديل من القماش تغلى فى الماء قبل غسلها أو مناديل من الورق تحرق بعد استعمالها أما الآنية فالواجب يقضى عزلها عما يستعمله الآخرون ويلزم غسلها بالماء الحار قبل الرجوع إليها ثانية .

## الأحداث المضاعفة للزكام :

قد يمسى الزكام كما أسلفنا علة من إحدى العلل الناجسة (وهى التى لاتبرأ بعلاج ) كالسل وأمراض القلب والتهاب الجيب فى القلب واضطراب الكلية والتهاب الحنجرة المزمن والالتهابات الأنفية ، ويمكن فى الأصل ارجاع كثير من حالات الصمم إلى الزكام ولهذا كان لزاما مراجعة الطبيب حالا عند الشعور بأى وجع فى الأذن . والزكام المهمل وخاصة ما كان منه فى الأنابيب الرغامية أو القصبات الرئوية يضعف الأنسجة ويعدها لاصابات أخرى أهمها ذات الرئة .

## الأمراض التى تنقل بواسطة الماء — الحمى التيفوئيدية :

إن السبيل الثانى الذى تسلكه الجراثيم المعدية للنفوذ إلى الجسم الإنسانى هو الماء و إيضاح ذلك فى طريقة الإصابة بالحمى التيفوئيدية : لقد تفشى هذا المرض قبل ستين سنة فى كثير من البلدان فذهبت ضحاياه الوفا بعد ألوف وكان فيما سلف يفتك بالجيوش المتحاربة فيضعفها وظل كذلك بضعة عصور إلى أن استئصلت شأفته أو كادت من معظم الممالك بفضل ماعرف عن كيفية سيره وطرق عدواه . كذلك هو شأن العلم فإنه لايقطع مرحلة ليجابه أخرى إلا بعد آلاف السنين ؛ فالرومانيون مثلا مع معرفتهم الختم على المسكوكات والصكوك فإنهم لم يتوصلوا إلى فن الطباعة أبدا إلى أن مرت القرون فعرف الإنسان طبع الكتب عن غير طريق الرومان .

أن حمّى التيفوئيد لا تنشأ عن سوء التهوية أو التعرض للبرد أوملامسة الرماد كما يظن البعض إلا أنه يسبب عن جرثومة نشيطة توجد غالبا فى المياه الدنسة وقد تصل إلى معدة الإنسان مع الماء أو الحليب أو الأطعمة الملوثة و بوصولها إلى الأمعاء تستقر فيها وتتكاثر فتلتهب الأمعاء من جراء سمومها وتظهر بوادر الحمى فى المصاب ، وهو مادام كذلك يبقى مصدراً مهماً لبعث عصيات التيفوئيد فى فضلاته ، وعلى هذا إذا لم تؤخذ الحيطة التامة فى الإعتناء بالمجارى البرازية فى المستشفيات أو البيوت حيث يسكن المريض تسرب الجراثيم إلى منابع الماء كالبحيرات والأنهار والآبار التى هى البيئة المنعشة لهذه الجراثيم فتلوثها وتكون عاملا لانتشار المرض بين الناس بسرعة عجيبة .

أن الطريقة الأساسية فى حصر التيفوئيد و إبادته من ثم تتم بوقاية منابع الماء من التلوث مما فى المجارى البرازية وهذا سبب من الأسبـاب التى دعت الممالك المتقدمة أن تهتم اهتماما كبيرا بتصريف الفضـلات على الطريقة الفنية والاعتناء بمنابع مياه الشرب اعتناء يستنزف أموالا وجهودا . هذا ولما كانت أوبئة التيفوئيد نتيجة لجهل بعض الأفراد و إهمالهم اقترح كثيرون فى البلاد الراقية وجوب زج هؤلاء الجهلة فى السجون عقابا لهم على ما أفرطوا .

## الأمراض التى تنتقل بواسطة الحشرات :

إن الطريقة الثالثة التى تسلـكها الجراثيم المرضية للنفوذ الى دم الإنسان هى لسعة الحشرات : — لقد كانت الحمى الصفراء قبل أكثر من خمسين سنة كارثة عظمي حلت فى جميع المناطق الحارة ، والمعروف أن مد السكة الحديدية عبر مضيق بناها عام ١٨٨٥ كلّف حياة عامل من العمال لكل ربطة فى مفاصل قضبان الحديد ، وهو ما حصل فعلا فى جزيرة « كوبا » أيام الحكم الأسبانى ، وهكذا كان فتك الحمى الصفراء الذريع بسكان العالم حتى نهض العلم وتسلح للمقاومة بعد عشرين سنة

من التاريخ المذكور فأجهز عليها أوكاد ، ولما قام الناس فى أمريكا الوسطى لحفر قناة بناما لم يخسروا ولا ضحية واحدة بتأثير هذا المرض فكيف كان ذلك يا ترى؟ لقد ظهر الفرق بعد اكتشاف الحقيقة من أن جراثيم الحمى الصفراء تنتقل من المصاب إلى السليم بواسطة نوع من البعوض يتكاثر فى مياه المستنقعات الراكدة فبادر الناس فى الحال إلى تطهير مثل هذه المستنقعات أو ردمها ومحافظة الدور بوضع ستار على المنافذ فكان لكل هذا أثره الفعال فى تخفيف وطأة المرض بصورة مدهشة .

وهناك من الأمراض ما يشبه الحمى الصفراء من وجهة طرق العدوى إذ الوسيط فيها حشرات متنوعة : منها مرض الوبالة (الملاريا) الذى ينتقل بواسطة نوع من البعوض يقال له (الأنوفليس) والحمى النمشية (التيفوس) التى تنتقل جراثيمها عن طريق القمل وكان هذا وباءا معروفا فى كثير من الممالك المتأخرة إلا أنه زال تقريبا بعد أن عرفت عمليات إبادة القمل وتطهير الملابس والأشخاص بالطرق الفنية ، أما الطاعون الدمّلى وهو الموت الأسود الذى تفشى فى القرون الوسطى فى فى قارة آسيا وفى مناطق واسعة من أوروبا لمدة طويلة فينتقل بواسطة براغيث الجرذان . وهناك غير هذه من الأمراض التى تنتقل بواسطة الحشرات مما عرف أو لم يعرف لحد الآن ومما لا شك فيه أن الذبابة البيتية تلعب دورا هاما فى نقل جراثيم التيفوئيد من الأقذار والبلاليع إلى الماء والأطعمة فى البيوت والمخازن ولو أبيدت كل هذه الحشرات وهى البعوض والقمل والبراغيث والذباب إبادة كلية أو انقرضت من الوجود شأن زحافات العصور الجيولوجية القديمة لكان للناس شأن غير هذا فى معاشهم وحياتهم .

الوبالة (الملاريا) :

لقد كان عام ١٨٩٨م هو العام الذى جمعت فيه كل الأدلة التى أدانت بعوض الأنوفليس فى نشره حمّى الوبالة بين الناس فأصبح هو المسؤول عن كل

خسائر الانسان فى هذا السبيـل وهو بعوض المناطق الاستوائية ذو الأجنحة المرقطة . و ( الأنوفليس ) كلمة يونانية تعنى الايذاء أو الهلكة . وهذا البعوض مع كونه يمتلك خرطوما ذا منخس واحد إلا أنه يضرّ به أكثر من ضرر البعوض البيتى المدعو بـ « كيولـكس » والذى لخرطومه ستة مناخس بآلاف المرات .

وقد أطلق الرومان على هذا المرض اسم ( الملاريا ) الذى يعنى الهواء الفاسد لأنهم اعتقدوا ، حيث كانت الحمى تكتسح الآلاف من الناس مرة واحدة ، مسببة عن الأبخرة العفنة المتصاعدة من مياه المستنقعات والبرك التى كانت تحيط بمدينة روما والمعروفة آنئذ بـ ( Campagna ) ، وعلى ذلك اعتبر هواء الليل خطرا للصحة ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن الناس كانوا ينامون فى غرف مفتوحة الشبابيك ولا يتخذون الحيطة فى محافظة أنفسهم من البعوض إذ قد أثبت العلم فيما بعد أن مياه البرك والمستنقعات محل خصب لتفريخ البعوض أما هواء الليل فليس بمخطر إلا لـكونه يمتلىء ببعوض الوبالة الذي يسعى حينذاك طلبا للرزق .

وبعد إجراء تجارب عديدة علم أن البعوض هذا إذا امتص دم شخص مصاب بمرض الوبالة يمتص معه جراثيم الوبالة التي يذهب بعضها ، بعد أن يمر فى أطوار خاصة فى جسم البعوض ، إلى غدده اللعابية فيستقر فيها وإذا ما حط البعوض ( وهو بهـذا الدور ) على آخر سليم ولسعه بعث بهـذه الجراثيم مع لعابه إلى دم الشخص المذكور فينقل إليه طفيلى الملاريا ومن ثم الحمّى المعروفة . كل هذا دفع العلمـاء لاجراء فحوص أخرى توصلوا بها أخيرا إلى أن لسعة بعوض الأنوفليس الحامل للجرثوم هى الواسطة الوحيدة لنقل هذه الجرثومة إلى الانسان ؛ وقام بإحدى هذه التجارب طبيبان انكليزيان عام ١٩٠٠م حيث أقاما لهما دارا فى قلب ضواحى روما أى وسط المنطقة الوبيّة المشار إليها بشكل لا يستطيع البعوض ولوجه ، ولما كان البعوض هو المسئول عن نقل المرض إلى الانسان ولا يفتش عن غذائه إلا ليلا فقـد قررا المبيت فى الدار يوميـا فى الساعة السادسة مساء ومع أنهما

لم يتخذا غير ذلك من الاحتياطات فانهما سلما من الاصابة بحمى الوبالة . واستطاع غير هذين أن ينقل من روما إلى لندن بعوضا من هذا النوع يحمل فى جسمه طفيل الوبالة الذى حينما عرض له شخص سليم أصابه بدائه فى الحال . وفيما عدا ذلك فقد قامت هيئات متعددة باستقصاء هذه الحقيقة بعد تجارب أجريت فى كوبا وبناما وجزر الهاواى أثبتت جميعها أن بهلاك بعوض الانوفليس و إبادة بيضه وفراخه من جميع المناطق تنقطع حمى الملاريا من العالم بالكلية . ولكن لا يبعد ، كما يرجحه الكثيرون ، أن يكون هناك فى بعض المناطق من البلاد الحارة حيث يصعب مكافحة الوبالة بعض الحشرات الأخرى غير البعوض من يتوسط بنقل جرثومة المرض إلى الانسان .

يمتاز بعوض الانوفليس ( أو بعوض المستنقعات كما يدعى أحيانا لكونه يفضل البرك والمستنقعات الدائمية للتفريخ ) عن أنواع البعوض الأخرى من الفصيلة المعلومة بالأمور الآتية :

١ — يكون جسم البعوضة مائلا على السطح الواقفة عليه ويكوّن معه زاوية قدرها ٤٥ درجة تقريبا وعند وقوفها يتجه رأسها إلى أسفل وبطنها إلى أعلا بينما يقف البعوض العادى على السطح المستوى وجسمه موازيا له .

٢ — أجنحة البعوضة مرقطة .

٣ — يوضع البيض بصورة متفرقة على سطح الماء .

٤ — تميل السرفة دائما للبقاء قريبا من سطح الماء التى هى فيه .

أعراض الوبالة :

للوبالة ثلاثة أنواع مختلفة من الطفيليات وأعراضها تتفاوت شدتها حسب نوعها والإصابة على العموم تمر بأدوار ثلاثة أيضا : دور القشعريرة ، ودور السخونة ، ودور العرق . فالدور الأول يمتاز بوجع الرأس وارتخاء عام فى الجسم

ثم قشعريرة تستولى عليه عامة يرتجف بها المصاب بشدة بينما ترتفع درجة الحرارة إلى (١٠٢) فهرنهيت أو أكثر ، ويدوم هذا الدور من بضعة دقائق إلى ساعة أو أكثر بقليل حتى يعقبه الدور الثانى حيث يحمرّ الجلد زمناً مقداره نصف ساعة إلى الثلاث أو أربع ساعات ، وذلك قبل أن يحل الدور الثالث الذى يبدأ فيه العرق أولا فى الجبين والوجه ، وبالتالى يظهر على الجسم كله تدريجياً فيتصبب المريض بالعرق وتزول عنه الحمى وأوجاع الرأس ، فإذا تم ذلك نام ساعة أو ساعتين نوماً عميقاً لا يفيق فيها وبهذا تنقضى الإصابة مؤقتا ، فالمرض (عداد) بكسر العين أى تعود نوباته بين حين وآخر من يوم إلى أربعة أيام حسب نوع الطفيل إلى أن تتاح الفرصة لتطهير الجهاز الدورى منه بصورة تامة . وقد لا يظهر للعيان دور من هذه الأدوار أو أكثر أو تحصل بعض التغييرات الثانوية ، وعلى كل حال فالمريض يصاب بفقر دم حادّ من جراء عمل الطفيليات فى إتلاف كثير من الكريات الحمر فى نوبات المرض المتتالية .

المعالجة والوقاية :

يعتبر الكنين العلاج الصادق ضد الوبالة ، فهو يهلك جميع الطفيليات السابحة فى الدم إذا أخذ بجرعات متوالية ، وهو دواء واق ومفيد . والمعروف أنه لولاه لما ثبتت القارة الأميركية أمام هذا المرض .

سعة انتشار الأمراض وأسبابها :

لا تأتى الإصابة بالأمراض كلها عن طريق الأشربة والأطعمة الملوثة أو من جراء لسعة الحشرات الحاملة لجراثيمها ، بل أن هناك عدداً غيرها لم تعرف سبل العدوى فيها لغاية الآن ، فمن ذلك (الانفلونزا) وهو المرض الخبيث الذى يصيب المجارى التنفسية ؛ إذ رغم وجود عدة نظريات تفسر سريان هذا المرض من مناطقه إلى أطراف العالم سنة ١٩١٨ فإنه لم تستطع إحداها أن تشرح علة ذلك بكل

قناعة ، وخصوصا إذا سئل عن كيفية تفشّيه بين ركاب إحدى البواخر المبحرة وسط اليم بعد أن تركت ميناءها الأول بستة أسابيع كما حدث فعلا ، وفيما عدا ذلك نجد كثيراً من الأمراض تنشأ — بطرق مباشرة أوغير مباشرة — من نقص فى التغذية ، أو سوء التهوية ، أو فقدان النظافة ، أو ضعف الجسم وقلة الاعتناء بالصحة الجسمية عامة . ولا يخفى أن هناك من الأمراض ما يعود منشؤها بصورة جزئية أو بصورة كلية إلى بعض الحالات أو الأعمال ، ولذا سميت بالأمراض الحرفية أو الصناعية كالتسمم بالرصاص في معامل الأصباغ أو الأمراض التى تصيب العمال فى الانفاق أو فى الأماكن الأخرى التى تستخدم الهواء المضغوط . وانتشار السل وهو الوباء الأبيض فى العصور الحديثة تعود أسبابه بلا شك إلى تأثير الغبار والتهوية الرديئة . ومما لاريب فيه أن العلاقات بين الحرف والأمراض لم يعتن بدرسها إلا فى السنين الأخيرة . ومن المحتمل أن يخبرنا المستقبل عن عاهات أخرى يعود أصلها إلى تأثير الحياة الصناعية على الإنسان مما لم يفهمها العلم لحد الآن .

صحة المعامل والمصانع :

نظراً إلى أن كثيراً من المعامل والمصانع فى المدن الكبيرة كانت غيرمستوفية للشروط الصحية اللازمة ، فقد أخذت معظم الممالك المتقدمة بسن قوانين ووضع أنظمة وتعليمات ترعى فيها صحة العمال فى مثل هذه المؤسسات ، حتى أن بعض الصناعات منعت منعاً باتاً لخطورتها ، وذلك مثل عمل الكبريت من الفوسفور السام ، بينما نجد غيرها روقب مراقبة صارمة حفظاً لحياة الناس الذين يزاولونها ، فالقوانين والأنظمة منعت الحرف التى تحبس الأطفال والنساء فى غرف ضيقة رديئة التهوية للحصول على الكفاف من العيش وقد ألزمت أرباب المصانع وأصحاب المعامل تأسيس العمارات الرحبة والمريحة من جميع الوجوه بحيث تكون مجهزة بوسائل التنوير والتهوية والنظافة وفق الأصول الصحية الكاملة ومع تأمين رقابة الحكومة عليها باستمرار .

## الوقاية من الأمراض — الاحتياطات المتخذة من قبل الفرد :

لا تستطيع الحكومات أن تحافظ على المستوى الصحى المطلوب بين الناس بدون تعاون الأهلين أنفسهم ، وكل ما يمكنها عمله أو القيام به لايتفق واللازم إلا بعد أن يأخذ أفراد الشعب الصغار والكبار نصيبهم من هذه الخدمة بحيث يتفهمون أولاً ومن ثم يعملون جهد المستطاع كل مايفيد فى الوقاية من الأمراض المعدية ، والنشاط الجسمي هو أعظم هبات الله على الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، ولا ينكر أن هذا النشاط هو نتيجة الاعتناء بالصحة الجسمية منذ الصغر وهو بلا شك الحصن المنيع للجسم ضد كثير من العلل والأسقام . استعرض حياة (ثيودور روزفلت) رئيس الولايات المتحدة الأسبق واعتبر بها : فلقد كان هذا كما يذكر عن نفسه فى ترجمة حياته ولداً نحيلا ضعيف البنية ، وإذ عرف أنه بحاجة إلى الفوز فى معترك الحياة العملية بادر من فوره للعمل فى تقوية جسمه بأن نظم واجباته اليومية وسعى للتنزه فى الهواء الطلق وممارسة الألعاب المنشطة ، وقام بما توجبه عليه القوانين الصحية ضد الأمراض الطفيفة التى تعتريه ، وما أن وصل إلى دور الرجولة إلا وقد كسب لنفسه نشاطا جسميا رائعا أبدل به ذلك الشاب الهزيل إلى رجل صلب العود متين الأخلاق صمد للعراك حتى تسنم كرسى الرئاسة الوثير مرتين .

ولا أظننى بحاجة إلى وضع تعليمات خاصة تستلزم الرعاية والاهتمام بقصد المحافظة على النشاط الجسمى المطلوب وإحراز القوى الدفاعية الصحية ، فالذوق أو حسن الاختيار خير كفيل لقيادة المرء إلى ما يريد من أكثرها .

إن من أعظم الكبائر التى يقترفها الشباب فى حياته هو « التبذير » فى القوى الحيوية والجسمية التى يجب عليه أن يحتفظ بها لأدواره القادمة ، فصحة الفرد في سن الأربعين وما فوق ، تتوقف بالأكثر إلى تصرفاته التى يقوم بها بين سن ١٥—٢٥ سنة من عمره ، وفخر الشباب قوته ، وياليته اعتبر فنظر إلى المستقبل ومافيه

وإتخذ مما وهب له من الوقت والفكر وسيلة فى الاعتناء بهذه القوة فى السنين الأولى ليكون قادراً على العمل فى الأيام التى يضيع فيها الشباب والقوة معاً .

منع انتشار الأمراض المعدية — الحجر الصّحي :

إن أول ما تقوم به السلطات المحلية لمنع سريان الأمراض المعدية فى بلادها يتم هو ( الحجر الصحى ) الذى يعنى منع الأشخاص الحاملين لجراثيم الأمراض المعدية من اختراق حدود المملكة والدخول فى أرضها . ولهذا نفّذت أنظمة الحجر الصحى فى كافة منافذ البلاد وجميع الموانى البحرية تحت مراقبة سعاة تعينهم الحكومة الوطنية لحراسة هذه المراكز وإجراء الواجب تجاه العابرين والقادمين من البلدان الأجنبية ، والعادة أن البواخر قبل أن تبحر تزوّد بشهادة صحية من قبل القنصل المعيّن من المملكة الذاهبة إليها ، وإذا مارست فى إحدى الموانئ الأجنبية ، فأول من يزورها هو مأمور الحجر الصحى الذى يمنع إنزال الركاب إلى البر حتى يتأكد من سلامتهم من الأمراض المعدية ، فإن وجد بينهم من يشك فيهم يحصرهم فى محلات خاصة حتى يزول عنهم الخطر ، وهكذا فإن مختلف الحكومات والمدن تحتفظ لنفسها بأساليب خاصة فى التفتيش والحجر الصحيين . واللازم عند حدوث إصابة ببعض الأمراض كالسل والجدرى والتيفوئيد والحمى القرمزية وذات الجنب والسعال الديكى والخناق والحصبة والنكاف وغيرها إخبار أقرب المخافر الصحية المحلية حيث تحتم الأنظمة الصحية فى هذه الأمراض السريعة العدوى حجز المسكن بالإعلان على أبوابه وعزل المريض أو نقله إلى إحدى المستشفيات القريبة ، فإن زال فيطهّر المسكن سريعا بمراقبة المأمور المختص من قبل دائرة الصحة ، وفى حالات الأوبئة تقوم دوائر الصحة الرئيسية بالإشراف والعمل . أما إذا انتقل الوباء بين أمتين متجاورتين ، فتتعاون السلطات الصحية للطرفين على إزالته ، وإذا تفشى فى أكثر من مملكتين ، فعندئذ ينهض القسم الصحى فى هيئة الأمم المتحدة بالمهمة ويسرع بمعاضدة هذه الممالك على حصره وإبادته .

التلقيح والتطعيم :

وهما عمليتان استعملتا منذ أكثر من قرن مضى لغرض حماية الأصحاء من الأمراض . أما التلقيح ضد الجدرى فعملية يراد بها إيصال المادة الملقحة للدم وتتم عادة بكشط الجلد الخارجى للشخص السليم فى بضعة أماكن متجاورة ووضع قليل من المادة المشار إليها على هذه الجروح . وتستحصل المادة الملقحة من المختبرات الصحية حيث تستخرج من التامور (وهو دم الحياة) للماشية المصابة صناعيا بمرض الجدرى . وأما التطعيم فيستعمل اليوم بنطاق واسع ليلطف أو يمنع حدوث الإصابة ببعض الأمراض كالخناق والتيفوئيد وذات الجنب وداء الكلب ولقد استعمل للجيوش المتحاربة أثناء الحرب العامة الماضية ضد التيفوئيد، وطريقته هى أن يحقن الدم بكمية معلومة من عصيات التيفوئيد المائتة أو المضعفة جداً بحيث لا تكون كافية لإصابة الشخص بالمرض إلا أنها قادرة على أن تثير فى دمه قوى المناعة فتقف حجر عثرة فى سبيل كل إصابة قد تحصل فيما بعد . والتلقيح ضد الجدرى اجبارى فى كثير من الممالك ولعل ذلك من أهم وسائل المحافظة على الصحة العامة .

مراقبة مصادر الحليب :

لا شك أن الحليب من أهم أغذية الإنسان وهو الغذاء الرئيسى للأطفال حتى إلى أن يبلغوا السن المدرسى و بعده ، وفيه أفضل العناصر فى تقوية البنية لضعيفى الأجسام ، ولا تنكر أهميته للشباب فى قوتهم اليومى . ومع هذا فهو المادة ذات القابلية العظيمة للتلوّث والتى قد يؤدى تلوّثها إلى نتائج خطيرة أكثر من أى مادة ملوّثة غيرها فإن الجراثيم المعدية إن وصلت إلى الحليب فإنها تتكاثر بسرعة مروعة وتصيب الضعاف من الشبان والأطفال بالمرض عن طريق الغذاء .

والحليب يمر قبل أن يصل إلى يد المستهلك فى أيد عديدة قد تكون إحداها

السبب فى تلويثه فحلبه من مصادره بغير اعتناء أو حفظه فى محلات غير صحية أو وضعه فى أوان غير نظيفة أو عدم أخذ الاحتياطات الضرورية عند النقل أو عند التسليم كلها أمور قد تساعد على تلويثه بطريقة ما . وعلى هذا سنت القوانين الصارمة ونظمت التعليمات التى توجب المراقبة عليه والسعى إلى محافظته سالما فى منابعه وعند نقله حتى يصل إلى يد المستهلك ، وقد يكون أمر المراقبة عسيرا جداً فى كثير من الأمكنة وبالأخص فى المدن الكبيرة حيث يرد الحليب من الضواحى البعيدة : فمدينة نيويورك مثلا تحصل يوميا على مليونين ( كورتز ) أو مايقارب من خمسمائة ألف كالون من الحليب مما يقرب من ٤٥ ألف حقل منتشرة كلها فى الضواحى العديدة لـ ٨ ولايات مختلفة .

ومن السهل إذن تقدير الصعوبة فى مراقبة مصادر الحليب فى مثل هذه الظروف ومع كل هذا فالمراقبة جارية فى معظم الممالك المتقدمة وقد أظهرت هبوطاً فى نسبة وفيات الأطفال لأنه قد عرف أن بين نسبة وفيات الأطفال وحالة الحليب صلة متينة بحيث يمكن أن نقول أن نسبة الطرف الأول يتوقف تماما على الطرف الثانى ولهذا فقد أصبح لمؤسسات توزيع الحليب فى المدن الكبيرة قيمة إذ صار فى إمكان الناس فى هذه المدن المزدحمة بالسكان على الحصول على حليب طاهر بأسعار متهاودة . إننا لا بدأن نعتمد عندما نريد أن تكون وسائل منع الأمراض نافعة على أحصائيات مضبوطة تحتوى عل أرقام الولادات والوفيات والإصابات مما يجمع من تقارير رؤوساء الصحة والأطباء في المراكز المختلفة فى دوائر الصحة العامة . وحتى تكون لهذه التقارير قيمتها يلزم أن تكون دقيقة وسريعة وعندها تستطيع السلطات الصحية أن تحس بكل وباء أول ظهوره وقد تتمكن فى الغالب أن تعرف مصدره وأسباب نشوئه فتبدأ فى الحال على حصره فى أضيق المناطق ، وإذا ما أرسل أحد الأطباء تقريرا عن إصابة واحدة بالتيفوئيد فقد يمكن أن لا يكون لها من الأهمية ما يشغل البال ويوجب العمل إلا أنه إذا قدّم فى اليوم تقريرا عن ١٢ إصابة

مثلا فالواجب يقضى فحص موارد الماء والحليب بأسرع ما يمكن واجراء اللازم فى الحال .

مراقبة الأطعمـة :

أن بيع الأطعمة الفاسدة أو غير النظيفة يجب أن يمنع بواسطة القوانين والأنظمة الصحية والمعروف مثلاً أن المجلس الأمريكى صادق بالاجماع سنة ١٩٠٦ م على اللائحة القانونية المعروفة بلائحة التعامل و بالأطعمة الخائرة والأدوية الفاسدة و بهذا القانون منع التعامل التجارى بكل هذه المواد غير الصحية وشددت المراقبة على اللحوم فى مخازن التجفيف إذ طلب منها أن تحمى على النار بدقة جميع علب الأطعمة والأدوية و إذا كانت المادة المحفوظة صناعية فيجب أن يبين ذلك على رقعة العنوان وكل من جهز مواداً فاسدة أو غير نظيفة ولحوما مروحة أو محفوظة بصورة مغلوطة تصادر من قبل الحكومة بحسب هذا القانون و يقدم صاحبها للمحاكمة . وعمل المراقبة على هذه المواد وغيرها منوط بمأمورى الصحة الذين يقومون بدورات تفتيشية من آن لآخر فى محلات بيع الأطعمة و إنتاجها .

أخطار الأدوية :

لقد كان لبيع العقاقير المخدرة كالمورفين والأفيون فى السنين الماضية عاقبة وخيمة جداً حيث كان البيع جاريا بلا ضبط ولا تدبير . والأنكى من هذا هو أن من اعتاد استعمال إحدى هذه المخدرات بانتظام سرعان ما يصبح عبداً للعادة فلا يعود يتمكن من القيام بأعماله اليومية إلا بعد أخذ الجرعات التى اعتادها من المخدر وبذا تنحط قواه الجسدية بالتدريج . والمؤسف أن عادة استعمال المخدرات تفشى فى كثير من الأوساط وخصوصا فى السنوات الأخيرة وهى بلا شك من أرذل العادات التى منى بها فريق من الناس من مختلف الطبقات . وعلى هذا بدأت الحكومات بصنع كافة أنواع المخدرات وضبط التعامل فيها دولياً

وعليه فلا يمكن اليوم أن تستورد كميات منها أو تباع إلا وفقا لأنظمة صارمة تتطلب مبدئيا تأييدا تحريريا من قبل أحد الأطباء المعروفين بالكفاءة ، ومع كل هذا فكثير من المواد المخدرة يتاجر بها بكميات كبيرة عن طرق غير مشروعة .

منع المشروبات الروحيـة :

أن العلاقة بين الصحة العامة وتجارة الخمور علاقة لم يتفق عليها الناس اتفاقا يضمن اتخاذ الاجراءات اللازمة لها أو عليها ، ولكن مما لا ريب فيه أن استعمال المشروبات الروحية المسكرة أعف فى كثير من الأحيان الفقر وهذا بدوره سبّب للمدمن نقصا فى التغذية اللازمة فأضعف المناعة وأعد صاحبه للأمراض . والحقيقة أن الإدمان فى شرب الكحول يضر بالقوي الجسمية ضررا لا يستطيع لجسم عنده أن يدرأ عنه غائلة الأمراض ، وقد دلت الاحصائيات التى تحتفظ بها المستشفيات فى أمريكا أن فى منع استعمال المشروبات الروحية أثر جليل من الوجهة الصحية .

تصريف الفضلات :

لا بد لكل مجتمع أن يبعث يوميا بكميات غير قليلة من مختلف الفضلات التى يجب أن تجمع وتصرف بعيدا إلى الخارج بطرق صحية ، هذا إذا كانت المساعى موجهة فى الاعتناء بالصحة العامة والمحافظة عليها . إن بعض هذه الفضلات لا يخشي منها على خطر وذلك كالرماد أو بقايا الأوراق وكل أنواع سقط المتاع مثلا وإبعاد مثل هذه المواد يهم صالح الجمهور أكثر مما يهم الصحة العامة . وهى إما أن تحرق أوترمى بعيدا أو تجمع لاستعمالها فى دفن الحفر والمستنقعات . أما النوع الثانى من الفضلات فهو القشامة والحثالة التى منها المواد الفاضلة فى الأسواق والأفران والفنادق والمطاعم والمساكن وإن هـذه الحثالات قابلة للتفسخ بسرعة فيلزم أن تجمع بين آن وآخر ،وقد تحرق هذه المواد فى بعض الأماكن لترميد المواد العضوية

فيها أو تباع للفلاحين حيث يستفاد منها طعاما لبعض الحيوان ، وفى حالات أخرى يستفاد منها فى المعامل حيث تحوّل لاستخراج بعض الدهون أو الزيوت التجارية منها.

والنوع الثالث من الفضلات وهى أشدها خطرا للانسان والحيوان هو فضلات البلاليع والمراحيض وهى مع كونها تحتوى على ٩٩ في المائة من الماء إلا أن كميات قليلة منها قد تكون سببا فى نشر بعض الأمراض المعدية بين كثير من الناس . ولا يزال البعض من المدن يتخلص من مثل هذه الفضلات عن طريق تصريفها إلى البحر أو البحيرة أو النهر . إن هذه الطريقة لاتكون صالحة إلا إذا كان التصريف إلى البحر مرتبا بأنابيب تبعد فوهاتها عن الساحل لمسافات كافية ومع هذا فإن أمواج المد تدفع كثيرا من هذه الفضلات إلى الساحل فتلوثه . أما تصريف الفضلات دون معالجتها إلى الأنهر والمجاري الصغيرة فأمر يقلق الناس ويسىء إليهم ولا بدمن منعه بقوانين يمكن تنفيذها عمليّا وهوما التجأت إليه اليوم كثيرمن المدن والبلدان .

إن أشهر الطرق العملية الجديدة لتصريف مثل هذه الفضلات تنجز بايداع جميع هذه المواد فى عنابر كبيرة جدا كالأحواض والصهاريج حيث تترسب المواد الصلبة كالوحل فى القاع وتنساب السوائل إلى البحر أو النهر أو البحيرة كيفما كان ، وقد يعجل الترسيب أحيانا بمعونة بعض المواد الكيماوية . ولنعلم أن هذه الطريقة لاتترك المياه خالصة من الخطر ولكنها على كل حال أقل خطرا مما إذا صرفت الفضلات دون معالجة ما . وفى بعض الأمكنة تسحب هذه الفضلات بواسطة المضخات إلى بقعة من الأرض حفرت وملئت بخبث المعادن أوأي مادة ذو مسام تكون كمصفات واسعة لمثل تلك المواد ، كما أخذ البعض الآخر فى استعمال مثل هذه الفضلات فى رىّ الأراضى الزراعية .

ليس فى الإمكان ترجيح إحدى هذه الطرق المذكورة على إخواتها من كل الوجوه فالحالات تختلف بإختلاف الأمكنة والمجتمعات وكل حالة يجب درسها على حدة إن أريد تطبيقها ، وإذا علمنا أن كل مدينة كبيرة تصرف يوميا ما يقرب من

( ٢٠٠ ) كالون من هذه الفضلات لكل رجل وامرأة وطفل من سكانها وهذا يعنى إنها تكوّن كميات هائلة سنويا فبمقدورنا عندئذ أن نتصور ضخامة التكاليف والجهود التى يجب أن تستهلك لتأمين تصريفها حسب الأصول وخصوصا وقد علمنا أنها أشد المواد خطراً على الإنسان .

وقاية موارد المياه العامة :

وهذه مسألة أخرى ذات أهمية كبرى تستدعى البحث الطويل ففى المناطق الريفية وفى القرى الصغيرة يمكن الإستفادة من مياه الآبار والعيون القريبة مباشرة ، أما فى المدن الصناعية فإن إيصال الماء القراح إليها من أشد الضروريات ، والمدن الكبيرة بحاجة إلى معدل (١٠٠) كالون من الماء لكل نسمة من السكان فى اليوم الواحد وهذا المقدار بالطبع لا يستهلك كله من قبل الإنسان ذاته بل بعضه ما تذهب به الصناعة والأغراض الصحية على اختلافها : من الميادين العامة والمتنزهات واطفاء الحريق وغسل الشوارع والمجارى والمصانع والمغاسل ومحطات القطار وكثير غيرها من المؤسسات ، فكل هذه بحاجة إلى مقادير كبيرة من الماء يوميا هذا عدا ماتطلبه المعدات الصحية فى الأوتيلات والمطاعم والمخازن والبيوت . والواقع أن كمية الماء المطلوبة لسد حاجة الإنسان نفسه قليلة جدا إذا قيست بالنسبة إلى ما تستهلكه هذه الأماكن .

أن أول مايجب الإهتمام به فى تجهيز الماء فى المدن هو أن يكون تحت الطلب حتى إلى الأطراف البعيدة وذلك مهما امتدت المدينة وتوسعت أو بعدت عن مصدر الماء فمدينة (Los Angeles) مثلاً تستورد مياهها من جبال (Sierra Nevadas) على بعد (٢٥٠) ميلا من المدينة نفسها ، وهذا هو ليس الشرط الوحيد فإن إستعمال الماء فى الصناعة يوجب أن يكون نقياوخالصا من العسرة مهما أمكن فإن كان فيه شىء من العسرة أو كان عكرا فيلزم تصفيته و إزالة عسرته بواسطة المحاليل

الكيماوية، والأهم من هذا وذاك هو وجوب الإحتفاظ به نقيّا وغير ملوث فى جميع مراكزه على الإطلاق .

إنّ هناك عدة طرق يتوصل بها إلى معرفة ما إذا كان الماء قابلا للاستعمال وغير مضر أبسطها : التأكد من أن مصدر المياه منابع طبيعية نظيفة غير مشوبة أو أن تكون آتية من آبار عميقة أو من بحيرات جبلية مستواها أعلى من المستوى الذى يحتمل التدنيس أو أن تكون مأخوذة من غمرة (وهى الأجسام الكبيرة من الماء) وخصوصا إذا أخذت من مسافة بعيدة عن الشاطىء ، لأن قوة تخفيف هذه المياه الواسعة تجعل المياه مأمونة من الأذى ولو تسربت إليها الفضلات . وإذا لم يكن فى المستطاع الحصول على ماء نقى من إبعاد قريبة فالطريقة الوحيدة أمامنا هى : خزن الماء لمدة طويلة أو الإستفادة من الطرق الكيمياوية أو الميكانيكية فى هذا الشأن لازالة الشك من عدم صلاحيتها للإستعمال وخزن المياه فى الصهاريج و إبقاؤه معرضاً للنور والهواء يجعله مأمونا فى الظروف الإعتيادية . ومدة الخزن المطلوبة تتوقف غالباً على نوع الماء المخزون ولا تقل عادة عن ثلاثة أشهر . إن معالجة الماء بالطرق الميكانيكية تدعى بالترشيح وهو فى أبسط حالاته يتم بواسطة وضعه فى الحبوب أو امرار الماء خلال طبقة من الرمل أو الأحجار المسحوقة لتخليصه من البكتريا المضرة ، أما الطريقة المعقده فى الترشيح فهى إستعمال مرشحات الرمل السريعة حيث يمرّ منها الماء الفج بواسطة قوى الضغط . والمعالجة الكيماوية للماء عبارة عن استعمال ماء الكلورين أو المطهرات الكيماوية الأخرى التى من شأنها أن تقتل المكروبات المضرة ولا تبدّل طعم الماء ولا يستعمل من هذه المواد إلا كميات ضئيلة جداً بالنسبة إلى كميات الماء المعالج والمعروف إن هذه الطريقة لا يركن إليها إلا عند الضرورة لأنها لا تعد على الدوام من الطرق المرضية لمعالجة الماء .

وجوب تخفيف وطأة الدخان :

إن الهواء النقى هو أيضا من لزوميات حفظ الصحة العامة والمناطق الريفية

لا تجد صعوبة فى تأمين ذلك باستمرار أما المدن الصناعية الكبرى فلا شك أنها تجابه أمراً لا بد من القيام بتخفيف وطأته ، فدخان المعامل يحمّل هواءها بما يهدد الظنافة وصحة الإنسان . وقد ثبت بالتجربة أن مداخن المعامل تبعث إلى الهواء مقادير هائله من غاز ثانى أوكسيد الكبريت وهو غاز سام لا يمكن للإنسان أن يعيش فيه مطلقا أضف إلى ذلك تأثير السخام على أثاث الدور و بضائع الحوانيت ، كل هذا أثار الناس فى المدن الكبيرة الصناعية طالبين العمل لتخفيف وطأة الدخان أو إعدامه بوسيلة ما فسنت القوانين والأنظمة التى حتمت استعمال آلات خاصة تستنفذ الدخان من مداخن المعامل الكبيرة وكان ارتياح الناس لذلك ظاهرا .

المساكن :

يستطيع أى إنسان بكل سهولة الحكم على حالة الوسط ودرجة رقيه من مشاهدته المساكن بصورة عامة ، فطراز المنازل له علاقة متينة مع كثير من الأشياء ولعل أقربها إليه صحة الإنسان فإن احتشد الناس فى مساكن ضيقة ذات غرف صغيرة مظلمة لا يتجدد فيها الهواء ولا ينفذ إليها غير قليل من النور ولا يفصل بعضها عن بعض الا طرق لزبة فلا شك أنها تكون تربة خصبة لمرض السل ، والثابت أن هذا الوباء الأبيض يهلك سنويا مالا يقل عن عشرة آلاف شخص فى مساكن مدينة (نيويورك) غير الصحية . والمعروف أن الأطفال الذين يولدون فى أمكنة مزدحمة بالسكان وفى بيوت غير فسيحة يشبّون ضعاف العقول والأجسام لأن قواهم الدفاعية ضد الأمراض تتضاءل بهذا الإزدحام الذى لا ينعشه الهواء النقى ولا يصحبه التنظيم الصحى فى كل شىء . والقوانين الصحية التى اهتم بتشريعها العالم المتمدن توجب عند إنشاء الدور التى تسكنها اكثر من عائلتين ترك ثلث الأرض المخصصة كساحة أو حديقة ، يملأها الهواء والنور وأن يقلل من إستعمال المواد القابلة للاشتعال مهما أمكن ، ويلزم أن يكون للمنزل ردهات وممرات فسيحة بحيث تكون صالحة صحيّا وأن يكون لكل غرفة تسكن شباك أو أكثر . وهناك من القوانين مايعتبر الدور غير

صحية إن لم تحتو على كذا وكذا من الأقدام المكعبة من الهواء لكل فرد فى كل فسحة ، ولا بد لتنفيذ مثل هذه القوانين مراقبة مستمرة من قبل السلطات الصحية فى كل بلد حتى تجرى الأمور وفقا للمرغوب بكل دقة .

وفيما عدا ذلك نجد أن بلديات بعض المدن مثل مدينة (لندن) و (جلاسجو) على عاتقها أخذت اشادة بيوت نموذجية صحية على أنقاض دور غير صالحة وأسكنتها للعمال باجرة بسيطة ، أما غيرها فسعى فى تجميل الضواحى وترقيتها ليحبب الناس إليها بدلاً من الأماكن المزدحمة فقام بتبليط الأزقة والشوارع فى هذه الضواحى وحسّن طرق المواصلات فيها واعتنى بالطرق الفنية فى تصريف الفضلات منها وجهزها بالماء النقى والغاز والكهرباء حتى يجد الناس فيها الراحة التامة ، وسمح لهم باستملاك الدور التى استأجروها بعد إنقضاء أعوام معدودة . إن هذه النقطة أى تشجيع الاستملاك نقطة جوهرية لا تقتصر فى كونها تعود إلى المالك بالمنفعة الصحية أو الإقتصادية ولكنها بالاضافة إلى ذلك تطبع فى الأفكار صورة جلية للوطن والمركز السياسى له ، ويبعث فى الناس حب الاستقرار والطمأنينة ، فالرجل الذى يملك عرصة من الأرض ودارا مشادة عليها قلما يفكر فى الثورة والقيام بوجه الحكومة إذ يمتلأ وهو فى بيته بعاطفة الرقة والحنو ، أما إذا كان يسكن فى غرفة من إحدى المنازل يستأجرها ليقبع فيها هو وعائلته المسكينة ظلمة الليل فسرعان مايمتعض ويتخشّن من الفقر والبؤس ويندفع فى كل فرصة إلى الهياج ضد القوة الحاكمة .

وسائل أخرى لحفظ الصحة :

لقد قام كثير من الحكومات بوسائل أخرى غير التى ذكرت آنفا لصيانة الصحة العامة فمن ذلك أبادة البعوض والذباب البيتى والحشرات الضارة التى تسبب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة موت مئات الآلاف من الناس سنويا ، وفحص طلاب المدارس من الوجهة الصحية وسيلة أخرى ذات أهمية كبرى فى هذا الشأن ، وهو أن أجرى بدقة على جميع الطلبة كبيرهم وصغيرهم بين آن وآخر يساعد كثيرا

فى تشخيص الأعراض ويسهل المعالجة السريعة ويكون سبباً فى صيانة الطلبة من تفشى أغلب الأوبئة بينهم .

## كيف تنفذ التعليمات الصحيـة :

يتوقف تنفيذ التعليمات والنظم الصحية وتطبيقها وفقاً للمرام على جهود مأمورى الصحة مفتشيها المحليين قبل كل شىء فعلى مثل هؤلاء المبثين فى المراكز المختلفة والمربوطين بالدوائر الصحية الرئيسية والذين لهم السلطة فى الحجر الصحى والتطهير ومراقبة الأطعمة والحليب وتعقيب الأنظمة الصحية ومنع الأجازات فى فتح المسالخ والمؤسسات الأخرى التى لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالصحة العامة يتوقف الشطر الأكبر من العمل .

## التعليم والصحة العامة :

لا ينكر أن أساس النجاح فى الأعمال التى تقتضيها الصحة العامة هو ثقافة المجتمع وإلمامه بالقواعد والنظم الصحية فكلما كان الناس ميالين للمشاطرة والمعاونة برحابة صدر مع السلطات الصحية كانت النتيجة خيرا وحيثما وجدنا العصيان وعدم إطاعة الأنظمة الصحية تأكد لدينا أن المجتمع جاهل لا يقدر تأثير العمل العكسى عليه وعلى غيره . والطريقة المثلى فى تعليم الجمهور هى التى تتم بواسطة عرض التصاوير التى تظهر إليه الحالة الصحية فى الحوانيت والبيوت كما هى وكما يجب أن تكون وبيان الفرق بينهما . أما المدارس فلا شك أنها أفضل السبل فى تعليم وتربية كافة الناس ما يراد تعليمهم وتعويدهم إياه من دروس الذوق والصحة والنظام، وتعليم الأطفال والأولاد القواعد الصحية أسهل بكثير من تعليم الكبار والبالغين لأن هؤلاء صادف أن اكتسبوا عادات واتجاهات فى حياتهم يصعب تغييرها أو تهذيبها وعلى هذا كان لزاما على المدارس فى كل مملكة تعيين أوقات خاصة وساعات منظمة لتدريب شبيبتها وتعويدها على النظافة والترتيب فى المأكل والمشرب ووسائل العيش الأخرى وإفهامها كيفية الوقاية من الأمراض المعدية وعلى هذا يتوقف بالأكثر مستقبل نشاط الأمة وحيويتها .

# الغدد في جسم الإنسان

أعمالها — بنيتها — أنواعها

إن من الوظائف المهمة التى تشترك بتأديتها جميع الحجيرات الحية فى جسم الحيوان هى وظيفة التغذية ، فكل حجيرة تقوم بأود نفسها مما تحصل عليه من محيطها لتعيش وتحيا . إلا أن هناك نوعاً من الحجيرات ما يقوم إضافة إلى ما ذكر بأحدأمرين : إماتوليد أو إبعاث بعض المواد الضرورية لوظائف الجسم العامةوعمليتها تدعى بـ ( الإفراز ) أو أنها تساعد الجسم بإبعاد فضلاته،وتسمى عمليتها بـ ( الإبراز ) .

إن مثل هذه الحجيرات من كلا النوعين يطلق عليها اسم الحجيرات الغديّة أو حجيرات النسيج المخاطي الغدّى وأن تجمع هذه الحجيرات وتكتلها لتكوين جسم محدود لغاية أداء وظيفة الإفراز أو الإبراز يدعى بالغدة .

## الغدة الوحيدة الحجيرة :

والغدة يمكن أن تتكون من حجيرة واحدة كما هى الحال في ( الحجيرات الكأسية ) المنتشرة على سطوح الأغشية المخاطية ، أو كما فى الغدد الوحيدة الحجيرة الموجودة فى الحيوانات غير الفقرية . ولما كانت هذه الحجيرات تمر عادة بسلسلة من التغيرات عند توليد مادتها الخاصة ، لذا فإن مظهر الحجيرة الخارجى يتوقف فى أغلب الأحيان على الدور الذى هى فيه من أدوار الإفراز ، وعلى هذا يمكننا أن نفرّق بين الحجيرة السابتة والحجيرة الفعالة ، أو بين الحجيرة الفارغة والحجيرة الملأى فمثلا إن الحجيرات التى تبطن الأمعاء وتكوّن أغشيتها المخاطية هى من نوع الحجيرات الاسطوانية . ومن السهل تمييز الحجيرات المخاطية منها عن الكأسية وذلك عند بدأ انصباب إفرازاتها ومشاهدتها ، وللحجيرة السابتة شكل حبيبى ويتلوّن سايتو بلازمها بصبغة دا كنة ، وكلما تتدرج وتصبح فعالة يتغير جزء من السايتو بلازم ، وتشغل محله مادة أخرى أكثر وضوحا لا تكتسب تلك الصبغة الدا كنة كما كان الحال مع السايتو بلازم قبلا ، ولكنها تصبح فى الوقت نفسه قابلة لا كتساب صبغة ( الهيموتكسلين ) بكل سهولة . وتتجمع المادة المخاطية

المفرزة أولا فى ناحية من نواحى الحجيرة وتتكاثر كميتها بالتدريج حتى تشغل فراغ الحجيرة كله إلا بقعة صغيرة منها تقع فى طرفها وفيها نجد نواة الحجيرة وحولها قليل من المواد البروتوبلازمية غير المتبدلة .

وفى هذه الحال يكون حجم الحجيرة أكبر بكثير مما كان وهى فى دور السكون ، وحينذاك تنشق من الطرف المقابل لمركز النواة وتنصب محتوياتها إلى الخارج . وهنا تتباين الآراء عن مصير الحجيرة بعد هذا الدور ، فمن قائل أن تاريخ حياتها ينقضى بانتهائه فتحل مكانها حجيرة أخرى من شاكلتها تقوم بما قامت به أختها الفانية من واجب الوظيفة وفق الطريقة المذكورة ، ومن قائل إن الحجيرة لا تموت فى أغلب الأحيان ، بل تتكون من جديد من بقايا السايتوبلازم غير المتبدلة والنواة الأصلية ، وتستمر بعملها الإفرازى من جديد . وفى النسيج المخاطى الرصفى قد يبدأ الإفراز عند ما تكون الحجيرة نامية فى الطبقات السفلى ويزداد هذا الإفراز بالتدريج كلما كانت الحجيرة أقرب إلى السطح حيثما تنصب موادها المخاطية .

## مواد الإفراز وعمليته :

وفى الواقع أن جميع الحجيرات مهما كان نوعها تأخذ من الدم واللمف كل ما تحتاجه من المواد الضرورية التى تتغذى بها وتعطى إلى الدم فضلاتها ، وفى هذا المعنى تصبح للحجيرات بأجمعها قابلية للإفراز والإبراز معاً ، ولكن مما يميز الحجيرات الغدية عن غيرها أنها تعمل بالإضافة إلى ما تقوم به من أفعال التغذية التى تؤمن بها حياتها بعضا من المواد لا تستهلكها بنفسها ولا تستنفع منها ، بل تدفعها إلى الخارج لاستعمالها فى أقسام أخرى من الجسم ، وهذا ما يدعى بالإفراز كإفراز العصير المعدى ، أو تنبذها بعيداً عن الجسم ، لأنها سامة أو مضرة وهذا ما يسمى بالإبراز كالبول ، فالحجيرة إذن التى تقوم بإحدى هاتين الوظيفتين تستعمل من الدم واللمف المواد الخامية وتمتص أكثرها وتمثلها وتبدلها إلى مادة

إفرازية جديدة ، أو تستخلص منها مادة إبرازية تلفظها بعيداً عن الجسم .

ويطرأ على أكثر الحجيرات الغدية تغيرات تصحب الإفراز هى عبارة عن تطوّرات فى قسم من مادة السايتوبلازم ، فتظهر مثلا فى طرف من أطراف الحجيرة عدة خيوط أو شعيرات دقيقة تسمى « اركاستو بلازم » أو تتشكل بدلها جسيمات صغيرة غير منتظمة تدعى بالنواة الثانوية « برانوكليس » وسميت كذلك لأنها تختلف بخصائصها فى اكتساب الصبغة عن النواة الأصلية للحجيرة ولم يعرف لحد الآن علاقة هذه الزوائد بالسايتوبلازم أو بالإفراز نفسه .

أما وظيفة النواة فى عملية الإفراز فمن المحتمل أن تكون ذات أهمية كبرى ويرجح أن تكون الحجيرة الفاقدة للنواة عاجزة عن إنتاج إفراز حقيقى . وقد شوهد أنه فى حالة تكوّن الإفراز من جميع أجزاء الحجيرة كما يحصل ذلك فى الغدد اللبنية تصبح النواة جزءاً من الإفراز نفسه ، كما أنه ثبت فى كل الحالات بأن هجوم الإفراز وانصبابه يصحب بظواهر غريبة فى النواة ، فبعضها يتضخم ويصبح غير منتظم الشكل أو غير كروى وبعضها الآخر يندفع من داخله مواد نووية تنصب فى السايتوبلازم ويختلط بها ، أو أن النواة تمر بانقسام مباشر « امايتوتك » وهناك من يرى أن أصل ظهور النواة الثانوية والخيوط الدقيقة التى ذكرناها آنفاً هو النواة وليس السايتوبلازم .

بنية الغدة وأنواعها :

تتكوّن معظم الغدد المهمة من أكثر من حجيرة واحدة ، وفى الغالب من عدد كبير من الحجيرات ، وهذه بدلا من أن تكون فى صف واحد على السطح الخارجى نجدها تحيط تجويفاً صغيراً تصب فيه إفرازها . وفى أبسط حالات التجاويف الغددية تكون كل الحجيرات المحيطة بها هى من نوع الحجيرات الإفرازية ، وهذا يختلف كثيراً عما هو فى الغدد الأعقد تركيبا ، ففى هذه الحال

تصبح الحجيرات البعيدة فقط عن السطح هى الحجيرات المفرزة . أما بقية الحجيرات القريبة إلى الفوّة فتكون وظيفتها حمل هذه الإفرازات إلى السطح الخارجى ، ولذا دعي القسم الأخير بالقناة الإفرازية لتفريقها عن الجزء المتقدم ذكره وهو الطبقة المفرزة .

ويغلف الجزئين أغشية من الأنسجة المخاطية ، أما الأنسجة الرابطة فتعقب هذه الأغشية وتتداخل بين أجزاء الغدة الأصلية وتتوقف كميتها ودرجة تداخلها على نوع الغدة .

وهنا إذا كانت المنطقة المفرزة من الغدة أنبوبية الشكل والقناة رفيعة ومستقيمة تكون الغدة من النوع الأنبوبى . أما إذا كانت المنطقة المفرزة متوسعة على شكل كيس ، فعندئذ تكون الغدة من النوع الكيسى وتدعى بالغدة الأنبوبية الكيسية إذا كانت من النوع الوسطى .

وقد يكون للغدة قناة واحدة أو كيس واحد أو بضعة أقنية أو أكياس تنتهى كلها بأنبوب رئيسى يصب العصارة رأساً فتدعي بالغدد الأنبوبية البسيطة ، ومثلها الغدد (المخاطية) والغدد (العرقية) و (الدمعية) ، أو قد تكون محتوية على شبكة حشكة من الأقنية المتفرعة تؤدى إلى أنابيب وأكياس جانبية أخرى ، فتسمى عندئذ بالمركبة . وهناك غدد قليلة العدد مثل الدرقية والتيرسموس ليس لها أقنية ، وتدعى بالغدد الصمّ .

تركيب الغدة:

ان كل الغدد المركبة محاطة بالأنسجة الرابطة التى تكون على الدوام بشكل محفظة خاصة تقع بين الأغشية المخاطية الخارجية وبين الأنسجة الغدية الأصلية ، وتتفرع ضمنها على هيئة فواصل أو حواجز تقسم الكبيرة منها جسم الغدة إلى بطون واضحة يطلق عليها اسم الفصوص وأحدها ( فص ) أما الحواجز الصغيرة

فتنفصل البطن إلى أقسام مكروسكوبية بحجومها يدعى الواحد منها بالقصيص . والقصيص عدا كونه جزءاً من الغدة مفصولا عن البقيـة بواسطة هذه الأنسجة الرابطة فهو يمثل منطقة تتكتل فيها الأنابيب الغـددية مع بعض الآقنية الرئيسية الراجعة إليها . فالأنسجة الغدية إذن تكوّن الطبقة الداخلية للغدة وهى نوع من الأنسجة المخاطية التى تدعى بالأنسجة الحشوية ( برنكما ) لتميزها عن بعض أنواع الأنسجة الرابطة المسماة بالأنسجة الخلالية ( انترستيشيل ) . ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نرجع إلى منشأ تكوّن الأنسجة الغددية والأنسجة الرابطة لبيان العلاقة الأصلية التى تربط هذين النوعين من الأنسجة : تنشأ كل الغدد فى بادىء الأمر بسيطها ومركبها من انثناءات أو تجعدات من خارج سطح الأنسجة المخاطية إلى الداخل فتكون بذلك أجوافا أو أكياسا تنغرز فى الأنسجة الرابطة التى تلى طبقة الأنسجة المخاطية ، وفى حالة نشوء الغدد المركبة نجد أن الأنبوب المتكوّن من هذه الانثناءة يصبح الأنبوب الرئيسى للافراز وكلما استمر بالنمو ينقسم ويتفرع ليكوّن الأقنية الفرعية كبيرها وصغيرها إلى أن يشكل فى النهاية أقنية الافراز أو أكياسه . وفى أثناء نمو هذه الأقنية الغددية من جهة نشاهد أن الأنسجة الرابطة من الجهة الثـانية لا تنفك عن النمو أيضا غير أنها تكون أبطأ بهذا النمو نسبة ولذا نراها تتراجع إلى الوراء أمام نمو الأقنية الغددية السريع وهو نمو منتظم يبعث بكتل من الحجيرات تتداخل بين الأنسجة الرابطة ولكل كتلة قناتها الخاصة .

وهكذا نجد أن القناة الرئيسية التى تشكلت أولا من التجويف الأصلى تبعث بفروع عديدة تسمى بالأقنية الفصية كل فرع يؤدى حتما بعـد أن يتشعب للمرة الثانية إلى أنابيب أخرى هى الأصل فى تأسيس الفص فى كل قناة فصية وبعد أن تتفرع داخل الفص تكوّن القصيص ، وعلى هذا تبقى بين الفصوص المتجاورة الأجنحة الـكبرى من كتل الأنسجة الرابطة أما الصغرى منهـا فتتداخل بين

فصيص وآخر وأدق هذه الكتل تبيت ضمن انحاءات الأقنية والأكياس فى الفصيص الواحد .

والخلاصة أنه بإمكاننا تصنيف الغدد إلى الأقسام التالية :

القسم الاول : الغدد ذات العنق أو ذات القناة ومنها الأنواع الآتية .

١ — الغدد الأنبوبية وهى إما أن تكون :

(ا) بسيطة حيث يكون الأنبوب مستقيما أو ملتفا أو متشعبا .

(ب) مركبة .

٢ — الغدد الكيسية وهذه على نوعين أيضا بسيطة ومركبة .

القسم الثانى : الغدد عديمة القناة (الصمّ) وهى ما تسمى بذات الأفراز الداخلى وسنتناول كل نوع على حدة بشىء من التفصيل مع بيان الأمثلة الكافية .

## الغدد ذات العنق

١ — الغدد الأنبوبية .

(ا) الغدد الأنبوبية البسيطة : وهى غدد ذات أنابيب بسيطة التركيب تفتح إلى الخارج و يتصل الغشاء المخاطى الذى يبطنها بالنسيج المخاطى الخارجى الذى على السطح . وقد تكون كل حجيرات الغدة مفرزة أو يختص الافراز بالحجيرات العميقة ، وفى الحالة الأخيرة يستخدم القسم الأعلى من الأنبوب كقناة لدفع الافراز إلى الخارج ويمكننا أن نميز فى الغدد الراقية من هذا النوع ثلاثة أجزاء بيّنة — الجزء الأول «الفم» وهو فتحة على السطح والجزء الثانى «العنق» وهو القسم الضيق من الغدة والثالث «القعر» أو البطن وهو المنطقة المفرزة للغدة .

إن الغدد الأنبوبية البسيطة تقسم إلى بضعة أنواع حسب شكل القعر المذكور:

١ — المستقيمة : حيث تكون القناة على استقامة واحدة غير متشعبة وذلك مثل غدد الأمعاء الغليظة .

٢ — الملتفة : وهنا تكون نهاية القناة مبرومة على نفسها وأوضح مثل على هذا النوع هو غدد العرق فى الجلد .

٣ — المتشعبة : حيث تكون نهاية القناة متشعبة والشعب مبطنة بالحجيرات المفرزة التى تصب عصاراتها فى القناة الأصلية . إن أبسط هذه الغدد نجده فى طرف المعدة القريب إلى القلب وفى الرحم أما أعقدها في التشعب فهى الغدد المخاطية الموجودة فى البلعوم والفم والقصبة الهوائية .

(ب) الغدد الأنبوبية المركبة .

وهى غدد تحتوى على عدد كبير جدا من الأقنية الفرعية المتشعبة التى تؤدى إلى قناة رئيسية واحدة ، وأكثر الغدد الكبيرة فى الجسم هو من هذا النوع وذلك مثل الغدد اللعابية والكبد والكلية والخصية .

٢ — الغدد الكيسية .

(ا) الغدد الكيسية البسيطة : وأبسطها يحتوى على كيس واحد يتصل بالخارج بواسطة عنق ضيق ، والواحدة تشبه المدقة بشكلها ويشاهد مثل هذه الغدد فى جلد بعض الحيوانات البرمائية أو الضفادع ولا نجدها فى الانسان . أما المتفرعة منها فتمثلها الغدد الدهنية فى جلد الانسان وغدد (ميوميوس) الدهنية فى الجفن .

(ب) الغدد الكيسية المركبة : وهى نظير الغدد الأنبوبية المركبة بهيئتها إلا أنها استعاضت بالأكياس بدلا عن الأنابيب ، وهى تتكون من جماعات كبيرة العدد من الأكياس كل جماعة تنتهى بأنبوب واحد وهذه بدورها ترتبط بالقناة الرئيسية على نسق تام ونظام موحد . وأفضل مثل لهذا النوع هو الغدد اللبنية فى الأنثى ولنعلم أن الرئتين مبنيتان على نفس الأساس لهذا النوع من الغدد .

## الغدد الصم وأهمية الهرمونات فى حياة الانسان

إن من الوسائل المهمة التى تضمن الحياة بواسطتها ترابط الأعمال المشتركة بين أعضاء جسم الحيوان الراقى وسوقها بموجب نظام واحد بقصد تأمين الموافقة بين المخلوق الحي ومحيطه هى بلا شك سهولة الاتصال الكامل بين هذه الأعضاء. ويتم هذا الترابط عادة بواسطتين أساسيتين.

( الأولى ) هى الجهاز العصبى و ( الثانية ) الهرمونات أو إفرازات الغدد الصم. وقد أشرنا فيما سبق بأن هذه الغدد لا تختلف بتركيبها الهستولوجى عن بقية الغدد الأخرى إلاّ بكونها فاقدة للأقنية الرئيسية ولذا أصبحت عصاراتها المتكونة فى حويصلاتها الداخلية لا تنصب خارجا كما هو الحال مع الغدد الأنبوبية ذات العنق بل تمتص بواسطة الدم أو اللمف رأسا وتسمى مثل هذه العصارات بالإفرازات الداخلية أو الرسول الكيمياوى أو الهرمونات أما أعضاؤها فتدعى بالغدد الصم كما أسلفنا. ومما هو جدير بالذكر أن جميع الحجيرات فى الجسم تشترك بإنتاج مركبات متنوعة تعرف بالفضلات من شأنها أن تنصب فى المجارى الدموية مباشرة ويكون لبعضها التأثير الكبير على مختلف الأعضاء أشبه شىء بما يكون للهرمونات عليها فالثانى أوكسيد الكاربون — وهو من جملة الأمثلة التى توضح هذا التأثير — عمل قوى فى تنبيه مركز التنفس فى الدماغ، ولذا فتفريقا بين عمل هذه المركبات من جهة وعمل الهرمونات من جهة ثانية اصطلح على أن لا يشمل الإفراز الداخلى تأثير الفضلات الناتجة من فعالية الأنسجة والأعضاء بصورة عامة بل تشمل فقط المواد الحاصلة بواسطة الغدد الصم والتى :

١ — تزيد أو تقلل من فعّالية الأعضاء الأخرى.

٢ — تسّهل أو تعيق الاستحالة الغذائية.

٣ — تؤثر على نمو الجسم.

ولقد تمكن الكيمياويون فى أكثر الأحوال من عزل بعض المواد ذات التأثير الفعال فى هذه الهرمونات بصورة قوية نوعا ، وفى الواقع أنهم نجحوا باستخلاص أنواع الهرمونات الصناعية التى تعرف (بالثايروكسين) و (الاينفرين) ولكنهم فى الوقت عينه لم يستطيعوا فى بعض الأحوال الأخرى من إثبات وجود الهرمون إلا بواسطة تأثيره الخاص وأهم الوسائل التى يعتمدون عليها فى هذه الدراسة هى :

١ — استئصال العضو .

٢ — اطعام الغدة أو حقن خلاصتها فى :

(ا) جسم حيوان صحيح . (ب) جسم حيوان استئصلت منه الغده نفسها.

٣ — دراسة الاضطرابات الجسمية وغيرها التى تحدث لإنسان مصاب بإحدي العوارض الغدّية والسعى لمداواة المريض من هذه الوجهة أو نقل غدة سليمة إليه من حيوان آخر بدلا عن غدته .

ومن حسن الحظ أن يكون بمقدورنا نقل الهرمونات من حيوان إلى آخر بسهولة تامة فباستطاعتنا مثلا أن نتلافى عجز الغدة الدرقية المخيف من الافراز وذلك بنقل غدة أخرى فى محلها أو استحصال خلاصتها من حيوان آخر كالبقر والغنم وحقنه فى جسم العليل .

أما أنه كيف تحدث هذه الهرمونات تأثيرها فأمر مجهول حتى اليوم ولو أن هناك بعض الخبيرين من يقرن عملها بعمل الخمائر الكيمياوية أو (الانزيمات) . ومهما يكن فإن درجة هذا التأثير عالية جدا بحيث أنها تظهر للعيان جلية حتى عند استعمال كميات ضئيلة لا يعتد بها من هذه المواد . ومما يجدر ملاحظته أن هذه الغدد الصمّ تؤثر فى أحوال معينة على بعضها البعض فإذا استئصلت الغدة «النخامية» فى أفراخ الضفدع مثلا فان ذلك يؤدى حتما إلى نقصان فى نمو الغدة «الدرقية» . وقد عرف الشىء الكثير عن هذه الصلات المشتركة معظمها غامض لا يمكن تفسيره إلاّ ما ندر وسنشير إليه فى حينه . وليس ببعيد أن نجد أنواعا مختلفة من هذه الغدد الصمّ منها

ما يفرز أكثر من هرمون واحد كالغدة « النخامية » ، ومنها ما يشبه غدة أخرى بالهيئة والوظيفة كالغدتين الكظريتين (الادرينالية) ، ومنها ماله مساس كبير مع غدد أخرى ذات افراز خارجى كما هو الحال فى غدة البنكرياس .

وسنبحث فيما يلى عن كل غدة من الغدد الصمّ مفصلا .

## مراكز الهرمونات فى جسم الانسان وأفعالها الحيوية

### — ١ —

### الغدتان الكظريتان — الادرينالية

الكظريتان غدتان صغيرتان من الغدد الصمّ الرئيسية يميل لونهما إلى الاصفرار — تقعان فى أعلى الكليتين وبقربهما وتتركب الغدة الواحدة منهما هستولوجيا من طبقتين بينتين الطبقة الخارجية أو القشرة والطبقة الداخلية وتعرف باللب . وهذه الطبقة ( الثانية ) تنمو جنينيا من نفس الأنسجة التى تكوّن الجهاز السمبثاوى العصبى أما القشرة فتتولد من الأنسجة التى تنمو منها الأعضاء التناسلية ولكل من هاتين الطبقتين وظائف فسيولوجية خاصة ومن المرجح أن الغدة الكظرية تحصل لكل غرام من وزنها كمية من الدم أعظم مما يستحصله أى عضو فى الجسم ما عدا الغدة الدرقية .

تمكن ( اديسن ) عام ١٨٥٥ من معرفة بعض الأعراض المرضية التى ذكر عنها أنها تنشأ من ضعف أو عجز يصيب هذا النوع من الغدد . وقد عرف مجموع هذه الأعراض بعدئذ بمرض اديسن ، وهو مع كونه يستمر أحيانا زمنا طويلا ، من الأمراض المميتة دائما وفى كل الأحوال . وفى هذا المرض يصاب العليل بضعف عام يعترى جميع العضلات ويتلوّن الجلد بلون البرونز ، وإذا استئصلت هاتان الغدتان من جسم الحيوان كالكلب فسرعان ما يعاجله الموت بظرف عشرة أيام

تقريباوتظهر عليه أعراض المرض المشار إليه فتفقد عضلات الأوعية الدموية مرونتها ويصاب قوة توترها وتقل درجة الضغط الدموى ويصاب الجسم بإخفاق وهبوط عام وضعف فى العضلات وفقدان الشهية .

الطبقة اللبية فى الغدة الكظرية :

إن قطع هذه الطبقة لا يعقبه الموت كما أن استعمال مادتها الفعالة المسماة بالأدرنين أو ( الادرينالين ) أو ( أيينفرين ) لا يضمن الحياة لمن تستأصل منه الغدة بكاملها مع أختها .

وأهم ما يلاحظ عند ما تحقن مادة الأيينفرين فى جسم حيوان اعتيادى هو حصول تغيرات جلية فى فعالية كثير من الأعضاء ذات العضلات الملساء ، إذ أنها تزيد من فعالية البعض من هذه العضلات فيصيبه التهيج أى الانقباض والانبساط السريعين ، وتقل فعالية البعض الآخر فيعتريه الخمود ، كما أن عضلات الأوعية الدموية المدوّرة ، وخصوصا ما كان منها فى المنطقة الحشوية تأخذ فى التنبه بدرجة عالية يعقبها ازدياد فى الضغط الدموي الذى لا يلبث أن يفنى سريعا .

أما الأوعية الدموية فى العضلات الإرادية المتصلة بالهيكل العظمى فلاتشترك بهذا الانقباض . ولما كان تأثير الادرينالين قويا على الأوعية الدموية بصورة عامة أصبحت تستعمل غالبا فى العمليات الجراحية البسيطة فتحقن موضعها فى الأنف أو غيره لإيقاف النزيف الهين ، وكثيراً ما تخلط مع محلول (البروكين) — وهى مادة مخدرة أخف تسما من أملاح الكوكايين — أو مع أدوية أخرى شبيهة بالبروكين ، وذلك للحصول على التخدير الموضعى ، هذا ولكونها تسبب انقباضا فى أكثر الأوعية الدموية أصبحت عاملا قويا فى تطويل أمد التخدير وزيادة شدته . والادرينالين تحدث — فضلا عما ذكر — تقلصا فى العضلات العاصرة (أو المصرّة) لبوابات المعدة والقولون ، كما أنها تسبب هذا الانقباض عينه فى بعض

أجزاء القناة التناسلية وفى الأنسجة الموسّعة (بكسر العين) لحدقة العين وتزيد من فعالية الغدد العرقية واللعابية وغدد الدمع . وللمادة أيضا تأثير فى ارتخاء الجملة العضلية للمعدة والأمعاء وعضلات المثانة والقصبات الهوائية مما يخفف وطأة الفعالية ويبطئ حركتها ، ولهذا السبب أصبح يستفاد منها فى الطب ضد (الربو) ، وهو مرض يتصف بنوبات عسر فى التنفس وسعال من جراء انقباض وتقلص شديدين فى عضلات الأنابيب الهوائية .

أن جميع الأعضاء المذكورة آنفا والمحكومة غالبا بواسطة مادة الادرينالين تتصل على الاطلاق بالمراكز العصبية السمبثاوية وتكون تحت قيادتها ، غير أنه لما كانت هذه المادة عديمة التأثير على العضلات الملساء غير المتصلة بمراكز الجهاز السمبثاوى مثل : الاوعية الدموية الخاصة بالمخ والدماغ وجميع الأوعية الدموية المتعلقة بقحف الرأس أو الهامة اذن وجب أن يكون تأثيرها محدودا على الأنسجة التى تقع فى وجه العضلات فقط ، وكذلك لما كان هذا التأثير يستمر حتى بعد قطع الأعصاب السمبثاوية و بعد أن يكون للأجزاء المحيطة بها زمن كاف للاضمحلال والهلاك لزم عندئذ أن يكون تأثير الأدرينالين مقتصراً على مادة أوأنسجة تتوسط بين العصب والعضلة وعلى كل فالمعروف عندنا أن للمادة المذكورة تأثيرا من شأنه أن يرفع من فعالية الجهاز السمبثاوي ويزيد من نشاطه .

وقد وجد أن التنبه الحاصل على أعصاب المنطقة الحشوية يكثر من إفراز مادة الأدرينالين . وأكّد العلامة (كنون) أن بعض الحالات العقلية كالغضب والخوف والقلق يسبب أيضا ازدياد هذه المادة فى الدم ولتعيين ذلك جرب العلامة المذكور تأثيرها فى عضلات الأمعاء إذ أخذ شقة صغيرة من أمعاء أرنب وربطها بحامل بحيث كان يستطيع أن يصب عليها محلولا فسيولوجيا من بعض الأملاح الخاصة أو كمية من الدم المراد فحصه من جهة مادة الادرينالين ، وحفظا لابقاء الأنسجة حية مدة التجربة اضطر على أمرار تيار من غاز الأكسيجين خلال المحلول الذى أبقى

بدرجة حرارة معينة هى درجة حرارة الجسم الحىّ . ولما سجّل فى النهاية تقلص وانبساط عضلات هذه الشقة من الأمعاء على آلة ( الكيموغراف ) ثبت لديه أن الدم المستحصل من حيوان هادئ هو عديم التأثير فى حركة هذه العضلات بينما كان للدم المأخوذ من جسم حيوان منفعل من جراء خوف أو غضب تأثير كبير فى إخماد هـذه الحركة أى أنه خفف كثيرا من فعـالية التقلص والانبسـاط للعضلات المذكورة .

أجريت هذه التجربة فى وقتها بدقة فائقة حتى أن التأثير كان يظهر جليا بوضع جزء واحد من الأدرينالين إلى ( ٢٠٠ ) مليون جزء من المادة المذوبة ( بكسر الواو ) واستطاع كنون بعدها من إعادة هذه التجربة بنجاح تام على قلب قطعت عنه أعصابه وكانت نسبة المحلول حينذاك ( ١ ) إلى ألف وأربعمائة مليون .

ويعود — كنون — فيؤيد أن إطلاق هذه المادة فى الدم هو السبب فى كثير من التغيرات الفسيولوجية والانفعالات النفسية التى تحصل فى جسم الحيوان ومن جملة هذه التأثيرات إفراز العرق (العرق البارد) وانتصاب الشعر فى بعض الحيوانات كالقطط وتقلص الأوعية الدموية فى أدمة الجلد كما يظهر ذلك عند امتقاع اللون فى الخوف وتقلص الأوعية الدموية للاحشاء البطنية وتوسع حدقة العين . أما الأوعية الدموية فى العضلات الخارجة عن المنطقة البطنية فانها تتمدد وتـكوّن ساحات لقبول كميات الدم الواردة من تلك المنطقة . وظهر للخبيرين أيضاً أن برودة الجو تسبب ازديادا فى افراز الغدد الـكظرية ، ولاشك أن مثل هذه الانفعالات الناتجة من إنصباب الادرينالين فى الدم بأى صورة كانت يكثر من نسبة السكر فيه ويرفع من درجة حرارة الجسم . ويؤكد الباحثون أن الادرينالين تنشط بعض العضلات المخططة أكثر من المعتاد فقد وجد ( شيفر ) و ( أوليفر ) بعد حقن خلاصة المادة فى جسم ضفدع زيادة كبرى فى تقلص العضلة التوأمية الساقية (عضلة بطن الساق) المتستأصلة بنسبة ٣٣٠/٠ واستمرت بالارتفاع حتى وصلت إلى ٦٦٠/٠ عما كانت عليه فى العضلة الاعتيادية .

ومن هنا يمكننا أن ندرك موافقة الحال مع حقيقة الواقع فيما يحدث للمصاب بمرض (اديسن) أو بمن تستأصل منه الغدتان الكظريتان من ضعف وارتخاء فى عضلات جسمه بصورة عامة .

أما (كروبر) فقد عرف أن قابلية الحس للعضلة المنهكة يمكن تجديدها فى الأحوال الاعتيادية بظرف ربع ساعة إلى الساعتين وذلك فيما إذا أعطى لها جرعة صغيرة من مادة الادرينالين ، كما يمكن إنعاش الشعور نفسه بزمن لا يزيد عن الخمس دقائق . ولما كان هذا التأثير واضحاً فى العضلة المقطوعة فمن المحتمل إذن أن يكون للادرينالين أيضاً تأثير فى الأنسجة العضلية فى الجسم ولو كان ذلك أقل نسبة مما هو حاصل فى الخارج .

استفاد العلامة (كنون) من جميع الحقائق الآنفة الذكر فبنى عليها نظريته المسماة بـ (نظرية المباغتة) لفعالية الغدد الكظرية وتتلخص هذه النظرية بما يأتى : —

«لا يظهر تأثير الغدد الكظرية على أعضاء الجسم فى الأفعال التى سبق ذكرها إلاّ فى الأحوال المستعجلة والمفاجئات غير الإعتيادية كالاختناق (اسفيكسيا) والغضب أو الخوف المريع حيث تبدأ الغدة بصب افرازها بكميات هائلة فى الدم مما يستلزم تلك التبدلات الفسيولوجية المعروفة لتساعد الحيوان على مقابلة تلك المفاجئات ودفع أضرارها» .

وهناك بعض البينات ما يشير إلى أن فى النخاع المستطيل مركزا خاصا يبعث بأوامره خلال الأعصاب الحسّية من مراكز الدماغ العليا إلى هذه الغدد لتأدية ما يلزم وقت الحاجة حسب الأصول .

وقد يتسبب انصباب مادة الادرينالين عن غير هذا الطريق إذ يحصل مثلا بتأثير بعض الأدوية والعقاقير ومن هذه الوجهة يمكننا القول بالنسبة إلى حياة الإنسان

فى العصر الحاضر أن النيكوتين ( الدخان ) المأخوذ باستمرار هو أظهر كل أنواع هذه الأدوية فى التأثير من هذه الناحية .

## الطبقة القشرية فى الغـدة الـكظرية :

سبق أن عرفنا أن استئصال الطبقة اللبية لا يفقد الحياة وهذا عكس ما نجده في حالة استئصال الطبقة الخارجية من الغدة فالموت بعد نزعها أكيد والهلاك محتم . وينجم الهلاك — حسب رأى البعض من الإخصائيين — من جراء تجمع الفضلات السامة فى جسم الحيوان . فقد استؤصلت هاتان الغدتان من جسم كلب بعملية جراحية وظهر للقائمين بهـا أن دم الـكلب مملوء ببعض المواد السامة أهمها مادة ( الهستمين ) — وهى مادة أمينية تستحصل من الهستدين بابعاد جزئيات ثانى أوكسيد الـكاربون من المركب — التى تصبح حينذاك سامة للحيوان بأكثر من ثلاثين ضعفاً مما هى فى الأصل أى قبل أن نستأصل الغدتين من الجسم . وإذا أطعم الحيوان كمية من المواد الغذائية الغنية بالبروتينات يموت حالاً ( لأن هذه المواد هى التى تولد الهستمين بعد مرورها بسلسلة من التفاعلات الـكيماوية ) و بناء على هذا يرجح أن يكون لهذه الغدد عمل ضد تأثيرات السموم .

والعلاقة وثيقة بين الطبقة القشرية للغدة و بين أعضاء التناسل كما يظهر من تضخمها وتوسعها أيام الحمل والرضاعة . وهى تبعث فى صغار الجنسين عندما تنشط من جراء الورم الصفات التناسلية للذكور كالتحاء الاناث وقد يؤدى فيهن إلى ضمور الثدى والرحم .

هذا وقد استخلص ( روكوف ) و ( ستيورت ) أخيرا مادة من هذه الطبقة القشرية دعوهـا بـ ( الـكورتن ) وهى مادة تعين على إطالة حيـاة الحيوان الذى استؤصلت منه غدتاه الـكظريتان .

## (٢)

## الغدة الدرقية — الثايرويد

تتكون الغدة الدرقية من فصين يقعان على طرفى وفى الجزء العلوى من القصبة الهوائية فى أسفل الحنجرة (أو صندوق الصوت) مباشرة ويربط الفصين ببعضهما لحمة تدعى ببرزخ الغدة الدرقية . والغدة نفسها عضو كثير الأوعية الدموية بدرجة أنها أصبحت تستقبل بالنسبة إلى وزنها فى الوحدة الزمنية كمية من الدم تقدر بثلاثة أضعاف ونصف الكمية الذاهبة للدماغ . وهى ترتبط من جهة بالجهاز العصبى السمبثاوى بواسطة ألياف عصبية وتتصل من جهة ثانية اتصالا وثيقا بأربع جسيمات صغيرة تدعى بالغدد الدرقية الثانوية (براثايرويد) ولكل من الغدة الدرقية وجاراتها وظائف خاصة أما وظائف الغدة الدرقية نفسها فاثنتان :

١ — ما يعود إلى الشكل والنمو (مورفوجينك) فهى تتحكم بمساعدة بعض الغدد الصم الأخري بزمام نمو الجسم وتقدمه وخاصة ماله مساس بالجهاز العصبى المركزى .

٢ — ما يعود إلى استحالة الأغذية (ميتابولك) فهى تؤثر عادة فى المواد الآزوتية وتساعد على انحلالها وتمثيلها . وفيما يلى شرح هاتين الوظيفتين .

إن استئصال الغدة الدرقية — إذا كانت الغدد الدرقية الثانوية سليمة — غير مميت ولكنه يؤدى وخاصة فى صغار الحيوانات إلى تغيرات مماثلة فى سير وظائف الجسم واستحالة المواد الغذائية بصورة عامة . فقد قطع (فان اسلبرج) هذه الغدة من حملين عمر كل منهما ثمانية أيام واحتفظ بحمل ثالث صحيح البدن كأنموذج للقياس والمقابلة وبعد مرور سبعة أشهر وجد أن الحمل السليم يزن (٧٧) باونا بينما وجد وزن الآخرين ٢٤ — و ٣٠ باونا ولما عاد فأطعمهما خلاصة الغدة الدرقية توقفت هذه الأعراض ثم تضاءلت وانمحت بعد أيام .

ويصاب الأطفال عادة عند ظهور عجز في الغدة الدرقية بحالة مرضية تسمى القماءة (كويتنزم)، وفيها تقف العظام عن النمو الطولى فيصبح الطفل دميما فى قصره لعدة سنين ويبطل نشاط الأعضاء التناسلية ويتساقط الشعر ويزداد نمو الجلد بصورة غير اعتيادية فتتكاثر فيه الأنسجة الرابطة مما يسبب انتفاخ الوجه وتضخم الذراع والساق ويتوقف نمو الدماغ فيمسى المصاب ناقص العقل معتوها وفاتر الهمة . وإذا أطعم الطفل بالغدد الدرقية أو خلاصتها أوحقنت هذه الخلاصة تحت الجلد فسرعان ما تتحسن الوضعية ويأخذ كل من الدماغ والجسم بالنمو الاعتيادى المطلوب . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن المعالجة يجب أن تستمر ما دام فى الغدة الدرقية ضمور يستلزم مداواته وإلا فالواجب إبطالها حالا .

نضوب إفراز الغدة الدرقية (هايبوثايرويدزم) :

أن نضوب إفراز هذه الغدة الصماء فى شاب مراهق سواء كان النضوب جزئى أو كلى يسبب مرضا خاصا يدعى بالاستسقاء اللحمى (مكسيديما) . وتتشابه أعراض هذا المرض بما يشاهد فى القماءة ولذا فإن أهم ما يلاحظ هو تجمع مادة الميوسين (اللعاب) وزيادة نمو الأنسجة الرابطة تحت الجلد وانتفاخ الجفون والشفاه وتساقط الشعر كما تقل درجة احراق الأغذية لقلة كمية الأوكسجين المستهلكة وزيادة كمية ثانى أوكسيد الكاربون ، وعلى هذا تهبط درجة الحرارة الغريزية ويتكاثر خزن الشحوم فى الجسم وتنحط القوى الذهنية فيضطرب العقل ويتسافل الذكاء ولكن سرعان ما يشفى المريض وتختفى أعراض الإصابة عند استعمال الغدة الدرقية أو هرموناتها المستخلصة منها . وهنا لابد أن نذكر أن تضخم الغدة الدرقية (الجدرة) أو الكويتر لا يستلزم أن يكون فى كل الأحوال سببا فى ازدياد إفراز الغدة بل قد يكون عاملا قويا فى نضوبه كما يمكن أن يكون عديم التأثير فيبقى الإفراز بنسبته الاعتيادية .

وفرة إفراز الغدة الدرقية (هايبرثايرويدزم) :

إن وفرة هرمون هذه الغدة يزيد من نشاط الأعضاء بصورة هائلة إذ يدفع بها إلى العمل المتواصل ويساعد على احتراق المواد الغذائية واستهلاكها وذلك بإنعاشه سلسلة العمليات الكيماوية المختلفة التى تتم داخل الأنسجة الحية وتستهلك أكثر المواد الشحمية المخزونة ، وعلى هذا كان الفرق بين الفرد «الناشط الهزيل والمكسال البدين هو عبارة عن الفرق بين غدة درقية نشيطة وأخرى أقل نشاطا . وفى الواقع أن قابلية خزن المواد الشحمية التى تظهر بعد الدور الوسطى من العمر تعزى إلى فتور فى فعالية الغدة الدرقية أثناء ذلك الدور ، ومن المحتمل أن يكون مثل هذا الفتور بعد سن الخمسين أو الخمس والأربعين هو السبب فى كل التغيرات التى تحدث فى دور الكهولة وأظهرها تجعد البشرة وتيبس الجلد والاستعداد لخزن المواد الشحمية والهبوط التدريجي الذى يسبب الضغط الدموى والنمو المتزايد للأنسجة الرابطة فى كثير من أعضاء الجسم والنقص البارز فى القوى الحيوية . وإذا أطعمت فراخ الضفدع بالغدد الدرقية فإنها تمر فى أدوار الاستحالة بسرعة تامة وتصبح ضفادع كاملة ولكنها تصاب ببطىء فى النمو ونقصان فى الوزن وتكون فى النهاية ضفادع صغيرة الحجم .

وقد وجد فى حويصلات الغدة الدرقية مادة يؤكد البعض عنها أنها هي عماد مادة الإفراز الداخلى بذاتها واستطاع ( بومان ) أن يستخلص منها مركبا آزوتيا يحتوي على كميات كبيرة من اليود دعاه ( ايدوثايرن ) وتمكن ( كاندل ) بعدئذ من تجزئة هذا المركب والحصول على مادة أخرى غنية باليود أطلق عليها اسم ( ثايروكسين ) ولما كان لمادة الثايروكسين هذه تأثير كبير فى الحيوانات السليمة والحيوانات التى تشكو من علة في الغدد الدرقية أشبه بتأثير خلاصة هذه الغدد عليها لذا فمن المؤكد أن تكون الثايروكسين هى الجوهر الفعال فى الهرمون الخاص . ومما يسرنا

أن يعلن العلامة (هارنكتون) أخيرا تحضيره لمادة الثايروكسين الصناعية التى تملك جميع الخصائص الفسيولوجية للثايروكسين الطبيعي .

ويصيب نضوب إفراز الغدة الدرقية أو ما يسمى غالبا الكويتر البسيط الإناث أكثر مما يصيب الذكور بنسبة ثلاثة إلى واحد، ويحصل فى الإناث عادة أثناء سن البلوغ وفى أدوار الرضاعة والحمل . وهذا المرض كثير الانتشار فى بعض الجهات العالمية فقد كان بسويسرا حتى قبل حين من الأمراض الموضعية الشائعة أما فى أمريكا فلم يزل مستحكما فى مناطق البحيرات الكبيرة وفى ولايات الجبال الصخرية وولايتى أوريكون ووشنطن .

والأكيد أن اليود هو أهم العناصر الرئيسية الموجودة فى الهرمون الدرقى ولما كانت كميته أقل من المعتاد فى جميع الأحوال التى تصحب نضوب الغدة وضمورها إذن فالأرجح أن يكون سبب المرض المعروف بالكويتر البسيط هو نقصان فى كمية اليود التى تحويها الأطعمة ومياه الشرب . وللتأكد من صحة هذه النظرية جمعت بعض الإحصائيات المهمة من تجارب أجريت على طالبات مدرسة فى ولايتى (أكرون) و (أوهيو) فى أمريكا، وتتلخص هذه التجارب بأن أعطي لكل طالبة غرامين من مركب (أيوديد الصوديوم) مرتين فى السنة لمدة ثلاث سنوات فكانت النتيجة أن مرضت خمس طالبات من مجموع (٢١٩٠) طالبة بمرض نضوب معين الغدة الدرقية بينما أصيبت (٤٩٥) طالبة من مجموع (٢٣٠٥) لم تحصل ولا واحدة منهن شيئا من هذا المركب للمدة عينها .

والحقيقة أن كمية اليود التى يحتاجها الفرد حتى تقوم هذه الغدد بعملها خير قيام لا زالت مجهولة ولكن من المشاهد أن مجموع ما يتكون من الثايروكسين (الذى يتركب من ٦٥٪ من اليود) فى غدة درقية سالمة تزن (٢٥) غراما لا يزيد عن ١٢ مليغم . واستعمال مليغم واحد من الثايروكسين ينشط التمثيل الغذائى بمقدار ٣٪ ويستمر لمدة ستة أسابيع ، وتناول هذا المقدار أسبوعيا يمنع

تضخم الغدة الدرقية فى الكلاب كما أن استعمال أكثر من جزء واحد من اليود فى (تريليون) جزء من ماء الشرب — أو ما يساوى من اليود (٧٥٠٠٠٠٠) كالون من الماء — كاف لمنع حصول الكويتر فى الإنسان .

والمعروف أن الغدة الدرقية في الأطفال لا تحوى المقدار اللازم من اليود فالواجب إذن تغذية الطفل بالحليب لسد هذا النقص، ومن هذه الوجهة يفضل حليب الأم على حليب البقر ، وقد أثبت العلامة (دفينبورت) أن قلة نشاط الغدد الدرقية في الجرذان يسبب عطلا فى نمو صغارها .

هذا ويؤكد (بلومر) وغيره أن الغدة الدرقية فى مرض الكويتر السام أو الكويتر الجحوظي تفرز افرازا هائلا مما يجعل الفرد عرضة للتهيج العصبى لأتفه الأسباب ، كما يصاب بالأرق الحاد والسهاد الذى لا مثيل له وعند ذاك تتمدد حدقة العين وتجحظ مقلتها ، ومن هذا نعلم أن لبعض الحالات النفسية المصحوبة بتهيج وانفعال عصبيين وقلق زائد تأثيرا كبيرا على هذه الغدة مما يستفزها للافراز الكثير .

( ٣ )

## الغدد الدرقية الثانوية ( برثايرويد ) أو الغديدات نظيرة الدرقية .

وهذه هى النوع الثالث من الغدد الصمّ ذات التأثير الكبير فى جسم الانسان وسلوكه وهى إن استؤصلت تؤدى بكثير من الحيوانات إلى الموت ويرجع سبب ذلك إلى أمرين مهمين : —

أولهما اضطراب فى استغلال عنصر الكالسيوم ، وثانيهما زيادة حساسية الجهاز العصبى المركزى . وكنتيجة للأمر الأول نجد أن صغار الحيوانات المقطوعة منها هذه الغدد لا تتكلس أسنانها مدة بقائها القصيرة ولا تنمو عظامها وبينما تكثر كمية الكالسيوم فى البول تنقص كميته فى الدم من ١٠ — ١١ مليغ ٪ إلى ٧ مليغ ٪ ولعل هذا النقصان هو الأصل فى زيادة حساسية الجهاز العصبى ، ومن المحتمل أن يكون

سبب الإرتجاف والرعشة وتقبض العضلات وكل هذه الظواهر التى تعقب قطع هذه الغدد هو قلة الكالسيوم لاغير ، ولهذا السبب يرجح أكثر العلماء أن لهذه الغدد وافرازاتها الداخلية أثرا كبيرا فى تنظيم استغلال هذا العنصر وتمثيله فى البدن وخاصة إذا علمنا أنه من السهل جدا إزالة كل الأعراض الناجمة ليس فقط بواسطة حقن خلاصة الدرقيات الثانوية فى الدم أو بنقل غدد جديدة محلها تؤخذ من حيوان آخر بل بمساعدة أملاح الكالسيوم أيضا فقد كان بوسع ( دركستيت ) أن يبقى كلابا قطعت من أجسامها الغدد الدرقية والدرقيات الثانوية حية مدة طويلة وذلك باطعامها كميات كبيرة من الملح المعروف بـ ( لاكتيت الكالسيوم ) .

وكلما إزدادت الحاجة إلى الكالسيوم تتنبه هذه الغدد وتنشط للافراز ، فهى تتضخم مثلا فى حالات الكساح والحمل وعند تناول الأطعمة الفقيرة من هذا المعدن . وقد جرب العلامة ( روس ) ١٩٢٨ فوجد أن استئصال هذه الغدد يؤخر فى التحام العظام المكسورة بزمن يطول عن المعتاد بأربعة أو خمسة أسابيع .

والمشهور أن لكل من زيت سمك الكد و (الاركوستيرول) عملا كبيرا ضد الكساح وهذا ناشىء — حسب رأى بعض الخبيرين — من وجود قابلية فى مثل هذه المواد على تنشيط الدريقات الثانوية حتى أنه بأمكانها — كما أيدت التجارب التى أجراها العلامة (هس) على القردة — أن ترفع نسبة الكالسيوم فى الدم حالة عدم وجوده فى الأطعمة المأكولة مع المحافظة على هذه النسبة بشرط أن تكون الدريقات غير مقطوعة . واستطاع ( كولب ) أخيرا من عزل مادة من الغدد المذكورة يحتمل أن تكون هى الهرمون المختص لأنها أثبتت بعد حقنها فى أجسام الكلاب زيادة فى كمية الكالسيوم وأملاح الفوسفيت التى يحتويها الدم . ولاشك أن مثل هذه الأمور وكثيرا غيرها حمل البعض من العلماء على الاعتقاد بنظرية فعالية الهرمونات فينسب إليها كل التغيرات مهما كان نوعها ، ولكن هناك فى الوقت عينه من يرجع السبب فى نتائج استئصال هذه الغدد إلى فضلات المواد الآزوتية

وتأثيرها التسممي ، وقد أعلن ( كوندن ) وجماعته أن وجود هذه الفضلات فى الأحوال الإعتيادية قليل جدا غير أنها تزداد بصورة هائلة فى حالة استئصال الدريقات الثانوية وفى حالات الإصابة بمرض كزاز الأطفال . وهناك من يقول إن لتفسخ المواد فى الأمعاء بواسطة عمل البكتريا تأثيرا قويا من هذه الناحية وهو ما يفسر أسباب حدوث مثل هذه الرعشات عند تناول الأغذية الآزوتية بمدة أقصر مما لو كانت هذه الأغذية من الخضروات أو الحليب . وأثبت ( ايفى ) إن هذا الارتعاش لايحصل إذا صحب استئصال الغدة قطع القولون أيضاً فأيد بذلك النظرية الأخيرة وهكذا أصبح من المعلوم أن للغدد الدرقية الثانوية عملا مهما فى مقاومة السموم المتولدة فى الجسم .

( ٤ )

## الغدة التيموسية (السعترية) :

وهى الغدة الرابعة من الغدد الصمّ الموجودة فى جسم الإنسان وتعرف غالباً بلوزة الصدر . تقع بين القسم الأعلى من عظم القص وغشاء القلب وهي تنمو بصورة مؤقتة وتحيط أثناء ذلك بالقصبة الهوائية فتضم منهامنطقة كبيرة قدتسبب فى الأطفال عند نموها الزائد صعوبة وضيق فى التنفس يؤديان إلى الإختناق فى بعض الأحيان . وتبلغ أشدها فى السنة الرابعة عشرة والسادسة عشرة حيث تأخذ بعد ذلك فى الضمور وتنعدم بالتدريج . ولا يعرف عنها حتى الآن مما يمكن الجزم فيه فالبعض يرى أن هناك ارتباطا متينا بين هذه الغدة ونشوء حجيرات الدم البيض والبعض يجد لها التأثير الكبير على نمو الأطفال وصحتهم بصورة عامة ، ولكن من المرجح أن يكون للغدة التيموسية علاقة وثيقة بالغدد التناسلية للذكور لأنها إذا استؤصلت تزيد فى نمو الخصيتين كما أن اخصاء الذكر يعيق ضمور هذه الغدة ويساعد على توسعها وطول عمرها .

ولما لم يكن لخلاصة هذه الغدة عند حقنها أى تأثير على أعضاء الجسم المختلفة فمن المحتمل إذن أن لا يكون لها أى نوع من الإفرازات الداخلية المعروفة .

## (٥)

## الغدة النخامية

وتدعى ( هايبو فايسز سربرى ) وهى غدة صغيرة الحجم جداً تقع فى أسفل الدماغ فى منخفظ عظمى هو العظم الوتدى فى الجمجمة يدعي بالحفرة النخامية أو السرج التركى (سيلا تورسيكا) الموجودة خلف تصالب العصب البصرى (أو بتك كايزما ) مباشرة وترتبط بالدماغ بواسطة مربط قصير من المادة السنجابية يدعى بقمع الدماغ ( انفند بيولم ) .

وتتكون الغدة النخامية من ثلاثة أجزاء :

١ — الجزء الأمامى وهو قسم غدى ينمومن اكتودرم الفم ويشبه الغدة الدرقية.

٢ — الجزء الخلفى الأصغر ويتكون من ألياف وحجيرات الغراء العصبى ( نيوروكليا فايبرز ) وهي أنسجة تدعم الحجيرات والألياف العصبية الموجودة فى لمخ والحبل الشوكى .

٣ — الجزء الوسطي وله تقريباً نفس الخصائص الفسيولوجية للفص الخلفى .

والمشهور أن استئصال هذه الغدة مميت ولكن (دندى) و ( رشيرت ) أثبتا معا أن هذه الغدة ليست ضرورية للحياة .

الفص الأمامى :

أن استئصال هذا الجزء من الغدة له تأثير كبير على صغار الحيوان إذ يتوقف نموها وتضعف فيها الأنسجة العظمية وتنبت لها المجموعة الثانية للأسنان وهى الأسنان الدائمة مع بقاء الأسنان الموقتة وتنحط قواها الذهنية وتتعطل أعضاؤها التناسلية فلا تنمو إلا قليلا ويقل الاحتراق كثيراً فى كل من الصغار والمراهقين ولذا يزداد تراكم الشحوم فى الجسم . كما أن ضمور هذا الجزء من الغدة يسبب للأطفال قصر القامة وصغر الجسم وتراكم الشحومَ مع بقاء الصفات التناسلية للطفولة إلى ما بعد البلوغ وفى بعض الأحيان يحدث الخبل والجنون .

أما وفرة الإفراز المتأتية بتأثير التضخم وزيادة الفعالية فتسبب فى عظام الصغار نمواً هائلا حتى ليصبح الفرد ماردا أو عملاقا ، وفى الوقت نفسه يبرز الفك الأسفل إلى الأمام وفى المراهقين الذين تصلبت فيهم الغضاريف تأخذ العظام وخاصة عظام الوجه أوضاعا وهيئات غير عادية وتجمع هذه الأعراض المذكورة تحت عنوان مرض (أكرومجاليا أو مرض مارى ) و بناء على نمو الأنسجة الليفية يثخن الجلد وتنتفخ الأجفان والشفاه ويكثر نمو الشعر على الجلد .

وإذا حقنت خلاصة هذا الفص وهي بمحلول محلى فى جسم حيوان صغير تدفع به إلى النمو السريع فقد أصبح وزن فار صغير بعد ٣٣٣ حقنة من هذه الخلاصة ٥٩٦ غراما بينما كان وزن آخر من نفس الأم لم يطعم بهذه الحقن (٢٤٨) غراما فقط . ووجد كذلك أن إطعام هذا الجزء من الغدة يزيد من فعالية الأعضاء التناسلية فى بعض الحيوانات ومنها الفراخ . وقد أجرى ( كلارك ) تجارب مهمة على (٣٥) من الفراخ بأن أطعمها أجزاء هذا الفص فكانت النتيجة أن زاد عدد البيض من معدل (١٨) بيضة يوميا قبل الإطعام إلى (٣٣) بيضة بعد الإطعام . وعلى هذا الأساس أعلن (روندك) أن خلاصة هذا الجزء هو من الهرمونات التناسلية الرئيسية وأطلق عليها اسم (برولان) . نستنتج من كل ما تقدم أن الفص الأمامى من الغدة النخامية يتحكم بنمو العظم والأنسجة الرابطة والأعضاء التناسلية والمعروف أنه كان باستطاعة ( روبرتس ) أن يعزل من هذا الفص هرمونا مساعدا للنمو دعاه ( تثلين ) .

الفص الخلفى :

ليس لاستئصال هذا الجزء من تأثير على الجسم ، وأن حقن خلاصته المسماة ( بتوترين ) أو ( هابيو فايسن ) يزيد من فعالية الجملة العضلية الملساء كما أنه يرفع من درجة الضغط الدموى لفعله على الأوعية الدموية والأوعية الشعرية وخاصة فى الحمى الجرحيّة ( أو الرعشة المسببة عن الجروح ) . وفضلا عن ذلك فإنه يزيد من

فعالية القلب والجملة العضلية للأمعاء ( الحركة المعوية ) وحركة الرحم ، وتأثيره فى الرحم كبير جدا حتى ولو كان فى محلول نسبته ١ إلى ( ٢٠ ) ترليون جزء .

وقد سبق لنا أن عرفنا أن للادرينالين تأثيرا شبيها بذلك فى كثير من العضلات الملساء ولكن بينما كان فعل الأدرينالين فى المادة الموجودة في أطراف الأعصاب السمبثاوية نجد أن البتوترن يفعل مباشرة على الألياف العضلية نفسها . وقد نجح ( كام ) فى الحصول على مادتين رئيسيتين من هذا الفص .

١ — الفاهايبوفين — وهى مادة معجلة للولادة ومسهلة لها (اوكسيتوسك ) .

٢ — بيتاهايبوفين — وهى العامل فى زيادة الضغط الدموى ، واضافة إلى ذلك وجد عنصر ثالث من شأنه تنظيم الأبراز البولى و بحقنه فى جسم إنسان اعتيادى يقلل من كمية البول ، ولكن لم يعرف حتى الآن إذا كان هذا التأثير يصيب البول مباشرة أو يوقع على الماء ودرجة استفادة الأنسجة منه .

## — ٦ —

## الخصيتان

إن الغدد التناسلية فى الذكور عبارة عن مجموعة من أنابيب ملتفة على بعضها تدعى (بالأنابيب البزرية) يفصل الواحد عن الآخر غشاء سائب من الأنسجة الرابطة فى غاية الرقة . و بضمنه كثير من أشباه الحجيرات المخاطية المتعددة الجوانب تدعى بالحجيرات الخلليّة وتقوم الخصيتان فضلا عن وظيفة توليد البذور المنوية بمهمة استخلاص بعض الإفرازات الداخلية التى عرف عن تأثيرها الكبير فى أعضاء الجسم وأفعالها منذ أقدم الأزمنة .

إن تأثير استئصال الخصيتين كما يتوضح ذلك فى الحيوانات الأهلية والإنسان كبير جداً ، فهو يمنع فى صغار الحيوانات نمو الأعضاء التناسلية الثانوية التى منها

غدة البروستات والحويصلة المنوية ، ويعطّل ظهور خصائصها وهى نمو اللحية وشعر العانة وتغيّر الصوت فى دور المراهقة ، وتبدل من ميزات الهيكل العظمي فتصبح العظام طويلة ورفيعة كما يشاهد اختفاء التغيّرات النفسية التى تظهر عادة فى دور المراهقة ويفقد الجسم نشاطه الطبيعى .

أما إذا حصل الاخصاء في الشباب حيث تكون الأعضاء التناسلية الثانوية قد ظهرت ونمت فلا نجد من التبدلات المهمة ما هو بارز للعيان إذ قد يمكن لبعض من هذه الأعضاء التى ذكرت آنفا أن تمر بأدوار الضمور لدرجة ما ويصحب ذلك هبوط فى نسبة احتراق الأغذية مما يؤدى إلى حدوث السمنة .

وإذا نقلت خصية إلى جسم حيوان صغير قطعت منه خصيتاه الأصليتان لوجدنا أن حجيرات الأنابيب البزرية التى تولد السبرمات أو الحيوينات المنوية يصيبها الضمور عاجلا أو آجلا ، أما الحجيرات الخلالية فتبقى سليمة ويعقب كل ذلك نمو الخصائص التناسلية الثانوية . ولاحظ العلامة (لوى) أن إطعام مادة الخصية أو حقن خلاصتها فى جسم ديك مخصى تعطي نفس النتائج تماما . وشوهد أيضا أن ربط الوعاء الناقل يعقبة ضمور فى الأوعية البزرية كلها ولا يؤثر على سلامة الحجيرات الخلالية كما أنه لا يميت الخصائص الجنسية ولا الرغبة إلى التناسل وجرّب (ستيناخ) فنقل مبيضا بعملية جراحية إلى جسم (جرذ) ذكر مخصى فشاهد ظهور جميع الغرائز الجنسية للأنثى ، وعكس الأمر فنقل خصية إلى أنثى قطع عنها مبيضها فظهرت فيها جميع الغرائز الجنسية للذكر .

من كل هذا يتوضح لنا أن الخصيتين تفرزان إفرازاً داخلياً هو السبب فى كل هذه التغيرات الفسيولوجية والنفسية التى نلاحظ ظهورها فى جسم الذكر عند ما يقارب دور المراهقة . وهناك من يدعى أن حقن خلاصة الخصية يزيد فى القوة العضلية ويقلل من الانهاك والتعب كما يبان ذلك من آلة (الأرجوجراف) أومقياس الحركات وهذا مادفع بجماعة إلى الاعتقاد بأن الشيخوخة أوالهرم تتسبب

عن فتور يصيب الأعضاء التناسلية . أما ( كارلستون ) فيقول أن ليس هناك بينة تثبت أن الاخصاء يقصر العمر أو يضعف النشاط الذهنى والبدنى اضعافاً مهما .

هذا وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن العلاقة الموجودة بين الغدد التناسلية وبعض الغدد الأخرى ذات الافراز الداخلى كالغدد الكظرية والغدة التيموسية والغدة النخامية فعرفنا أنها تتضخم عند الاخصاء وتغير من نسبة افرازها إلا الغدد الدرقية فإنها تصغر فى الحجم وتكاد تنعدم . ونعود الآن فنذكر بهذه المناسبة تلك الصلة الوثيقة مبينين أن الغدد الصمّ فى جسم الإنسان عمل مشترك فى توليد الرسل الكيمياوية التى لها الأثر الكبير فى شخصية الإنسان وسلوكه وأخلاقه مما يجعل هذا الاشتراك ضرورى لسلامة الصحة وتنظيم أفعال الأعضاء المختلفة ، ولذا كان الضرر الذى يلحق بإحدى هاته الغدد داعياً لتغيير فعالية كل الغدد الأخرى تقريباً .

## — ٧ —

## المبيضان

أن للغدد التناسلية فى الأنثى زيادة على وظيفتها الأصلية فى توليد الحجيرات التناسلية مهمة توليد إفراز داخلى ويتوضح ذلك بما يعقب قطع المبيضين من تغيرات عديدة أهمها ما يلى :

١ — يؤدى استئصال المبيضين فى الصغار إلى إيقاف نمو الرحم والغدد اللبنية وفى المراهق إلى ضمور وانحطاط هذه الأعضاء . أما فى الفراخ فيقف نمو المبيض الأيمن ويبقى المبيض الأيسر فقط على نشاطه وذلك بعد دور النضوج . وقد قطع ( بينويت ) من صغار الفراخ المبيض الأيسر فوجد أن هذه الحيوانات لا تظهر عليها الخصائص التناسلية الثانوية للذكور كنمو الريش مثلا ولكن شاهد أن المبيض الأيمن غير النامى كان قد تغير إلى خصية فعالة وتولدت فيها قناة لحمل البزور المنوية إرتبطت بنهاية القناة الهضمية أو الفتحة الخارجية ( المخرج ) .

٢ وينقطع الحيض أيضاً غير أنه يمكن — حسب رأى البعض — إزالة جميع ما يصحب هذا الاستئصال الصناعى من اضطرابات جسمية وعقلية بواسطة استعمال خلاصة المبيض أو بنقل مبيض سالم إلى جسم الأنثى التى قطع منها المبيضان .

٣ — ولما كان من الأكيد — كما حصل فى الذكور المخصية — هبوط نسبة احتراق الأغذية، فإن يجب أن نتوقع حدوث السمنة فى هذه الحال أيضاً .

٤ — ومن المعلوم أن الحرارة أو الشبق ( وهى شراهة النكاح ) التى تحصل لإناث كثير من الحيوانات فى أدوار معلومة تتوقف — حسب رأى مارشال — على إفراز المبيض الداخلى ، فقد لوحظ أنه بحقن خلاصة المبيض من حيوان فى هذا الدور فى جسم حيوان آخر غير بالغ أو مقطوع منه المبيضين تبدو عليه هذه الظواهر بأسرع وقت .

وبناء على ما يقوله ( فرنك ) و ( كوستافسن ) أن هـذا الهرمون التناسلى موجود فى المبيضين وفى الجسم الأصفر من المبيض ( كوربوس لوتيوم ) وفى المشيمة وهى عضو اتصال الجنين بالرحم وواسطة غذائه .

## — ٨ —

## الغـــدة الصنوبرية

وهى غدة صغيرة مخروطية الشكل تقع على الوجه الظهرى من الدماغ وفى الطرف الأمامى منه بين الأجسام الرباعية أو الحدبات التوأمية الأربع ( كوربورا كوادرى جمينا ) ، وتمر هذه الغدة فى السن السابعة بسلسلة من التغيرات حتى يصيبها أخيراً الضمور والانحطاط إلى أن يكون البلوغ فلا تبقى كما هى بل تظهر بصورة أنسجة ليفية فقط .

أما وظيفتها فلم تعرف بالضبط ولـكنها عند ما تتضخم تسبب سرعة الشباب أو بكور العقل فيكمل نضوج القوى العقلية والتناسلية ، ومن هذا وغيره من البينات

الأخرى استدل العلماء على أن هرمون الغدة الصنوبرية يتحكم ولا شك بنمو الأعضاء التناسلية فى الإنسان .

— ٩ —

## الطحال

والطحال أكبر جميع الغدد الصمّ الموجودة فى جسم الإنسان ومع ذلك فلم يثبت حتى الآن عما إذا كان يملك ذلك الإفراز الداخلى حقيقة حتى يمكن إدخاله ضمن هذا النوع من الغدد . ونسبت إليه وظائف عدة ليست بذات أهمية حيوية وخاصة وقد عرف أن استئصال الطحال لا يسبب أي اضطراب جسمى أو علة أخرى تضر بالصحة العامة . هذا عدا علمنا أن بعض الأطفال قد يولدون وهم فاقدين لهذه الغدة . والمشهور أن الطحال يقوم بمهمة تفتيت حجيرات الدم الحمر وتوليد مادة الصفراء الموجودة فى مرارة الكبد ، أما فى الجنين فيقوم هذا العضو بمهمة توليد هذه الحجيرات وهو على الدوام وفى كل الأدوار يبقى معملا لتوليد كريات الدم البيض اللمفاوية . ومما يساعده على أداء وظائفه المذكورة هو نقص فى تركيب وريداته بحيث جعل للدم المجال الكافى للإتصال بصورة دائمية مع لب الطحال وهى المادة التى تملأ تجاويفه من كل جهاته . وهناك من يرى فيه آلة دفاع ضد إصابة بعض الأمراض البكتيرية فإذا استئصل أصبح الحيوان عاجزا عن توليد المناعة فى جسمه ضد سموم الكزاز ( التيتانوس ) مثلا ، هذا فضلا عما لحجيراته من المقدرة التامة لدفع كثير من المواد السامة التى قد توجد فى الدورة الدموية .

ويؤكد (باركروفت) عدم جواز إشراكه ضمن الغدد الصمّ الأخرى بل إدخاله ضمن أقسام الجهاز الدموى لأنه يعتبر بمساعدة تركيبه الاسفنجي وامتلاك حويصلاته لكثير من ألياف العضلات الملساء كمخزن للدم ، وهو فى الأحوال الإعتيادية قد يخزن تقريبا ربع كمية الدم الموجودة فى الجسم ، أما فى الأحوال الإضطرارية أو الفجائية

أى عند إبتلاء الإنسان بنزيف دموى و (الأنوكسيما) أو نقصان تهوية الدم والإجهادالعضلى فإن الطحال يدفع بجميع ما يحويه من الكريات الحمر إلى مجرى الدم وحينذاك يصغر حجمه بتقلص عضلاته على جدران الحويصلات إلى نصف أو ثلث حجمه الإعتيادى. وقد يسبب النظر إلى القط أو شمها صغراً فى حجم طحال الكلب وماعدا ذلك فللطحال حركة إنقباض وانبساط متتاليين بمعدل مرة واحدة فى الدقيقة .

## — ١٠ —

## البنكرياس

وهى غدة يؤثر إفرازها على إستحالة المواد النشوية وتنظيم استغلال السكرمن قبل الدم . و إذا استؤصلت من شخص فسرعان ما يصاب بداء البول السكرى البنكرياسى الذى يعقبه الموت لامحالة بعد مضي بضعة أسابيع وذلك لازدياد كمية السكر فى الدم وعجز الأنسجة عن الإستفادة بصورة منتظمة من سكر العنب (الدكستروز) و يتلخص ذلك بأن مايأتى الى الدم من المواد النشوية والسكرية التى تستخلص من الطعام ومن المواد البروتينية (الزلاليات) تبقى فيه ولا يتم استهلاكها أو خزنها كما هو المطلوب .

أما السر فيما تقوم به غدة البنكرياس من عمل أثناء هذه التغيرات التى تطرأ على المواد الغذائية فقد اكتشف بواسطة العلامتين (بنتنج) و (بيست) بأن نجحا معا فى الحصول على مادة من البنكرياس دعيت بـ (الانسولين) وعدم وجودها هو الأصل فى زيادة كمية السكر فى الدم ومن ثم الإصابة بداء البول السكرى البنكرياسى، وأن استعمال هذه المادة لانسان تستأصل منه الغدة ولحيوان يشكو من علة فيها ومن مرض البول السكرى يعيد للجسم القوة فى تحويل سكر العنب إلى النشاء الحيوانى أو (الكلايكوجين) و يساعد على إحراقه وهذا يعنى تراكم النشاء الحيوانى فى حجيرات الكبد وتقليل كمية السكر فى الدم و بذا يقطع الداء و يشفى المصاب .

ومن كل ما تقدم نجد أن للبنكرياس وظيفتين أساسيتين : فهو يفرز عصير البنكرياس الذى يحمل بواسطة القناة البنكرياسية إلى الأمعاء الدقيقة وهذا هو الإفراز الخارجى، وإضافة على ذلك فان هناك فى باطن الغدة كتلا صغيرة من الحجيرات المعروفة باسم جزر ( لانكير هانز ) لا تتصل بالقناة البنكرياسية ولا تكوّن العصير البنكرياسى المعروف ولكنها تولد فيها هرمون الأنسولين الذى يندفع مباشرة فى الدورة الدموية ويسوق تأثيراته فى الأعضاء. ومن هذا نعلم أن البنكرياس غدة مركبة شبيهة بالغدد اللعابية تماما .

وهنا لابد أن نذكر أن (ايفى) و (فاريل) تمكنا من نقل جزء من البنكرياس إلى الغدد اللبنية فعاشت حجيراته وولدت الأنسولين كالمعتاد فمنعت تراكم السكر فى الدم . أما العلامة (آبل) فقد فاز سنة ١٩٢٦ لأول مرة من تحضير الأنسولين على شكل بلورات .

---

# القسم الثانى

## اجتماع

هنا النهر صخّاب الموج جيّاش
الزبد ، ينساب فى جوف الوادى
ثم يضـــل فى ظلام البعد
الزيات

# وحيُ البيت

« تتمركز قوة الأمة فى البيت
المنظّم العزيز الأركان » .

إن عناية الأبوين بالنسل جليلة القدر حتى بين الحيوانات غير العاقلة ، ولكنها تتسامى فى العائلة البشرية إلى أجلّ المراتب . وكما لايخفى أن النوع الإنسانى بحاجة شديدة إلى هذه العناية أكثر بكثير مما تتطلبه بقية الحيوانات ، لأن دور العجز والاستعانة ذو أمد طويل فى الطفل بينما هو عديم أو قصير فى فراخ الحيوانات الأخرى . لنرجع البصر إلى الفراشة فى مستهل ظهورها من الزيزة نجدها كاملة النمو وفى مقدورها أن تجهّز نفسها بالغذاء والمأوى ، والزاحفات معظمها يشبه أبويها فى كل شىء سوى ماتتباين به فى حجم الجسم ، ومن الصعوبة أن نشاهد فيها دورا هو دور العالة والركون . أما الضفادع والعلاجم (وهى ضفادع سامة عديمة الذنب) ونظائرها من الحيوانات فتصل إلى دور نموها الكامل بظرف ثلاثة إلى تسعة أشهر ، وقليل جداً من الطيور لا يحتاج إلا إلى زمن يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أعوام بينما الأشبال وفراخ النمور لا يزيد دورها المذكور عن الخمسة أعوام .

ولدى المقارنة مع الحيوانات غير العاقلة نجد أن الوليد عاجز بالكلية عن أن يقوم بأود نفسه وهو بحاجة إلى المعونة التامة كيف لا ودماغه يكاد يخلو من الذكاء وجسمه تعوزه القوة والنشاط . والمعروف عند الإخصائيين فى عناية الأطفال : أن الرضيع من أصعب الحيوانات فى العالم من وجهة التنشأة والتربية ، وهو كذلك فالوليد يعتمد على أمه لبضعة أشهر فى كل أموره ثم يبقى بعدها عاما أو أكثر قبل أن يستطيع الحبو والنطق ، فإذا فطم ودرج فيضل بعدها زمنا ليس بالقصير حتى يتمكن أن يرتدى ثوبه بيده ، وهو كطفل لايميز فى الغالب الخطر ، وان وهب معرفته نراه يعجز عن ردئه أو التغلب عليه ومن هنا لابد أن يجتاز سنوات قبل أن يكون فى مقدوره تجهيز نفسه بالغذاء والمأوى والملبس ولكنه إن بلغ الخامسة عشرة أو العشرين من عمره أى إلى أن يمر من دور المراهقة ودور الفتوّة نراه يعتمد جزءاً أو كلا على والديه أو أفراد آخرين لتموينه بمطاليبه وحاجياته . إنّ هذه المدة الطويلة التى تصرف فى الركون إلى الغير

تتميز بها العائلة البشرية عن بقية العوائل الحيوانية وتجعل لها أهمية فريدة فى بابها .

والطفل يتعلم فى مدي هذه السنوات أموراً لابد من ذكرها :

١ — اللغـــة :

يتعلم الإنسان وهو وسط عائلته وفي مستهل حياته الـكلام بصورة عملية ، ولما كان معظمنا لا يستطيع أن يتذكر الوقت الذي لم نكن فيه قادرين على الـكلام نساق إلى الظن بأن اللغة أمر ليس بذى بال ولـكن ذلك غير صحيح فلو عزمنا على إتقان إحدى اللغات الأجنبية أو حاولنا مطالعة قصة من القصص الممتعة التى تبحث عن مجازفات بعض العميان أو الصمّ الذين إستطاعوا دراسة لغـة ما بطريقة من الطرق فسرعان ما يتبادر إلى ذهننا أهمية هذا التعليم فى الحال .

والواقع ونفس الأمر أن أهمية اللغة أو أىّ واسطة أخرى من شأنها أن تبعث التفاهم بين الأفراد وتسهّل تبادل الآراء بينهم لايمكن أن تقدر أو تقاس بشىء . لنفرض أن عالما لا يستطيع سكانه التفاهم بلغة ما مع بعضهم البعض أفلا يصبح من العسير آنئذ على الناس التعاون فى أمر معاشهم فى نزولهم وترحالهم ، فى قعودهم وقيامهم ، فى لهوهم وجدهم . و إذن فما قيمة حياة الإنسان فى بيئة كهذه أو عيشة تنقضى وفقا لمثل هذه الظروف ؟ عجباً أكان للتقدم شأن يذكر ؟ كلا ! لأن كل جيل سوف لا يعثر على ما أنتجته الأجيال المندثرة من عمل وما اكتشفته من علم واختراع ، وهو يضطر والحالة هذه الى أن يشرع فى البناء حيث ابتدأ الجيل الذى مضى قبله ولضاعت الجهود هباء واندثرت المعالم كأن لم تـكن . اذ بدون قوة المبادلة فى الآراء يضطر الإنسان الى أن يعيش — إن استطاع — مستقلا بنفسه وحينئذ لا يمكن للذهن أن يتصور حياة جماعية بصورة مطلقة لأن التعاون لا يتم بدون التفاهم .

و بعد كل هذا نقول إن اللغة تعلم مبدئيا — إلا ما ندر — تحت ظلال العائلة والطفل بطبيعة الحـال قاصر بادى الرأى عن أن يسأل عمّا يعن له ولا يفهم ما تحدثه به أمه بلسانها ، غير أنه بعد تجارب متتالية يكتشف أن الصراخ يجلب

له ما يريد من طعام أو شراب أو مداعبة أو هزة فى المهد ، ثم يبدأ بالتدريج بالمناداة على أى شكل اتفق حسب ما تدفعه إليه قوة المحاكاة للأصوات التى يسمعها فى البيت من شفاه أمه أو أبيه أو إخوته أو أخواته وهكذا يتسنم زمام اللغة شيئا فشيئا وبهذه الطريقة يصبح البيت المعلم الأول الذى قام بأعظم عمل تربوى نحو الطفل وهو هدايته إلى إتقان اللغة وتفهم مقاصدها .

٢ — المعتقدات والذوق :

إن معظم المعتقدات والأذواق التى يكتسبها الإنسان مصدرها العائلة ، فما يرغب فيه الأب أو الأم — مع بعض الفروق الطفيفة وبالأخص ما يقتضيه السن التى يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار — يرغب فيه أطفالهما بصورة عامة. وإن وجد فى البيت من الوالد والولد من له ميل مستمر فى المطالعة بالكتب والمجلات والصحف فالطفل الناشيء بينهم يتخذ من هذا خصلة أو عادة تجره إلى مثل ذلك بالأكثر ولا شك أن إهتمام الأبوين بالأحاديث السياسية أو الدينية أو الرياضية أو الإجتماعية يعين لمدى بعيد — إلا ماشذ — ميل الأطفال إليه أيضا لأن تأثير الوالدين الدائم لسنين غير قليلة ومحبة الأطفال لهم وإعجابهم الكبير بهم كل هذا يسّهل فى تلك النفوس الطريّة انطباع ما يشاهد أو يسمع أو يوحى إليها بأقصر وقت ممكن فتتقبل تلك المعتقدات وهذه الأذواق والميول فتندس فيها عن شعور أو بدون شعور فإذا بالأطفال أولاد هذا البيت لا غيره .

٣ — عادة العمل :

إن عادة العمل والرغبة فيه أو عنه تتأتّيان عن البيت فإما أن يكون الطفل بعدها مجدّ ذابّ عن نفسه ، وإما كسول معرض عنها فالطفل الذى يدرّب على إنجاز بعض الأشغال الملائمة فيما يتعلق بالبيت تخلق فيه طبعاً من شأنه محبة العمل يندر أن يفقده الطفل فى مستقبل أيامه. أما الذى يعوّد على القيام ببعض الأمور أو الواجبات

بنوبات غير منتظمة أو ذاك الذى يقوم بإنجازها بغتة فإنه يملك لنفسه غالباً عادة الكسل التى يصعب الإفلات منها عندما يشب ويقوى .

٤ — الرأى تجاه الحكومة :

وفى البيت أيضا يقتبس الطفل روح المحبة للسلطة أو الكره لها فالولد الذى يتعلم إطاعة الأبوين نادراً ما يخرج عن النظام فى مدرسته أو يقاوم القوانين الاجتماعية فيما بعد وإذن فليس فيه من الشغب والعصيان ما يستدعى زجه فى ظلمات السجون .

٥ — التفريق بين الحق والباطل :

وهذا أيضا مما نحصل عليه فى حياتنا العائلية الأولى ، وهو لا يقتصر على تفهم المثل العليا كإنكار الذات والأمانة والبسالة والطهارة والإخلاص عن طريق الأوامر والقصص والأحاديث فقط بل إنه يعطي عن طرق شتى أعمق أثرا لمعرفة النافع والضار إجمالا حيث تلقن كثير من الأمور وتشرّب فى نفوس الأطفال بما تسرّه اليهم الحياة اليومية التى يعيشها الأب والأم والأخوات والإخوة الكبار وحيثما وجدنا عددا من الأطفال والأولاد فى البيت الواحد تيسر لهم أن يمتلكوا عادات من شأنها التفريق بين الباطل والحق نتيجة التضحية التى يؤديها الواحد للآخر حفظا لرعاية الحقوق التى لكل منهم وهى ما تدفعهم إليها الضرورة حتما .

٦ — الدين :

وهو عقائد أعمق انطباعا من غيرها يتشرّب أصولها كل إنسان من عائلته التى يتربى فيها وقد يندر أن نجد زاهدا ورعا صادق النية فيما يملك من دين كان قد نشأ فى بيت لا يفهم من هذه شيئا ، غير أنه ليس بالمستغرب أن يشذ الابن أو البنت عن ما لقنا به من العقائد الدينية أيام الطفولة ولكن مهما كان من ذلك فالتأثير يبقى خفيا وقد تتقلب به الظروف فيجرّ بصاحبه أخيرا إلى حظيرة الإيمان الأولى .

إن الأمور اللطيفة فى الحياة يندر أن تقاس بواسطة المعايير المعروفة من شريط المساحة أو كفتى الميزان ، وليس هناك عالم فى مقدوره أن يعيّن ما يصيب الإنسان من بهجة وانتعاش عندما يشم عبير زهرة زكيّة أو يشاهد جمال غروب الشمس عند الأصيل أو يتطلع إلى هيبة النجوم فى صفحة السماء الزرقاء فى ليلة طاب نسيمها وصفى جوّها ومثل هذا وذاك أضاع الشعراء والكتاب والمصوّرون جهودهم الفكرية لتصوير أو وصف المعنى الشعرى للبيت .

فالبيت تدخل فى تكوينه عناصر مادية هى فى غاية اللّطافة تفوق بلطفها مادة الأحلام ، لأن الرغبة فى البيت عاطفية أكثر مما هى عقلية أو تفكيرية . والبيت بقعة من الأرض يتعلق بها الإنسان تعلقا نفسيا وفيها يطمئن وإليها يرغب وله كل الحق أن يأوى إليها لأنها ملكه وليس لأحد معارضته فيها ، وهذه البذرة هى منشأ الشعور الوطنى الصادق تجاه بلاده ، وبالأخص فى أوقات الخطر الداهم أولدى المكوث فى أرض غريبة . ولِمَ لا يحسب البيت وطن الولادة للمرء ؟ بلى ! وهو باتصاله الوثيق مع الحياة العائلية تتمخض عنه كلمة معنوية سامية تستميل إليها النفس ويفيض بها الشعور . والحياة العائلية ينبوع البيت الأصلى وعينه الصافية وطوقه الزاهى وحول هذا الطوق وعليه تلوذ جميع الذكريات السالفة وفيه تنشأ الصحبة الوديّة الخالصة والألفة والعطف الذين ليس وراءهما مثيل أقوى وأشد .

على أن هناك ويا للأسف بعض العائلات تغلّب فيها الجو العكر والصفاء المدنّس فسادت فيها الأنانية والنزاع بدلا من الكرم والمحبة ، وهي حالة تدفع بأفراد العائلة أحيانا للبحث عن بيئة أهنأ وأسعد مما هم فيه . ولكن مع هذا وبالرغم من كل هذه الدوافع القهّارة نجد أن ذكريات السوء تنمحى بمرور الزمن ولا يبقى عن البيت فى الذهن إلا ماطاب وحلى من ذكرى ، وإذا كان الحنين للبيت أكيدا فى مثل هذه الظروف الشاذة فليس من الصحيح أن نعتبر وحى البيت مبالغ فيه أو أن ننقص من درجته وإذن فالحياة العائلية هى مركز الحب والهناء .

فى البيت تتجلى المثل العليا للمحبة الخالصة بين أفراد العائلة التى يضمها بين جوانحه ، فالأبوان همهما الاعتناء بالأطفال لا يؤخرهما عن هـذا شاغل أو واجب وهؤلاء بدورهم يقبلون على هذا العطف إقبالا وترى الأبناء والبنات مغمورين بهذه الرفقة السامية والكل ينظر إلى من حوله كأعز صديق وهبته الطبيعة إليه وأخلصته لنفسه ، وهكذا يصبح البيت بنظر الجميع أسعد وأرقى وأجمل بقعة حواها هـذا العالم الفسيح .

وقد يظن البعض أنه للحصول على مثل هذا الأنموذج من البيوت يلزم على المرء أن يمتلك دارا جميلة حوت على جميع أسباب الراحة والرفاء ، ولـكن مهلا فالبيت Home لا يعنى الدار House ولو أنه يذكر الأول أحيانا بما يراد به الثانى .

والمعروف أن كثيرا من الناس يتعلق فى بعض أدوار حياته ببعض الأماكن أو الأشياء نظرا إلى اتصالها الوثيق بحوادث أو أشخاص أخلت لهم الذاكرة محلا فى نفس صاحبها ، وقد يتطرف به الأمر فيعشق أركان المنزل الذى كان يشغله ، إلا أنه فضلا عن كل هذا الإيلاف الفكرى نجد أن البيت والدار كل فى رتبة مستقلة تتباين الواحدة عن الأخرى ، فإن صادف أن انتقلت العائلة اضطرارا من دار إلى آخر ، أو من بقعة إلى ثانية انتقل البيت معها أيضا ولو أبقى ذلك فى نفوس أفرادها حبا للمنزل المتروك . وميزات المسكن سواء كان قصرا أو كوخا قلما تدخل فى اعتباره بيتا أولا فهناك أناس يسكنون الصروح ولا يفهمون ما تعنى كلمة البيت وعلى النقيض نشاهد كثيرا ممن يقبع فى كهوف أو أكواخ حقيرة وهم فى مرتع خصيب تظللهم أجنحة الرحمة والسلام .

وإليكم ما تقوله فتاة فى إحدى المدارس الرسمية الأمريكية عن المثل الكامل للبيت الذى تحبه وتختاره دون سواه وقد ضمنت فكرتها هذه فى قطعة إنشائية قدمتها إلى المعلمة كواجب أسبوعى :

« لقد كانت ليلة باردة من ليالى شهر ( شباط ) والريح تعصف بشدة وتولول

بغضب كأنها جبار ينذر الناس بالفناء وهى بهبوبها المزعج تهز الأشجار هزاً عنيفا وتجعلها تأنّ وتتأوه من ضرباتها القوية المتوالية .

وقد التجأنا آنئذ فى غرفتنا الصغيرة حيث كان الهواء دافئاً وساكنا واللهيب يتصاعد من الموقد فيرسل بأضلاله المرتعشة على جدران الغرفة فيمسها مسا ثم يختفى ليظهر الكرة ممتداً على الركن الثانى ، هنا جلست الأم تخيط ثوبا وكأن صوت إبرتها الموزون أودع فى المكان همسا موسيقيا حبب للأب الحنون الكرى فأمال برأسه على وجه الصحيفة التى كان يطالعها وراح يتنفس تنفسا بطيئا بكل هدوء وهناك فى الزاوية اليسرى جلست شقيقتى تطالع قصة ممتعة عن مجازفات ( بولى ) فى المدرسة الداخلية وهى لا تنفك تبعث بالحسرة والابتسامة بين آن وآخر كلما أصابت من القصة سهما يفرحها أو يحزنها كيفما اتفق. أما أنا فقد وضعت رأسى على يدى واتكأت على منضدة صغيرة أمامى وعيناى لا تنصرفان عن ألسنة اللهيب المنبعثة من الموقد ورحت فى عالم من الخيال بديع وذهبت فيه ألتمس لنفسى المثل الأعلى للبيت .

أقمت لنفسى كوخا صغيراً فى لسان اللهيب الراقص ولكنه سرعان ما تهدم فعدت أنشىء كوخا ثانيا أجمل وأحب إلىّ من الأول غير أنه مال أيضا ، وهكذا بنيت وقوّضت بيوتا كثيرة هنا وهناك فى أربعة أركان المعمورة ، إلا أنى رجعت أخيراً واخترت قصراً شامخاً وسط جنة النخيل النضرة على ضفاف الينبوع البارد العذب ولكنه امتنع علىّ فجأة أثر تلفتى يمنة ويسرة بأطراف الغرفة الدافئة الصغيرة فما كان منى إلا أن أتبعته بزفرة حارة وحسرة عميقة أبانت لى أن ما ذهبت إليه ساعية بالخيال وراءه فى جهات العالم الواسع يتفق وما كان لدى فعلا فى غرفتنا الصغيرة ، وإذن ما الفرق بين ذاك وهذا الذى ضمنا أنا وأهلى منذ أن خلقنا سوية تلك حقيقة عرفها قبلى كثير من الناس وقد توصلت إليها آنئذ فأرشدتنى إلى أن المثل الأعلى للبيت الذى أرتاح إليه هو الذى يضمّنى وهؤلاء قريرى العين ولا أبالى بعدئذ إن كان فى الشرق أو فى الغرب ، فى الشمال أو فى الجنوب .

# الأخطار التي تهدد سلامة البيت

وماذا نعنى بالأخطار التى تحيق بالبيت ؟ وما هى ياترى ؟ وما هى أحسن السبل التى تميتها ؟ إن كل شىء يعيق أو يمنع العائلة عن القيام بواجبها يعد خطراً للبيت وقديهدد سلامة الأمة والمجتمع وخصوصا إن استشرى وفشا . وهذه الأخطار قد لا تكون بدرجة تمزّق البيت فلا تبقى عليه ولا تذر إلا أن كل أمر من شأنه أن يتدخل بواجبات العائلة يعد خطراً لخير البيت وراحة أهله ويكون سببا فى إقلاق كل من يهمه صالح المجتمع والحياة العائلية . وأشهر هذه الأخطار ما يلى :

١ — المرض أو الوفاة :

وهو الخطر الأول الذى يحيق بالبيت فيسلب هناءه ويزعزع أركانه ، والمرض يكون أبلى إن كان علة مزمنة مصابا بها أحد الأبوين مثلاً وقد تؤدى إلى وفاته . وأيهما كان المرض أو الوفاة فإن الأولاد يخسرون به الاعتناء الوالدى اللازم ، فموت الأب مثلا يترك العائلة غالبا محتاجة لكثير من المرافق الضرورية وعندئذ تضطر الأم إلى ترك الدار لمزاولة بعض الأعمال فى إحدى المعامل أو المخازن أو الحوانيت أو الدور . وفى هذا الحين يضل الأولاد دون مشرف أو مرشد وإذن لقد زال الضبط واختفت العناية وأخذ الأولاد يتسللون فى الطرقات والأزقة والمسالك غير المحمودة يعبثون ويلعبون كيف شاءت أهواؤهم ، ومن ثم يتعرّضون للاغراء والأخطار على الدوام وآنئذ يتملّكون عادات رديئة تتأصل فيهم ولا يمكن تهذيبها بعدئذ فى المدرسة أو غيرها . أما موت الأم المبكر فضياع للبيت لا نستطيع تعويضه وكيفما كان الاعتناء بالأولاد من قبل الآخرين فالمعروف لدى الجميع أن لا أحد يستطيع أن يحل محل الأم .

ولا شك أن المرض أو الوفاة لا يمكن ردعهما دائما إلا أنه لا ينكر أن وسائل الوقاية الصحية وطرق المعالجة الصحيحة قد تؤدى بالأكثر إلى الشفاء والسلامة

وهناك من سلك مسلكاً آخر وهو التأمين على الحياة لدي إحدى الشركات المعروفة ، وليس غرضه من هذا إلا صيانة العائلة وانتشالها من الفاقة حتى فى حالات الوفاة . وذهبت بعض الولايات فى الجمهورية الأمريكية إلى أبعد من هذا ، فوضعت قانونا جليل القدر أريد من تشريعه إبعاد الأرملة عن العمل خارج الدار ودعته بقانون ( تقاعد الأمهات ) وبه ضمنت للأم المحتاجة المتوفى عنها زوجها استلام مبلغ معين من المال فى نهاية كل أسبوع تعيل به أطفالها أو نفسها عند الشيخوخة أو الكبر . ومع هذا فإن إطاعة القوانين الصحية والوقاية من الأمراض الصناعية أو غيرها والترفيه عن حالة العمال وتحسين العمل ، و إلى غير ذلك من أمور وقوانين نافعة وموافقة للصالح العام تضمن صيانة البيت لمدى بعيد وتحفظه ضد الأخطار الناشئة من الأمراض والوفيات .

٢ — عدم استملاك الدور :

وهذا خطر آخر يداهم البيت ويقلقه وملخصه : أن القليل من الناس فى المدن الكبيرة من يملك المنازل التى يسكنها ، ومن الصعب ملافاة هذا النقص بطريقة من الطرق ، غير أنه من الحق التساؤل عما إذا كان لزاما لكل الناس أن يمتلكوا دوراً خاصة بهم يسكنون فيها حتى ولو كان فى إمكانهم إرجاع ملكيتها إليهم . فالمشاهد أن معظم العمال فى المدن الصناعية ينظر إلى هذا الاستملاك كعقبة فى سبيل تقدمه ، إذ كثيراً ما صادف العمال أزمات تخفض فيها الأجور وتعرض عندها شروط غير مناسبة لهذا وذاك يضطرون إلى الانتقال إلى جهة أخرى يحصلون فيها على أجرة أعلى وشروط للعمل أوفق وبذا يقع مالك الدار منهم فى ورطة قد تؤخره عن الأقدام إلى غيره فى أغلب الأحيان ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المنزل الذى لم تتم ملكيته لساكنيه يفقد من بينهم إحدى الروابط القوية التى تضم أعضاءه لبعضهم و إذن فحياة البيت ناقصة وهى أضعف مما يجب أن تكون ، هذا والإنسان بطبعه يحن إلى البيت الذى ولد فيه وعاش فيه أبواه وذووه وهو ملك لهم لعدة أجيال .

٣ — العمل خارج الدار :

قلنا سابقاً إن أكثر السكان فى المدن الكبيرة لا يمتلكون الدور وهذا نقص بارز يضاف إليه أنهم عادوا فاتخذوا مراكز حرفهم خارجها أيضا . لقد كان البيت مركز الصناعة حتى قبل قرن ونصف تقريبا ، ففيه كانت المغازل والمناول أشبه بالمهود ولم يكن على الأب وهو المالك فى ذلك الحين لزمام وقته إذا طالت به ساعات العمل أو سأم الإستمرار فيه لصعوبته إلا أن يترك منزله أو حانوته حراً ليلهو بعض وقته فى الحديقة أو الإصطبل ، وهو بوجوده فى الدار حاضر لإسداء النصيحة وتقديم المشورة لأبنائه والإشراف على إدارتهم وتوجيههم للعمل حسبما يريد ، وعلى هذا يتعلم الأولاد والبنات من آبائهم وأمهاتهم الحرفة على أصح وجوهها فيزاولونها ويتعرفون طرق التفريق بين الصحيح والخطأ عملياً .

أما اليوم ، وما قد جلب اليوم للناس ؟ ! فينـدر وجود ذلك وبالأخص فى المدن الكبيرة، لأن الانقلاب الصناعى طغى على ما أنتجه أو تنتجه الدور واستبدل بها منتوجات المؤسسات الكبيرة التى دعيت بالمعامل حيث تستخدم الألوف من الناس لهذا الغرض ، فإذا بالوالد وأبناؤه الكبار يتركون الدار عاجلا أثر تناول الفطور ميممين شطر الطاحونة أو المصنع أو الدائرة ولا يرجعون غالبـاً إلى مقرهم إلا عند آخر النهار ، أما النساء فقد سلكن ويالالأسف السبيل عينه ورحن لأعمالهن خارج المنزل تاركين شؤونه لمن يقوم مقامهن مأجوراً . أما تأثير كل هذا على البيت فواضح لذى عينين فبدون اعتناء الأم وأشراف الأب يتسلل الصغار فى فرصهم إلى الطرقات والأزقة يقضون فيها أوقاتهم ويلهون مع هذا وذاك ولضيق الوقت لا يكون فى مقدور الأبوين أن يخلقا من المنزل ومن يأوى إليه بيتاً معموراً بالصلاح مغموراً بالهناء . وهكذا نرى العمل خارج الدار قد هدد البيت وسلامته ، وبدون أن تأخذ المدارس والجوامع على عاتقها مهمة العائلة فى سابق عهدها لا يمكن

أن يرد للبيت عزه ؛ وسوف يلاقى المجتمع من جراء ذلك صعوبات ومشاكل لاحد لها .

٤ — الفقر :

وهو الخطر الرابع الذى يهدد سلامة البيت ويورده حتفه : فالأجور الزهيدة وتناول ما لا يكفى من الأطعمة المغذية والعوارض المنكبة والحوادث المحزنة والضعف الصحى والكسل والتراخى كلها أسباب تلزم كثيراً من الآباء أن لا يقوموا بما هو مفروض عليهم تجاه الأبناء والدخل الشهرى الزهيد والأرباح البسيطة لاتسمن ولاتغنى من جوع ، فيبقى الأولاد ناقصى التهذيب والهداية وإذن فالفقر عقبة فى سبيل تقدم العائلة ونشاطها .

٥ — الملاهى التجارية :

كان البيت فيما مضى مركز اللهو والمرح للناس فيه تعقد الاجتماعات وتدعى الولائم أمام الأطفال والشبان فيتهذبون ويتعلمون ويرشدون ويكتسبون أما اليوم وقد أخذ أعضاء العائلة بالحضور فى المنزل فى آخر ساعات النهار نراهم إن لم يكن قد أخذ منهم التعب مأخذاً بحيث يضطرون إلى الاضطجاع بعد تناول العشاء بمدة وجيزة يتطلبون اللهو فى دور السينما والمقاهى أو غيرها بعيداً عن البيت .

٦ — الطلاق :

وهو خطر كثير الأهمية بعيد الأثر ويختلف عما تقدم بكونه نتيجة لبعض الأخطار السالفة الذكر أو كلها معا ؛ ومع هذا فهو خطر خطير يفصم عروة البيت ويجعله خراباً يبابا . وبينما لا يكون للطلاق أهمية تذكر عند عدم وجود ذرية للطرفين نجده بالعكس إن كان لهم منها شىء قوى الأثر بعيد الغور فى تأخير الأولاد على أنه قد يكون مستحسنا — وهو الأكيد — فيما إذا لم يكن بين

الطرفين وفاق يجمعهم ويلم شعثهم ، وعلى كل فى التساهل من هذا وذاك مايعيق عن الأقدام على هـذا الأمر وقد يزيل من القلوب ما كدرها فيصفو الجو وتلتئم الوحدة .

إن الأخطار التى تهدد سلامة البيت كثيرة ولـكن لنتذكر بأن كل مانقوم به من تضحية فى سبيل تحسين الحال هو ذو قيمة مهما كان وزنها ، فالمجتمع يرتكز على أساسه الوحيد وهو العائلة وهذه بدورها تستند إلى البيت فى سلامتها وهنائها .

# البيت في نظر العلم الحديث

« البيت الذى يركن إلى العلم فيكتسب منه
وينتفع بما يكتسب إنما هو جنة الخلد . »

ساعدنا العلم بطرق شتى على تحسين المعيشة ورفع مستواها ولا يزال يكشف لنا ما يعيننا على مجابهة مشاكل الحياة بصورة عامة . وعلم الاجتماع أرشد الناس إلى سبيلين مهمين وهما : طريقة التعاون بين الأفراد والجماعات ثم كيفية تنفيذ هذا التعاون بأفضل الوسائل . ولعل أحوج الأمكنة إلى هذا العلم هو البيت ففيه رجال ونساء وشبان وأطفال كباراً وصغاراً عليهم أن يتدربوا على العيش سويّاً بكل راحة واطمئنان ، وإن لم يتخذوا من هذا العلم هادياً لهم فإنهم ولا شك يضل بهم السير ويضطرب أمامهم الطريق ويتجرعوا آلاما لا حد لها كما هو الواقع فى كثير من البيوت ، أما البيت الذى يركن إليه ويكتسب منه وينتفع بما يكتسب فذاك هو جنة الخلد وهو ( البيت العلمى ) .

فى مثل هذا البيت يتلقى الطفل تربية صحيحة واعتناء من شأنه أن يقدم الطفل يومياً إلى أفضل ما كان فى أمسه جسمياً وعقلياً ونفسياً والطفل مخلوق ضعيف يتوقف مستقبله على طرز الاعتناء الذى يلقاه أيام الطفولة والصغر . والأمهات يحبون أطفالهن بالغريزة ولكنهن يجهلن الاعتناء بهم بالغريزة ، وعلى هذا كان لزاما أن يدرس فن الاعتناء بالطفل ممن بحث فيه وتعمق وتفهم كيفيّة إنماء الطفل صحيّا بأحسن الوسائل الفنيّة الممكنة إذ لا يكفى أن يحصل الطفل من الأم حليبه فقط لأن صحته تتوقف على نوع الحليب الذى يدره جسمها وعلى كمية الحليب الذى يتناولها وعدد النوبات التى تعيّن إليه أثناء الليل والنهار لتناول تلك الكمية ، وهكذا عرف البيت العلمي بأن الأطفال اليوم هم رجال الغد فى الأمة فسعى سعيه للاعتناء بهم وفقا لأفضل الطرق .

وفى البيت العلمى تشجّع الألعاب للطفل على اختلاف أنواعها لأنه يعتقد أن الطفل السليم ميال إلى اللعب طبيعيا حتى أن الرضيع إذا لم يربط جسمه ببعض الأربطة التى تعيق حركة أعضائه نراه كثيراً ما يحرك ذراعيه وساقيه فى الهواء ،

وهو بهذا (كما يخبرنا الاختصاصيون) يمارس اللعب لا غير فكأنه يزاول لعبة التنس أو غيرها التى من شأنها تنشيط الدورة الدموية فى الجسم وتقوية الحركات التنفسية التى تساعد على إبعاد غاز ثانى أوكسيد الكاربون المضر وتناول غاز الأوكسجين النافع . وإن شب الطفل على هذا خاض فى اللعب والحركة وامتلك بذلك عادة تكسبه جسما لائقا قوىّ المناعة لا تؤثر فيه الطوارىء الخفيفة . والعادة أن الطفلة الصغيرة كثيرا ما تميل إلى إعداد لعبات وتجرب أن تتخذ منها أشخاصا موهومة تعتنى بهم وتقوم بما لديها من وسائل بسيطة فى تنظيم إدارة البيت ، أما الطفل فإنه شديد الرغبة فى اللعب ببعض الأدوات والآلات التى قد تؤهله فيما بعد لمزاولة إحدى الحرف المفيدة ومن هذا نعلم أن اللعب نافع جدا للطفل والطفلة على السواء .

وفى البيت العلمى يندر أن يعاقب الطفل بالضرب أما فى غيره فتكون أول الطرق ولعل أوحدها للعقاب هو الضرب . والضرب يعطي فى الغالب كعقوبة من قبل الأبوين لما يكون أحدهما غاضبا فينهال بالضرب دون أن يتمهل ليدرس السبب الذى جر بولده لاقتراف خطيئته فيصف العقاب اللائق بحيث يكون سبباً لردع الطفل عن الإتيان بمثل خطيئته فى المستقبل . وطالما ضربت الأم طفلها لأنه لا ينفك عن الصراخ كل ليلة فإذا ما مضت بضعة أسابيع تفجرت أذن الطفل عن قرحة تبيّن للطبيب منها أنه كان يشكو أذاها منذ زمن مضى ، فهل كان من العلم ضرب الطفل فى هذا الحال وهو القاصر عن النطق العاجز عن التعبير عما يشكو منه ؟ وإذن فالأم كانت ظالمة بجهلها قاسية بمعاملتها . ولنعرف أن العلم بحد ذاته يمحّص الأسباب والعلل فإن أساء الطفل بتصرفاته فما على الكبار من إخوته وأبويه الذين يفهمون العلم ويقدرون الموقف إلا السعي فى دراسة أسباب هذا التصرف الشائن ! ومن الخطل عند تربية الأطفال أن نمدح الطفل ونضحك لما يبديه من نباهة ! فإذا صادف أن دخل الغرفة طفل وذكر للجالسين بعض ما يضحك أكثر الناس فسرعان ما يقابل عمله هذا بالضحك والتصفيق ثم الإشارة

إلى أنه فطن وذكىّ ، عند ذاك يرجع الطفل وفى ذهنه خيال بعيد عن نفسه فيكيل لها الوزن بخفة الروح والحذق ، وهكذا يندفع للقيام بمثل ذلك مرات أمام هذا وذاك ليضحك الزائرين فينجع فى محاولاته مرة ويفشل أخرى ولكنه يحاول أن يجرّب كل شىء ليحصل لنفسه المَدْح والإطراء إلى أن يصبح ثقيل الظل مقلقا ومضايقا وهو لا يدرى فيملّه كل واحد . وليس ببعيد على المعلمين أن يشاهدوا أمثال هذا بين التلامذة فى المدارس والصفوف المختلفة أما الخطأ فيرجع فى الأصل إلى أيام الطفولة حيث صفق له الحاضرون وضحكوا له فى بيت غير علمى .

والعلماء أينما كانوا لهم رائد واحد هو الصدق وغاية لاثانية لها هى الحقيقة فإذا كان ذلك فاعرف درجة من لا يكون رائده الصدق فى البيت ، فلو فرضنا أن الطفل قد أساء فى بعض تصرفاته وذكر له أنهم سيدعون الشرطى لمعاقبته إن لم يرتدع فإنهم يتفوهون بالكذب لأنهم يعرفون تماما أنهم سوف لا يطلبون الشرطى إلى البيت لمثل هذا الأمر ، حتى ولو جربوا ذلك فالأرجح أن الشرطى لايمتثل أمرهم ولا يقدم قيد خطوة . ثم إن الأطفال كثيرا ما يسألون الأمهات عن كيفية ولادة الأطفال فى هذا العالم فيجابون بقصص وحكايات ليس لها وجه من الحقيقة . تصوّر طفلا ينشأ فى بيئة غير صادقة ثم قدّر نصيبه من الصدق والحق إذا شب وترعرع . إن هذا لما يعرض عنه البيت العلمى بالكلية ، إذ أنه يعتقد بأهمية الصدق وعلى نهجه يعلّم الطفل ويدرّبه والأبوان لا يكلمانه إلا بالصحيح من القول وهو لا يسمع من إخوته وأخواته الكبار إلا بما عرفوه من الحق .

والبيت العلمى يتطلع بعيدا إلى المستقبل : وهو يعرف أن يوما سيأتى يخرج فيه طفله إلى المدرسة ثم إلى الحياة العملية لمزاولة بعض المهن والأعمال فيعد العدة لكل ذلك . وهو لا يشك إن تصرفاته فى المدرسة وفى العمل تتوقف ولو لمدى معلوم على نوع المعاملة أو التربية التى منّى بها فى البيت . ومن لا يدرى أن الغد هو ابن اليوم ولهذا يصبح لزاما علينا أن نستعد فى هذا اليوم استعدادا كافيا

لنواجه به الغد خيره وشره . وإذا لم يدرب الطفل فى بيته كيف يدوّن حسابات إيراده ومصروفه فى سجل خاص مثلا فهو بالأولى أن لا يتفهم ذلك فى المدرسة فى حينه اللازم ، وبناء على هذا نرى البيت العلمى يهتم بهذا فيمنح الطفل مقدارا معلوما من الدراهم كل أسبوع ثم يهبه مفكرة صغيرة يحرر فيها مقدار مدخوله ومصروفه ويطلب منه تبيان ذلك لوالديه فى أوقات معلومة فيأخذان بانتقادها بطريقة ودية وبهذا يكون الطفل قد احتفظ بحساباته مضبوطة وبدفتره نظيفا فإن خرج من البيت بعد أن يتقدم فى السن كان لديه كمية لا بأس بها من المال ويعرف أصح طرق الصرف والإيراد ، وهكذا يتطلع الأبوان للمستقبل البعيد ويعدان طفلهما إعدادا لائقا للأيام المقبلة .

والخلاصة أن الأبوّة والأمومة فى نظر العلم الحديث مهنة شاقة كالقانون والطب وغيرهما ، ونوع التربية التى يتلقاها الأطفال فى مملكة ما هى أخطر وأجل من أى عمل آخر يقوم به المربون والمسئولون تجاه تلك الأمة ، وليس هناك أمر أبعد تأثيرا على حياة الأطفال الناشئين من البيت ، والبيت لا يعمره بالجملة إلا الأبوين (ولو كان للأخوة والأخوات بعض اليد فى ذلك) فالأبوان الذكيان الحديثان يدرسان مهنتهما عن المختصين بمطالعة الكتب والمجلات القيمة وهكذا نستطيع أن ندخل العلم فى البيوت ونحييها بحياته ، ولنعرف أن القرن العشرين لا يتطلع إلى تكثير عدد البيوت بل يريد أفضلها وأرقاها .

# الأجرام والمجرمون

« وهؤلاء هم المعتدون على كرامة
المجتمع بالإجرام ، والويل لهم منه . »

الإجرام عملية القيام بجريمة ضد المجتمع ، ولقد اعتبرت الجرائم فيما سلف كأعمال خصميّة يقوم بها أفراد ضد أفراد آخرين فالسارق ليس له طالب غير المالك المسروق الذى لوحده الحق فى استحصال الترضية التى توافقه مع المعتدى . وبتقدم الإنسان نحو مراقى المدنية نمت فكرة جديدة أدّت إلى إشراك المجتمع بالحق الذى احتكره المعتدى عليه فيما مضى فعرف الكل أن الاعتداء الموجه ضد أفراد أو فرد واحد هو بالحقيقة اعتداء ضد المجموع ، وهكذا اندفع أفراد المجتمع إلى العمل سويّا وأخذوا على عواتقهم مسئولية تشريع القوانين لحفظ حقوق الفرد ثم فرضوا العقوبة على من تسوّل له نفسه لانتهاك حرمة تلك القوانين ، وبهذا أصبحت الجريمة جناية ضد المجموع لأنها تضمّنت القيام بعمل لا يسوّغه القانون الذى سنّ لمصلحة العموم ولو لم يكن فيه ما يدعو إلى تسميته بالمخالفة الأدبية الصريحة وعلى المحاكم تنفيذ القانون مهما كان الحال .

تصنيف الجرائم:

كانت العادة الجارية أن تصنّف الجرائم إلى ثلاثة أصناف مختلفة وهى:

١ — المؤامرات وهى محاولات لقلب أنظمة الحكم عن طريق الثورة أو غيره .

٢ — الجنايات الكبري وهى جرائم خطيرة ضد أفراد أو ممتلكات كالقتل والسرقة .

٣ — المخالفات وتشمل كل الجنح البسيطة أو النقض الخفيف للقانون كبيع الحليب مثلا بدون أجازة أو مخالفة التعليمات التى توجب صيانة الحدائق العامة .

أما اليوم فقد اتخذت طريقة غير هذه فى تصنيف الجرائم خلاصتها :

١ — الجنايات التى من شأنها الاخلال بالأمن العام كالمؤامرات والشغب وكل ما يعيق القائمين بتنفيذ القانون عن أداء واجباتهم .

٢ — الجنايات والجرائم التى من شأنها الاخلال بالصحة العامة أو الآداب العامة كالزواج برجلين أو المقامرة والمتاجرة بالمخدرات أو تلويث مياه الشرب العامة .

٣ — الجنايات الموجهة ضد الفرد كالقتل على أنواعه أو الاعتداء قصد القتل أو غيره .

٤ — الجنايات والجرائم ضد الممتلكات كالسطو والسرقة والنصب والخيانة وأمثالها .

إن قائمة الجرائم المذكورة آنفا لا تشمل نقض العقود والقذف بالنشر وعدم دفع الديون لأن مثل هذه الأمور لا تعد من الجرائم بل هى جنح شخصية تدعى بالمدنية أو الحقوقية ، وعلى من له الحق أن يرفع قضيته أمام المحاكم التى تقوم عند ذاك مقام الوسيط لإحقاق الحق بين الطرفين .

## بواعث الإجرام:

إن بواعث الإجرام كبواعث الفقر منها الشخصية ومنها الاجتماعية : فالإنسان الذى يشذ عن الطريق المستقيم ويقترف شرا لا بد وأن يكون ضعيف العقل أو سافل الأخلاق أو كليهما وذلك لحصوله على عوامل هذا الضعف عن طريق الوراثة ومن ابتلى بهذا فقد اكتسب ما يمنعه عن السير بأمان فى مستهل حياته فيشذ ويندفع إلى الإجرام . أما تربية البيت السيئة والعادات التى تكتسب فى الحياة المدرسية دون ما مراقبة ثم كراهية الإقبال على العمل فهى أسباب شخصية لا بد وأن تشجع صاحبها على الإجرام . والفقر يتخذ المقام الأعلى بين الأسباب الإجتماعية للإجرام وبعده قرين السوء ونقص كفاءة الشرطة وضعف الرجال القائمين بمحافظة الأمن فى البلاد .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الإجرام ضد الممتلكات كالسطو والسرقة يقل غالبا حيث يحل الرفاه ويزداد فى أوقات الضائقات وتكاثر عدد العاطلين .

نظرية العقاب :

يعتبر العقاب لدى الأمم المتأخرة وسيلة للانتقام والثأر أما فى الأوساط المتمدنة فإنه يعتبر وسيلة لتحذير الناس عن الإقدام على ارتكاب الجرائم ، وفى كلتا الحالتين كان الشعور السائد هو أن يكون العقاب صارما على قدر الإمكان فالشدة بدلا من أحقية العقاب نفسه كانت الأساس الذى يبنى عليه أمر ردع الناس عن الاقدام على الإجرام . خذ انكلترة مثلا قبل قرن واحد تراها تعتبر الإعدام جزاء السارق ، وتقاصص العاجز عن دفع الديون بالسجن الطويل . إن هذه الشدة فى العقاب لم تكن فى نهاية الأمر لتفى بالمطلوب فالجرائم قبل قرن من هذا التاريخ كانت أكثر بكثير مما هى عليه الآن .

مر الزمن على هذا فاذا بالفطنة العامة تهدينا إلى نتيجة بيّنة وهى أن أحقية العقاب لاشدته هى الوسيلة الفضلى لتأمين مراعاة القوانين، إذ أن الهدف الأصلى من العقاب هو ليس افتقاد سخط الناس على الجانى أو إصلاحه « ولو أن هذا الأمر الأخير يعد غاية غير مباشرة» بل هو ردع الباقين عن القيام بارتكاب أمثال تلك الجرائم و إذن فالعقاب يجب أن لا يكون أكثر مما يمكّن من تأمين هذه الغاية . وعلى هذا الأساس لزم تعيين مراتب مختلفة للعقاب يوافق كل منها مقدار تحدى الجناية على سلامة المجموع وطمأنينته فاذا عوقب القاتل المتعمد بعقوبة أشد مما يعاقب بها القاتل غير المتعمد فلا يعنى ذلك أن المقتول فى الحالة الأولى قد كابد أكثر مما كابد فى الحالة الثانية فهو قد خسر حياته على كل حال وليس للعقاب مهما كانت شدته أى تأثير فى إعادة حياته إليه إلا أن الأمر الأول أشد هولا من الأمر الآخر وأكثر مساسا بالمجتمع لسبق الاصرار والتعمد ، ومن هذا نستخلص أن درجة شناعة الجريمة تعظم عندما تكون الجريمة أكثر خطرا على سلامة المجموع وراحته .

## الأحداث المجرمون:

كانت العادة فيما مضى أن يساق الأحداث المجرمون الذين تقل أعمارهم عن (١٨) عاما إلى محاكم الجزاء شأن بقية المجرمين وذلك لإنالتهم العقاب اللازم . أما اليوم فقد عزلت قضاياهم وصارت تعرض فى كثير من المدن الكبرى أمام محاكم خاصة تدعى بمحاكم الأحداث ، وحيثما لا توجد هذه المحاكم نجدها تقدم إلى المحاكم الاعتيادية للنظر فيها بجلسات لا تبحث غيرها البتة . والمجرمون الأحداث فى القضايا الخطيرة يرسلون عادة إلى المدارس الإصلاحية أو إلى غيرها من المؤسسات التى تهتم بالتعليم المهنى ، إما إذا كانت الجريمة من النوع البسيط وخصوصا إذا كان الجاني الحدث حديث العهد بالإجرام فيوضع تحت المراقبة ويراد من هذا النظام التجريبى تأمين إصلاح المجرم بدلا من إلزامه العقاب الذى يستحقه .

## السجون :

لقد كانت معاملة المساجين فى كثير من البلدان حتى قبل قرن مضى معاملة وحشية لا تقوم على أساس الإنصاف والعدل فالجناة كانوا يحشرون على أنواعهم كبارا وأحداثا فى مؤسسات واحدة ، وهم يتلقون من القائمين بحراستهم أنواع العذاب الذى تبرأ منه الإنسانية ويبيتون عادة فى غرف صغيرة مرطبة ويعيشون على الأغذية الفقيرة بالمواد الضرورية ولا يزاولون عملا نافعا يقتلون به أوقاتهم الملولة . وإن غير قليل من السجون فى مختلف الممالك لم يزل متبعا هذا المنهج رغم حركة الإصلاح التى نشطت فى الثلاثين سنة الأخيرة فبعثت فى السجون نظاما جديدا كفل فيها التقدم المحسوس . وهو ماسنذكره فيما يلى :

## إصلاح السجون :

إن أول من أثار الناس إلى إصلاح السجون هو المحسن الانكليزى المعروف بـ ( جون هوارد ) الذى كتب فى أواخر القرن الثامن عشر تقريرا وصف فيه

الطرق التى يرتأيها لهذا الإصلاح فوضع فيه تصميما جديدا للسجون الحكومية وخصوصا الاصلاحية منها حيث اقترح وجوب الاحتفاظ بالمساجين فى غرف منعزلة آملا من وراء هذا العزل إصلاح المساجين إصلاحا صحيحا .

والغريب أنه لم يكن هناك ما يشجع على التفريق بين السجون العامة والسجون الإصلاحية ، ولم يجرأ أحد على أن يجهر بأن من الممكن إصلاح السجين خوفا من أن يقدم للناس بدعة لا يرتضونها . وقد تغير الحال بعد هذا تدريجا فأصبح الرأي السائد اليوم هو الإصلاح بدلا من العقاب ، والتهذيب بدلا من الحجز ، والحصول مهما أمكن على المواطنين الصالحين بدلا من المساجين العديدين .

ومن الصعوبة بمكان أن يتصور أحد مقدار العذاب الذى كان يلاقيه السجين فى سجنه ، فهو يسكن فى غرفة مشيّدة بالأسمنت المسلح لا يتجدد فيها الهواء إلا قليلا ولا يدخلها النور إلا لماما والسجين يقضى فيها أيامه ولياليه فلا يرى بأم عينيه إنسانا غير الحارس الموكل بمراقبته ومع هذا فلا يجوز له مكالمته والتحدث إليه ، وبذا تحولت السجون فأصبحت دوراً للمجاذيب إذ انتشر الجنون بين هؤلاء البؤساء انتشاراً فظيعاً وقد حاول أولوا الأمر تخفيف ذلك بأن أعطوا للسجين الفريد عملا ينشغل فيه إلا أن هـذا الحافز الذهنى الجديد لم يمنع من إصابته ورفقائه بالجنون بتأثير الوحدة القاتلة .

هذا وغيره و بعد توالى الزمن اهتدى الإنسان بأن الإنسان حيوان اجتماعى يجب أن يفوز بمعاشرة بنى جنسه ولو فى فترات من يومه فأدّى ذلك إلى إنشاء المعامل داخل السجون ليشتغل فيها المساجين سويا وفقا لنظام خاص . إن هـذا النظام لا يجوّز للمساجين بصورة مطلقة تكوين علاقات مع بعضهم البعض فهو يميل إذن إلى الشىء الكثير من الصرامة ولكن رغم هـذا نجده قيد التنفيذ فى معظم السجون فى مختلف أنحاء العالم .

والحقيقة أنه مهما كان النظام صارما فإنه يستحيل تنفيذه بدقة فالمساجين، لا يخلو

الكثير منهم من فطنة ظاهرة يستخدمونها بمكر فى تنظيم الرموز الخفية التى يتفاهمون بها فيما بينهم حتى ولو كانوا تحت إشراف أقوى الحراس .

والسجون الراقية تقدم لمساجينها ذوى السلوك الطيب «وهم الملقّبون بالموثوق بهم» امتيازات تمكنهم من استعمال الحرية بنطاق واسع دون أن يخيّبوا بذلك أمل رؤسائهم بهم إلا ما ندر ، فهم يتركون للعمل فى مزارع السجون أو كما تدعى باصطلاحهم بـ «مزارع الكرامة » أو يؤخذون إلى مخيمات السجون حيث يعملون فيها فى شق الطرق العامة وتسويتها ، وقد عرف بعض من هذه المخيمات التى يشتغل فيها ( ١٥٠ ) سجينا وكلهم تحت مراقبة عدد من الحراس لا يزيد عن الستة ومع هذا فالنادر منهم من يحاول خيانة الثقة التى يملكها لنفسه لدى رؤسائه . وبهذا تعد أمثال هذه السجون وسائل عملية للتخلص من النظام الحديدى القديم .

هناك فى عاصمة لبنان سجن من هذا الطراز يدعى بسجن «الرمل» امتاز بكثير من طرق الإصلاح الحديثة ففيه يعزل الجناة الأحداث عن المجرمين ذوى السوابق بأجنحة خاصة و يعلّمون اللغتين العربية والإفرنسية من قبل معلمين أكفاء ، ولكل من هؤلاء وأولئك الحق فى أخذ حمّام ساخن و بارد فى كل أسبوع و يدرّبون على بعض الأعمال أو الحرف كالخياطة وعمل الأحذية وفى هذين الصنفين يشتغل عدد لا يستهان به من المساجين . وفى السجن تتوفر جميع الوسائل الصحية وهو مؤثث تأثيثاً كافياً وفى بعض أروقته الكثير من وسائل الترف مما يستأنس بها السجناء ذوو الشأن .

ويمكن تلخيص أوجه الإصلاح الرئيسية فى السجن بما يلى :

١ — إن أولى النقاط فى الأهمية هو تصنيف المساجين و إرسال كل صنف لمؤسسة خاصة بدلا من حشرهم فى سجن حكومى واحد ثم مراعاة كل جهة بالشكل الملائم على قدر الإمكان . فالبعض من المساجين جناة أشقياء ليس من السهل إصلاحهم والبعض الآخر أحداث أو معتوهين والبعض منهم يزور السجن لأول

مرة فى حياته وفى الإمكان إخراجه إلى العالم بعد انتهاء محكوميته بشكل يؤمل منه أن يصبح فيه مواطنا صالحا وخصوصا إذا درب على حرفة مفيدة يكتسب من ورائها بعدئذ .

٢ — مروءة النظام : كانت العادة المتبعة فى السجون معاقبة كل من يقدم من المساجين على مخالفة هامّة للتعليمات الداخلية عقابا صارما وذلك بحجزه فى محابس منفردة لأيام أو أسابيع ، أما اليوم فقد ألغيت هـذه العقوبات واستبدلت بامتيازات طيبة تمنح لذوى السلوك الحسن ويحرم منها من يكون على النقيض . إن هذا التدبير يقضى بوجوب ترتيب المساجين ترتيباً يتفق وسلوكهم فأصحاب السلوك المرضى يرفعون إلى المراتب المتقدمة ويمنحون مختلف الامتيازات وبذا تركت تلك المحابس المنفردة لـكل من لا يمكن تقويمـه أو إصلاحه . وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً عن تدريب المساجين على بعض الحرف وتعليمهم القراءة والـكتابة مـدة بقائهم فى السجن وهى أمور تدل ولا شك عن مروءة النظام الحديث في ادارة السجون .

الأحكام غير المعيّنة ونظام الإطلاق بالتعهد :

ومن أظهر طرق الإصلاح التى تمت فى السجون الحـديثة هو تنفيذ النظام الخاص بالأحكام غير المحدودة والإطلاق بالتعهّد فالطريقة السابقة التى تقضى بالحكم على المسجون لمدة معينة والتى توجب عليه أن يصرف هذه المدة بأجمعها فى السجن دون النظر إلى نوع تصرفاته أو سلوكه قد ألغيت برمتها وعوّض بها طريقة إعطاء الحـكم لمدة غير محدودة كأن تكون مثلا لا أقل من سنتين ولا أكثر من خمس سنوات فإن إتبع السجين الطريق المستقيم وسلك سلوكا مرضيا مـدة مكوثه فى السجن حقق إطلاق سبيله من الحبس عنـد انقضاء أقصر المدتين . وهذه طريقة حسنة تنتج ثمرها الطيب فى كثير من الأحوال وبالأخص فيما يعود إلى الجناة الأحداث الذين يرسلون إلى المدارس الإصلاحية . أما الإطلاق بالتعهّد فنظام يراد

منه تشجيع المساجين على السلوك الطيب وابعاث الرغبة فيهم للإصلاح من تلقاء أنفسهم ، وعند ما يكون هذا النظام الآخير قيد التنفيذ فإن لمأمورى السجن الحق فى إطلاق سراح المساجين حتى قبل انتهاء أقصر المدتين من محكوميتهم على شرط أن يقدّم كل منهم تعهّدا يذكر فيه أنه لا يخل ولا يؤذى المجتمع مرة ثانية فإن صادف أن نقض عهده بعد الإطلاق فيعاد إلى السجن لانهاء مدة محكوميته وقد وجد بالفعل أن القليل منهم من يتمرد بعد هذا .

نظام المراقبة :

وهو وسيلة أخرى من وسائل الإصلاح فى السجن وقد ثبت بالتجربة أن لهذا النظام اليد الكبرى فى انقاص عدد المساجين إلى حد لا يستهان به . وخلاصته : إن المحكوم عليه وبالأخص فى القضايا الخالية من السوابق بدلا من أن يؤخذ ويزج فى السجن يوضع تحت المراقبة لمدة معينة من قبل الشرطة أو أحد المأمورين المربوطين بالمحاكم فتقدم عن سلوكه وهو مطلق السراح التقارير من وقت لآخر فإن كان على ما يرام أعفى عنه وإلا فيعاد للقيد حتى يحصل جزاءه .

والخلاصة أن عقاب المسجون لجرم ارتكبه كان هو الاعتبار الأقدم فى القصاص وإثبات العدل ، ولكن الزمن حان فاعتبر السجين إنسانا يمكن إصلاحه وإرجاعه إلى حضيرة المواطنين الصالحين .

# العُميان والصُمّ

« المحرومون من نعمة النور والصوت
بين الأقدار فى هـــذه الحياة . »

أغلق عينيك لحظة لتبتعد بحاستك هـذه عما حولك من الموجودات فماذا تـكون النتيجة ؟! إنك تصبح ولا شك فى عالم الظلمة فلا تعود ترى وجه النور، ولا يكون فى إمكانك أن تـكتسب فى هذه الفترة عن تلك الموجودات إلا خيالاً ضعيفاً وهذا لأنك تحمل لها فى رأسك صورة ذهنية مفقودة لدى الأعمى . والآن أغلق أذنيك قليلا وتصوّر صعوبة العيش فى الحياة وأنت بهذا السكون الدائم . والواقع أن قضية غلق العينين وسد الأذنين لحين قصير يجعل أمثال هذه التجارب تافهة وغير قادرة على أن تبعث فيك حقيقة ما يعانيه الأعمى أو الأصم فى حياته ، ومع ذلك فإن غلق عينيك مثلا لهذه اللحظة قد لايزيد فيك الحنان إلى أولئك الذين لايمكنهم النظر إلى أوجه أحبائهم والتمتع ببهجة السماء الصافية فى ليلة مقمرة هادئة ، كما أن سد أذنيك لبضع دقائق قد لايمنحك أيضاً العطف اللازم إلى من لايسمع ألحان الموسيقى العذبة أو أن يتعرف إلى بدائع الصوت الإنسانى .

## أسباب العمى والصمم :

إن من المؤلم جداً أن تـكون معظم قضايا العمى والصمم ناتجة فى أكثر الأحوال عن أسباب يمكن التخلص منها ، فأضرار الحوادث التى تعتبر العامل الأهم فى إصابات العمى هى السبب المباشر لـ ⅛ مجموع الإصابات الحاصلة . ومن المؤكد أن ⅞ هذه الحوادث يمكن تلافيه فى معظم الأحوال ، فقرحة العين مثلا سبب من أسباب الإصابة وهو ما يسهل منعه أو تخفيفه بالاعتناء الصحي والمعالجة الطبية ، ومما لاشك فيه أن التفتيش الصحي فى المدارس واستعمال النور الـكافى فى عرف الدراسة والاهتمام بمداواة العيون بصورة منتظمة وزيادة الالتفات إلى ما يصيبها من أمراض طفيفة والاعتناء الشديد بالمحافظة عليها أثناء العمل فى المناجم والمعامل ، كل ذلك له التأثير الـكبير فى تقليل عدد العميان على توالى الزمن إلى ثلث ما هو عليه .

والخلاصة أننا إذا أخذنا جميع الأسباب المعروفة بنظر الاعتبار نجد — كما يؤيّد ذلك أحد الأخصائيين — أن ثلثي إصابات العمى تحدث فى أمور يمكن التخلص منها بإحدى الوسائل المعروفة .

أما الصمم ؛ فإن (٤٠) فى المائة من إصاباته تحدث من أمراض يصاب بها الفرد بعد الولادة بقليل والبقية وهى (٦٠) فى المائة ناتجة من أمراض تنشأ أثناء زمن الطفولة أو بعده ، وذلك كالحمى القرمزية والتهاب سحايا الدماغ والأورام الثديية الحلقومية ( الادينويد ) وأعراض أخرى تحدث عادة فى مقتبل العمر أهمها النزلات الشعبية والتقدم فى السن . وهنا أيضاً نجد أن الاعتناء الصحي الدقيق فى الأوقات المقتضية تساعد كثيراً على منع الإصابة بالصمم فى أكثر الحالات . ولما كان الأبوان المصابان بالصمم يولدان أطفالا صم بنسبة ثلاثين مرة أكثر مما يحصل لغيرهم ، فإن منع تزويجهم من بعضهم عامل آخر له شأنه فى تقليل عدد الصم بالتدريج .

نظرة العالم القديم إلى العميان والصم :

لقد أصبح اليوم عدد العميان والصم أكثر مما كان عليه فى القرون الماضية وذلك بنتيجة الإهمال وضعف المقاومة ، فاليونان والرومان كانوا يأخذون الأعمى أو الأصم من الأطفال إلى إحدى الغابات أو إلى أعالى الجبال ويتركونه طعاماً للوحوش الضارية أو فريسة للبرد والجوع . أما فى القرون الوسطى فقد اعتبر أمثال هؤلاء بمصاف المعتوهين ، يخشاهم القوم ويعرضون عنهم ، ويعاملونهم بكل سوء ، وطالما عدت مصيبتهم عقوبة لجريرة ارتكبوها فى حياتهم ، وذهبت الأوساط الجاهلة باعتقادها إلى أبعد من ذلك فقالت عنها أنها نفخة الأرواح الخبيثة وعلى هذا كان الناس لا يعيرونهم أى اهتمام ، وأمست بليتهم عقبة كأداء فى سبيل معاشهم ، فذهبوا يرتزقون عن طريق الشحاذة ، وقلما كان يجد البعض منهم إنساناً يهتم بأمره فيتعلم ويتهذب حتى هلّ النصف الأخير من القرن الثامن عشر ،

فقيض الله لهم من يرنو إليهم بعطف ويأخذ بأيديهم إلى العمل الصالح .

## المدرسة الأولى للصم :

افتتح القس L'Epée في سنة ١٧٥٥ أول مدرسة للصم في ضواحي باريس بعد أن اهتم بتربية يتيمين أصمّين شغف بعدها بتربية وتثقيف أمثالهما في مدرسته الجديدة فكرّس حياته لخدمة عدد من الطلبة ؛ بما كان يبتدعه ويكتشفه من وسائل التعليم والتدريب الخاصة التي يمكن استخدامها في مثل هذه الأحوال ، وألّف كتباً عنهم وسعى بكل ما لديه لإفادتهم وتشويقهم . ولقد كان L'Epée يدفع في بداية الأمر مصروفات المدرسة من جيبه الخاص ، ولكن لم يطل به الزمن حتى ربح مشروعه بعض المساعدات من الغير ، وظل على هذا إلى أن ألحقت المدرسة أخيراً بمؤسسات الحكومة العامة .

## المدرسة الأولى للعميان :

وعلى أثر افتتاح مدرسة ( L'Epée ) للصم بزمن غير طويل صادف أن شاهد رجل إفرنسي يدعى (هوى Hauy ) مشهداً من المشاهد في إحدى ضواحي باريس عرضت فيه جماعة من العميان ، فكان هذا المنظر مدعاة لبعث الشفقة في نفسه على أمثال هؤلاء ومال إلى تربيتهم حسب المستطاع ، ولم يمض زمن قصير بعد هذا حتى التقى في الطريق بسائل أعمى من الأولاد فمنحه قليلاً من المال وأقنعه بأن يكون إليه تلميذاً ، وبعد جهود جبارة علّم (هوى) الولد القراءة ، وما شعر بنجاحه حتى سعى فأنشأ مدرسة للعميان سنة ١٧٨٤ وهي أول مدرسة من نوعها في تاريخ البشر ، واعتمد في بداية عمله على المنح الخاصة التي كانت تقدم إليه ولكن سرعان ما تعهدتها بعد ذلك الحكومة الإفرنسية الوطنية .

ومدارس العميان والصم تهتم بتلقين بعض الدروس الأساسية ، وهي القراءة والكتابة والتاريخ والجغرافية والحساب وتدرّب طلبتها على أصول الصحة بصورة

عملية . ويهتم القائمون بشئون هذين النوعين من المدارس بالتعليم الصناعى على الأخص ، فالعميان يعملون دروساً فى الخياطة والكتابة على الآلة الطابعة والضرب على البيانو ويدرّبون على صنع المكانس والسلال والأحذية وزراعة الحدائق وتربية الدواجن . وقد أظهر العميان والصم فى كثير من الظروف المقدرة التامة على القيام بأعمال نافعة و إنجازها بصورة صحيحة بعد تحوير ملائم .

التعليم العالى :

فى مدينة (واشنطون) كلية راقية تدعى « كلية كالوديت » هي المؤسسة الوحيدة فى العالم المتخصصة بصورة مطلقة لتعليم الصم تعليما عالياً . وتعتمد هذه الكلية مالياً على الحكومة الوطنية ، وتفتح أقسامها فى فصول منتظمة لجميع عميان القطر ، و إننا لنجد بين متخرجيها الكثير من المحررين والمعلمين وأصحاب الفن ومتعهدى الطبع والنشر والكيميائيين والزرّاع والمهندسين المعمارين . ولاتنس أن هناك عدداً غير قليل من الصمّ والعميان الذين أظهروا تفوقاً بيّناً فى بعض الجامعات المعروفة كجامعة (هارفارد) وغيرها ، والخلاصة أنه يندر أن نجد حرفة لم يشترك فيها أمثال هؤلاء بصورة عملية .

قصة الآنسة ( هيلين كيلر ) :

ولدت الآنسة «هيلين كيلر » يوم ٢٧ حزيران ١٨٨٠ فى إحدى المدن الواقعة شمال ( الباما ) ولما بلغت من العمر عاما ونصف العام أبتليت بمرض خبيث أفقدها بعد الشفاء سمعها و باصرتها و بهذا أصبحت عمياء و بكماء فى آن واحد . وقد سردت قصتها بلسانها فيما بعد فجاءت حديثا غريبا ممتعا ومما قالته :

«لا أتذكر البتة ماحدث لى فى الشهور الأولى بعد شفائى وكل ما علق بذهنى مما كان هو أننى كنت طفلة أعدو وراء والدتى عند قيامها بواجباتها البيتية فأتمسك بأذيالها أو أجلس فى حضنها لاعبة ، وكانت يداى تشعراننى بكل جسم أو حركة

أتمكن من الانتباه إليها وعن طريقهما أصبحت عارفة بكثير من الأمور وشعرت بعد لأى أننى بحاجة ماسة إلى التفاهم مع الآخرين فصرت أستعمل رموزا لما أريد فمثلا إذا هززت رأسى كان ذلك دليلا على ( الرفض ) أو إذا نكسته دلّ على ( القبول ) ثم إذا جذبت أذيال شخص كان ذلك بمعنى ( أقبل ) أو إذا دفعته كان بمعنى ( أدبر ) وإذا طلبت طعاما صرت أقلد حركة مضغ الطعام ، وإذا ما أردت من والدتى أن تقوم بعمل المثلج ( الدوندرمة ) كنت أمثل حركة الآلة المبردة وارتجف قليلا مقلدة بهذا تأثير البرد . » وهكذا ابتدأت الآنسة ( هيلين كيلر ) أن تفهم بأنها تختلف عن الآخرين إذ شعرت بأن أمها ورفيقاتها لا يستعملن الرموز عند ما يطلبن شيئا بل ينطقن بألسنتهن وكانت بعضا تقف بين شخصين يتحاوران فتمسك بشفاههما المتحركة ومع كونها لم تتمكن أن تتفهم شيئا عن معنى ذلك غير أنها أخذت بالمحاكاة و بدأت تقوم أحيانا بحركات جنونية لا تنطوى على قصد ، ولقد كانت تصرف بعملها هـذا مجهودا كبيرا للتفاهم مع الغير وهى إذا ما فشلت أجهشت بالبكاء ثم أسرعت إلى أمها تعبة خائرة القوى فلا تستطيع أن تعلم أمها بالخبر . أما حبها لأمها فهو مالا شك بوجوده ولـكن المعتقد أن هذا الحب لم يكن بالدرجة التى كان يظهره بقية الأطفال . وقد دلت الظواهر أنها لم تكن تمتلك إلا القليل من الشعور بالخير والشر فقد وجدت يوما أختها الطفلة نائمة فى مهد لعبتها فإذا بها تغضب فتدفعها الغيرة الجاهلة إلى أن ترمى بالطفلة النائمة خارج المهد ولو لم تلقفها السيدة ( كيلر ) فى الحال لأصيبت بأذى ، أما هيلين فلم تندم على فعلها وأنى لها أن تندم وهى لم تعلم أنها قد اقترفت خطأ كبيراً .

المعلمة تبدأ بتلقينها حروفا :

---

كانت تسكن عائلة ( كيلر ) فى ضاحية بعيدة جدا عن أى مدرسة من مدارس العميان أو الصم ، ولم يكن أحد من هذه العائلة ينتظر أن يزور مدينتهم معلم له ولع بتعليم أمثال هؤلاء البؤساء لأن هذه المدينة كانت تقع فى مكان بعيد عن

طرق النقل والمرور . وما كان بعيد الوقوع فى نظرهم قد حدث فعلا بعد زمن فقد وصلت المعلمة (Anné Bensfield Sullivan) و بدأت بتعليم البنت بعد أيام قلائل من وصولها وهكذا وجدنا هيلين تتلقى التعليم اللازم قبل أشهر من بلوغها السن السابعة من عمرها .

اقتادت الآنسة ( سليفان ) الطفلة هيلين صباح يوم من الأيام إلى غرفتها وقدمت إليها لعبة صغيرة، وبعد أن لعبت بها مدة قصيرة تهجت الآنسة (سليفان) كلمة لعبة ل . ع . ب . ة بمهل على أصابع البنت بضع مرات فهرعت البنت مسرعة إلى أمها وهي تتهجي لها حروف الكلمة . نعم أنها لم تكن تعلم أنها تتهجى كلمة من الكلمات ولم تكن تعلم أن هناك ما يدعى بكلمات وكل ما كانت تفعله هو تحريك أصابعها وفقا لحروف الكلمة .

وفى الأيام المقبلة التى أعقبت ذلك اليوم أتقنت الطفلة هيلين تهجى كلمات كثيرة مثل : دبوس . برنيطة . فنجان . وقليل من الأفعال مثل اجلس . قف . امشي . ولكنها على كل حال لم تكن تعرف معانيها .

وهكذا استمرت على تهجى الكلمات باللعب على الأصابع حتى مرت عليها أسابيع خمسة اكتشفت بعدها ( هيلين ) بأن ما تتهجاه يعني أمور خاصة وهى تحدث عن هذا قائلة : « ففى يوم من الأيام كنت ألعب مع لعبتى الجديدة إذا بالآنسة ( سليفان ) تضع اللعبة القديمة فى حضنى وهى تتهجي كلمة لعبة وحاولت كثيرا أن تفهمنى أن كلمة لعبة تدل على الاثنتين . وفى أوائل أيام تعلمي كلمتى : ك . و . ز ، م ا ء . سعت الآنسة سليفان بكل ما لديها من مقدرة أن تؤكد علىّ بأن ك . و . ز . يعنى ( كوز ) وكلمة م . ا . ء . يعنى (ماء) غير أنها فشلت فى مهمتها و بعد حين قدمت إلىّ برنيطتى فعلمت أننى ذاهبة معها إلى نزهة حيث الشمس الدافئة أن هذه الفكرة التى قد يمكن أن ندعوها بالشعور الصامت — ملأت نفسى غبطة وسرورا . »

## الكلمة الأولى التى نطقتها هيلين وتأثيرها :

« سرنا فى طريقنا إلى الحقل حيث كان الناعور يدور فيسقى الزرع بالماء . جلسنا قرب الساقية فأخذت معلمتى يدى وغطستها تحت سطح الماء فما أن شعرت ببرودة الماء وحركة جريانه على يدى حتى أخذت معلمتى تتهجى كلمة الماء على يدى الأخرى بكل تؤدة ثم صارت تسرع فى التهجى و بغتة انبثق في ذهنى نور كشف لى بعض الشيء عن سر اللغة فأدركت أن م . ا . ء يعنى هذا الشيء البارد الذى كان يتدفق بين أصابعى وقد أنعشت هذه الكلمة روحي و بعثت في قلبى الأمل وأطلقت نفسى من سجن مظلم مرير واذن فلقد كان لكل شيء اسم له فى الذهن خيال خاص .

تركت بيت الناعور وأنا راغبة كل الرغبة فى التعلّم وما عدت ألمس أى جسم من الأجسام إلا وكان يشعرنى بهزة خاصة كأنها هزة الحياة . وبهذه الطريقة استطعت أن أتعلم الكثير من الكلمات يوم رجوعنا إلى البيت لا أتذكر الآن من بينها إلى القليل كالأم والأخت والأب والمعلمة . تأمل إذن وانظر إذا كان بأمكانك أن تجد طفلا هو أسعد مما كنت أنا حيث أمسى ليلى فى نهاية اليوم الحافل وأنا فرحة انتظر يوما جديدا يهل علىّ لأعمل فيه وأتعلم . وفى صيف عام ١٨٨٨ لم يكن لى عمل سوى السعى فى أن اكتشف بيدى وأتعرف إلى أسماء الموجودات التى أعثر عليها وهكذا بت ولدى مفتاح كل المعارف وفى نفسى الرغبة التامة للاستعانة به والاستفادة منه . »

## تتعلم القراءة و بعدها بثلاث سنوات تستطيع أن تنطق :

« أما المرحلة الثانية ذات الأثر فى تعليمى فهي إتقانى القراءة ، فمنذ أن تمكنت من تهجي القليل من الكلمات قدمت لى معلمتى لوحات من المقوّى مطبوع عليها بعض الكلمات بحروف بارزة ، وما أسرع ما عرفت بأن كل كلمة بارزة

كانت تدل على شيء من الأشياء ، فاستطعت بواسطة هذه اللوحات من تركيب بعض الجمل القصيرة من تلك الكلمات ، وهكذا مهدت لى الانتقال إلى الكتاب المطبوع ، فصرت أجد فيه لذة التنقيب عن الكلمات التى كنت أعرفها من قبل وأدرس فيه الكلمات الجديدة و بقيت على هذا حتى صرت أتقن القراءة جيداً .

ومرّ يوم من أيام الربيع فى عام ١٨٩٠ استطعت فيه أن أتكلم فكان يوماً مشهوداً مرّ فى تاريخ حياتى ، أخذت أصوّت فأضع إحدى يدىّ على حنجرتى ، والأخرى أعقب فيها حركات شفتىّ ثم أتفوّه بما قدرت عليه ، هذا وكنت أطرب لكل جسم يثير صوتا وأتوق إلى أن أشعر بهرير القط ونباح الكلب وأرغب فى أن أضع يدى على حنجرة كل إنسان متكلم علّنى أشاركه بما ينطق به .

وهنا وصلت إلينا معلمة أخرى اسمها الآنسة « سارة فولر » فوافقت على تدريبى على التكلم بالطريقة التالية :

كانت تحرك يدى بخفة على وجهها ، وتسعى فى أن تشعرنى بموضع لسانها وشفتيها عند ما يقوم بإحداث صوت من الأصوات ، فكنت أرغب فى تقليد كل حركة تولّدها ، وفى ساعة من الزمن مكّنتنى على أن أتلفظ ستة حروف من حروف الهجاء وهي :

( م . ب . ا . س . ت . ص . ج ) واستمرت فى تدريسها إياى حتى أكملت (١١) درساً فى أيام متفاوتة ، وإنى لا أنسى دهشتي وعظيم فرحي حينما نطقت بأول جملة متصلة وهي قولى « الجوّ دافئ » ، ومع اعترافى بأنها كانت جملة مفككة العرى وقد تلفظتها بصعوبة إلا أنها كانت على كل حال مرسلة من منطق إنسان .

ولا بد للطفل من أن يظهر عظيم سروره عندما يتلفظ كلماته الأولى وهكذا كنت أنا حيث أصبحت أناجي بكلامى الأحجار والأشجار والأطيار والحيوانات الأخرى وكنت أدعو أختى الصغيرة ( ملدريد ) فتسرع إلىّ مقبلة وتمتثل ما آمرها

به والحق أن هزة الفرح كانت تطغيني وأنا أعبّر عن خواطري بكلمات يشق عليها غالبا أن تنطلق بسهولة . »

ومن الواجب أن لا يتسرب إلى الذهن أن هيلين كيلر كانت قادرة على التكلم بصورة حسنة ، خلال هذه المدة الوجيزة فقد تعلمت النطق وهى لاتفهم سوى معلمتها أما بقية الناس فكانوا لا يقدرون على أن يتفهموا منها إلا بضعة من كل إذ كان من الصعب عليها إن تتلفظ بفصاحة لأنها — كما علمت — كانت تعتمد اعتمادا كليا على أصابعها أولا وعلى تتبع حركات شفاه المتكلمين ومعالم وجوههم ثانياً وكانت تقضى حينا غير قصير حتى تستطيع أن توافق صوتها لكلمة أو جملة مما تريد أن تنطق به .

وعلى هذا نشطت قواها الذهنية ونمت سريعا بعد أن استطاعت أن تنطق وأن تقرأ .

ولما أصبح في مقدورها أن تقرأ بدأت بمطالعة جميع الكتب التى كانت فى متناول اليد وصارت مغرمة بهـا إلى حد بعيد لأن الكتب كما ذكرت هى التى كانت تعرّفها بالموجودات التى حولها مما لم يكن فى مقدورها مشاهدتها فضلا عن كونها الرفيق الذى لايمل أو يسأم و إن أعادت ما فيها مرات ومرات .

ولما بلغت السن العشرين دخلت كلية ( راد كلف ) فقضت فيهـا سنوات أربع حتى حصلت على شهادة التخرج . أما هيلين كيلر اليوم فهى عضو فعّال فى زمرة المفكرات اللاتى يشغلهن أمر تنظيم المشاكل الخاصة بالحياة الجديدة .

# الفقر والضعف العقلي

« دعامتا الهدم البؤس في المجتمع الأنساني
منذ أقدم العصور حتى اليوم . »

الفقر من أشكل القضايا التى داهمت الإنسانية منذ أقدم العصور، ولقد سعى العالم فيما مضى لإيجاد علاج يبرىء به هذه العلة التى منى بها المجتمع ولكنه كان الفاشل دواما فى محاولاته وتجاربه ، ومع هذا فأنه لم يكف عن العمل فى هذا السبيل وهو إلى اليوم يواصل سعيه حتى يهتدى إلى ما ينشد .

إن فى كل عصر وفى كل بلد جماعات من التعساء لا يمكنهم أن يمدوا أنفسهم — جزاء ما اقترفت أيديهم أو أيدي غيرهم من الناس — بما يطلبون من كفاف العيش ليسدوا به رمقهم ، و إننا لمثل هذا الفريق من الناس الذى لا تعينه مكاسبه على أن يحتفظ لنفسه بمستوى المعيشة المتوسط أطلقنا كلمة « الفقير » ولكن ليس كل من يدعى الفقر بفقير إلا إذا بدأ عليه ما يظهر التخلّف التدريجي فى الصحة والنشاط كلما تقادمت عليه الأيام واشتدت عليه وطأة العوز والفاقة . ولا شك أن البعض من هؤلاء يتكل على الإعانة الفردية أو العامة فان كان كذلك فيدعى «شحاذا» أو «سائلا» . فالتسوّل إذن حالة اتكالية من قبل من يروم الإحسان من الأفراد أو المؤسسات الخيرية غير أن هناك آلافا كثيرة من الناس تعيش فى الفقر ولكنها غير سائلة وهى تكافح على طول الخط فتستطيع فى النهاية أن تعيش رغم أنها تعيش عيشة مرة وتقاسى آلام الحرمان الشديد ومع هذا لا تجرب أن تمد يدها للتسول والعطاء . وقد قدر عدد الذين يتّكلون جزءا أو كلا على الإعانات الفردية أو العامة فى الولايات المتحدة الأميركية بـ ٥ فى المائة والأرجح أن هذا العدد يفوق المعروف بوجود من لا يعلن فقره إذ يستمر فى الكفاح دون أن يطلب المعونة من الغير، و بناء على هذا تصبح نسبة الفقراء إلى مجموع السكان بـ ١٠ فى المائة تقريبا وهى نسبة لا تنكر أهميتها ولا يزدرى بخطرها . ولدى مقارنة هذا العدد بما فى الممالك الأخرى نجد أن هذه النسبة تتفق والواقع أيضا ولربما كانت نسبة المتسوّلين فى الممالك الأوربية أكثر بكثير مما هى فى أمريكا ،

وفى مدينة لندن تخمن نسبة الفقراء بـ ٣٠ فى المائة من الناس على أقل تقدير بينما تبلغ هذه النسبة فى مدينة نيويورك بـ ٢٥ فى المائة مع العلم أن الفقر أكثر انتشارا وشمولا فى المناطق الصناعية الكثيفة السكان مما هو فى المناطق الزراعية .

عوامل الفقر :

عوامل الفقر عديدة ومعقدة وفى الإمكان أن تحصر بصنفين رئيسيين :

١ — العوامل التى يمكن إرجاعها إلى الفرد .

٢ — العوامل التى تعود فى الأصل إلى البيئة التى يسكن فيها ذلك الفرد .

وبهذا يمكن تسميتها بالعوامل الشخصية والعوامل الإجتماعية .

أما العوامل الشخصية فتتلخص بما يأتى :

١ — المرض . ٢ — الطوارىء الحادثة .

٣ — الشيخوخة . ٤ — الإنحطاط الأخلاقى أو النفسى .

٥ — الحرمان . ٦ — الإدمان على المشروبات الروحية .

٧ — سوء التدبير . ٨ — الجهل .

ولعل المرض أهم هذه العوامل المذكورة إذا اعتبر كعامل مستقل، والإحصائيات التى تحتفظ بها ملاجيء الفقراء الخيرية تؤيد ذلك بكل وضوح فإن ربع مجموع الطلبات التى ترد إلى مثل هذه المؤسسات من الجهات المختلفة للحصول على المساعدات والأجور كلها تشير إلى أن المرض هو السبب الرئيسى المهيء للفقر . والطوارىء الحادثة التى تسلب الإنسان القدرة الوقتية أو الدائمية على القيام بأعمال منتجة كانت أيضاً فيما سبق عاملا مهماً للفقر غير أنها اليوم أخف وطأة من الأمس وذلك فى البلاد التى أدخلت نظم التأمين على حياة العمال . أما الشيخوخة فأمر لا بد من أن يصيب يوماً ما كل إنسان تريد أن تمده الطبيعة بعمر طويل والواقع أن هناك آلافاً مؤلفة من هؤلاء الشيوخ لا تستعد ليومها هذا ، وهى بمجموعها تكوّن صنفا من الناس أتعبه العمل المتواصل فى شبابه وخلّف أيام عجزه أو بعد وفاته عوائل

لا تجد أمامها شروى نقير لأنه لم يستطيع هـذا الصنف من الناس أو لم يرغب فى وقته فى التوفير أو الاقتصاد. وقد أخذت بعض البلدان الأوربية بالاهتمام فى شئون أمثال هذه العوائل فأسعفتها عن طريق أمدادها برواتب دعتها برواتب تقاعد العجزة. والحرمان عامل رابع من عوامل الفقر ونعنى به وفاة رب العائلة الذي يمونها بالمال والعيش و بفقدانه تترمل نساء وتتيتم أطفال ، وقد خف تأثير ذلك لمدى قصير فى بعض الأماكن بالترتيب القاضى بدفع رواتب تقاعدية للأرامل ولمدى أبعد باهتمام البعض ممن يريد أن يحتفظ بصيانة أفراد العائلة و يطمئن على حياتها من بعده وذلك بالتأمين على الحياة لدى إحدى شركات التأمين المعروفة.

أما الانحطاط الأخلاقى أو النفسى ( و يدعى بالخؤول أيضاً ) فأمر ذو بال فى مشكلة الفقر التى ندرسها. وهو عبارة عن وراثة الضعف العقلى أو الجسمى من الأبوبين أو من أسلافهما إلى الأولاد ،فقد ثبت أن الأفراد المصابين بالضعف العقلى يورثون غالباً هذا النقص إلى أطفالهم فينشأ هؤلاء ولديهم داء عقام لا يستطيعون التغلب عليه يصحبهم ماداموا فى قيد الحياة و يكون كحجر عثرة فى سبيل تقدمهم ونجاحهم ، والمقدّر أن نصف من يسكن الملاجىء العامة تقريباً هم من الأفراد الذين لا يملكون المستوى العقلى الاعتيادى . وقد أجريت دراسة دقيقة قبل عدة سنوات على إحدى العائلات المعروفة فى أمريكا لأربعة أجيال وهى الجد الأكبر والجد الأصغر والأبوان والأولاد فوجد أن (٥٠٠) فرد من بين (٧٠٠) فرد على أقل تقدير وهو مجموع أفراد هذه العائلة ابتداء من الجد الأكبر الذي كان مصابا بالخؤول أصبحوا كلهم ولو لوقت من الأوقات من المُستعطين للخيرات العامة . ومن المناسب أن نذكر هنا أن هذه العائلة كانت قد وهبت من أفرادها عدداً أكثر بكثير من النسبة المعينة إلى مختلف السجون ودور المجاذيب . ولا يبعد أن يرث بعض الأطفال فى مثل هذه العائلات شذوذا جسميا ظاهرا بدلا من الانحطاط العقلى أو يكتسبون هـذا الشذوذ فى أوائل حياتهم كخرس الصم أو العمى أو الكساح ونظير هؤلاء

كثيرون ممن نلتقى بهم فى الشوارع العامة أوفى الأزقة يتسولون أو يبيعون بعض الحلى أو لعب الأطفال أو يعزفون على بعض آلات الغناء كوسيلة للشحاذة . هـذا وقد دلت التجارب أن الإدمان على المشروبات الروحية من أقوى الأسباب المهيئة للفقر فى مختلف العصور غير أن الكحول من العوامل المهمة فى قضايا الفقر الذى يمكن أن يضبط أمره ويحكم زمامه من قبل المجتمع نفسه .

أما سوء التدبير والجهل والعادات السيئة والرذيلة فكلها أسباب تتباين بأهميتها ولكنها فى الأصل عوامل فعالة تدعو أصحابها للفقر إن لم يكن اليوم فغدا وهى أمور تظهر عادة فى الفرد من جراء نقص عقلى أو خلقى أو جسمي متأصل فيه أو مكتسب من محيط فاسد أو بيئة دنيئة .

أما العوامل الاجتماعية التى تبعث الفقر إلى الوجود فهى عديدة أيضا والبطالة إحدى هذه الأسباب وهى غالبا لا تحدث من الاخطاء الشخصية للعمال بل نتيجة نقص ظاهر فى نظمنا الصناعية فتخفيض رواتب العمال وبالأخص النساء والأولاد جرّ إلى الفقر لأن هذا التخفيض يعنى وضع هؤلاء العمال بحالة عجز لا يتمكنون فيها من تجهيز أنفسهم بالغـــذاء المطلوب وبهـذا لا يستطيعون أن يحافظوا على قواهم البدنية الاعتيادية ولا أن يوفروا المبـالغ الـكافية التى تعينهم أيام المرض والشيخوخة وعلى هذا يصبحون عالة على الملاجىء الخيرية العامة أو الملاجيء الفردية فى الحصول على الاعانات فى أوقات الشدة والضيق . والغاية من قانون الحد الأدنى للأجور ( الذى سنته بعض الممالك المتقدمة ) هى حماية المجتمع من الشرور التى تنجم مباشرة أو بصورة غير مباشرة من قلة الأجور .

والمعروف أن أحوال المعيشة غير الصحية والسكنى الرديئة والازدحام كلها أسباب تؤدّى لامحالة إلى الفقر، وهى أسباب اجتماعية لأن المجتمع هو الذى يبدعها ويسمح فى نمائها فالمعيشه غير الصحية تؤدى إلى المرض والمرض يدعو إلى البطالة

وهذه كلها من منتجات الفقر أيضا حيث يضطر الفقير وفقا لما تستدعيه نظمنا الاجتماعية والاقتصادية إلى الخضوع إليها والاستسلام لها من جراء فقره ، كما أن نقائص نظم التعليم عندنا وأهدافه زادت من الفقر بين الناس أكثر مما نتصوّر وليست أهمية ذلك بأقل من معرفتنا أن الفقر منتشر انتشارا فظيعا فى الممالك والأصقاع التى يطغيها الجهل وتسودها الأمية ، والتعليم الإجبارى من أفضل الوسائل التى استخدمها العالم المتمدن أخيرا لصد تيار الفقر وكبح جماحه وفى الإمكان إذن أن نقول بعد كل هذا أن أسباب الفقر عديدة لا يمكن إرجاعها برمتها إلى هفوات الإنسان وأخطائه فالمجتمع مسؤل عن بعضها أيضا بصورة عامة .

كيف تعالج مشكلة الفقر : لقد تغيّر الاتجاه العام فيما يخص مشكلة الفقر تغيرا ظاهرا مدة الخمسين سنة الماضية فقد كان ينظر إلى الفقر قبل هذا لعدة عصور كنتيجة خالصة إلى الجموح الإنسانى المتولد من أعماله الشخصية وعواطفه الثائرة وبهذا قيل أن الفقر يلزم أن يعمّر ما دامت هذه الطبيعة البشرية موجودة ومتأصلة ، ولذا كان من المسلّم عند الكل أن الفقراء يجب أن يكونوا فى كل وسط وفى كل مجتمع ومن العبث مقاومة الفقر بأية وسيلة تبتدع ؛ وكل ما كان يعمله الناس تجاه الأمر الواقع هو معاقبة الطيش وسوء التدبير بينما تقدم العطايا للفقراء المستحقين . وجميع الوسائل التى اتخذت من قبل معظم الحكومات والجمعيات فى مختلف الممالك الأوروبية والأمريكية حتى السنوات الأخيرة فى سبيل إعانة الفقراء كانت كلها مبنية على هذا الاتجاه فالإنسان الذى كان فى مقدوره العمل ولا يقدم عليه كان يعتبر من المتشردين وعلى هذا كان يؤخذ ويودع فى السجن ومن وجد فقيرا لمرض أو علة أو كبر السن أو الادمان أو غير ذلك من الأسباب الشخصية فإنه كان يؤخذ إلى بعض المؤسسات كالمستشفيات أو دور المقعدين والعجزة أو ملاجىء الإحسان أو دور المدمنين أوغيرها ، وكان الناس فى كل مكان يشجّعون على تقديم العطايا للفقراء والمعوزين ولم يكن ليخطر على بال أحد حتى الأيام الأخيرة أن يقوم بعمل اجتماعى

منظم ليمنع نمو الفقر ويوقف انتشاره إلا القليل القريب إلى العدم .

أما اليوم فالاتجاه ( وخصوصا اتجاه الطبقة المتنورة ) قد تغير أو هو فى طريق التغير ، فمن يدرس مشكلة الفقر بدقة ويتفهم أسبابها وطرق انتعاشها يجدها أمرا من الأمور التى هى من المستلزمات الضرورية للحياة المتمدنة كأمثالها من الأمور التى قضى عليها أو كاد كالقرصنة والرق والطاعون الدملى والادمان على شرب الكحول والحقيقة أن الفقر — شأن هذه — يمكن استئصال شأفته بالرغم من أن الوسائل المطلوبة للوصول إلى الغاية هى أشق وأعظم .

و بالطبع أن العلل الشخصية للفقر عاملة عملها فى كل حين ومكان ، والبشرية لا يمكن مثلا أن تفلت من الشيخوخة مطلقا فهى تصيب كل إنسان تقريبا إن لم يكن اليوم فغدا ومن الصعوبة أن نأمل مهما كانت الظروف التخلص من الأمراض والأوجاع والحوادث بصورة قطعية ؛ولكن أليس من الممكن على المجتمع أن يضعف بذور هذه الأسباب أو غيرها من الأسباب الاجتماعية كالبطالة مثلا حتى لا تنبت نباتا حسنا ولا تترعرع لتخلق من الفقر وحشا ضاريا لا نستطيع دفعه أو إبعاده . تلك هى نظرية هذا الاتجاه الجديد فى حل مشكلة الفقر . إن هذا الاتجاه سائر نحو العمل للوقاية من الفقر وهو لا يرى فى الإحسان والعطاء إلا المراوغة والكذب فى التعامل مع هذا الداء ويقول إن ذلك لا يختلف عن السعى فى القضاء على الأمراض الجسدية المعروفة وتخليص الإنسان منها بالعلاج بعد أن طغت وجه الأرض وأصابت أصقاعها النائية والدانية .

علاجات الفقر المؤقتة :

إن الحل المؤقت الوحيد لمشكلة الفقر هو إزالة الأسباب المذكورة آنفاً غير أن هذا لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهود جبّارة ولابد فى نفس الوقت من استعمال وسائل مختلفة من المسكّنات الآنيّة التى يجب أن تنجز من قبل السلطات والمؤسسات المختلفة . والمراقبة العامة التى ترمى إلى الاعتناء بالفقراء كعلاج مؤقت تتخذ شكلين

ظاهرين يعرفان بـ (١) المراقبة الداخلية و (٢) المراقبة الخارجية . ويقصد بالمراقبة «الداخلية» الاعتناء بالفقراء من قبل المؤسسات الحكومية والأهلية أوالبلدية وفيما مضى كان المتسولون على مختلف أنواعهم يحشدون فى ملاجىء الفقراء دون تفريق أما اليوم فقد سعت السياسة العملية إلى إنشاء مؤسسات متنوعة لهم : منها للمرضاء ومنها لأصحاب الشذوذ والضعف العقلى ومنها للعجزة والمقعدين ومنها ما يخص الأطفال فقط وفى كثير من الحكومات نجد فيما عدا ذلك مستشفيات خاصة لمثل هذه الأمراض بأدوارها المزمنة ودوراً للأيتام وملاجىء أو مدارس للعميان وغيرها .

أما «المراقبة الخارجية» فيقصد بها أسداء المعونة إلى بعض الفقراء وهم فى بيوتهم ، فالناس المحتاجون يطلبون من النظار على مثل هذه الأمور الإعانة اللازمة بعد إثبات عوزهم فيحصلون على القوت واللباس والوقود والأدوية التى هم بأمس الحاجة إليها وهذا هو كل ما عمل فيما مضى تدبيراً لهذه المشكلة إلا أن بعض المدن الكبيرة أزالت بالكلية هذه الطريقة عن عاتق الشعب لأنها شعرت بسوء استعمالات خطيرة تتأتى من ورائها وبدون أن تكون محكمة الإدارة فأنها تصبح أكبر مشجع للحيلة وتكلف مبالغ طائلة من أموال الشعب العامة وتتجه الرغبة اليوم إلى إلغاء هذا النوع من المراقبة واستبداله بمؤسسات خاصة تشرف على عملها إشرافاً تاماً .

وفيما عدا ذلك فإن المراقبة الخارجية تمنح هباتها دون تمييز وهذا يعطي المجال الواسع للتبذير والخداع ، فالكسالى من الناس يسعون كثيراً ليربحوا مكسباً طيباً فيقدّمون طلبات إلى مختلف المؤسسات للحصول على الإعانة الكافية وهم بعملهم هذا يفوزون بما يريدون من بضع مؤسسات ولإزالة هذا الخلل تشكلت فى بعض المدن الكبيرة الأوروبية والأميركية (جمعيات الإحسان) فأخذت على عاتقها تنظيم العمل تنظيما دقيقا ووسعت دوائرها بحيث أمكنها من ضبط ذلك بسجلات مرتبة وقدمت لموظفيها تعليمات يجرون بموجبها فى منح العطايا سواء أكانت فردية أو غير فردية .

العلاجات الدائمية :

لحل مشكلة الفقر حلاً دائمياً يلزم استعمال وسائل وقائية أشمل وأبعد أثراً مما ذكر سابقاً . إن بعض هذه الوسائل مستعملة فعلا فى الوقت الحاضر من قبل الحكومات المتقدمة وبعضها مقترح وعلى وشك التنفيذ لأنه مؤيد بقوة من قبل الرأى العام فى مثل هذه الحكومات ، والوسائل المستعملة الآن هى التأمين ضد المرض والحوادث واستخدام قانون الحد الأدنى للأجور ثم قانون أجور التقاعد للأرامل والعجزة وهذه القوانين أصبح لها عمل كبير فى بعض الأقطار الأوروبية ثم التأمين ضد البطالة وهذا و إن كان غير ضامن مجملا إلا أنه بتعديل نظام الصناعة لابد وأن يساعد على تخفيف وطأة البطالة الموجودة فى الوقت الحاضر . و إن منع تجارة المشروبات الروحية كان له الأثر الفعّال فى تقليل الفقر كما أن المدارس المهنية للعميان والصم والمقعدين كلها أصبحت دوراً لتدريب هؤلاء التعساء على بعض الأعمال المهنية ما يمكن أن يسّهل عليهم العيش بهناء ، وزيادة على ذلك فإن جميع أصحاب الشذوذ فى المؤسسات العامة أمكن بكل سهولة إيقاف ازدياد عددهم . وباستطاعتنا أن نمنع الازدحام والمعيشة غير الصحية بواسطة تخطيط المدن الحديثة وسن قوانين إنشاء الدور الراقية . ولكن هل يمكن يا ترى أن ينعدم الفقر بالكلية بتنفيذ كل ما مر من الوسائل ذاك ما نشك فيه فعلا غير أنه إذا نفذّت تلك الأمور بصرامة فإن درجة الفقر تنحط انحطاطاً بيّنا دون شك والأهم ، من كل هذا يجب أن ندرك دائماً وفى نفس الوقت مدى الخطر الذى ينشأ من تنفيذ القوانين والأنظمة التى من شأنها ترقية حالة الفقراء أكثر من اللزوم لأن ذلك يثقل كاهل الطبقات العاملة ويرهقها ولنعلم أن السعي في تضييق الثغرة بين الأغنياء والفقراء عن طريق جباية الضرائب الاختيارية فاشل ولا يزيد الفقراء فى النهاية إلا عناء فوق عنائهم. والمعروف أن علماء الاجتماع يذكرون عادة عن الفقر أنه علة اجتماعية ويؤكدون لنا بأنه كسائر الأمراض يمكن أن يقطع دابره ببعض العلاجات الناجعة . وهذا

صحيح ! غير أن الأمراض لا تستأصل شأفتها بالضرب على رؤوس الأصحاء حتى لا يكون لهم إلا ما قل من خير يصيب المرضاء وعليه لا يمكن إبادة الفقر بوسائل ترهق الموسرين لا لسبب إلا لكونهم أرفه حالا من الفقراء فالفقير لا يمكن جعله غنياً بطريقة بسيطة وهى جعل الغنى أفقر .

الشذوذ العقلى :

نرى من المناسب جداً أن نذكر صحبة موضوع مشكلة الفقر شيئاً موجزاً عن الشذوذ العقلى : أن للشذوذ العقلى أنواعاً ترتب ابتداءاً من الضعف العقلى البسيط حتى الجنون أو الاختلال العقلى الشديد ، ولقد أحصى عدد الأشخاص المصابين بالشذوذ العقلى على أنواعه فى الولايات المتحدة فكان مجموعهم يقرب من نصف مليون شخص أوشخص فى كل (٢٠٠) فرد من سكان البلاد المذكورة ، ولم تجر حتى السنوات الأخيرة أية محاولة للتفريق بين الأفراد المصابين بأنواع الاضطرابات العقلية فكانت تعالج جميعها بنفس الطريقة التى تتم بها معالجة بقية الأنواع ، وكان التدبير المعتاد لهذه الأمراض يتم بجمع أصحابه فى دار واسعة للمجاذيب بحيث يؤخذ المصابون بالجنون الشديد ويقيدون بكل تحفظ أما الأشخاص المصابون بالعته الخفيف غير المؤذى فكانوا يمنحون حرية أوسع . إن هذه الطريقة القحة للتعامل مع هؤلاء التعساء الذين هم بحاجة إلى معالجة طبية أكثر من حاجتهم إلى الحجز أو الحبس قد تركت بصورة مطلقة تقريباً فى كل مكان ومعالجة الشذوذ العقلى اليوم تسير وفقاً لطرق علمية حديثة وتشمل هذه الطرق العلمية تشخيص كل قضية على حدة ودراستها دراسة متقنة وابدال الحجز بالمعالجة الطبية وبنتيجة هذه الطرق أظهرت كثير من القضايا التحسن البيّن وفى بعض الأحيان الشفاء التام . ويجمل بنا أن نذكر هنا أن بعض أنواع الجنون لا يمكن شفاؤها مطلقاً بطرق المعالجة المعروفة فى الوقت الحاضر غير أنه يمكن إنقاص عدد من أصيب بالشذوذ العقلى بصورة مستمرة بأفضل طريقة وأضبطها وهى منع انتقال هذا الشذوذ عن طريق

الوراثة وذلك بالمعالجة الخاصة لهذه الأمراض العقلية فور ظهور الأعراض الأولى لها ، وبتحريم الإدمان على المشروبات الروحية وإبطال عادة استعمال المخدرات وهما أمران طالما ساعدا على انتشار الجنون بين من يعتاد أحدهما أو كليهما .

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية وهى زواج المعتوهين وأصحاب الشذوذ العقلى : إن هذا الزواج يجب أن يمنع منعاً باتاً إذ أن عاقبته وخيمة على المجتمع فهو لا يساعد إلا على املاء دور الفقراء والمجاذيب والسجون ، وهناك من يذهب فى مذهبه هذا إلى أبعد من ذلك فيرى وجوب توسيع سلطة الحكومة فى ضبط الزواج الذى يتم حتى بين الاصحاء أيضاً وأن تتخذ جميع الوسائل لتحسين وترفيه هذا الزواج إن تمّ بكل صورة ممكنة ، فالزواج بنظر هؤلاء ونظر العالم المتمدن أساس البيت وهو إذن أساس النظام الإجتماعى وهو المؤسسة ذات الأهمية الكبرى البعيدة الشأن فى إصلاح المجتمع فكيف إذن والحالة هذه أن يترك أمره لهوى الأفراد تتحكم فيه ميولهم الزائلة ورفقتهم الناشئة عن طريق الصدفة .

والواقع أنه كيفما كان الباعث على الزواج فإنه يمكن أن نقول بحق أن أكثر ما يجمع الرجل بالمرأة لايهب شيئاً لصالح المجتمع فى حاضره ومستقبله . أمن الصحيح إذن أن يترك أمر هذه المؤسسة الخطيرة التى يعود نفعها للجنس البشرى عامة فى يومه وغده إلى قانون بسيط اعتيادى أو إلى التقاليد أو إلى التصرف الفردى ؟ هل يمكن ترقية الجنس عن هذا السبيل ؟ وهل هناك أمر يجب الأخذ به هو أبعد أثراً فى إصلاح المجتمع من منع زواج أصحاب الشذوذ العقلى والمعتوهين ؟

# أهداف التربية والتعليم

« ولكنكم عبثا تحاولون أن تجعلوهم مثلكم . لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء ولا تلد لها الاقامة فى منزل الأمس » .

جبران خليل جبران

لا شك أن من السهل جدا تحديد بما يراد بأهداف التربية والتعليم فى بلد ما فهي لا تتعدى تدريب الناشئة تدريبا حسنا بحيث يمكّنها من المعيشة الصالحة فى الحياة . ولكن إزاء هذا الجواب لا نستطيع إلا أن نتطلب المزيد فنتحرى عن معنى ذلك بشيء من التفصيل لنفهم معنى المعيشة الصالحة وأسلوب هذا التدريب الذى يمكن أن يوصلنا إلى ما نرمى إليه .

وقبل الخوض فى صلب الموضوع نرى من الضرورى جدا أن نذكر شرطا أساسيا واحدا وهو : وجوب تنظيم المدارس بحيث تتفق جهودها وحاجات الحياة المتجددة ولو حدا بنا ذلك إلى قلب الكثير من مواد المنهج المقرر . فالمدارس القديمة مع مناهجها المحدودة وأساليبها البالية وخريجيها الفاشلين لا تستطيع أن تدرب الناشئة تدريبا يمكنها من المعيشة الصالحة فى المجتمع الحديث كما يجب ، وعلى هذا يلزم إجراء تبديلات أساسية فى مواد المنهج المدرسى وفى طرق التعليم حتى يصبح فى استطاعة هذه الناشئة أن تخوض معترك الحياة العملية بكل فلاح وفقا للظروف التى تتطلبها . ولكن علينا أن نتفق — قبل البدىء بهذا — على أهداف التعليم لأن هذه الأهداف هى بالحقيقة المقياس الوحيد الذى يمكننا أن نزن فيه مقدار التبدلات المقتضية . ولإيضاح ذلك نضرب المثل الآتى : قد يصادف أن يتجادل معلمان مدة طويلة عن أى الدرسين يجب أن يأخذ المكان الأول فى المنهج المدرسى أهو الألعاب الجمبازية أو الرياضة البدنية وهما إذا ما اتفقا فى بادىء الأمر على أن الصحة هى أسمى ما تصبو إليه التربية والتعليم حينئذ يتضح لهما بسهولة أن الرياضه البدنية تعنى بالصحة أكثر من أى نوع آخر من الألعاب فإننا عند ذاك نجدهما أقرب إلى الاتفاق منهما إلى الاختلاف .

و إن هذا لهو شأن العقلاء الذين يرمون إلى الاصلاح المنتج فهم لا يتسرعون للبحث فى الوسائل الإصلاحية عن موضوع ما إلّا و يوضّحون فى مستهل عملهم

الأهداف الرئيسية التى يرمون إليها و يسعون فى الاتفاق عليها ومن ثم يبحثون فى أصل الموضوع فيسردون أوجه الإصلاح التى ينشدونها على ضوء تلك الأهداف التى اتفق عليها ليروا عما إذا كانوا قريبين إليها أو بعيدين عنها فيسلكون عندئذ السبيل السوىّ .

و بعد هذه المقدمة نطرح أمام القارىء الكريم أهداف التربية والتعليم كما يراها أولو الشأن فى الموضوع ،ومع أننا سوف لا نطيل فى كل منها إلا أنها ولاشك ستطبع فى الذهن صورة جلية عن مرامى التربية والتعليم الجليلة والتى نفتقر لأكثرها إلى حد بعيد .

وهذه الأهداف هى مايلى :

١ — الصحة : وهى أول اهداف التربية والتعليم وقد يعد ذلك تطرّفا إن أعطيت إليها هذه المنزلة وخصوصامن قبل من اعتاد أن يعرف أن أول أهداف التربيةهو تعليم الناشئة أصول الكتابة والقراءة ، ولكن إن أريد أن تعيش هذه الناشئة بخير فهلا يكون الأفضل لها أن يعتنى بصحة أجسامها وأن تفهّم طرق الوقاية من الأمراض من أن تتعلم حتى القراءة والكتابة . وما الفائدة يا ترى من هذا التعليم إذا كان سيصبح هو نفسه من الأسباب التى ستؤدى بها إلى المرض أو الموت ؟ ومما هو جدير بالذكر أن نسبة معدل الوفيات بين الأطفال والناشئين فى الشرق الأدنى عالية جدا فلو اهتمت المدارس بهذه الغاية لهبطت هذه النسبة دون شك عما هي عليه إلى حد كبير .

إن اهتمام المدارس بالصحة تتجلى بالطرق الآتية :

١ — إن باستطاعة المدارس أن تعلّم أصول الصحة والفسلجة فى أى من صفوفها دون النظر إلى درجة هذه الصفوف فالتلامذة يجب أن يلمّوا بمبادىء هذا العلم فيعرفوا مثلا أن النظافة شرط رئيسى للصحة وأن الجراثيم تتكاثر فى الأقذار والأوساخ ، وعلى المعلمين أن يقوموا صباح كل يوم بالتفتيش عن نظافة طلابهم

وخصوصا نظافة الأوجه والآذان والأظافر ومن المستحسن أجبارهم آنيّا على الغسل إن كان لازما حتى يسّهلوا عليهم بعد تفهّم القواعد من اكتساب عادات صحية حسنة .

٢ — وباستطاعة المدارس أيضا أن تشجّع حركة الرياضة البدنية والألعاب المفيدة بين طلبتها وهذا يستلزم بالفعل أن يكون لكل منها ساحة فسيحة تستخدم لهذا الغرض . والواجب بعد هذا أن يخصص وقت معين كل أسبوع على الأقل يقوم فيه الطلاب بإشراف أحد المعلمين ببعض التمارين البدنية العامة ، وعلى إدارة المدرسة كذلك تشجيع السباقات المختلفة تشجيعا كافيا كل يوم بعد الدوام .

٣ — وباستطاعة المدارس كذلك أن تعتنى بين آن وآخر بالفحوص الطبية لطلابها ، وعلى هذا الأساس اعتمدت أكثر الجامعات على إجراء الفحص الطبى لمنتسبيها فى بداية كل سنة وذلك لعزل من يكون مصابا منهم بمرض معدى ومداواته قبل أن يستفحل شرّه أو يصيب أحدا غير صاحبه . والأجدر بمعلمى القرى ( وبالأخص فى المناطق التى ينتشر مرض التراخوما بين سكانها ) أن يقوموا صباح كل يوم بصورة جدية ودقيقة بمداواة عيون التلامذة بمحلول كبريتات النحاس بنسبته المعينة ، لأن المعروف عن هذا المرض السارى أنه يستمر وينمو حتى يعمي صاحبه إذا لم يكبت أو يوقف عند حده . إن هذا العمل هو من جملة ما يقوم به معلموا المدارس القروية فى غير هذه البلاد التى تكثر فى جهاتها إصابات هذا المرض الوبيل .

أليس إذن من المهم أن تستعد المدرسة لمحافظة عيون تلامذتها فى الوقت الذى ترشدهم فيه على كيفية الاستفادة منها أثناء القراءة والكتابة ؟

٢ — قيادة العمليات الأساسية : إن الهدف الثانى من التربية والتعليم الذى كان له المقام الأسمى فى الزمن الماضى هو جعل الولد قادرا على قيادة العمليات الأساسية وهى التكلم والقراءة والكتابة وقواعد الحساب . إن هذه العمليات لا تخفى أهميتها

فى حياة الناشئة الاجتماعية بحيث يغنينا ذلك عن بيان الأسباب فى وجوب تدريسها وتعليمها للصغار وخصوصا وقد اتفق الكل على هذه الغاية بصورة مطلقة . ونحن إذا ما خضنا فى البحث عن هذا الهدف نجد أنفسنا أمام عدة مسائل معقدة : — فما هى اللغة التى يجب أن يتعلمها الطفل حتى يتكلم ويكتب ويقرأ وهل يكفيه لهذا الغرض لغة واحدة أو لغتان أو أكثر من ذلك ففى سوريا مثلا تعتنى بعض المدارس بتدريس خمس لغات لكافة طلبتها على اختلافهم بحيث لا تستطيع أن تدرس فيها عداها من علوم . وحتى إذا تعلم الطفل اللغة العربية بمفردها فكم من الوقت يجب أن يصرف لتعلم اللغة الأدبية التى قلما يستعملها أبناء القرى فى حياتهم أو كم من الوقت يجب أن يصرف فى تعلم اللغة العامية . ومع أن هذه اللغة الأخيرة لها اعتبار ضئيل بالنسبة للأولى ولكن أليس لها كل الفائدة العملية فى المعيشة القروية الصالحة .

وهناك أمر آخر فى هذا الموضوع له أهميته الخطيرة : فالمعروف أن كل أمة من الأمم تنفق على مؤسساتها التعليمية مبالغ معلومة من ميزانيتها السنوية فإذا كان الحال كذلك فهل الأصلح أن تصرف هذه المبالغ على أساس ١٠٠/ من عدد الأطفال الذين هم فى السن المدرسى لمدة عشر سنوات تعليمية أو أن يعطى للأطفال جميعهم دون استثناء سنة تعليمية واحدة ، وقد صادف غالباً أن كانت المبالغ غير كافيه لأن تصرف على جميع الأطفال حتى يحصلوا على التعليم الكافى وعندئذ يتحتم علينا أن نلم بطرفى المشكلة ؛ فهل يكون الأفضل حينئذ أن يمنح جميع الأطفال مقدار من التعليم أو يقتصر على البعض منهم لتزويدهم بدرجة كافية من التعليم ؟ ولكن هل ياترى ستقوم هذه الفئة من السكان بواجبها بعد استفادتها من التعليم الكافى تجاه مصلحة المجموع فيصبح أعضاؤها زعماء الوطن الجادّين لعمل الخير أو أنهم سوف لا يقتنعون بحياتهم البسيطة فيها جرون إلى المدن الكبيرة ويستخدمون ثقافتهم التعليمية لمنافعهم الذاتية . وحتى إذا قررت تلك الأمة انتخاب عدد قليل من الطلاب

لإدخالهم فى مؤسساتها التعليمية فمن هم الطلاب الذين سيشملهم هـذا الإنتخاب وهل يجب أن يكونوا فقط من أبناء الأغنياء الذين فى مقدورهم دفع الأجور المدرسية ولو فرضنا أن الأمة تحيا حياة ديمقراطية بحيث يتساوى فى الانتخاب الفقير والغنى من سكانها على السواء فإننا مع هـذا سوف لا نجد المحلات الكافية فى المدارس لجميع المقبولين من الطلاب . وعلى هـذا الأساس وجب فى النهاية قبول البعض وإبعاد البعض الآخر .

إن فحوص الذكاء جديرة بالاعتبار فى هذا الشأن وذلك لغرض انتقاء الطلبة ذوى الاستعداد العقلى المتين والكفاءة الطبيعة وإدخالهم فى مؤسسات التعليم المختلفة . ولعل الاسترشاد بالطريقة التى تتم أحيانا في بعض الجهات وهى أخـذ الأطفال للتدريب مدة ثم انتخاب الأذكياء منهم بعد انتهائهـا لإرسالهم حيث يستطيعون إكمال التحصيل المدرسى هى ذات فائدة جليلة أيضا .

إن كل أمة لا تتبع فى سياستهـا حرية التعليم العام يجب أن تجرى طريقة الانتخاب فى قبول التلاميذ إلى مؤسساتها التعليمية على اختلافها بشرط الإشراف عليها من قبل هيئة نزيهة تميل بها إلى حيث تصبح فى صالح المجتمع دون سواه .

٣ — الحرفة :

إن الهدف الثالث الذى يصبو إليه التعليم والتربية هو تدريب الناشئة على حرفة يزاولها كل منهم بعد تخرجه للكسب والمعيشة . إن العمليات الأساسية التى ذكرت آنفا يمكن الانتفاع منها فى جميع الحرف على أنواعها غير أنها لا تكفى فابن الفلاح القروى يلزم أن يتعلم بالإضافة إليهـا شيئا عن أساليب الزراعة الحديثة كما أن ولد التاجر أو الصانع يجب أن يدرّب فى مدرسة تجارية أو صناعية كيفما كان الحال فيتعلم التجارة أو النجارة أو الخياطة أو السباكة أو الميكانيك أو غير ذلك من الصنايع والفنون . أما التعليم العالى و يضمنه الكليات التحضيرية والجامعات

فيلزم أن تكون في متناول اليد للطلبة البارزين الذين يرمون الشخص بإحدى المهن المعروفة كالطب والقانون والإدارة .

إن المدارس الاعتيادية فى الشرق الأدنى على اختلاف أنواعها حكومية أو أهلية أو أجنبية تهتم عادة بالعمليات الأساسية مع تدريس القليل من التاريخ والجغرافية ومبادىء العلوم وتعطى بجانب ذلك لمحة مختصرة عن فوائد الحرف .

وهنا نقدم وصفا لابتكارين جديرين بالاعتبار يجرى تطبيقهما في بعض المدارس لنبيّن كيفية تنفيذ هذا الهدف الحرفى فى التعليم :

١ — سعت بعض بلدان الشرق العربى قبل حين فى إدخال دروس الزراعة العملية فى مناهج المدارس القروية بعد أن وجد أن تسعة أعشار المتخرجين منها يشتغلون بالفلاحة .

ولتنفيذ ذلك بصور متقنة استحصلت الحكومة على أرض ذات سعة معينة في كل قرية وألحقتها كبساتين أو حدائق بالمدرسة التى فيها ثم أخذت — بمساعدة مراقب زراعى خاص — على تدريب أولاد هذه القرى على الأعمال الزراعية التى تلائم حاجات كل منطقة منها ففى إحدى المناطق يدرب الطلاب على تربية دودة الحرير وفى أخرى تزرع الخضرات وفى ثالثة منها تزرع الحبوب وكافة الأقسام بصورة تدرّب عامة تدريباً عمليا على القواعد الرئيسية لعلم الزراعة كطريقة انتخاب البذور وكيفية إجراء عمليات التلقيح وكيفية تناوب المحاصيل أو الغلة وأساليب الرىّ الحديثة . أما معلموا هذه المدارس فيعطى لكل منهم الفرص الكافية لدرس هذه الأبحاث فى مدرسة زراعية قبل أن يقوم بتدريب طلابه عليها فى المدرسة القروية .

٢ — والمشروع الثانى المستعمل لغرض تنفيذ هذا الهدف التعليمى نجده فى مدرسة ( صيدا ) للبنات التى تشرف عليها الإرسالية الأميركية . فقد اتضح لمعلمات هذه المدرسة أن طالباتهن لايستطعن الإستفادة فى الحياة العملية من دروس

الفيزياء والهندسة والجبر وغيرها من الدروس المعينة فى مناهج مدارس البنين التى تستحضر خريجيها للدخول فى الكليات ، وذلك لأن كافة متخرجات هذه المدرسة بصورة عامة يتزوجن و يصرفن باقى حياتهن فى البيوت كزوجات وأمهات فإذن وجب أن يكون البيت وأعماله ومستلزماته وحاجاته هو الحرفة الأساسية التى يجب أن يتدرب عليها البنات ، وهكذا قام المعلمات فى ترتيب المنهج وفقاً لهذه الحاجات فوزعن البنات فى دور مستقلة فأصاب كل دار ( ١٢ ) بنتا ثم عينت وجائب كل دار فصارت تقوم بعملها الذاتى كالطبخ والتنظيف والخياطة والرياضة وغيرها بحيث تأخذ كل بنت دورها فى كل وظيفة من هذه الوظائف .

أما فى الصفوف فيتعلمن بالإضافة إلى العمليات الأساسية طرق الطبخ والتغذى وكيفية عمل ميزانية البيت وضبط حساباته وتفصيل الملابس مع الكثير من وسائل تزيين داخلية البيت وغيرها من مباحث البستنة والفسلجة والصحة وسكلجة الطفل . و إننا لنجد فى هذه المدرسة مشروعا فذا لتكييف التعليم النسوى وفقا لحاجات الأنثى الأساسية فى مملكة متقدمة .

٤ — عضوية البيت الصالحة :

ولما كان البيت وحدة الأمة والمجتمع فالواجب على المدرسة أن تتعاون والبيت على تدريب الطفل تدريباً يرشده إلى أن يكون عضواً صالحا فى العائلة ، فكيف تقوم المدرسة بواجبها تجاه هذا الهدف ؟

١ — فالمدرسة تفتح أعين طلابها بتأثير الإدراك الأدبى والعلمي إلى الكثير من المحاسن فيرى كل منهم مثلا دوراً غير داره فيتخيل منظر المثل الأعلى للدار وبتأثير مطالعته فى كتب اللغة أو غيرها مما يعثر عليها فى ساعات فراغه بين كتب المكتبة قد يصادف التلميذ أثناءها مناظر متنوعة للدور التى تفضّل داره وجوه عدة : من حيث الطراز والنسق والجمال وغيرها ، كل ذلك مما يبعث فيه الشعور بإنماء الرغبة لتحسين داره على غرارها .

٢ — والمدرسة تخلق فى كثير من الأطفال الجرأة على مشاركة أوليائهم فى البيت بما حصلوا عليه من التعليم . ففى الغالب يصل الأطفال إلى بيوتهم فيخبروا والديهم بما تعلّموه فى المدرسة وليس ببعيد أن يتعلم هؤلاء من أبنائهم أحيانا أمورا يجهلونها وكمثل لذلك نورد مايلى : سعت المدارس المصرية قبل مدة فى تعليم طلابها الصغار الحقيقة الآتية وهى : «أن شرب ماء الخنادق والأخاديد مضر بالصحة وإن مياه المضخات هى أفضل وآمن» فتحاملت العامة على هذا بأن قالت أن شرب مياه المضخات يسبّب ضعف الحيوية التناسيلة . وهنا جاء دور هؤلاء الطلبة فتناقش الولدان والوالدون وأخذوا بمقاومة هذا التحامل الخطىء حتى تغلبوا عليه . وأن يتعلّم الطلاب طرق انتشار بعوض الملاريا فإنهم يدفعون عوائلهم بالإرشاد والمعاونة على دفن المستنقعات إن وجدت حول المساكن منعا لتفريخ البعوض وتكاثره فيها .

٣ — ولا يقتصر تعليم طلاب المدارس على كيفية تحسين معيشتهم البيتية فى أحوالهم الحاضرة بل يدفع بكثير منهم إلى أن ينشئوا فى مستقبل أيامهم بيوتا أفضل وذلك عندما يصبحون على رأس عوائل جديدة فعليهم أن يستعدوا على كل حال لمهنة الأبوة أو الأمومة كيفما اتفق وهم إذا مانالوا حضا من التعليم العالى يجب عليهم أن يدرسوا سكلجة الطفل بحيث يتفهموا مبادىء هذا العلم وأصوله مما يساعدهم على تربية أطفالهم تربية زمامها العلم وقائدها الحب وهى تربية التوجيه الإيجابى وليست تربية الضرب والتخويف .

٥ — العضوية المدنية الصالحة :

إن من واجب كل مدرسة أن تستهدف الغاية السليمة لخلق الإخلاص والحب نحو الوطن فى كل تلميذ من تلامذتها وكذلك بث الشعور الحىّ نحو المسئولية الإجتماعية . فكيف يتم ذلك ؟

قبل كل شىء يجب أن يكون هناك لغة عامة ونظام مدرسي موحّد يسيره مواطنون لا أجانب . ولا شك أن قراءة الأناشيد الوطنية الحماسيّة ودراسة التاريخ

الوطنى وتعشّق عن أبطال المملكة ورجالها المؤسّسين لمجدها التليد كلها عوامل مساعدة لخلق الإخلاص المتين السامى فى نفوس الناشئة . وإذا أريد مع هذا إنماء الشعور الحىّ فى المسئولية الإجتماعية فمن الضروري تعليم الأطفال الشىء الكثير عن الحكومة وأعمالها وقضاياها ومشاكلها والمعروف الآن أن دراسة علم الإجتماع يساعد مساعدة كلّية فى تنشأة مواطنين من الطلبة أشد رصانة ومتانة فى الأخلاق ، غير أن معرفة أصول هذا العلم واكتساب المعلومات الضافية عن كيفية الإنتخابات وطرق جباية الضرائب وما يأمله الناس من موظفى الحكومة تجاه وجائبهم وغيرها من أبحاث هذا العلم كل ذلك غير كاف لإحياء عقلية مواطن إجتماعية ولكنها على كل حال المرحلة الأولى من المعلومات . أما المرحلة الثانية فهى العاطفة والروح وذلك باستفزاز كل ما فى الطالب من عاطفة لجلبه إلى حضيرة الإيمان : الإيمان الصادق بمبدأ صحيح لا يعتوره شك ولا اعوجاج يندفع فيه لأخذ دوره فيما بعد للعمل فى كل ما يجعل حكومة بلاده أكثر تقدماً وفلاحاً . إن هذا ولا شك لهو الشعور الحىّ فى المسئولية الإجتماعية . ولا تأمل أن تجد فى الممالك التى يشعر فيها مواطنوها بهذا الشعور أناساً ينتظرون من حكومتهم أن تقوم لهم بعمل كل شىء ، إذ طالما سعوا بالمساهمة فى الخدمة فهم مثلا يشكّلون فرقاً كشافية من الأولاد للإشراف على أطفال الشوارع وردعهم من ارتكاب الجرائم التى يساقون من أجلها إلى السجون وبذا يعينون بعملهم هذا رجال الشرطة ودوائر المحاكم أو أنهم يقومون بجمع المبالغ لفتح المدارس وإنشاء المستشفيات أو غيرها من المؤسسات العامة أو مساعدتها إن كانت عاجزة لتسير إلى الأمام فى جهودها وذلك بدلا من أن يقبعوا فى زوايا الدور أو المقاهى وليس لهم من عمل سوى تحريك الألسنة وإنزال اللوم على الحكومة لأنها قصّرت فى بعض وجائبها .

٦ — الإستفادة الحقة من أوقات الفراغ :

لا شك أن التقدم الصناعى له أثره المحسوس بتقليل ساعات العمل الإعتيادية

لكل جيل بالنسبة إلى الجيل الذى تقدمه ، فبينما كان العامل فيما سلف يشتغل طول يومه إذا به اليوم يقتصر على معدل ثمانى ساعات فى النهار الواحد ، وهذا مايطيل بالطبع من أوقات الفراغ . ومما لا جدال فيه أن الفرد يكون عرضة للسوء والضرر إن بقى خاملا وقد يشقى إن لم يعرف ماذا يعمل ونحن كلما أخذنا باتباع الطريقة الغربية وهى الحصول على أوقات فراغ أكثر أصبحت قضية الإستفادة الحقة منها أكثر أهمية وأشد خطورة . وعلى هذا كان لزاما على المدارس أن تعوّد الناشئة على النزهة الكاملة حتى لا تضيع أوقات فراغها هباء .

والآن تعال معي أيها القارىء الكريم لأدلّك على ماهية هذه النزهة الكاملة فى الشرق الأدنى اليوم فهي لا تتعدى الجلوس فى المقاهى وقتل الوقت فى السهرات والتدخين والمحادثة بما لا طائل تحته واللهو وهو ما لا يثمر ولا يعود بالنفع على صاحبه .

إن فى مقدور المدارس أن تخلق فى طلبتها الرغبة فى الألعاب والرياضة التى تجعل أوقات فراغ المتخرجين فيها أكثر حيوية مدى حياتهم أو أن تخلق من الأفراد غواة بأن تشجع فيهم الميل لبعض المناظر أو الأعمال أثناء الحياة المدرسية وذلك كجمع الطوابع أو الضرب على إحدى الآلات الموسيقية أو التمثيل أو الحفر على الخشب أو البستنة أو غير ذلك من أنواع التتبع العلمى أو الأدبى أو الفنى . وما الأعمال اللامنهجية التى تختطها المدارس والجامعات إلا فرص للطالب حتى يخوضها فيخلق لنفسه عادات من شأنها أن تجعله أقوى فى الإستفادة من أوقات فراغه . ولعل أعظم منحة تهبها المدارس لطلابها هى حب المطالعة والمدرسة التى تحيى هذه الرغبة فى منتسبيها بحيث يقبلون على مطالعة الكتب القيّمة غير المقررة للتدريس بكل سرور ويستمرون على ذلك بعد تخرّجهم فيها هى والله من أعظم المدارس الناجحة فى العالم ، وذلك لأن الفرد الذى يندفع إلى عالم الكتب والتأليف ويكون مسروراً بهذا الإندفاع يقدّم لنفسه فرصاً غالية لا تعد ولا تحصى ، فهو ينمو عقلياً كلما

طالع ودرس ويوجد لنفسه منبعاً فياضاً للسرور فى جميع أوقات فراغه على مدى الحياة ولعله يفوز فى النهاية بأشرف أشكال النزهة المعروفة فى العالم .

٧ — الخلق الأدبى :

وعلى المدرسة أن لا تستهدف فى تربيتها وتعليمها إنماء أدمغة الطلبة وتقف عند حدها هذا بل عليها أن تتغلغل فتربى الأخلاق أيضاً .

ومما لا شك فيه أن ممالك الشرق الأدنى بحاجة قصوى إلى رجال متعلمين للقيادة والزعامة ولكن هى بحاجة أشد إلى رجال ذوى أخلاق أدبية رصينة كالأمانة والإستقامة والنزاهة و إنكار الذات والإنكباب على العمل الجدّى النافع ، وهى أخلاق نحن معاشر الشرقيين بحاجة إليها كحاجتنا إلى الفطنة والمهارة والمعرفة . والآن لنرى كيف يمكن لمثل هذه الصفات أن تربّى بواسطة المدرسة التى تعتقد بضرورة استهداف هذه الغاية الأدبية .

١ — إن بعض المدارس تجرّب ذلك بتدريس المعلومات الأخلاقية والدينية ففى مثل هذه الدروس يجب أن تدرس الفروض الأخلاقية وتشرّب روحيات الأبطال الأدبية وزعماء الدين فى نفوس الطلبة ، ولكن بدون أن تكون شخصية المعلم ممتازة ومؤمنة بما تقول تصبح أمثال هذه الدروس غير نافعة بل خطرة ولا تكون باعثة للوحى الخلقى المطلوب و إذن فتمسى فاشلة فى أثارة نفوس الطلاب إلى الإندفاع إلى العيش الأدبى الجميل .

٢ — وسبيل آخر للوصول إلى هذه الغاية هو الذى يتم عن طريق المحاضرات والمحادثات فى الصفوف وبالأخص فى الدروس الإجتماعية حيث يؤكد المتكلمون باستمرار ولكن من جهات وأطراف مختلفة على الناحية المثلى للحياة الأدبية . ومع ظننا أن الكثير من ذلك قد لا يوحى المطلوب ولكن لا يستبعد أن يثير فى طالب أو بضعة طلاب ما يجرّبهم إلى العيش الطيب بشكل من الأشكال .

٣ — إن بعض المدارس وبالأخص إذا كانت ذات أقسام داخلية بحيث

تستطيع مراقبة طلابها مدة ٢٤ ساعة يومياً تعتمد كثيراً فى تهذيب العادات على ما تقدّمه لهم من دروس عملية ، ففى مثل هذه الأقسام يؤكّد على السلوك الحسن أثناء الجلوس على المائدة وفى قاعات المحاضرات ومن جراء إنصاف الزميل لزميله فى غرف السكنى و إلى غير ذلك مما له علاقة متينة بالآداب والأخلاق .

٤ — على أن المؤثّر الأعظم فى هذا الشأن والذى يظهر بالأخص فى المدارس الرفيعة هو شخصية المعلم ، فالمدير والمعلم هما من أكبر العوامل فى دفع الطالب أو عدم دفعه إلى المعيشة الصالحة . ومن الصعوبة بمكان أن تحصل كل مدرسة على معلمين يمكنهم أن يكونوا أبطالا لطلابهم بكل معنى الكلمة . والمرجح أن من أقوى المؤثرات في بناء الأخلاق الرصينة فى حياة المدارس اليوم هو الحركة الكشافيّة إذ لها أبعد الأثر فى نفوس طلاب المدارس من الوجهة التهذيبية والخلقية من أى أمر آخر ومما يبرر دعوة هذه الحركة إنها انتشرت فى بحر الأربعين سنة الأخيرة منذ أن تأسست فى كل ممالك العالم تقريباً ولها ملايين المنتمين من الشبان وتتضمن قوانينها ونظمها وأعمالها بما يعود بأفضل الفوائد على المنتسبين إليها من الطلاب من حيث إنماء الأخلاق والمثل العليا فى النفوس .

٨ — التفاهم الدولى :

وهذا هو هدف آخر يرمى إليه التعليم و يقصد بذلك إحياء شعور الطلبة الذين سيصبحون فيما بعد مواطنين فى مملكة ما من ناحية التفاهم الأممي . ولما كانت جميع الأمم فى العالم تعتمد على بعضها البعض ولو لحد ما ولها علاقات متينة فيما بينها لذا فواجب كل أمة تطلب النجاح فى سياستها الخارجية العامة أن تتفهم حقيقة غيرها من الأمم وعلاقة بعضها ببعض على شرط أن تتم الوحدة القومية قبل كل هذا ، وللوصول إلى هذه الغاية تهتم بعض الكليات بتدريس العلاقات الدولية فى أقسامها كما أن المدارس الثانوية تدرّس غالباً مباحث التاريخ العام الذى لا يقتصر الكلام فيه عن مملكة واحدة .

ومن المعروف أن لزيارة جماعات الطلبة لبعض الممالك أثره الفعال فى تقوية العلاقات الدولية بين الطرفين حيث أن اختلاط الطلبة الجامعيين من مختلف الممالك مع بعضهم البعض وينشىء بينهم صداقة متينة تحيا فى بعض الاوقات على طول الزمن وبذا تصبح وسيلة خطيرة للوصول إلى الغاية المنشودة فى تقوية العلاقات الدولية أحياناً .

والخلاصة من كل هذا الموضوع هى ما يلى :

ليس من الضرورى أن تكون الغايات المعدودات التى ذكرت آنفاً هى كل الأهداف المطلوبة من التربية والتعليم أو أفضلها ولكننا ذكرناها بقائمة نموذجية لا نريد بها إلا أن نستفز المطالع إلى التفكير فى هذا الموضوع الحيوى ولعل هذه القائمة تبين مستوى عالياً جداً أو أنها تظهر مستوى أعلى بكثير مما يمكن تطبيقه فى أى مملكة من ممالك الشرق الأدنى ولكن مما لا جدال فيه أن النظام التعليمى فى أى مملكة تصبو للتقدم يرتقى كلما استمرت هى فى كفاحها لقبول المثل العليا فى المناهج المدرسية ، وعلى كل فالواجب يحتم الإتفاق على أهداف التعليم قبل الأقدام على أى إصلاح منشود فى هذه المناهج .

# الصحافة والرأي العام

«ما أضعف الإنسان وحيداً وما أقواه
حداً متضامناً» .

ارسطاطاليس

## الرأى العام :

لا يخلو حديثنا اليومي من ذكر عبارة « الرأى العام » فنرددها عندما نريد تكوين رأى عام لإحدى الشخصيات المعلومة تمهيداً لترشيحه نائباً أو رئيساً لإحدى الجمعيات الوطنية أو الجمعيات الرياضية ، ومع أنا نكثر من استعمال هذه العبارة فى معظم الأحيان إلا أن البعض يجهل معناها الحقيقى الذى وضعت له .

اعتبر فلاسفة الإقتصاد والسياسة الأقدمون الإنسان بأنه ذات عاقلة مساقة بالأنانية وهو فى الأصل مخلوق تطغيه الإدعاءات والإفتراضات إلى حد بعيد وتتحكم فيه أقوى الدوافع وأشدها ، والواقع أن علم النفس الحديث ( بعد تجارب مستمرة ) ساعد على دراسة الجنس البشرى من وجوه أخرى مختلفة وكان عونا لنا على تأييد ما ذهبنا إليه فى الحكم على هذا المخلوق . ولا ينكران نسبة الآراء المستحدثة لما هو مقتبس ومدوّن زهيدة جداً فالذى يعود إلى نتاجنا الإدراكى من أعمالنا المتنوعة يعد بالنسبة إلى ما أنتجته الأجيال نزر ضئيل فحرىّ إذن والحالة هذه أن تسائل نفسك كيف توصلت إلى الأمور التى بنيت منها رأيك وأن تعرف الشاهد والسامع والحاصى والمتكلم ممن اشترك فى تفهم تلك الأمور : أكان هو الرجل الذى أوصل إليك الخبر أو هو الذى أوصل الخبر إليه أو غيرهما ممن بعد عنه هذا وذاك ؟ وأنظر ما سعة المجال الذى منى به عند المشاهدة أو متى أخبرك المخبر بأن انكلترا عازمة على كذا وكذا ، واسأله أى جزء من بلاد بريطانيا العظمي استطاع مراقبته حتى كان قادراً على أن يلم بذلك الخبر ، ثم حقق عن مكانه حين المراقبة أى انكليزى استطاع مشافهته بالأمر وأى الصحف طالعها وماهى مصادر أخبارها ، نعم فى إمكانك أن تسائل نفسك بكل هذا ولكنى أخبرك من الآن بأنك تعجز عن الإجابة فى أكثر الأحايين وإذن فاعرف أن الشقة بين رأيك والحادثة التى تقرأ عنها بعيدة وبعيدة جداً وقد أردت تذكيرك فانتبه .

والحقيقة أن الرأى العام الصادق يلزم أن يكون حكما عاما فى قضية يعود أمرها لصالح الجمهور بعد تمحيص عقلى شامل ، والرأى العام الذى يحسن أن نطبق عليه هذه العبارة فى الأوساط الدمقراطية يجب أن يكون عاماً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ولعل الأكثرية تمسى غير كافية إلا إذا كانت الأقلية تجاه هـذا الرأى قانعة بمضمونه لا عن خوف وقلق بل عن رضى وطمأنينة وإذا كانت الدمقراطية تامة فخضوع الأقلية لهذا الرأى العام يلزم أن لا يحمّل قلوبها أى ضغينة أو حقد .

ولا يفوتنا أن الرأى العام لايقتصر وجوده فى الأوساط السياسية والإقتصادية فحسب بل أنه يتغلغل فى كل من معتقداتنا الدينية وأعمالنا اليومية . هذا هو تاريخ الأديان شاهد على أن غالب العقائد والمذاهب وراثية يدلى بها الوالد إلى ولده والأم إلى ابنها فيتقبلها كل منهما حسب ما تمليه عليه سلطة الأبوين والمعلم . وإذا اختط كل إنسان نهجاً فى معتقداته دون أثر لمؤثر فقد يمكن أن تتضائل الإختلافات بين الأديان وتتقارب حدود بعضها لبعض كما حصل فعلا فى سويسرا بين الكاثوليك والبروتستانت خصوصا وإن جوهر الأديان واحد والمعبود خالق لاشريك له ، ولـكن ألا تظن أن ذلك من الصعوبة بمكان ؟

إن هذه النتائج لا تعود إلى عوامل وراثية فى نطفة الإنسان من شأنها أن تجعل الطفل مستعداً لاكتساب عقيدة أسلافه ولـكنها اكتسابية محصورة فى البيئة ، ونكتفى الآن بمثل محسوس عن الانكشارية التركية تلك القوة العسكرية الهائلة التى اختارها السلاطين العثمانيين لتكون سلاحالهم . اختار السلاطين هذه القوة من نخبة ممتازة من الشبان المسيحيين الذين أخذوا صغاراً من بيوت أوليائهم وعندما سبوا اعتنقوا الديانة الإسـلامية ومع أنهم ثاروا ضد ملوكهم مرات بنتيجة العسف والظلم لـكنهم لم يظهروا أى ميل بالمروق عن الإسلام والارتداد إلى المسيحية دين آبائهم وأجدادهم . والقاعدة العامة فى هذه الصدد هى إن معظم الناس فى كل ملة يشايع عقيدتها لا على أساس معلوم إلا لـكونه يمتّ الى تلك الملة بصلة .

كيف نكوّن الرأى العام :

هناك طرق عدة نستطيع بها خلق رأى عام منها أن نعرض على الجمهور ما يثير عنده الحماس والطموح ، أو نميت فيه ما لا نريد بالحكم الأوتقراطى أو القوة المطلقة ؛ أو نستخدم ألسنة الخطباء للتنديد بالنقص والشرور والإرشاد إلى طرق الإصلاح ولكن كل هذه الأساليب لاتعلو على قوة تأثير الصحافة والتأليف فالكتب لها وقع بعيد فى توجيه أفكار الجمهور إلى جهة خاصة والمجلات تساعد كثيراً على تنشئة رأى عام حول موضوع معين ، أما الصحف اليومية فبما لها من قوة التغلغل فى مختلف الأوساط الإجتماعية تصبح فى الواقع الدعامة القوية والركن المعول عليه فى هذا المضمار.

أهداف الصحافة :

لا شك إن الهدف الأول الذى ترمى إليه الصحافة هو نشر الأخبار . ولكن أى الأخبار يراد من الصحافة نشرها ؟ يقول الصحفى المشهور « و . ح . بلير » : الأخبار هى كل ما يهم جمعا من الناس وأفضلها ما عاد بأعظم الفائدة لأكبر عدد ممكن من الجمهور .

ولكن ما الفائدة التى يتوخاها الجمهور من معرفة الأخبار؟ لا ريب أن الفائدة منها هي الإطلاع على ماجريات الحوادث فى العالم القريب والبعيد ، فنحن نريد أن نعلم ما تتخذه دوائرنا الرسمية من إجراءات فى سبيل النفع العام ونريد أن نسمع عما يعترض انجازها من عقبات ونود أن نتفهم ما يشغل جيراننا وأصدقائنا من أمور ونطلب أن نعرف كل ماله صلة بحياتنا الإجتماعية وعلينا أن نسمع ذلك فور حدوثه ما استطعنا الى ذلك سبيلا، والى هذا نحت الصحافة منذ البداية وعلى هذا السبيل سارت.

يقضى الكاتب أشهراً فى تأليف كتاب واحد ويصرف الناشر أشهراً أخرى حتى ينجز طبعه بينما يكون فى مقدور إحدى الصحف الكبرى فى العالم أن تذيع الشىء الكثير من مختلف المواضيع العلمية منها أو غير العلمية فى مختلف الأوساط وفى أقصر وقت ممكن و إلى أبعد مدى يعجز كتاب المؤلف عن نيله .

إن الصحافة لا يقتصر عملها على نشر حوادث طواها التاريخ بين دفات الكتب بل على عاتقها واجب أعظم هو التأثير على رأى الجمهور فيما تبحث وتخط وما المقالات الإفتتاحية بقلم المحرر إلا رأى كان قد تفشى وذاع خبره بين العامة وفيه من اللباقة ما يرجو فيه توجيه الأفكار الى جهات خاصة كما أن الحروف الملونة أو البارزة التى تستعمل بين حين وآخر هى فى الواقع إحدى الأساليب المعروفة لألفات نظر الجمهور الى ماتعنى عندمطالعتها ، وكثيراً ما كان تفوق المواضيع غير المهمة سببا فى التأثير المطلوب فى رأى الجمهور . وخلاصة القول أن الصحافة قد أصبحت اليوم لا تكتفى بتقديم الأخبار وسرد الحوادث بل أنها خطت خطوة أبعد من ذلك فصارت تتحكم بزمام الناس فتسوقهم بعد تكوين رأي عام لما تريد و إلى حيث تشتهى .

كيف تدار الصحيفة :

إن اللازم على إدارة الصحيفة هو أن تجمع كل ما يمكن الحصول عليه من أخبار وأن تحتفظ بها جديدة حتى يحين وقت إذاعتها، وعليها تنسيقها والاعتناء بلغة كل مقال منها ثم طبعها ونشرها بأقصر وقت ممكن ، وهذا والحق يقال عمل شاق جداً يحتاج إلى المال والرجال . تصوّر وضع مؤسسة جريدة الأوقات النيويوركية فهى بنايتها الجبارة تحتضن آلاف العمال والمستخدمين كل قد اختص بعمل أوكل إليه ويعلم أنه إذا تأخر عن أدائه كما يرام أعاق قسما عظيما من زملائه عن واجباتهم . والحقيقة أن الصحافة فى عصرنا الحاضر تعد من الفنون المنظّمة التى تستهلك جهوداً غير يسيرة .

إن إدارة الصحيفة ترتكز على ثلاث دعائم من العمل ( ١ ) قسم التحرير ( ٢ ) قسم الأشغال ( ٣ ) القسم الميكانيكى . أما القسم الأول فهوأهم هذه الأقسام الثلاثة وأن القائمين بشؤونه هم الأصل في تسيير الدفة وتعيين سياسة الصحيفة العامة وإليهم يرجع الفضل فى إيجاد العلاقة بين الصحيفة والجمهور .

فى كل دائرة من دوائر الصحف العالمية الكبرى رئيس عام للتحرير يرأس جميع شعب التحرير الأخرى كشعبة مدير التحرير وشعبة رئيس التحرير المحلى ، خذ مثلاً صحيفة الأوقات المسماة ( انديانابولس تايمس ) The Indianapolis Times والتى هى صحيفة واحدة من مجموعة من الصحف التى تنشر فى مختلف ممالك الولايات المتحدة الأميركية تجد أن السياسة العامة لهذه الصحف تقرّر فى مركز واحد فإذا قرر رئيس التحرير العام أو صاحب هذه الصحف بأجمعها أن يؤيد أحد المرشّحين لإحدى وظائف الدولة الكبرى أملى إرادته برقياً إلى جميع مديرى التحرير فى مراكز الصحف الأخرى التابعة إليه بلزوم إعداد ما يقتضى من المقالات ونشرها على صفحات جرائدهم فى اليوم التالى ، وعلى هذا يطلب مدير التحرير حالا من مرؤوسيه تحضير المقالات اللازمة وبعد تهيئتها ومراجعتها يخصص لها المحل اللائق على صفحات الجريدة فتظهر جميعها فى مختلف الأنحاء مؤيّدة ومناصرة للشخص المذكور وبعد هذا تأمل مقدار تأثير مثل هذه الصحيفة على تكوين رأى عام لمهمة من المهمات فى مدة وجيزة والصحف الصغيرة التى تدار من قبل فرد واحد يكون لها نفس التأثير ولكن بدرجة أضعف وأقل .

وإذا كانت القضية خاصة بنفس المدينة فيقوم بالأمر رئيس التحرير المحلى : ولنفرض أن المسألة تدور حول إنشاء بناية لمدرسة جديدة على أساس جمع التبرعات من قبل الأهلين هنا يقوم مدير قسم التحرير الخاص بأخبار المدارس بالتنقيب عن المدن التى كانت قد أنشأت مثل هذه البناية ويدقق السبل التى اتبعت لجمع المال فيطبق ذلك على الحالة الراهنة ويقدم لرئيسه جميع معلوماته المفيدة للمشروع حيث يضيف إليها المدير ما يشاء ويعدّها للطبع ويكون قد سعى ليحتفظ للصحيفة القوة والحيوية فى إثارة حميّة الجمهور لإنشاء المدرسة الجديدة وتكوين رأى عام يعاضدها ويساندها . أوردنا فيما ذكرنا مثالا بارزاً عمّا تفعله الصحف العالمية المنظمة التى قامت بأعمالها فى حقول فعالة منتجة فهى لا تمس موضوعا من المواضيع إلا على

أساس ما توحيه التجارب السالفة ، والتنظيم فيها على غاية ما يتصوره الإنسان و إن رئيس التحرير العام يشرف على جميع الشعب بكل دقة وسهولة .

تأثير الصحافة :

أشرنا فيما مضى إلى قوة تأثير الصحافة وهنا نتبسط فى شرح ذلك التأثير فى بلادواسعة يبلغ سكانها الملايين من البشر: لنفرض أن الصحيفة يشارك فيها مايقرب من الـ ( ٥٠٠ ) ألف نسمة من الناس كما هو الحال فعلا مع أمهات الصحف فى عواصم العالم الكبرى وبالاستطاعة أن نقدّر بدون مبالغة أن خمسة أو ستة أضعاف هذا العدد يقوم بمطالعة الصحيفة المذكورة وعلى هذا الأساس يكون لدينا جمع من الناس بقدر سكان العراق يطالع الصحيفة يوميا فتصور مقدار التأثير المنبعث من بين سطور هذه الصحيفة على الناس . إنه لهائل حقا وأنه يسوق الرأي العام حيث يشاء !

ولا يفوتنك أن الصحافة فى الحقيقة تخدم جميع مرافق المجتمع ومصالحه فهذه الصحيفة المسماة : (ديترويت نيوز) The Detroit News التى تصدر فى مشيغن فى الولايات المتحدة الأميركية نشرت فى بعض أعدادها في القرن التاسع عشر الميلادى اقتراحا لمشروع أدى تنفيذه إلى إبدال الجزيرة المدعوة ( هوج إيلند ) Hog Island المهملة إلى متنزه يدعى اليوم ( بارك بيلى إيل ) Belle Isle Park والذي يضرب المثل بجماله وحسن تنسيقه فى جميع أنحاء المعمورة .

وهذه صحيفة ( كنساس ستى ستار The Kansas city Star ) بعد بحث طويل فى فن الزراعة قامت به بضع سنوات إستملكت بقعة من الأرض تبلغ مساحتها ( ١٨٠٠ فدان ) قرب مدينة كنساس وأحالتها إلى مزرعة أنموذجية تساعدها فى حل بعض معضلات فن الزراعة . أما صحيفة (برمنكهام نيوز ) The Birmingham news فتقوم سنويا بنفقات خمسة تلاميذ من المتفوقين فى الامتحانات لا كمال الدراسة فى إحدى الجامعات الوطنية وهى تمنح خمسمائة دولار فى السنة لكل

واحد منهم . وصحيفة ( انديانا بولس تايمس ) المذكورة سابقا قامت بحملة عنيفة ضد إحدى الجمعيات السرّية الإرهابية تدعى ( كوكلكس كلان ) Ko Klux Klan فسعت فى إبعاد رجالها خارج ولاية أنديانا وزجّت رئيسها فى السجن طيلة حياته ولذا نالت أسمى الجوائز الخاصة بأفضل خدمات الصحافة نظرا إلى عملها هذا . وبهذه الروح السامية المتمثلة فى أمثال هؤلاء الصحفيين الأمناء تستطيع الصحافة غالبا أن تصبح أعظم قوة فعالة لتكوين رأى عام صالح فى المجتمع .

تبويب الأخبار :

و بإعطاء نوع من المواضيع درجة التفوق على مواضيع أخرى تكتب عادة بحروف صغيرة فى أركان غير بيّنة من الصحيفة تستطيع هذه أن تخلق جوا ملائما من الرأى العام لبعض المشاريع أو الأعمال ، وهذا ما نلاحظه فعلا فى صحفنا اليومية التي تملأ مواضعها السياسية عامة الصحيفة . لنفرض أنه قد زيد على ما يكتب من مواضيع فى الاقتصاد فى صحيفة مامن ٣ عقود إلى ٢٥ عقدا أفلا تظن أن ذلك مما يسبب زيادة اهتمام الناس بالاقتصاديات وهكذا الحال إن اتبعنا الأمر فى نواحى أخرى من دينية أو عمرانية أو إدارية . إذن فنوع المادة التى تهتم بها الصحيفة لابد وأن تؤثر فى الجمهور و تقوده إليه مرغما .

العقبات فى سبيل الصحيفة :

مهما كان للصحيفة من قوة جبّارة وتأثير فى الرأى العام فإن أمامها عراقيل قد لا تكون بسيطة فى حد ذاتها .

(أولاها) : عدم عرض الحقائق كما ينبغى. لنفرض أن هناك فرقة تمثيل أجنبية عزمت على القدوم إلى العراق للاشتغال على إحدى المراسح المعروفة فى العاصمة فالصحف تنشر خبر قدوم هذه الفرقة وواحدة منها تضيف على خبر القدوم « — وقد بلغنا أن الفرقة القادمة هى أقل من المتوسط ولا تستحق المشاهدة ». لا شك أن هذه الكلمات لا تقع من الجمهور موقعا حسنا وكذلك لا يستحسنها أعضاء الفرقة وقد يجوز أن يكون الخبر صحيحاً ولكن من المحتمل أن يكون رأيا

لفرد من الأفراد كان الأجدر بالصحيفة أن تهمل الإشارة إليه وتتريث حتى تتأكد بالتجربة من صحة الأمر وعندها تذيع الحقيقة .

( وثانيها ) : نشر مواضيع و بيانات غير موثوق بها وهو ما يحدث ويا للأسف فى أغلب الأحايين إذ طالما نشرت الصحف أخبار صحيحة ومغلوطة حول الجامعة العراقية فمما ذكرته إحدى الصحف بهذه المناسبة ( أن الحكومة العراقية دعت الحكومات المجاورة لإرسال ممثلين من قبلها لحضور حفلة الافتتاح ) وقد ظهر بعد ذلك أن الحكومة العراقية لم تنشر أى بيان فى هذا الشأن ولا دعت أحداً للإشتراك فى الإحتفال الموهوم .

( وثالثها ) : استعمال الكلمات بمحلها اللائق لتؤدي المعنى المطلوب . فالمجهول بالحقيقة يوصف إلينا بالكلمات فيجب أن تعطى هذه الكلمات صورة كاملة أقرب إلى الواقع . واللغة ليست الواسطة التامة لأعطاء المعنى فالكلمات كالعملة تدور من هنا لهناك لتظهر اليوم صورة أنكرتها يوم أمس ويمكن أن نذكر نظريا فقط أنه إذا جاز أن نعيّن لكل مطلب إسماً خاصاً لا يتعدّاه معترفا به من قبل جميع الناس لأمكن إزالة سوء التفاهم فى المراسلات بصورة قطعية ، ونجد ما يقرب من ذلك فى العلوم المضبوطة كالرياضيات مثلا وهذا سبب واحد من الأسباب التى دعت أن تصبح الفحوص والتدقيقات العلمية من أعظم المؤثرات فى جميع مناحى الحياة العملية .

والإنسان بطبعه يحكم زمام قليل من الكلمات هى أقل بكثير مما يعن له من آراء يريد التعبير عنها ، وكما يقولون أن اللغة قاموس لصور باهتة فالصحافى الذى يخاطب نصف مليون قارىء معظمهم فى القرى النائية والمدن البعيدة من قارات لدنيا عليه أن لا يرجو من عباراته المختصرة أن يحمل إليهم كل المعانى التى يرمى إليها . ورئيس وزارة بريطانيا العظمى الذى يكلم العالم أجمع باللغة الإنكليزية لا يتفوه إلا بمنطقه الخاص ليحمل به معانيه الذاتية إلى من يسمعه أو يقرأه من مختلف الناس وهم بدورهم لا يحيطون من خطابه إلا بما يرون فى كلماته من معانيهم وكيفما تصرف بدهائه وحذقه ليصوّر ما يقول نراه بعد الجهد والنصب أنه يكلم أدمغة غريبة عنه .

و إن ملايين الناس من الذين يترقّبون مطالعة خطابه فى الصحف لا يمكنهم قراءة كلماته أصلا، وملايين أخرى إن عرفت كلماته فلا تستطيع أن تفهم معانيها ومن أولئك الذين فى مقدورهم أن يقرأوا ويفهموا ( ولنفرض أنهم يكونون ثلاثة أرباع هذه الوحدة ) ليس لهم وقتا للمطالعة سوى نصف ساعة يوميا، وهم فى هذه الفترة القصيرة لا يحصلون على آراء قيمة من صلب الموضوع إلا إشارة وتلميحا، ولا نخطىء إذا قلنا أنهم فى النهاية يبنون على هذا التلميح نتائج غير مرتبطة أو مقصودة بالمقال أبدا . و بطبيعة الحال نجد أن الآراء التى تكونت بنتيجة الكلمات المؤثرة تصبح القسم الأعظم من المدلولات الرئيسية لآرائنا فكيف بنا والعالم واسع والحالات التى تهمنا فيه معقدة والشىء الذى يصل إلينا ضئيل جداً ولا بد للمخيّلة أن تطبع على صفحاتها هياكل الآراء .

أما الإعلانات فإنها مبالغ بها كثيراً إلى درجة أنها تعد كذبا صريحاً، ولكن ما العمل ونحن نعيش فى عصر الإعلان ؟ فالإعلانات عن أنواع السكاير وعن الأدوية والعقاقير الطبية وعن السينما والراديو وغير ذلك من مئات الأشياء النافعة تعرض عليك يومياً على صفحات الصحيفة وفى التقويم السنوى وغير ذلك من الإعلانات اليدوية وقد تجدها فى الشوارع ، فالإعلان فن يهب من يدرك سره أرباحاً طائلة وهو فى أحط أشكاله ملفتا للنظر مرهفا للسمع محركا للعواطف

ولكن أتدرى أن الصحف لا تعتمد فى أرباحها على المشاركة بل إلى الإعلان وهى تتسابق فى ذلك لتزيد فى مدى انتشار الصحيفة بتخفيض سعر النسخة الواحدة، والواقع أن مدير الصحيفة كلما أمعن فى ذلك قل اعتناؤه فى محتويات جريدته فلا يهتم بانتقاء أرقى المواضيع وأمتن المقالات وأصح وأضبط الأخبار ويمسي همه الأكبر افتتان الجمهور و إذن فالقارىء مفتتن مغبون .

وأخيراً فإن أهمية الصحافة فى نشر الثقافة من الواجب الإعتراف به وخدمتها فى بث المدنية لا تقدّر بثمن و بهذا تتطلّب من الكتاب والمحررين أن ينفضوا التعصب والأثرة والطمع وعليهم أن يتمسكوا بالإنصاف والعدل .

# الوطنية الصادقة

« خطاب ألقاه باتريق هنرى سنة ١٧٧٥
فى البرلمان الأمريكى قبيل نشوب الحرب
الأمريكية الإنكليزية وكان عاملاً مهمّا
فى إشعال نار الحرب التى حرّرت الولايات
المتحدة من نير الاستعباد الممقوت . »

سادتى :

لا أظن أن هناك أحداً مثلى من يؤمن بوطنية وإخلاص السادة الذين اعتلوا الآن منبر الخطابة فى المجلس . غير أن الرجال تتفاوت وجهات أنظارهم فى الرأى الواحد ، وعليه فإنى اذ أقف لأدلى إليكم بما لا يتفق وما ذكروه وأسمعكم غير الذى أسمعوكم إياه فكلى أمل فى أن ذلك سوف لا يحمل على محمل الإزدراء أو عدم الإحترام لأشخاصهم . ولقد عزمت على تبيان فكرتى بكل حرية فالوقت لا يسمح لتقديم فروض التبجيل والتعظيم .

سادتى : إن المسألة المعروضة أمام مجلسكم الموقر فى هذه الآونة هي بلاشك ذات خطر كبير بالنسبة لهذه المملكة ، أما أنا فأعدها بحق موضوع الحرية أو موضوع العبودية ، وبالنسبة إلى خطورتها علينا أن نفسح المجال الواسع لحرية البحث والمناقشة وبهذا يمكننا الوصول إلى الحقيقة الراهنة لنقوم بالمسئولية الكبرى التى حمّلها إيانا الوطن والخالق . فهل يجب علىّ بعد هذا أن أكتم عنكم ما عنّ لى فى وقت كهذا بكل إسهاب إذن لعددت نفسي مجرماً أمام الوطن وآثما أمام الإله الذى أبجله وأقدّسه أكثر من جميع ملوك الأرض .

إن من طبيعة الإنسان — يا حضرة الرئيس — الإنغماس فى أوهام الأمل وهذا هو شأننا الآن إذ نعرض كبرياءاً وجهلاً ولا نلتفت إلى الحقيقة المرّة فبينما نرهف بآذاننا إلى سماع أنغام الغادة الجميلة نعرض عن سماع الأنين والزفرات فهل هذا هو شأن الرجال الذين يناضلون لنيل الحرية . عجبا أكنا معدودين من أولئك الذين وهبهم الله عيوناً وأذاناً ولكنهم لا يبصرون ولا يسمعون تخليصاً لأنفسهم من الأسر !

إما أنا فنفسى ساعية مهما لقيت فى سبيل جهادها من عذاب واصب لمعرفة الحقيقة بحذافيرها وأتلمّس كوامن النقص وأقف عن كل ذلك مدافعاً .

لى مصباح واحد أهتدى بنوره وذاك هو مصباح الإختبارات ، ولقد علمتنى هذه أن لا سبيل إلى الحكم على المستقبل إلا عن طريق الماضى وبتحكيم الماضى أريد أن أعلم حال سياسة الوزارة البريطانية مدة السنوات العشر التى تصرمت ، وعند ذاك فقط يمكن أن نؤيّد أو ننكر ما ذهب إليه السادة الكرام من آمال أرادوا بها تعزية أنفسهم والمجلس معا . هل هى تلك الإبتسامة العذبة الكاذبة التى منى بها طلبنا أخيرا؟ ! لا ! لا تثق بها يا سيدى ! فتلك لم تكن إلا أحبولة لإيقاعك فيها وإذن لا تخدع نفسك بتلك القبلة الباردة وأنتم فاسألوا أنفسكم هل تتفق تلك التحضيرات الحربية التى غطت مياهنا وطغت على أراضينا مع ما قوبل به طلبنا المقدس . أترون أن الأساطيل والجيوش ضرورية لعمل حبى أو إصلاحى؟ إن هو إلا عنادنا فى الرفض هو الذى دفع بتلك القوة الجبارة لا كتساب عطفنا ومحبتنا للمرة الثانية .

لا ليست هذه ولا تلك ! إذن علينا أن لا نخدع أنفسنا يا سيدى ، فليست كل هذه التجهيزات الحربية إلا للقهر والإستعباد وهى آخر ما يميل إليه الملوك لحسم المناظرة وإثبات البرهان .

ولأسأل حضرات الأعضاء ما تعنى تلك الاجراءات الحربية إذا لم يكن هدفها هو قهرنا على الخضوع ، هل يمكن للسادة تعيين باعث آخر لها ؟ أم هل بريطانيا العظمى عدوّ فى هذه الجهات من العالم لتحشد ضده كل هذه الأساطيل والجيوش ؟ كلا يا سيدى ! فليس لها شىء من ذلك قط وأؤكد لك أن الأمر لا يعدونا فقد جاءت لتقيّدنا بالسلاسل التى صاغتها لنا الوزارة البريطانية منذ زمن بعيد . فماهى استعداداتنا ياترى لمجابهتها ؟ هل نسعى فى المفاوضات ؟ لا أظن ذلك مفيداً يا سيدي فقد سعينا فى ذلك الأمر خلال العشر سنين الماضية . وفشلنا اليوم ألدينا شىء نضيفه إلى ما سبق ؟ كلا لا أظن ذلك ! إذ قد بسطنا الموضوع من كل وجهاته الممكنة وعبثاً جنيناً من الجميع . فهل نعود عندئذ فنلتجىء إلى الالتماس

والتضرع الحقيرين ؟ وماهى يا ترى العبارات أو النصوص التى سنسمعها منهم والتى لم تفرغ جعبتهم منها حتى الآن ؟

إذن التماساً منك يا سيدى دعنا نتبيّن الحقيقة خالصين ولانخدع أنفسنا أكثر من هذا بعد أن عملنا كل ما كان فى مقدورنا عمله لإبعاد هذه العاصفة التى ستهب علينا وشيكا ، فقدمنا مذكرتنا وطلبنا وتوسّلنا وطرحنا أنفسنا أمام العرش متضرعين راجين توسطه لإيقاف أيدى البرلمان والوزارة الظالمة عند حدها ، فما رأينا من جانب العرش إلا الاستهانة بمطالبنا والازدياد فى العنف والشدة تجاه احتجاجاتنا والإهمال بتضرعاتنا والإزدراء بنفوسنا والاستحقار بنا مع التهكم اللاذع .

إذن فمن العبث أن نعكف بعد كل ذلك على حب الأمل فى السلام وتسوية الحقوق فلا نور للأمل تبعثه كل هذه الحوادث .

وإذا عزمنا على صيانة امتيازاتنا المقدسة التى كنا ولم نزل فى نزاع طويل للحصول عليها ! إذا أردنا أن لا نكف بدناءة عن الجهاد الشريف الذى لم نزل مشغولين فيه والذى قد قطعنا له عهداً متيناً على نفوسنا للحصول على هدفنا المجيد ! فما علينا إذن إلا أن نقاتل فالقتال هو الذى أدعو إليه يا سيدى — القتال والدعوة إلى السلاح ولا شىء غير هذا للشعب والوطن

يجنون علينا يا سيدى بقولهم أننا ضعفاء لا يمكننا مجابهة خصم عنيد قوىّ كهذا فمتى إذن سنصبح أقوياء ؟

أفى الأسبوع القادم أو فى العام المقبل ؟ أيكون ذلك بعد أن نصبح عزلا من السلاح ونرى بأعيننا الحراس البريطانيين كل قد احتل بيتاً وأصبح موكلا بحراسته ؟

هل سنجمع القوة بالتردد والحيرة والسكون أم سنكتب أسباب المقاومة الفعالة بالغفلة محتفظين طيف الأمل الباطل ؟ إذن لنقف فقد أتى العدو لشد أرجلنا وأيدينا بوثاقه الحديدى الصارم .

نحن لسنا ضعفاء يا سيدى ! إذا تمكنا من استعمال ما وهبه الله لنا وما منحته

الطبيعة فينا من أسباب وقوى، وإذا كان هناك ثلاثة ملايين من الرجال مسلحين ينشدون الحرية والإستقلال فليس ببعيد أن نرى كل مملكة مثل التى لنا حريزة تجاه أية قوة مهما عظمت يستطيع العدوّ من تسييرها ضدنا .

وفيما عدا ذلك — فاننا سوف لا نقاتل وحدنا فى المعركة بل سيبعث الإله الرب العادل المشرف على مصير كل شعب من شعوب العالم أنصاراً لمساعدتنا فى ميادين الحرب .

والمعارك لم تخلق يا سيدى للقوى فقط بل للمتيقظ الجسور والأبىّ وزيادة على ذلك أننا يا حضرة الرئيس لا نملك حق الانتخاب وعلى ذلك يصعب علينا الانسحاب من الميدان فى هذه الآونة المتأخرة فلا تقهقر إلا بالخضوع والعبودية إذ أن قيودنا قد صيغت وصليلها يرن الآن فى سهول بوستن ، وإذن فلا مناص من الحرب وأسمعونى من جديد : لا بد من الحرب ومن إشعالها ومن العبث أن نميت العزائم كما يسعى فى ذلك بعض الأعضاء بترديدهم السلام السلام .

وليعلم هؤلاء أن لا سلام هناك وأن الحرب قد شبّت فعلا والعاصفة الهابة من الشمال ستسمعنا قرقعة الأسلحة وصليل الحديد ودوىّ المدافع .

إذن كفاكم ! فإخواننا ينتظروننا فى الميدان . فلماذا تقفون هنا كالأصنام لا تتحرّكون ؟ ماذا تطلبون أيها السادة — غير الشرف والعز ؟

عجبا أرأيتم الحياة ثمينة فاستذوقتها أرواحكم أم شعرتم بعذوبة السلام فاشتهتها نفوسكم لتقتنيها بأثمان القيود والاستسلام . ادفع عنا ذلك أيها الرب الرحيم

و بعد أن علمتم كل هذا و بعد أن أدركتم الحق لا أعرف أى السبل ستتبعون أما أنا فامنحونى أحد اثنين الحرية أو الموت .

# إمام ينادى بالنصير الى الجنة

«والأنبياء هم أمثلة الكمال الإنسانى
فى هذه الخليقة ، تنصبهم يد الله عن
طريق الحياة لتنتهى فيهم عصور
وتبتدئ بهم عصور وليسددوا خطا
العقل فى تاريخه .»

الرافعى

هذا ابن حيدرة !

حيدرة وصيّ الرسول الأمين .

وأول مؤمن بالدعوة إلى الحق .

وصاحب القلب الملهم .

وذو الإيمان الرصين .

بالذات العلوية مبدعة الأكوان .

---

هذا ابن حيدرة الأمام !

كان مثل أبيه وجدّه .

عبقريا من الأفذاذ .

وفذّا من العباقرة .

سار والهدي يحدوه .

برأس يلتهب ذكاء وألمعية .

و بنفس طافحة بالصدق والعزيمة .

ولـكن لأىّ شىء سار ؟

لقد سار إلى بناء الأمجاد الإنسانية الخالدة .

حتى يضع بيده الكريمة حجراً فوق الأحجار .

بعد أن يضم الناس إليه في صف واحد .

و يشدّهم إلى بعضهم شدّا وثيقاً .

و يجمعهم كافة تحت راية العزّ الخافقة .

راية الإسلام الصريح المسعد .

ثم يندفع بهم إلى الأمام .

يفتحون الأقطار و يجوبون الأمصار .

وهم يرتلون أنشودة الحق .

الحق فى القول والحق فى العمل .

تلك الأنشودة الملائكية الخالدة .

---

هذا ابن حيدرة .

سليل حيدرة العرنين .

وذاك رجل ولا كالرجال .

حمل الأمانة فصانها .

ووهب الحكمة فأبانها .

رجل لم يتبذّل ولا كان من المفتونين .

أولئك الذين آثروا العصيان والجموح .

وشقوا على الوصيّة عصا الطاعة .

وراحوا يثيرون فى الأمة .

النزوات النتنة .

والأثرات الشرهة .

إلى أن وافاهم الأجل غير مأسوف عليهم .

---

أولئك هم شراذم الأفّاكين .

وجماعة الأوباش السفّاكين .

الذين أبوا إلاّ أن يصرعوهما فى الميدان .

فكانت جولة الأب مديدة أخّاذة .

شدّت على القوم الخناق .

واستبسلت غير حائرة أو وانية .

حتى جاءوه بالكيد والخديعة .

---

وقضوا عليه بالسم والدسيسة .

وما دروا أنهم يميتون أنفسهم وهم لا يشعرون .

---

واليوم عثروا على ابنه العزيز .

المعروف بسيد شباب أهل الجنة .

ذاك هو الحسين بن حيدرة .

بلى أنه ابن حيدرة بالذات .

وابن بنت الرسول الكريم .

وقد عرفوه فعلا وتعرّفوا إليه .

وسمعوا قوله وأدركوا كلامه .

ووعوا نداءه .

إنه ينادى بالنصير إلى الجنة .

ساعات وساعات .

ثم أيام وأيام .

ثم أعوام وأعوام .

ولا زال ينادى بنا و بهم و بكل نصير إلى الجنة.

النصير فى معركة الحق والباطل .

فى نضال الخير والشر .

فى حرب النور والظلام

فى صراع العلم والجهل .

---

أنصتوا إليه من ههنا .

أرهفوا بآذانكم مليًّا .

تحسّسوا النداء الصريح الهامس .

أيها الناس ! لابد أنكم سامعون .

---

كانوا من الطغاة السفلة .

الذين عاشوا فى الحرص والطمع .

وتدنّسوا بالشهوة والعار .

وغلبوا بالخزى والهوى .

ثم ماتوا بالفقر والدنى والآثام .

وتلك قد أشبعتهم ما يكفى .

من عذاب بئيس وحسرة نابية .

---

ولقد حاصروه فى بقعة ضيّقة من الأرض .

وأسرعوا إليه كالذئاب الضارية .

وزحفوا نحوه كالأفاعى السامّة .

تريد الافتراس والتقطيع .

ثم انهالت عليه كالوحوش عاوية .

وهجمت عن أنياب مكشّرة لاوية .

ومع هذا فقد عجزت عن نيل ما تريد .

حتى جاءوه بالكيد والحيلة .

إذ حبسوا عليه وعلى من معه الماء .

وتركوه صريع العطش والظمأ .

ثم داروا دورتهم وقضوا عليه .

وما دَرَوْا أنهم يميتون أنفسهم وهم لا يشعرون .

---

عجباً أينقلب الإنسان إلى مثل هذا الحال !

فيقف فى عمر قصير ضئيل .

ليدفع عن نفسه وعن أهله الخير .

ويردّ الحق بالباطل .

ويصارع العرفان بالضلال .

ويستأصل السعد بالنحس .

والفوز بالغبن .

وماذا حلّ بالإنسان ليكون كما كان ؟

حقا أن الإنسان لطفل غرير .

إن أسيئت قيادته دفعت به إلى الشر .

ولا نجاة بعد ذلك .

فالخطأ يدفع به إلى الأخطاء .

والأخطاء تقوده إلى الهوّة .

أما الهوّة فمظلمة مهلكة .

خالية إلاّ من جوف يبتلع عظام الموتى .

وهنالك لا يجد الهاوى .

سوى الفاسد والمنتن مما بلى ويبلى .

---

ابن حيدرة الإمام .

داعى الحق الكريم .

ذلك هو ديدن الأنذال .

فى كل مصر وزمان .

يناؤون دعوة الحق ويبتغون طمسها .

وبذا يجرّون الناس إلى السقطة والخسران .

وقد إبتلى الشرق بأمثالهم على الدوام .

فكان بهم عاثر الحظ كثير الكبوات .

أولئك الأراذل لا يريدون أن يعلوا عن سطح الأرض .

قيد أنملة .

هم يتمسّكون بالتراب والطين .

أما ملكوت الأثير فقد غاب عن أذهانهم .

ولقد دللتهم عليه واشرتَ لهم بيدك إليه .

يا ابن حيدرة الإمام .

كما دلاّ هم عليه أبوك وجدّك من قبل .

ولكن أين السامع المحظوظ ؟

---

نادى الإمام بالنصير — إلى الجنة .

ولا زال ينادى .

بنا و بهم و بكل نصير قديم أو جديد .

أما هم فقد أعرضوا عنه بصفاقة .

هى حماقة الأدمغة الآسنة .

التى لا تطهّرها إلاّ نار الجحيم .

النار المشبوبة الخالدة إلى الأبد .

---

لقد قال لهم : أيها الناس اسمعوا وعوا .

تلك والله هى الجنة .

ألا ترون قصورها الشامخة ؟

ألا ترون مدنها العامرة ؟

ألا ترون باحاتها الواسعة ؟

انظروا ماثيًا إلى يدى .

أليست تطل عماراتها على أنهار عذاب ؟

وعلى مجار صافيات زراب .

تلتوى ثم تلتوي إلى لا نهاية .

ثم تختلط بالأنوار السندسية .

لتعكس على تبرها .

فى ذلك الجوّ الهادئ الرقراق .

كل زاه وجميل .

تأمّلوا ! أليست هى خير من عالمكم هذا .

هذا العالم السافل المملوء صدره بالأعاجيب .

من أعمال الفجرة والأوغاد .

من أنسال بنى الإنسان .

تعالوا أيها الناس إليها واشهدوا خاشعين .

لأن فيها نسمة من جلال الله .

تعالوا إليها واشهدوا راكعين .

لأن فيها روح من ذات الله .

---

ابن حيدرة الكريم .

لقد نادى الإمام بالنصير — إلى الجنة .

وقال :

أناشدكم الإقدام بقلوب جريئة سليمة .

ما بالكم ! ألا تسمعون الصرخة .

هل أصررتم على البقاء ههنا .

لم كل هذا العناد القاتل ؟

فهلا أجبتم دعوتى وأنصتم إلى الحق ؟

بلى هكذا تريدون !

فإذن فاللعنة عليكم وعلى من والاكم .

وعلى أنسال وأجيال ستلحق بكم .

سوف لا تجنى بجريرتكم هذه أكثر مما جنيتم .
ولا تجمع من وراء باطلكم هذا أكثر مما جمعتم .
وسوف تلقى فى طريقها الشوك والحنظل .
وتعيش بالمرّ من الحياة .
ثم تموت كما عاشت بالعبودية والعيش الخفيض .
أما هى فسوف لا تخلّف لأجيالها .
غير الحزن الطويل والقلب اللهيف .
وذاك ضرب من ضروب الآلام .
التى سيعلنها القادمون بعدكم .
وسرعان ما يلحقون بكم إلى الهاوية .
الهاوية السحيقة التى تتدافعون إليها اليوم
وأنتم على غير يقين بالله .
الذى خلقكم فسوّاكم .
وأنشأكم فصيّركم كالناس .
لكنكم جهلتم أمره .
وضللتم عن سبيله .
وتحدّيتم حرماته .
وأتبعتم زيغ الشيطان .
فاهبطوا إذن إليها .
واحداً إثر واحد .
وتلك هى مقرّكم ومأواكم .
ومن ورائكم لعنة الله والملائكة أجمعين .

---

أيها الناس فى كل زمان ومكان .

اسمعوا نداء الإمام .

النداء بالنصير إلى الجنة .

تفلحوا فى البداية .

وتفوزوا فى النهاية .

وتسعدوا فى الدنيا والآخرة فهل أنتم فاعلون .

---

# أهمية الأعتناء بالعمل

«فلنتحمل كل حرمان
طعامنا الحقيقي هو الانتصار.»

« الوردة المتفتحة اليوم سوف تذبل غدا » هذا هو قول الشاعر المطرب (شلى) فى إحدى منظوماته الرائعة ، وهو فى الواقع حكمة رددها دوما الشعراء والأخلاقيون والروائيون والفلاسفة وهم يشيرون بها إلى أن فناء جميع الأحياء فى هذا الكون أمر وشيك محتم وعليه فقد نظروا إلى الحياة كما لو كانت حلما من الأحلام.

ولكن من الغريب جدا أن نرى قلة تأثير هذه الملاحظات بصورها المبالغة فى الرجال العمليين ، إذ أن الغريزة الإنسانية فى معظم الناس لا تسلّم باعتقاد القائلين بأن الحياة هى حلم زائل وأن ليس فى الوجود شىء يستحق العيش لأجله . فقد شعر الناس خلاف ذلك ورأوا أن ما من شىء فى الوجود إلا و يمكن جعله حقيقيا وجليلا وذلك بالتضحية الشخصية فى سبيل الوطن أو فى سبيل المنفعة العامة . لهذا ترانى أميل إلى بعض ما ذكره الفلاسفة فى هذا الشأن وذلك كالنصيحة التالية التى سمعتها من والد يلقيها على مسامع ولده وهى :

«لا تنس أن تقدر كل عمل فى الحياة مهما كان صغيرا أو كبيرا لأنه مهما كانت أهميته فان انجازه أما أن يكون مغلوطا أو صحيحا » .

ولعل ذلك هو الذى عنى به الطبيعيون الماديون بقولهم إن الإنسان الشرير يجرم حتى بمد أصبعه ، أى أن كل ما يقوم به الشرير من عمل مهما كان زهيداً فهو دنئ لايعتد به .

# ميزات الرجل السياسي

«والشعب يحب رجال السياسة الذين خبرهم
وصقلهم النضال كما يصقل الجلد القديم
والخشب القديم .»

إن من يريد أن يحمل على عاتقه أعظم المسئوليات وهى قيادة شعب من شعوب العالم فى أى جيل من الأجيال عليه أن يخلق قبل كل شىء من نفسه لنفسه وازعا ضد المنافع الشخصية وأن لا يكون له الصديق والعدو إلا من كان صديقا أو عدوا للأمة . خذ مثلا على هذا السياسيين العظيمين (بيت) الوالد والولد . فقد كان الأول رئيساً للحكومة البريطانية عدة سنين فمر بها على أيام العسر وأيام الرخاء وكان دوما الحازم البصير الذى سار بشعبه من نصر إلى نصر ، وقد لاقى من خصومه من اللدد ما جرّعه الآلام وزادته الأمراض ضعفاً على ضعف حتى أصابه الشلل ، ومع هذا فقد اندفع بغيرته المعروفة وسار فى أواخر أيامه قاصداً — وستمنستر — فجاءها وهو يستند من جهة على عكازه ومن جهة أخرى على كتف ابنه الذى لم يكن بعد قد بلغ العشرين من سنه ليقدم للمرة الثانية ما ينصح به المملكة فى قضية الحرب مع المستعمرات الأمريكية . وعندما نهض أمام المجلس متكلما خيم السكون الرهيب على القاعة وسكت الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير فما كان ليسمع صوت الشيخ إلا همسا الى أن أجهز عليه النصب فسقط ميتاً بداء السكتة قرب منبر الخطابة .

أما الولد فحاز على منصب الرئاسة عند ما بلغ الثالثة والعشرين من عمره واقتفى سيرة أبيه وكان خير خلف له . فقد واصل أعماله ليل نهار وانكب على انجاز ما يعود لمصالح الأمة انكبابا أفقده الراحة ومنعه الزواج طيلة حياته وكان من أظهر صفاته اقتصاده وخصوصاً فيما يمس أموال الخزينة العامة ، ومع أنه كان يتقاضى راتباً يبلغ (٣٠٠) دينار فى السنة فقد ترك مورداً آخر يبلغ (٣٠٠٠) دينار سنويا إلى أحد ضباط الجيش الممتازين الذي فقد بصره فى الحرب و بذا احتفظ براتب تقاعده إلى الأمة . وهو الذى قاد الحملات المظفرة بعزم لا ينثنى ضد البطل الإفرنسى « نابليون » وأقام أمامه جبهة قوية من الدول الأخرى لإيقافه عند حده فتمثل بالقائد « هانيبال » القرطاجى الذى أقسم لأبيه أن لا يقيم صُلحاً مع الرومان . والمعروف

أن « ويليام بيت » لم يكن يحمل أية كراهية لبونابرت حيث كان يتوقع منه أبدا الهدوء وسلامة النية، إلا أنه بعد اشتداد النزاع بين الطرفين أدرك اصراره فانساق للعمل بجميع ما لديه من حول وصبر ليحفظ سلامة انكلترا حتى إذا أيدت الصحف الهولندية خبر تسليم الجيوش النمسوية فى موقعة ( أولم ) هلع قلبه وصعق فى مكانه لساعته .

و بالطبع أن أمثال هذين الرجلين نادر جداً ولا يجب أن نتوقع من كل أحد مثل هذا الانهماك على مصالح الدولة والتضحية بجميع المنافع الذاتية فى سبيلها ولكن لا بد للرجل السياسى أن يحوز على هذه الميزة شاء أوأبي وتلك هي أن يجعل من نفسه روحاً يحيى بها لأمته مصيراً ساميا فى التاريخ .

قال « بسمارك » يوماً « إنه يتمنى أن يلقى حتفه كأرخص متاع الدنيا إن هو لم يرع مصالح الأمة أو أنزل نفسه ولو لحظة واحدة فى مصاف أولئك الذين ينقادون بعواطفهم ولا يعملون إلا لأجل منافعهم الشخصية » . والحق أن الرجل السياسى يجب أن يكون منكراً للذات كاظما أوخاليا من عواطف الإساءة والبغض حتى تخمد فى نفسه غرائز الحقد والإنتقام .

والميزة الثانية التى على الرجل السياسى أن يتحلى بها هى أن يكون عمليا مدركا للواقع ما استطاع . ولا نريد من هذا أن يكون عمليا بما هو مبتذل ورخيص مما يسعى إليه ذوو النفوس الصغيرة الذين يقيسون قيمة الحياة بالإرضاء المادى بل نعنى بهذا أن يكون ملما بشئون الحياة على تباينها واختلافها فيسعى بكل طما نينة فى الحصول على أسمى وأثمر الآراء التى تؤدى إلى إنعاش البلاد و إنماء مرافقها .

أما الآراء فانها من نعم الله موجودة فى كل مكان . ادخل أى مكتبة شئت تجد أمامك من القضايا والأسباب والنتائج العامة والخاصة مالا يحصى وهو ما فكره الإنسان من عهد فلاسفة اليونان إلى العصر الحاضر، وقد تعثر على معظمها فى عدد قليل من الكتب ولكن الأهم من هذا كله هو أن تنتقى منها ما هو

أكثر ملاءمة لأحوالك وبيئتك التى تعيش فيها ثم عليك أن تجد الحل الموافق الذى يقودك إلى التنفيذ بحيث تصيب الغرض الذى ترمى إليه لئلا يدفعك الخيال الى ما لا تحب وترضى .

استعرض لحظة حياة «فردريك الثانى» تراها حياة عجيبة مليئة بالفخر . كان هذا الملك قوىّ الادراك نافذ البصيرة عارفا بحاجات عصره ومع هذا كان شاعرا أديباً ولقد أدرك أن الأساليب القديمة فى الحكم مائتة لا محالة وأن السعى فى انعاشها يذهب هباء كالسعى وراء السراب لإطفاء حرارة الظمأ ولهذا أحيا فى بلاده الحرية الفكرية وهى عتق النفوس لأفضل ما تحب وترغب فأذاع فى « نيوشاتل » أن الحكومة لا تتدخل فى الاعتقادات الشخصية وكان ذلك فى عصر خنق الحرية فى فرنسة وأسبانيا ففى الأولى كان ظلم ( الهكونوت ) قائماً على قدم وساق وفى الثانية لم تكن قد انقطعت الاحتفالات العلنية لإحراق الهراطقة والمنحرفين عن الدين حتى أمام أعين أعضاء العائلة المالكة . كان هذا الملك بعيد النظر فى حقيقة النظم الاجتماعية والسياسية وهو حينما شعر بوجوب إماتة الأساليب القديمة فى الحكم وصف الثورة الإفرنسية بعبارة بليغة وهى قوله : أن الملك هو الخادم الأول للشعب . فاحتفظ له فى التاريخ باسم لأعظم الملوك العمليين الذين أدركوا الواقع . وقد أصاب « ميرابو » حيث قال بعد وفاته : — لقد تراجع الحكم بعد حياة هذا الملك إلى عهد الطفولة .

ولكن مهلا فانتقاد الآراء غير كاف ليجعل من الرجل سياسيا قديرا فلكل رأى مهما كان له قيمته فى الحياة العملية وذلك بالنسبة إلى الرجل الذى يسعي لتنفيذه وتطبيقه . وإن كنت راغبا في أن تصبح ذلك الرجل العملى الظافر فى السياسة فما عليك إلا أن تنتخب لك بطانة صالحة مشبعة برأيك تحيا به وتموت لأجله وبهذا فقط يميز بين السياسى الحقيق و بين من اتخذ السياسة حرفة له ولعل الثاني يبلغ ما يريد ولكن بعد أن يجنّد لنفسه زملاء سوء عرفوا بالدناءة والخسّة يسيّرونه

كيف يشاءون فيثيرون حفيظته ضد أفراد ويهبون من يريدون من نعمة أو سلطان بالتملق والتزلف والوشاية وهكذا ينحرف عن جادة الصواب وإذا هو ضال فى أكثر ما يعمل . تلك التى نخافها على السياسى وهى الوقوع فى المغالطات المنطقية أو ما تسمى بالسفسطة فيكون أقرب إلى المشعوذين منه إلى السياسيين

ومثل العملى الذى يدرك الواقع كالعالم الذى يعتقد بقناعة تامة أن جميع الذرات خاضعة لقانون الجاذبية فإذا أدرك ذلك كان من السهل عليه تطبيق مثل هذا على الحياة الأدبية والاجتماعية لأن الحقائق مهما كانت فهى وليدة أسباب ونتائج لها علاقتها المتينة بين بعضها البعض وقد صدق من قال أن كل قضية سياسية أو أدبية يمكن تشبيهها بخط بيانى : كل عنصر فيه يجب أن تراعى فيه الدقة الحسابية . وعلى هذا الأساس يلزم على من يريد قيادة الأمة أن لا ينخدع بالظواهر فى انتخاب أولئك النفر الذين يريد أن ينفّذ آراءه بواسطتهم لأن الخطأ فى هذا يجرّ ويلا على الأمة بعد اختلال الموازنة ويوقعه فى ورطة قد تكون مهلكة .

وإذا كان السياسى كسائر الناس حراً فيما يتصرف به من ماله وملكه وغير مقيّد فى اختيار من يريده من الناس صديقاً أو صاحباً لنفسه فإنه مقيد كل التقييد فى اختيار من يودع إليه شؤون المملكة وأمورها العامة وإيداع ذلك إلى الأقرباء والأصدقاء دون النظر إلى مصلحة الأمة غدر وإجحاف لا ترتضيه وإن رضيت به مرغمة فالتاريخ قاضيها ومنصفها . وهو إذا اختار المخلصين العاملين فعليه أن لا يخشى بعدها لومة لائم فى إعلان الحقائق ما دامت أعماله وأعمال رفاقه فى الحكم تدل على القوة والعدل .

وبعد هذا كله عليه شرط آخر مهم جداً يلزم تنفيذه بكل حزم ، فالآراء وحدها مهما كانت مشوقة لا تقدر أن تحكم العالم إذن فالسياسى القدير يجب أن يعرف كيف يوحي لبطانته وزملائه فى تنفيذ تلك الآراء دون أن يصابوا بالفشل ويعود هو بالخسران . وإليك مثل يملأ العين : « كان ( بركليس ) ملك أثينا

حكيما ليس له ند بين حكماء عصره ، ولم نعثر له بين الآثار اليونانية من حكمه المسطورة إلا النادر . وقد دام حكمه مدة تنيف على الأربعين سنة كان فيها مصدر وحى و إلهام لقومه بحيث أنه لم يترك طريقاً إلا وسلكه فى إثارة مافى نفوس أبناء شعبه من قوى كامنة للعمل يداً واحدة فى إعلاء شأن أثينا وكانت إرادته هى العليا التى لا تضطرب فى الملمات والشدائد . كان يقود أسطوله العظيم بنفسه وقدشوهد فى موقعة الأرخبيل على سطح إحدى السفن يبعث الرعب فى نفوس البرابرة ، وكان يقيم فى كل سنة مناورات بحرية ليراقب أعمال حلفائه عن كثب وطالما عقد المؤتمرات للفلاسفة وأصحاب الفن فى عمارة Aspasia للبحث في العلوم والفنون . كان روحا تبعث بالهمة فى أصحابه فيندفعون إلى العمل اندفاعا وقد يأخذك العجب حين تعلم أنه قد أتم رفع تلك النصب التذكارية العديدة فى أنحاء المملكة بمدة وجيزة ، أما بطانته فقد كانت تتكوّن من Phidias وكان يده اليمنى و Calicrates الذى شيّد دار البارثنون Parthenon و Metagene الذى أكمل معبد Eleusis و Mnesicles الذى أتم تشييد عمارة Propylaea .

ولقدشاد على الأرض ماشاد بدقة وترتيب لأنه كان يراقب الجميع بعين حارسة وروح وثابة ونفس غيورة ،وانظر ماعمل فى حادثة سقوط أحد العمال الذين اشتغلوا فى بناية معبد Propylaea أصابه من ورائه ضرر عظيم بدرجة أن قرر الأطباء عنده أن موته محتم فقد حضر بنفسه وعالج المصاب بالأدوية التى وصفها حتى شفى تماما .

والخلاصة هى أن الذكاء والفطنة لازمان فى السياسة لزومهما فى الفن وهما لاشىء سوى القلب الطافح بالعاطفة السامية والفكر الثاقب الذى تسنده الإرادة القوية وهذا كاف لأن يسوق الكل للعمل والتضحية . وفى هذا ما يكفى للسياسى أن يصبح منار عصره وشعلة تستقى الأجيال من نورها ، ولا يبالى بعدها إن وصلتنا فقرتان أو ثلاث من حكمه الغاليات كما حدث فعلا مع — بركليس — العظيم .

# الحرب

«أيتها الحصاة ما يسخر منك الساخر
بأكثر من أن يجلوك على الناس علبة
جوهرة.»

الرافعي

إن حب القتال غريزة طبيعية فى الانسان ، ولو لم يكن له ما يقاتل من أجله لتنازع على الأقوال والأهواء والنساء ولقاتل على النظرة والصدفة وتهديم القائم و بالأخص ما كان شامخا وهو مما يثلج صدره و يطيب خاطره . ولو أمعنت النظر لشعرت أن نفسك المحاربة تزدرى القتال الناشب عن أسباب معقولة وأمور رصينة حتى أن الجبان ليستفزّ جرأته فى مثل هذا النزاع المحق . والواقع أن البهجة التى تتولد فى القتال لا تنبعث إلا اذا كان الإنسان منقادا إليه من تلقاء نفسه ومتطوعا فيه مختارا . وقد يساق إلى الحرب لا لمكسب يريده بل لنصر يطلبه ولا شك أن لهذا معانيه الخاصة فى نفس المنتصر ، إلا أنه لو لم يكن الحرب وسيلة من وسائل العيش لما وجدناه غريزة متأصلة فى جميع الأجيال فالقليل من الناس عاش على السلب شأن الوحوش الضارية أو غيره أو اعتاد الرزق من الصناعة كما تفعل النمل والنحل والأبقار آكلة الحشائش ومع هذا لا يخلو أن يكون النصر مطلوبا على كل حال ولو منيت الجيوش المنتصرة بالضرر ولهذا قلما يركن الإنسان إلى حياة الدعة نعيم الهدوء .

وكما نجد للبربرية مشيئتها كذلك لا نعجز عن أن نجد لها مبرراتها . فللحرب مادحون لا ينفكون ينادون بوجوب إشعال نارها و إراقة الدماء فى سبيلها بين حين وآخر ، و إلا ضعف القوم واضمحلت فيهم الرجولة ! مهلا فإن التجربة تنقض هذا القول الباطل لأن الحرب هى التى تبدد ثروة الأمة وتشل صناعتها وتهلك شبابها وتميت فيها عواطفها الإنسانية وتحبب لها المخاطر ولا تترك لها من ينسل الجيل القادم سوى الخنيث وناقص الخلقة والحرب الضروس أهلية كانت أو خارجية هى التى أعاقت كثيراً نمو الحياة العقلية فى الإنسان مما لا نزال نسمع شكواه وهى التى أفنت عظماء الأمم غربية كانت أو شرقية حتى أن أبناء الشعوب الحاضرة بدلا من أن يكونوا سلالة الأبطال وأعيان الأمم السالفة أصبحوا كما تدل عليه الأجسام والنفوس اخلاف العبيد والأرقاء . والعجيب أنه إذا دام السلام زمنا فى ظروف ملائمة تطغى قوى الناس حتى تثور بهم فإذا هم مساقون إلى ميادين القتال لحروب طاحنة تميت منهم

الأصلح والأنشط ، فإذا كانت هى الظافرة إدعت المجد العسكرى الذى لا يطول عصراً حتى يضمحل فى الرخاء والمعارك فتتداعى أركانه وتنهار دعائمه . وهكذا تتوالد الإنسانية فى أقطار أخري ويكون لها من القوة ما يضمن لها الفوز إلا أنها لم تشترك بعد بالحرب . إنك إذا فهمت بأن الحرب هو الفضيلة والإقدام فكأنك تشير بهذا إلى أن الفسق والفجور هما روح الحب .

ولا بد للحيوان من جرأة عمياء تقيه شرور هذا العالم المحفوف بالمخاطر والأهوال وتساعده على الوقوف عند حافة الهاوية دون أن ترتعش أعضاؤه وترتخى أعصابه ، ومثل هذه الجرأة لازمة كنعمة لطيفة للحيوان لا نقمة قاهرة تورثه الإعجاب بالنفس ، فهى من أسمى فضائل الإنسان عند الثبات فى مواقف الخطر والمثابرة فيما يؤدي للنجاح ، ولكنها دنيئة سافلة أن حببت له المخاطرة فى غير موضعها ومجابهة الشرور دون أن تدفعه إليها ضرورة ماسة . والاستخفاف بالغير والإغضاب وحب القسوة قصد اللهو والعبث وغريزة المقامرة كل ذلك من الطباع غير المحمودة فى الإنسان وحب الحرب رذيلة فى الجندى والربان وجريمة أكيدة من قبل رجال السياسة .

إن مادح الحرب يضع نفسه فى أحط مستوى يمكن أن يقف عليه رجال الوطن لطلب العمل والإصلاح ، لأن أمجاد الحرب ملطخة بالدماء هاذية ومقترفة للجرائم . والقتال بحد ذاته هياج وحشى يخلط شر البعض بخير الآخرين وهذا التناقض الذى منى به العالم الأدبى هو أولى خطايا الطبيعة التى بعثت بالشر فى كل مكان ، ومن طلب السعادة بشقاء الآخرين فهو شريك المجرم بجريرته لا محالة .

عجباً للإنسان ومن خلقه ! يشتهى أن يمتلك جهد الأعمى ليغوص فى المخاطر بدون تعقل ، ويطلب سرور الأبله بمواجهة الصدف ، هو يريد البهجة بألم الآخرين ولو كان آثما ويزيد من فرحه بعذاب نفسه ولو كان جنونا . هذا هو عمل الإنسان وطبعه وتلك هى الأعماق المظلمة لجبلة الأوهام التى على الإنسانية أن تنمو فيها وأن تحيا منها .

# القسم الثالث

## أدب وقصص

# الفجر

« إذن لأصبحنا مسحورين بجمال
الفجر ، إذ تطفر الشمس غزالته من
وراء الجبال وأمسينا مأخوذين بسناء
الشفق إذ تتوارى جونة خلف البحار ».
اللورد أفبرى

الفجر نور الأمل والحب .

عند الفجر تستيقظ الطبيعة من رقادها تغمرها البهجة والنشاط .

وعند الفجر تتضاحك الأزاهير عن ندى الليل لتحيي الشمس .

عند الفجر ينقطع سكون الليل البهيم بإيقاع الطبيعة المطرب .

وفى الفجر يهب النسيم بلطف فيداعب مياه البحر الهادئة ويلاعب أشجار الرياض النضرة .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أولادكن : لكى يشهدوا ثغر الفجر البسّام ، ويفوزوا بقبلة من عنده

عند الفجر أشعر بحيوية فياضة تنبعث من الطبيعة فتزدان بها الجبال والتلول والغابات والحقول ، وإذا الجمال متباين متعدّد ، وإذا النفس مستسلمة أمام هذه العجائب للروح الكلية التى خلقت هذا الوجود بأسمى وأفضل مايتصوّره العقل .

أيها الفجر عند ما أنهض مبكراً في الصباح أراك مشرقاً على الكون وما أسرع ما ألاقيك بعد أن تلامسنى أشعتك السحرية فى عالم روحانى عجيب ! .

يحنّ إليك أيها الفجر كل متعب بائس أو مريض ، لأن طول الليل يضنيه والعذاب يؤلمه .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالكن : لكي يشهدوا ثغر الفجر البسام ويفوزوا بقبلة من عنده .

عند الفجر يبصر الفكر بوضوح جلائل الحق الإلهى وتسمع الآذان حفيف قواه الخفية التى أشادت هذه العوالم بحكمة عالية فتعي الحواس بنشاط غير معهود معنى القوة العليا التى أشربت كل شيء من روحها فبعثت فيه نسمة الحياة .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالكن : لكى يشهدوا ثغر الفجر البسام ويفوزوا بقبلة من عنده .

عنـد الفجر تلذ لى المطالعة والتفكير والابتهال ، لأنى آنذاك أسعد بقلب حساس وفـكر وقّاد وجسم منتعش ونفس طروبة تنتقل بالخيال إلى أبعد مدى .

إن الطبيعة فى المساء تلتف والحب الدنس فى حمأة الخطيئة .

ولـكنها عند الفجر تغتسل بحب نقى وترتفع إلى العلاء طاهرة مطهرة .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالـكن : لـكى يشهدوا الفجر ضاحكا ويفوزوا بقبلة من أشعته الذهبية .

# بعد الموت

« عذب نفسك أيها المسكين ! . أما أنا فلا يهولني أن أعلم هذا . انه إنما رجعت لأموت ، لأن قلبي كان قد مات ، إنك أنت الذي أوهمتنا أنه حلم ، لقد أمكنك أن تخدع منا العقل ، ولكن القلب لم يخدع ، لأن قلبي كان قد مات » .

توفيق الحكيم

القبر هو نهاية الكفاح الإنسانى فيه تتلاشى وتزول جميع هموم الدنيا ، وفى القبر نقف على ساحل بحر واسع الأطراف ، ليحمل على عبابه سفينة روحنا الضعيفة إلى اللانهاية : هو بحر غامض لا تستطيع أعيننا الفانية أن تلمحه ، وليس لخيالنا الإنسانى قوة مهما أتعبنا أنفسنا بين المهد واللحد بإمكانها أن تتصور ولو قليلا ما يطوى الموت خلف ستاره وما فلسفتنا عن العالم والحياة إلا هذر أشبه بهذيان الأطفال .

إن بلاطة الضريح هى آخر آثارنا فى الحياة على وجه هذه البسيطة . ارفع هذه البلاطة وانظر داخل القبر الذى تعافه نفسك فلا ترى فيه إلا بقايا إنسان طواه الفناء فأمسى كأنه لم يكن . سل عن الفكر والعقل والذكاء وعن الجمال والقوة والشهرة فلا تسمع جوابا ، ولا ترى لها أثراً فى القبر ، لقد تبددت كلها كما يتبدد صوت « البوم » ليلا فى الفضاء وتلاشت النفس كما يتلاشى الدخان بعد انبعاثه من الموقد .

يأمل الانسان — وأمله طويل — من أن التاريخ سيسجل ذكراه بعد الموت ويحتفظ بأعماله بين دفات الكتب ، ثم يأمل من أقربائه أنهم سيتحدثون عنه ليلا ونهاراً وسيقيمون له ما يخلد اسمه : آمال باطلة يتعب الانسان فيها فكره ولا يعود منها إلا بالخسران والفشل ، كيف لا وقد كان فى حياته يسعى لنفسه ، ولا يفكر ولا يهتم إلا لها ، فإذن لماذا يهتم الآخرون به بعد مماته ؟ تلك حقيقة جلية تشير على أن ظل الانسان زائل بعد الموت .

وقد يخطر فى باله فيذهب فى خيال بعيد يسوقه إلى الظن أن الشمس بعده سوف لا تشرق ، والنجوم سوف لا تطلع ، وأن الأنهار ستنقطع عن الجريان ، وذلك هو ظن الآثم المخدوع ، وهو الخيال الذى يمنّى صاحبه ليشيد فى الهواء قصوراً شامخات . إنه إن فكر لعلم أنه فى القبر لا يسمع أصوات رفاقه إن ذكروه

أو مدحوه ، وإنهم لايستطيعون إحياءه أو إيقاظه ليسمعوه ما يقولون ، فيرتاح لقولهم ، ويأنس بحديثهم ، ويرى الطبيعة زاهية كما ودّعها ، وتلك آمال خائبة ، القابض عليها كالقابض على الريح .

آه ! أيها الطير المرح ؛ إن ساعدنى الحظ فسأسرع الخطو لأكون بين الأجداث رفيقاً لمن رقد فيها ، وبعيداً عن عالم كنت أجهله ويجهلنى . سيخفق قلبى فرحاً ، وينطق لسانى بكلمة الوداع الأخيرة ، فأرجع يتيما كما كنت إلى مقرى ، أما الآن فلامفر من أن أنهي أيامى الباقيات كالمنفى فى بلاد غريبة .

# الوقت

« إن الزمان ليتدفق وإنّا مع
تياره نمر ونمضى » .

الزيات

أمى علّمتنى الجدّ و بغّضتنى للكسل ، وكانت تحدثنى دوماً : بأن الوقت هو الأبدية . . . والناس يضيعون الأبدية بتضييع الوقت — ثم تضيف : « بأن الخير مفقود فى هذا العالم ، ولعل الوقت هو كل الخير فيه ، فعلينا أن لا نضيعه سدى ، ومن يدرى ما يخبئ لنا الغد » .

الوقت كلمة مختصرة لاندرك معناها ، فقد جئنا إلى الوجود ونحن نعيش فيه ثم نموت ونعتقد أن كل ذلك لا يتم إلا بالوقت كأن الوقت شيء عظيم جداً مرتفع وواسع وعميق ككرة جبارة عليها يدور العالم وفيها الحياة والموت والأرض ، فيها بحر خضم تسبح فيها المخلوقات من هنا لهناك . أما الواقع يدلنا فهو خلاف ذلك : فما أنجزناه ندعوه الماضى وما نعمل فيه إذن نلقبه بالحاضر ، وما نروم عمله نسميه المستقبل ، فكل ذلك حال فى أنفسنا غير خارج عنها . فالماضى مخزون فى ذاكرتنا ، والحاضر آخذ بعنان انتباهنا ، والمستقبل موجود فى آمالنا .

نحن غرقى بالآمال وحياتنا تنقضى بها فلا نخطئ إن قلنا إن الحياة هى الأمل فنحن نفكر أن وقتنا سيمر وعليه أن يمر وذلك عند ما نريد تنفيذ الأمل ، وكم نرى الآمال متوقفة على الوقت حتى أننا أحياناً نعتقد بكل قناعة بأن الوقت مرتكز علينا بحيث أننا نستطيع تطويله أو تقصيره .

نقسّم الوقت إلى عصور وقرون وسنين ، ونعطى لهذا التقسيم الخيالى أسماء كأنها أشياء ملموسة خارجة عن نطاق وعينا ثم نعتقد بأننا قد قسنا الوقت بكل تأكيد . والواقع أن لاشيء هناك غريب عنا أو عن واعيتنا أو عن كتبنا التى نخط فيها أفكارنا وأوهامنا وكلماتنا الفارغة ، فالوقت ليس أمر مستقل بذاته ولا حقيقة ولا جوهر ، ولكنه فكرة فى الإنسان وكلمة فى الكتاب ونقش على الحجر .

ولقد علمتنى أمى بقولها : « إن الوقت هو الأبدية . . . والانسان يضيع الأبدية عن طريق إضاعة الوقت » .

حقيقة جبارة ولعلها بغير أن تعلم أدركت بعقلها البسيط سراً لا يصل إليه إلا العلماء والفلاسفة ، وطالما سأل الزهاد ربهم أن يهبهم العمر الطويل لتستقى قلوبهم من حكمته أكثر مما كان لها .

لقد رأيت شبهاً بيّناً بين النابغ والبسيط فقد توصّل الطرفان إلى معرفة الحقيقة حيث أدركها الأول بقوة دماغه وعرفها الثانى بقلبه وحسه ، أما الناس الوسط فليسوا بشىء .

# حيثما تكن المحبة فثم وجه الله

للكاتب الروسى « ليوتولستوى »

« الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه لأحد
إخوتكم هؤلاء الأصاغر فلله فعلتم » .

عاش الإسكافى « مارتن إفاديش » فى إحدى المدن الروسية النائية ، وكان يسكن فى إحدى حجرات الطابق السفلى من دار قديمة تطل منها على الشارع المجاور نافذة صغيرة جداً لم يكن الناظر ليستطيع أن يرى منها سوى أقدام المارّة . أما « مارتن » فكان فى مقدوره أن يميّز الناس من نوع الأحذية التى يرتدونها فقد عاش فى تلك المنطقة زمناً طويلا ، وله معارف كثيرون يندر أن نجد من بينهم من لم يقدم إليه حذاءه ولو مرة أو مرتين لترقيعه أو تقطيبه أو تجديد نعله ، وهكذا كان « مارتن » يتطلع غالباً إلى عمل يده من خلال تلك الكوة الواطئة ، وازداد عمل « مارتن » كثيراً بتوالى الأيام بعد أن عرف بالجد والاتقان والمحافظة على الوقت فضلا عن أنه كان يستعمل من المواد أجودها ولا يسوم فوق الحد المناسب فاشتهر من جراء ذلك بالصدق وحب العمل حتى رغب فى معاملته البعيد والقريب واعتمد على قوله المواطن والغريب .

لقد كان « مارتن » رجلا طيب السريرة صافى النية ، وعند ما قارب من الشيخوخة أخذ يفكر كثيراً بنفسه ويتأمل اندفاعاتها ويتفهّم حقيقتها ، فيسمو بروحه إلى خالقها ، ويتقرب بذاته إلى الذات المطلقة . وحينما كان يشتغل لمعلمه قبل أن ينفرد رزأ بفقد زوجه ، فبقى خالياً إلا من طفل صغير يبلغ من العمر ثلاث سنوات ، وهو كل ماعاش له من أولاده الذين ماتوا وهم فى دور الطفولة . وارتأى « مارتن » آنئذ أن يرسل طفله هذا إلى أخته فى إحدي القرى لتقوم بتربيته ، ولكنه شعر بالحزن يدب فى نفسه لفراق وحيده ، وصعب عليه أن يرمى بطفله العزيز « كاييتون » وسط عائلة غريبة ، ففضل الاحتفاظ به بقربه ولو جرّ ذلك إليه الأتعاب والسهر الطويل .

ترك « مارتن » معلمه وسكن بعيداً فى منزل حقير مع وحيده الذى لم يكد يبلغ من العمر ما يستطيع عنده من إعانة والده فى عمله وإبعاد الوحشة عن قلبه

وإماتة الحيرة من نفسه حتى انطرح مريضا تتقاسم جسمه اللدن الضعيف نار الحمى القوية والأوجاع المؤلمة ، وظل كذلك بضعة أيام لفظ بعدها أنفاسه الأخيرة مبكيا عليه .

أخذ « مارتن » جثة الولد وأودعها القبر ، وراح يذرف عليه الدموع الغزار وتمنى لو كان المتوفى هو وليس وحيده الذى أحبه ، وخصوصاً وهو الذى وهن منه العظم وانحطت فيه القوى ، استولى عليه اليأس وشمله القنوط وكاد يزل بعقيدته ويندفع بتذمره إلى الإلحاد ، وظل كذلك شارد الفكر موزع النفس حتى أدى به مطافه إلى إحدى الكنائس القريبة فانزوى فيها شاكياً متوسلا .

وفى يوم من الأيام التقى « مارتن » بشيخ جليل من أهالى القرية التى شب فيها وهو فى طريقه من دير (تروتزا) وكان هذا ممن زار الأماكن المقدسة فى الثمانى سنوات الأخيرة ، فحياه «مارتن» وجلس إليه يبثه آلام قلبه وشكواه وهو يقول :

أنا لم أعد أشتهى الحياة أيها القديس ، وصرت لا أسأل ربى عن شىء إلا عن الموت العاجل فقد بقيت ولا أمل لى فى هذا العالم .

قال الشيخ بهدوء : اصغ إلى يا مارتن وأسمعنى فليس لك الحق فى أن تنطق بمثل هذا الكلام . إننا لا نستطيع أن ندرك مشيئة الله وإرادته المتغلبة ، وهو إن أراد أن يميت ولدك وأن يبقيك حياً كان هو الأفضل . أما اليأس الذى غمرك فالباعث له هو الرغبة فى أن تعيش لنفسك وسعادتك .

قال « مارتن » : وإذن فلأجل أى شىء يجب أن نعيش ؟ .

لله «يامارتن» !... فاه الشيخ بكل اطمئنان ثم استرسل بكلامه وهو يقول : فالله هو الذى وهب لك الحياة ، ولأجله يجب أن تعيش ، وحيثما عرفت أن تعيش لأجله فإنك سوف لا تحزن وستستهين بكل شىء .

سكن «مارتن» فى مكانه وأقبل إلى الناسك يستمع إليه بكل حواسه ، وما أن وقف الشيخ عن الكلام حتى أسرع (مارتن) فقال :

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يعيش لله ؟ .

قال : كيف يمكن أن يعيش الانسان لله ؟ ذلك ماهو مبين فى كتبه المقدسة ، هل تقرأ ؟ و إذن فاقرأها ، وهناك ستعرف كيف يريدك الله أن تعيش ، هناك ستجد كل ما تريد .

وقعت كلمات الشيخ فى نفس (مارتن) موقع الرضا ، ثم ودع صاحبه وذهب تواً إلى السوق واقتنى له نسخة ممتازة من الكتاب المقدس .

وعزم أولا على أن يقرأ فى أيام العطل فقط ، ولكنه ما بدأ حتى وجد فى نفسه الرغبة التامة لأن يقرأ فيه يومياً وهكذا اندفع فصار ينهمك أحياناً فى المطالعة إلى درجة أنه كان ينسى ما حواليه فلا يرفع رأسه عن الكتاب إلا بعد أن ينتهى الزيت من السراج فينطفئ ويبقيه فى ظلمة حالكة تضطره إلى الرقاد ، وهو كلما تقدم فى عمله توضحت أمام عينيه الأمور حتى ملك الإيمان نفسه وملأ الحق قلبه وعاد طلق المحيا واضح البشر بعيداً عن الهم وخواطر الألم التى كانت تساوره عند ما كان يذكر فقيده العزيز (كيبتون) وكان لايفتأ يردد فى نفسه : « إلهي تعاليت ، لك العز والمجد ، ولك الأمر و إليك المصير » .

ومن ذلك الحين انتقل (مارتن) إلى حياة جديدة تختلف عما اعتاد عليه فى ماضى أيامه حينما كان يأنس بقضاء ساعات راحته فى أماكن اللهو ، أو يزج بنفسه أحياناً فى إحدى الحانات فيكرع الكأس والكأسين من الشراب ولربما ترك خلانه وهو نشوان يذرف بما لايعرف مما جبل عليه الحمقاء ولا يتردد من أن يصرخ فى وجوه المارة أو يشتمهم فينفرون منه لما يعرفون مابه . تلك كانت حياته بالأمس وهى حياة بائسة لاتؤدى إلى الخير على كل حال فجاءت الأحداث وهيأت له أمراً جديداً و إذا به اليوم يركن إلى معيشة هادئة سليمة ، فصار ينهض فى الصباح و يجلس إلى عمله حتى ينتهى منه فإذا ولى النهار وجاء الغسق تناول مصباحه من أعلى الجدار ووضعه على منضدته الصغيرة وهرع إلى كتابه فأحضره من الرف

وأخذ يطالع فيه ، وهو كلما استمر بالقراءة زادت معرفتـه وأصبح أشد شعوراً بالاطمئنان والسرور .

وصادف أن تأخر يوماً على غير عادته وهو منهمك فى المطالعة فقرأ :

« وكل من سألك فاعطه ، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا » ثم قرأ : « ولماذا تدعوننى يارب يارب وأنتم لاتفعلون ماأقوله ، كل من يأتى إلىّ ويسمع كلامى ويعمل به ، أريكم من يشبه إنه يشبه إنساناً بنى بيتاً وحفر وعمّق ووضع الأساس على الصخر ، فلما حدث سيل صدم النهر ذلك البيت فلم يقدر أن يزعزعه لأنه كان مؤسساً على الصخر . وأما الذى يسمع ولا يعمل فيشبه إنساناً بنى بيته على الأرض من دون أساس فصدمه النهر فسقط حالا وكان خراب البيت عظيما » .

أبرقت أسارير (مارتن) لهذه الكلمات فنزع عن عينيه نظاراته ووضعها على الكتاب ، ثم اعتمد برأسه على ساعده وأخذ يفكر فيما قرأ ويوزن حياته بميزان تلك الكلمات وهو يتمتم : « أترانى أنشأت بيتى على الصخر أو على الرمل فإن كان على الصخر فذاك ما أريده . يلوح لى أن أمرذلك بسيط للغاية فهو لايتعدى ضبط النفس واتباع أوامر الله ووصاياه فإن أغفلت أو أهملت فلابد من أن أذنب ولكنى سأعمل جهدى وسأثابر ما دمت أشعر بهذه النشوة الساحرة ، فكن يارب لى نصيراً وهاديا » .

فكر (مارتن) فى كل هذا وكاد يترك لينام ، غير أنه اندفع بالرغم منه إلى المطالعة فقرأ قصة ابن الأرملة الميت ثم دعوة الفريسى الغنى للمسيح وحديث المرأة الخاطئة التى بلّت قدميه بالدموع ودهنتهما بالطيب حتى وصل إلى الفقرة هذه :

« ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان أتنظر هذه المرأة إنى دخلت بيتك وماء لأجل رجلى لم تعط وأما هى فقد غسلت رجلى بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ،

قبلة لم تقبانى وأما هى فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلى ، بزيت لم تدهن رأسى وأما هى فقد دهنت بالطيب رجلى » .

تأمل (مارتن) فى كل ما قرأ فانتزع نظاراته للمرة الثانية ووضعها على كتابه وراح يفكر : إن هذا الفريسى يكاد يشبهنى ! لقد اقتصر تفكيره بنفسه فأراد لها الراحة والكسب وجلس يتناول كوب الشاى بهدوء . أما ضيفه ومن كان ضيفه يا ترى ؟ . كان المسيح نفسه هو الضيف ومع هذا فقد أعرض عنه إعراضاً جافاً ولم يبال به بصورة مطلقة ، فياله من رجل أنانى ، ولو جاءنى ضيف مثله فما كنت أعمل ؟ أكنت أسلك سلوكه ؟! أم أنعم وأتلطف ؟ ! .

أسند (مارتن) رأسه بذراعيه ، وقبل أن يدرك ذلك أخذته إغفاءة فنام ، وفيما هو نائم سمع صوتاً يناديه باسمه : مارتن مارتن ... انتبه ( مارتن ) من نومه فزعاً ونادى : من هذا ؟ . ثم قام ونظر حواليه واقترب من الباب فما وجد أحداً ونادى ثانية وإذا به يسمع همساً يردد بكل وضوح : مارتن مارتن ! انظر غداً إلى الشارع فسأكون هناك بالقرب منك .

أنهض (مارتن) نفسه وفرك عينيه ثم ترك مقعده وعاد لا يعي إن كان ماسمعه قد حدث فى حلم أم فى يقظة ، ولم يطل به الزمن على ذلك حتى أطفأ السراج فنام واستثقل .

برق الصبح فاستيقظ (مارتن) و بعد أن صلى أشعل النار واستحضر له من الطعام (جساء الكرنب) و(سخينة الحنطة) وقرّب من الموقد إبريق الشاى ثم أخذ مئزره وجلس إلى عمله قريبا من النافذة ... مرت فى ذهنه حوادث الليلة الماضية وذهب يخطر فيها بين الشك واليقين ، مرة يدعوها حلماً ومرة يحسبها حقيقة واقعة . وعلى هذا جلس إلى النافذة وهو يطل منها إلى الشارع ولا يشتغل إلا قليلا ، فإذا مرّ به من يرتدى حذاء غريباً طأطأ رأسه وشخص إليه ليتفرسه ، مرّ من أمامه حمّال يلبس خفاً من اللباد ، وفات بعده سقاء ، ثم اقترب من النافذة

جندى قديم من عهد القيصر (نيقولا) وابتدأ يزيح الثلج عن النافذة بواسطة مسحاة كان يحملها فى يده ... شاهد (مارتن) حذاءه اللبادى العتيق المرقع بالجلد ، فعرف أنه (ستيبانش) الشيخ الذي كان قد أحسن إليه جار سرىّ فأنزله فى بيته ليعاون خادمه . . . نظر (مارتن) إلى الرجل ثم عاد فانكب على عمله وهو يضحك من تصوراته ويقول : أزاد بى البله يا ترى حتى صرت آمل أن يصدق حلمى ، وإنى لا أرى أمامى إلا (ستيبانش) وهو يزيح الثلج عن النافذة .

وبعد أن شد بإبرته ما يقارب الإثنى عشرة غرزة اقترب إلى النافذة كرة أخرى ومد ببصره إلى الشارع فشاهد (ستيبانش) واقفا وقد أسند مسحاته على الجدار يحمي جسمه ويريحه هنيهة ، فالشيخ كان ضعيف القوى ناحل الجسم لا يستطيع أن يؤدي عملا ولو كان بسيطا إلا بعد جهد .

قال (مارتن) : هلاّ استدعيته داخل الدار فأسقيته الشاى وأعنته على تدفئة جسمه الناحل ! وما أن خطر له هذا الخاطر إلا ونهض قائما من فوره بعد أن غرز المثقب فى مكانه وتناول إبريق الشاى من على النار ووضعه على المنضدة فنقر على النافذة بأصابعه وأومأ إلى (ستيبانش) بالدخول فى البيت بينما أسرع هو لفتح الباب :

— أدخل واصطلى قليلا بنار الموقد فإنك تكاد تهلك من البرد .

— الحق أن عظامى ترتجف من هذا البرد القارس فشكراً لك .

دخل (ستيبانش) فى الدار وابتدأ ينفض الثلج عن ملابسه ، وكيلا يترك على البلاط أثراً ، أخذ ينظف قدميه من الأوساخ ولكنه ما أتم ذلك حتى تمايل وكاد يسقط على الأرض من الإعياء .

— لا تهتم بكل هذا فإني معتاد أن أمسح البلاط يومياً ، تعال واجلس هنا وتناول كوبا من الشاى .

ملأ (مارتن) كوبين من الشاى وقدم أحدهما إلى ضيفه وأخذ الثانى بيده

ثم أفرغه فى الصحن وأخذ ينفخ فيه لتبريده بينما كان (ستيبانش) قد كرع الكوب برمته وصار يشكر لمارتن فضله .

قال : هل لك بكوب آخر ؟ . . ولم ينتظر (مارتن) جواب صاحبه بل راح يملأ له كأساً ثانية وقدمها إليه . أما هو فقد استمر يشرب كوبه الأول وينظر إلى الشارع من آن إلى آخر من خلال النافذة الوحيدة .

قال الضيف : هل تتوقع زيارة أحد فى هذه الساعة ؟ .

قال : هل أتوقع زيارة أحد ... آه ! ذاك مالا أستطيع التصريح به ... كلا إنى لا أتوقع قدوم أحد ، ولكن صوتاً سمعته فى الليلة الماضية لا أتمكن من نسيانه ولا أقدر أن أبت عما إذا كان أضغاث أحلام . وتفصيل الخبر أنى كنت أقرأ فى الكتاب المقدس وأتعرف إلى أخبار المسيح وما لقيه من أتعاب وصرفه من جهود مدة حياته على هذه الأرض ، ولعلك يا صاح سمعت شيئاً عن ذلك .

قال : نعم كنت قد سمعت عن ذلك وهو نزر يسير لا أستطيع الاستزادة منه لأنى أمى .

— حسناً فاسمع ما أقوله لك : كنت أقرأ عن حياة هذه الشخصية الفذة فوصلت إلى حيث تعلمه وهو ذهابه إلى بيت الفريسى الذى لم يرحب به كما يقتضى ، وكلما كنت أقرأ عن ذلك كنت أفكر كيف أن هذا الرجل لم يرحب بهذا السيد الجليل كما يجب وهو ممن رسم للناس عقيدة خالصة هى الإيمان بالله ، وأقول لو كنت فى محل هذا الفريسى فما كنت أصنع للترحيب به والقيام بخدمته . وفيما أنا غارق فى بحر من الخيال إذ ضرب النعاس على أذنى وانعقد الكرى فى جفونى ، فنمت وإذا بى أسمع أحدهم يناديني ، فاستيقظت وكأنه لم يزل يصفر بأذنى قائلا : مارتن مارتن ! سأكون عندك غداً ... حدث ذلك مرتين متتاليتين ، ولأفوه لك بالحقيقة أن ذلك قد علق فى ذهنى وصرت أؤمن بأنى سأزار من قبل صاحب الصوت ومع كونى أخجل أن أصرح بهذا فإنى سوف أبقى فى انتظاره على كل حال .

هز (ستيبانش) رأسه بصمت وكرع بقية ما فى الكأس من الشاى وعاد (مارتن) فتناوله مرة أخرى وملأه ثالثة وقال :

خذ كوبا آخر يا عزيزى . ثم واصل حديثه قائلا : وقد كنت أفكر كيف عاش على الأرض ولم يزدر بأحد مع انه قضى عمره وسط عامة الناس . لقد عاش مع البسطاء وانتقى حواريه من أمثالنا العاملين المخلصين وهو القائل : « إن من يريد أن يعلو عليه أن يتواضع ومن يتواضع فإنه لا بد من أن يعلو » .

وقال : « طوبى للمساكين بالروح ، للحزانى ، طوبى للوديعاء ، طوبى للجياع والعطاشى ، طوبى للرحماء » .

انصرف (ستيبانش) عن كوب الشاي وأخذت عيناه تفيضان بالدموع كلما اشتد إصغاؤه لحديث صاحبه الذى ما كاد ينتهى منه حتى قال :

— ستيبانش ... خذ كوبا آخر .

قال : لقد اكتفيت ياعزيزى وسوف لا أنسى فضلك ، ثم دفع اليه الكأس ونهض قائما وهو يشكر لمارتن حسن صنيعه له .

قال (مارتن) : أهلا بك وسهلا ، عد لزيارتى مرة ثانية إن استطعت فإنى آنس كثيراً بالضيف .

ودّع (مارتن) صاحبه ورجع إلى مكانه فشرب بقية مافى الإبريق من الشاى وأزاح اللوازم جانباً ثم جلس يخيط شقا فى نعل أحد الأحذية وهو لايألو تفكيراً بحديث الكتاب المقدس ولا يغفل عن النظر إلى الشارع ينتظر زيارة صاحب الصوت له بكل مافى نفسه من ثقة و إيمان .

مرّ به جنديان : أحدهما يحتذى نعلا حكومياً ويلبس الآخر نعلا من صنع يده ، وفات من أمامه جار له يرتدى حذاء لامعاً ، ومر بعده خباز يحمل طبقاً على رأسه . وأخيراً قدمت امرأة تلبس فى أرجلها جواريب صوفية وخفاً من عمل الفلاحين وهى تحمل طفلا على ذراعيها .

مرت من أمام النافذة واتجهت إلى الجدار فوقفت عنده وأعطت ظهرها للريح وحاولت أن ترد فضل ردائها على طفلها فلم تتمكن لأنها كانت ترتدى ألبسة صيفية رثة كألبسة المساكين .

حدجها (مارتن) بنظرة للمرة الثانية من خلال النافذة وقال فى نفسه أظنها ضالة تتخبط الطريق ، أو لعلها عابرة سبيل تتلمس القرى والثواء . وبينما هو كذلك إذ سمع نحيب الطفل وصراخه ، وأدرك أن محاولة الأم فى تهدئته كانت من غير جدوى فسارع إلى الخارج وناداها بأعلى صوته :

عزيزتى ... عزيزتى ! التفتت المرأة إلى مصدر الصوت فاستولت عليها الدهشة حينما رأت شيخاً طاعناً فى السن يرتدى زوجاً من النظارات القديمة وعلى صدره مئزر أبيض يستدعيها ويقول :

— لماذا تقفين هنا مع طفلك والبرد قارس ، ادخلى الدار واحتمى فيه واصطلى بحرارة الموقد ، تقدمى من هنا .

نزلا عتبة الباب وقادها الشيخ إلى مجلسه فى غرفته الضيقة وإذ رغب فى فى تسكين روعها قال :

اجلسي هنا يا عزيزتى قريباً من الموقد وارحمى نفسك واطعمى طفلك .

قالت : ليس لى شىء من اللبن وذلك لأنى جائعة منذ صباح اليوم ثم سكتت وضمت طفلها إلى صدرها .

هزّ (مارتن) رأسه وقام فتناول صحناً وصب فيه من القدر شيئا من حساء الكرنب ووضعه مع كمية كافية من الخبز على المنضدة بعد أن غطاها بقطعة من القماش وقال : تقدمى يا عزيزتى وكلى وأنا سأكفيك مداواة الطفل ولا غرابة فقد كان لى بضعة أولاد وأعلم حق العلم كيفية مداراتهم .

اتجهت المرأة نحو المائدة وبدأت تأكل فى حين أخذ (مارتن) الطفل إلى الفراش واهتم بأمره ... قبع (مارتن) بجانب الطفل وراح يصفر له بشفتيه ويصوّت

له بأصابعه ، ولكن ذلك لم يجد فتيلا فى صرف الطفل عن البكاء ، وحينئذ أخذ (مارتن) يمد أحد أصابعه باستقامة إلى فم الطفل ويسحبه بسرعة مجريا ذلك عدة مرات ، وكان يسعى دائما فى أن لا يقبض عليه الطفل بين فكيه ، وذلك لأنه كان مغطى بطبقة من الشمع القاتم الذى يستعمله الإسكافيون عادة . أما الطفل فراح يرقب الأصبع وهو يعلو وينخفض وصار يبتسم أولا ثم يضحك لهذه الحركة ضحكة الفرح النشوان حتى أخذ يقهقه ويداعب (مارتن) بكل اطمئنان فى حين كانت الأم جالسة تتناول طعامها وتحدث (مارتن) عن نفسها وعن مكانها الذى غادرته .

قالت : إننى زوجة أحد الجنود الذين أرسلوا إلى إحدى الجهات النائية قبل ثمانية أشهر تقريبا ، ومن ذلك الوقت لم أسمع عنه خبراً . وقد كنت أستخدم فى أحد البيوت كطاهية حتى ولد طفلى هذا فرغب أهله عنى ولم أزل منذ ثلاثة أشهر وأنا أكافح علّنى أجد محلا أعمل فيه ولو كمرضعة ، ولكنى كنت أعود خائبة بحجة واحدة وهى أنى نحيفة وشاحبة أكثر من اللازم ، وهكذا بقيت كاسفة البال ملتاعة الفؤاد لا أدرى أين أذهب ، ودارت علىّ رحى الفاقة مما اضطرنى إلى أن أبيع كل ما كنت أملكه لأجل القوت .

وأخيراً صادف أن التقيت بزوجة أحد التجار وكانت تستخدم إحدى معارف قريتنا فوعدتنى بالعمل لديها ، وظننت أن كل شىء قد انتهى غير أنها أعلمتنى بعدئذ بأن لا أحضر عندها إلا بعد أسبوع على الأقل .

إن دارها بعيدة وقد خارت منى القوى وهلك طفلى من الجوع : ايه هذه الغرسة الغضة !.. ومن حسن الحظ أن تكون فتاة قريتنا قد أشفقت علينا فأسكنتنا بجوارها بدون مقابل وإلا لم أكن لأعلم ما أصنع .

تنهّد (مارتن) نهدة مازجتها قطرات العطف والحنان وسألها : ألا تملكين ملابس غير هذا الطمر ما يمكنك بها أن تردّى عنك شر البرد ؟

قالت : لقد رهنت أمس آخر مطرف أملكه مقابل مبلغ لايزيد عن خمسة وعشرين فلساً . وهنا قامت المرأة فتناولت طفلها بيديها ثم عادت إلى مكانها ، بينما تقدم (مارتن) إليها بعد أن فتش قليلا فى بعض الأمتعة وفى يده (ملاءة) بالية كانت معلقة على الجدار .

قال : خذى هذه الملاءة إليك وهى وإن كانت بالية إلا أنها خير دثار للطفل.

أخذت المرأة الملاءة و بعد أن نظرت إلى الشيخ نظرة الإشفاق انفجرت باكية انحرف (مارتن) عنها وذهب يلتمس بين طيات الفراش فأخرج منها حقيبة صغيرة فاحتضنها واعتدل بمجلسته ثانية تجاه المرأة البائسة .

قالت : بارك الله فيك يا صاحبى ولاشك عندى أنه هو الذى هدانى إليك كيلا يهلك طفلى من البرد ، لقد كان الجو لطيفا عند ما خرجت سائرة ، ولكن أنظر كيف تغير الحال واشتد البرد والله هو الذى دفعك لتنظر من النافذة فترانى وهو الذى صبّ فى قلبك الإشفاق علىّ أنا المسكينة التعسة !..

قال : وهو يبتسم : هذا صحيح فهو الذى قادنى إليك ولم يكن للصدفة دخل فى ذلك . ثم أخذ يذكر للمرأة حديث حلمه وكيف انه سمع صوتا دعاه باسمه ووعده بزيارته قريبا .

قالت : ومن يدرى فكل ذلك محتمل الوقوع . ثم نهضت ووضعت الملاءة على ظهرها ولفت بها جسمها وطفلها ، ثم انحنت أمام (مارتن) شاكرة إياه مرة أخرى .

قال : خذى هذا فى سبيل الله ، ومد إليها يده وفيها مبلغ قدره ٢٥ فلسا لتفك به مطرفها من الرهن ، اجتازت الفسحة ووراءها (مارتن) حتى خرجت من باب الدار ومضت فى سبيلها .

رجع (مارتن) إلى مسكنه فتناول غذاءه وجلس إلى عمله ماضيا فيه بكل جدّ ولكنه لم ينس أن ينظر إلى النافذة من حين لآخر فإذا سقط عليه خيال أحد

المارة رفع برأسه إليه لينظر من عساه يكون . وما مضى على جلوسه برهة حتى شاهد بائعة تفاح تحط الرحال أمام نافذته تماما وكانت تحمل بيدها سلة كبيرة لم يكن قد بقى فيها من التفاح بعد أن باعت أكثره إلا القليل ، وتحمل على ظهرها كيسا مملوءاً بنشارة الخشب تريد نقله إلى بيتها .

والظاهر أن الكيس كان قد آلمها فأرادت تحويله إلى كتفها الآخر ، ولذا جاءت فألقته على الأرض بعد أن وضعت سلتها جانبا و بدأت بتحريك الكيس حتى تتخذ النشارة فى داخله وضعا جديداً . وفيما هى تقوم بهذا إذ مر بها أحد الصبيان راكضا وفى رأسه طاقية ممزقة فانتشل من السلة تفاحة وهرول مسرعا وكاد يهرب لولا أن أدركته العجوز فتمكنت من إلقاء القبض عليه من ردن قميصه فبدأ يناضل ليفلت منها ، ولكنها شدّت عليه بكلتا يديها ، وحسرت عن رأسه فمسكته من ناصيته بقوة زعق منها الصبى وصرخ صراخا شديداً من الوجع ، وأجبرته على الوقوف .

شاهد (مارتن) كل ذلك فما صبر بل رمى من يده مثقبه وولى ساعيا خارج الدار فاضطرب فى سيره وعثر بعتبة الباب مما أدى إلى سقوط نظاراته عن وجهه ، ومع هذا فإنه لم يتوقف بل أسرع إلى الشارع ماضيا ، وكانت المرأة عند وصوله لم تزل ماسكة بالصبى من ناصيته وهى تتوعده بتسليمه إلى مركز الشرطة لإنالته العقوبة اللازمة والصبى يسعى فى الإفلات ويحتج على الضرب ويطلب إطلاق سراحه .

جاء (مارتن) ففرق بينهما وأخذ الصبى جانبا وهو يقول موجها كلامه إلى العجوز المسروقة : دعيه يذهب يا جدة فى سبيل الله .

قالت : أريد أن أنتقم منه حتى لاينسى ذلك لعام على الأقل ، و إنى أريد أن أسلّم الوغد بيد الشرطة .

بدأ (مارتن) يلتمس من العجوز ويرجو منها فك سراحه ، غيرأنها لم تنصاع

وحاول الصبى الهروب من القيد لولا أن ( مارتن ) أوقفه قائلا :

لقد رأيتك بأم عينى وأنت تسرق التفاحة ، وعلى هذا لابد من أن تطلب العفو من الجدة بشرط أن لاتعود إلى مثل ذلك فى المستقبل .

صرخ الصبى محتجاً ولكنه لم يتأخر من أن يطلب العفو على عجل .

قال (مارتن) : حسناً والآن خذ لنفسك تفاحة ! .

وتناول (مارتن) تفاحة واحدة وقدّمها إلى الصبى وهو يقول : سأعطيك ثمنها يا جدة .

قالت : إنك تسىء إلى هؤلاء الصبيان الجبناء بما تصنع، ومن اللازم معاقبتهم بالسوط ليبقى أثر ذلك عالقاً فى أذهانهم أياماً على الأقل .

قال : آه يا جدة ! إن هذه طريقتنا ولعلها ترضى الله ولو كان من الواجب علينا ضربه بالسوط بسبب سرقته لتفاحة واحدة فما هو مقدار ما نستحقه من عقوبة تجاه ذنوبنا وأخطائنا الكثيرة .

وصار (مارتن) يقصّ عليها وعلى الصبى الواقف بجنبهما قصة السيدالشريف الذى تنازل لخادمه عن دين كبير كان بذمته ، بينما اندفع هذا الخادم بعد ذلك فمسك بخناق مديونه فى الطريق . وكانت المرأة تستمع صاغية إلى حديثه ووقف الصبى ساكتاً .

قال (مارتن) : إلهى علمنا الإشفاق والغفران وإلا سوف لايغفر لنا ! ألهمنا الصبر واغفر لنا واعف عنا ، وبالأخص عن أمثال هؤلاء الصغار الذين لايعلمون .

هزّت المرأة رأسها وتنهدت ثم قالت : هذا صحيح ولكن ذلك يضرهم .

قال : وإذن فعلينا نحن الكبار أن نسلك بهم أسلم الطرق .

قالت : وهذا ما أقوله ! . لقد كان لى سبعة بنين و بنات لم يبق منهم غير بنت واحدة أنجبت لى الكثير من الحفدة . و بعد أن ذكرت بعضا من أخبارها وأخبار بنتها استطردت فقالت : والآن فى حين أنه لم يبق لى من القوة ما أصبر

بها على العمل ترانى أجد فى السعى وراء إسعاد هؤلاء الجفدة الملاح ، فلا أقترب من البيت إلا ويتلقانى كلهم ضاحكين لاعبين . . تلك (آنى) الصغيرة التى لاتفضل علىّ أحداً وهى دوما تناديني بجدتى العزيزة . . . إيه يا جدتى العزيزة كم أحبك ! .

وهكذا استرسلت العجوز فأتمت قصتها . ثم أضافت : وبالطبع لقد كان مندفعا إلى عمله هذا بنزوة من الشيطان — مشيرة بذلك إلى الصبىّ — وليرشده الله .

وعند ما استعدت المرأة لرفع الكيس تقدم الصبى واستأذنها برفعه عنها .

نكست المرأة رأسها دليل الموافقة ، ثم تناولت الكيس وحملته إياه واتجهت معه فى سبيلها بعد أن ودعت (مارتن) وفاتها أن تسأله عن ثمن التفاحة .

أما (مارتن) فوقف يشيعهما بنظرة وهما يسيران على مهل وكل منهما يحدّث صاحبه ببعض الحديث حتى غابا عن العين .

عرج (مارتن) إلى بيته فأعاد نظاراته على وجهه واختطف مثقبه وراح يشتغل ولما أن شاهد العمال يمرون فى الطريق ليشعلوا مصابيح الشارع أدرك أن الوقت حان لإشعال السراج .

وانتهى (مارتن) من عمل حذاء واحد فقلبه وفحصه ليتأكد من متانته ، ثم قام فجمع أدواته وكنس المكان وبادر إلى كتابه فأحضره من أعلى الرف ووضع السراج أمامه وتهيأ للمطالعة حسب عادته .

وقبل أن يشرع فى القراءة تجلت إليه خواطر حلمه الشهىّ فاندفعت فى مخيلته اندفاعا صرفه عن فتح الكتاب من الموضع المعين وفيما هو كذلك وإذا به يشعر بوقع أقدام تخطو وراء ظهره وكأنها تقترب إليه على عجل .

فأدار (مارتن) وجهه إلى إحدى زوايا الغرفة وما كانت أشد دهشته عند ما أبصر جماعة تقف فى الظلام على بعد منه لم يستطع أن يتبيّنهم ، وفى برهة نادى أحدهم بصوت عذب قائلاً : مارتن . مارتن .. ألا تعرفنى ؟.

ذهل (مارتن) وصاح : من أنت ؟ .

أنا يا مارتن ! . . . صفر الصوت للمرة الأولى : وإذا بستيبانش ينبعث من الظلمة فيبتسم فى وجهه . وقبل أن يستطيع (مارتن) مكالمته استحال خياله شعلة وتوارى عن بصره وكأنه لم يكن .

أنا يا مارتن ! . . صفر الصوت للمرة الثانية : وإذا بالمرأة تنبعث من الظلمة وعلى ذراعيها طفلها الصغير ، فتبتسم فى وجهه ويضحك طفلها ، وقبل أن يستطيع (مارتن) ملاطفتها استحالت وطفلها شعلة وتوارى خيالها عن ناظره وكأنه لم يكن .

أنا يامارتن ! . . . صفر الصوت للمرة الثالثة : وإذا بالعجوز مع الصبى و بيده التفاحة ينبعثان من الظلمة و يبتسمان فى وجهه ، وقبل أن يستطيع مكالمتهما استحالت والصبى شعلة وتوارى خيالهما عن بصره وكأنه لم يكن .

غمرت ( مارتن ) نشوة السرور فابتهج لما رأى وراح قرير العين بارد الفؤاد فأدار جسمه ووضع على عينيه نظاراته وابتدأ يقرأ فى الكتاب المقدس حيثما فتح :

« تعالوا يا مباركى الله وأنعموا فى الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريبا فأويتمونى ، عريانا فكسوتمونى » .

ثم قرأ فى وسط الصفحة : « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه لأحد إخوتكم هؤلاء الأصاغر فلله فعلتم » .

وحينئذ أدرك ( مارتن ) أن الحلم قد صدق وأن صاحب الصوت كان قد زاره وحيّاه .

---

# الحلم واليقظة

« أيها الجمال ما أغراك ، وأنت
أيها العقل الباصر ما أنت إلا جبار » .

جلس الجمال إلى جانب الينبوع ليستحم بالماء الصافي البرود ، وقد نشرت الأشجار الخضر أظلالها السخينة على ذلك الربع الهادئ المنعش ، وهبّ النسيم على الحقول والمزارع .

فدعا الطيور السابتة فى الأوكار إلى تهاليلها وتغاريدها المسكرة وهى تمجّد بالجمال وتدلّل به .

وداعب مياه الساقية فأخذت أمواجه تتلاطم عن يمين وشمال ، وهى لا تألو مصوتة معلنة عما هناك من فتنة . ثم مرّ بى فأفاض شعورى وأثار حسى وألهب إدراكى وأشعل عواطفى .

ثم أغرى عينى للتمتع بالجلال المحرّم . . . من هذا الجمال الحىّ الساحر ! الذى أخذ يقترب منزلقا على سطح الماء فى لطف النسيم .

فإذا بعقلى الحكيم يقف حائلا و يقول : تباً لك أتطلب مالا يطلبه العذارى .

ايه ! . . فما أغراك يا جمال ، وما أرزنك ياعقل !

ولما أغمض الكرى عيني تحت تلك الخمائل النضرة ، زارتنى خيالات الغرام ، ودلتنى على مشاهد الرؤيا المقدسة فأشبعت ناظرى ، ولكنها لم تشبع نفسى حيث كانت خرساء صامتة ، وبذا عجزت عن أن تصف لى ذلك الحسن الطافح بالحب ، فكنت إذ ذاك كالطفل الضاحك فى أحلامه والباكى فى صحوه ، ولكنى ما استيقظت حتى وجدتنى جالساً .

إلى رفيقى الحليم

ايه ! . . أيها الجمال ما أغراك !

وأنت . . . أيها العقل الباصر

ما أعظمك !

# مَرثيّة الدّوق ولنكتون

لشاعر العرش الإنكليزى (تنسون)

نشرت هذه المنظومة على عجل يوم الاحتفال بجنازة الدوق ولنكتون سنة ١٨٥٢ ثم هذّبت مرتين فظهرت أخيراً بثوب قشيب قطعة نادرة من الشعر الانكليزى الرفيع ، فقد حلّق الشاعر فى منظومته المذكورة فى جوّ من الخيال لم يتوصل إليه شاعر آخر ، بحيث نسّق مناظرها المختلفة من دق الأجراس وحركات المعارك ومسير الجثمان المخيم عليه السكون الأبدى تنسيقاً جميلا يتوافق ورنين الأغانى التى انبعثت من الأجواق المرتلة فى الكاتدرائية الكبرى فى (لندن) آنذاك . وقد أصبح للمقاطيع الشعرية فى القصيدة روح تعلو وتنخفض حسب التبدلات المثبتة فيها فتوافقها وتسير معها يداً بيد . وهى بحق صورة واضحة من تقدير الأدب للعظماء والقادة

(١)

ادفنوا الدوق العظيم . . . .

بنحيب شامل منقطع النظير .

ادفنوا الدوق الفـــذ . . .

وسط زفرات الأسى المنبعثة من الصدور الحزينة

أسى لايزول بمغيب النجوم وراء الحجب

فلقد كان لايتوانى فى إرسال نجدات الحرب حتى فى ظلمات الليل .

(٢)

فى أى الأمكنة سنودع هذا الرجل الذى نبكيه ؟ .

هنا فى بؤرة هدير المجتمع فى (لندن) . .

لتظل أصـــوات من خدمهم . .

ووقع أقدام من حارب لأجلهم . .

مرددة صدى رنينها قرب عظامه إلى الأبد .

(٣)

سيروا مع الاحتفال ببطئ ونفوسكم مشبعة بالحزن والهم .

فالبلية عالمية كبرى . .

وافسحوا المجال لمسير الموكب الطويل

ليزداد حوله زحام الناس النادبين كلما تقدم فى مسيره خطوة واحدة

ودعوا الموسيقى العسكرية تصدح .

فتعلن فناء آخر رجل من عظماء بريطانيا .

(٤)

اندبوه فإنه كان الأخير من أمثاله

من الذين تملكوا مقاليد العظمة
اننا سوف لانراه مرة أخرى ببزته العسكرية
يخطو الشارع مسلماً بيده على معارفه
إذن تعالوا أيها الأصحاب واندبوا الرئيس عالم الأمة الذى أمسى صامتاً
ابكوه فهو رجل الدم الجسور
وهو السياسى الصادق العزيمة المعتدل بأموره
وهو بشخصيته السامية الكل فى الكل والحسنة العامة التى ينتفع بها الجميع
إذن نوحوا عليه فقد كان ذا خير عميم
بعيداً عن الأطماع الأثيمة . .
كان أعظمنا بيننا ولكنه أقلّنا ادعاء
فهو جليل فى السلم جبار فى الحرب
والقائد الأسبق فى وقته . .
الذي جُبِلَ على أن يحترم شعور الخاص والعام
ومع كل ذلك . . فهو كما عرف الجبابرة
رفيع رغم بساطته . .
سام رغم تواضعه . .
ايه !. ياذا الشعر الأشقر الذى أحبه الناس جميعاً
ايه !. ياذا الصوت الجميل الذي اعتادت البرية أن تستخلص منه فألها
ايه !. ياذا العصب الحديدى الكبير عند اشتداد المصائب
آه . . أيها البرج الشامخ الذى انهار أخيراً
بعد أن جابه العواصف الهابّة من أربع جهاته طيلة السنوات الغابرة
نعم !. هكذا كان الرجل الذى نبكيه اليوم
وبذهابه تلاشت تلك الروح المضحّية من الوجود

و بفنائه ودّع الكون الرجل المنتصر على قاهر العالم لئلا يرى بعد إلى الأبد .

( ٥ )

والآن كل شيء قد انقضى ومضى

فارفعى رأسك يا انكلترا إلى العلاء . . واطلبى الرحمة إلى ابنك الراحل من الواهب العزيز ، وابعثى فى الفضاء شكرك مع أصوات الأجراس ورنينها إلى الواحد الأحد .

ثم عودى لتودعى جثة ولدك فى مقرّها الأخير .

هناك تحت الصليب الذهبى . .

العاكس شعاعه على جدران المدينة وعلى مياه النهر

هناك بين الحكماء والشجعان . .

سيأخذ راحته إلى الأبد . .

فليقرع الجرس وليحمل الهواء نغماته المتتالية

وليرفع الشعب الموقر رأسه شاخصاً . .

إلى تلك العربة الحاملة لجثمان الجبّار فى سكونه

هو نعش يبعث نور الإخلاص والأعمال المجيدة

من بين غطائه الأسود الكثيف

وليقرع جرس الموت مرة ثانية . .

ليرسل رناته الشديدة إلى القلوب المتألمة

فتمتزج مع نغمات التهاليل المحزنة . .

وهى بتصاعدها إلى القبة ذات الصليب الذهبى . .

تصطدم بصوت الطلقات النارية فتزيدها شدة

لقد خرجت من أفواه المدافع تعلن حزنها لفراقه

كيف لا ؟! وقد صحبته طويلا فى حروبه ومعاركه

واستشهدت أمامه فى كثير من الظروف والأحايين
مرددة ضجيجها وأزيزها فى أذنيه . .
فتسمعه تباشير النصر والغلبة وحكم القضاء المبرم
عند كل خوضة كان يخوضها فى المعارك وميادين القتال
وهو بذاك يهب لبلاده الأمان ولملوكها النعيم والسؤدد
و بتلك الصرخات العالية اعتاد إلقاء الدروس الصارمة
للمستبدين العتاة معلناً حقه وخطورة مركزه
ها هى الأصوات المفزعة تردد اسمه العظيم
الذى اكتسبه عن جدارة واستحقاق . .
فقد نظر إلى المدح والذم بعين واحدة . .
لما اتصف به من الأخلاق الكريمة والصفات العالية
ايه !.. ياعروسة الشعر تقدّمى وقبلى اسمه المقدس
واحفظيه بين صفحات قلبك على مدى الأيام
وألهجى به دوماً فى صباحك ومسائك
حتى يسمع الملأ صداه من بين شفاهك
عند ما تنشدين محفوظاتك الموسيقية العذبة .

(٦)

ربما تتساءل أيها (البحار العظيم[1]) : من هذا القادم الذي جاء يجر
خلفه أذياله كالضيف المبجل
تحييه من فوقه الأعلام خافقة خفقان الحزن لفراقه
وتسمعه الموسيقى حواليه نغماتها الشجية

---

(١) يشير بذلك الى قبر البحار نلسون .

فتمشى على دقاتها أرجل العساكر ورجال الدين باكين ناحبين
وبذا يقلقون عليك راحتك .
ذاك ! . . هو قرينك في العظمة ولكنه كان ملك الأرض
كما كنت أنت ملك البحار . .
أنت الذي كنت فريداً بين أعلام بلادك كأكبر رجل بحار عرفته منذ نشوئها
والآن وسط أصوات الطبول الدقة على أوتارها المتنوعة
أتاك علم آخر من أعلام أمتك . .
كأكبر جندى مخلص شهدته منذ توديعك إياها
هو ذاك ! أخوك فى العظمة ولكنه كان ملكا على الأرض
كما اختصتك البحار ملكا عليها
وهو الذى انتصر على أعدائه الذين كانوا أعداءك فحمانا منهم
ورد كيدهم فى نحرهم . .
آه ! . . إذن قم ورحّب به فها هو نفسه
ذاك الذى يستحق كل هاته الاعتبارات والتبجيلات
ودعه يرقد إلى جنبك وليصبح جارك فى آخر ساعاته
لأنه أعظم أبناء انكلترا الذين شهد العالم انتصاراته فى الحروب
ومع ذلك فإنه لم يخسر ولا جندياً واحداً من جيشه
بل احتفظ بكل فرد تبعه فى ميادين القتال .

(٧)

هذه وقفته أمام جيوش (إسى) التى أعلنت العصيان
هناك فى بلادها البعيدة . .
وقد صدمها بقوته وجبروته وكانت معه الفئة القليلة
ولكنها كانت الفائزة المنتصرة . .

جاهد حتى اليوم الثانى حين تقهقر مليّاً
بعيداً عن حيطان (لشبونة) .
تلك المدينة ذات التنظيمات الواسعة النطاق والمملوءة بثلاثة أضعاف من الجنود
المرابطين .
غيرأن الشمس لم تكد تبزغ من مكمنها لترى صباح اليوم التالى
حتى رأته وقد أنشأ أسواراً متعددة
أوقف خلفها جيشه قريباً من الخليج المشرف على المدينة
يتقدم ثانية كالأسد المتحفز بكل مافيه من قوة وشكيمة
وهو أكثر بسالة من يومه الفائت
فرمى العدو من جهات ضعفه التى أدركها بحذقه وذكائه
وبذا ضرب (فرنسا) ضربة جبارة قاصمة .
بما حشد هناك من جيش ومؤن
ثم أتبعها بزوابع متوالية قاهرة هبت عليها وهدت أركانها
وأفزعت نسرها الأكبر المفترس[1]
فما كان من هذا إلا أن حلّق بعيداً بعيداً
فوق تلك الجبال المرتفعة عابراً سفوح قمم (البرنس) الوعرة
المغطاة بأشجار الصنوبر الكثيفة . .
التى أخذت تسمعه نفير الأبواق . .
وصليل الخيول المطهّمة التى اقتفت أثره
فرنّت فى أذنيه كأصوات المدافع وقرقعة الرماح
مردّدة صداها بين الوهاد والتلال
مما زاد فى خوفه وشجّعه على التمسك بأذيال الفرار .

---

(١) يشير بذلك إلى (نابليون)

وهكذا صبت انكلترا على رءوس أعدائها نقمة الفشل والخسران
في وقعة مشهودة كانت عبرة لهم ..
وكان ذاك هو السبب الأكبر . .
الذى استفز النسر الألد مرة ثانية لينال ماخسره من مطامع
فصرخ صرخة عالية هدت الفضاء ..
ثم نشر جناحيه العريضين على قارة أوروبا
فكانا كالغمامة السوداء حجبت عن الأرض نور الشمس
حينذاك افترس ما كان له أن يفترس من عروش وتيجان
إلى أن برز له هذا الرجل من مكمنه
حاملاً بيده مشعل الواجب المتّقد
فأفزع ذلك الطائر المخرّب فى ساعات يوم رهيب
الذى شهد إحدى الغارات العجيبة فى تاريخ البشر
فجرفت أمامها كل صخرة متينة الأساس قوية الارتكاز
ثم بعثت بز بدها فوق أمواجها المتلاطمة
إلى أبعد ما هناك من مدى ومسافة . .
حتى استفزّت بذلك أبواق (البروسيين) وطبولهم الخشنة
فأخذت فى الإيقاع وسط هوائها العبوس الجاف
التى ألفته مدة طويلة . .
عند ذاك أخذ جناح النسر فى التقلص والانسحاب
فبان من ورائه وميض منير من السماء المنيرة
كشف عن الظلمة الحالكة التى سترت الحق عن العالم مدة من الزمن
وهكذا كان لانكلترا فريدها الذى محت به أعداءها من الوجود وضيقت
عليهم الخناق بعد ما كسرتهم شر كسرة .

(٨)

إن هذا الرجل العسكرى الشجاع هو الذى علّم البشرية
فى ذلك الميدان ميدان معركة (واترلو) الذى زلزل العالم
كيف و إلى أى حد تحتمل القلوب الجسورة عذاب الحروب

(٩)

كان مثلك أيها البحّار المجيد — رفيق الحق ، لبّن العريكة ، نزيها من الأدران
التى يتصف بها غالباً كل جبان ما كر
ايه !.. يا منقذ الجزيرة ذات الساحل الفضى
ايه !.. يا خاضع بحر البلطيق ونهر النيل
ليكن هذا الحادث الجلل باعثاً قوياً لروحك الإلهية
كما كان حب الوطن فيما مضى باعثاً لعواطفك السامية عند تلك الوقائع البحرية
فيبعث فيك الغبطة والنشوة عند حلول عظامه جنب عظامك
و بذلك تظل أصوات الناس وتهاليلهم العالية مرددة صدى اسميكما على مدى
الأجيال ؛ تظل كبرهان ساطع لما تحويه بقعتكم من شهرة عالمية
أصوات متعالية من قلوب محبة طوال أعمارها سواء كانت فى الفرح أو فى
الأسى ، فى الأنس وفى الحزن
شاهدة بما كان لقائدهم الكبير من منزلة فضلى مقرونة بالاحترام السامى .
بعد ما خط الشرف اسمه على جبين الدهر
ليبقى أبداً شارة الإخلاص والحب الوطنى .

# أسئلة ثلاثة

للقصصى الروسى « ليوتولستوى »

« إن أفضل ما نريد إنجازه
هو عمل الخير »

اشتهر أحد الملوك الأقدمين بحب السطوة والحرص على السلطان ، وكان أشد مايؤلمه الفشل فى بعض محاولاته التى يقدم عليها ، فخطر بباله يوماً أنه لوأدرك أموراً ثلاثة كان الفوز حليفه فى جميع مايريد وما يصبو إليه من تمام العز والمجد لنفسه و بلاده .

ولكن من يدله يا ترى على حقيقة هذه الأمور الثلاثه التى سرّته بها نفسه ليحقق بواسطتها مطامعه و يدرك عن طريقها ما أمّل وتاق .

وما أن صح له هذا الخاطر بادر بإعلان فكرته إلى شعبه وخصّ لمن يأتيه بالجواب الشافى عن أسئلته الثلاثة بإتاوة ثمينة جليلة القدر .

ونادى مناديه : أيها الملأ من يدل الملك عن : « أفضل الأوقات للبدء بتنفيذ عمل من الأعمال ؟ وما هو أهم ما يجب عمله ؟ ومن هو أجلّ من يستحق الاستعانة به من الناس فى إنجاز ذلك العمل ؟ إن من يستطيع أن يخبر الملك بأحسن الجواب عن هذه الأسئلة الثلاثة فليتقدم وله منه المقام الأعلى والمنزلة الرفيعة.

هرع الكثيرون من رجال العلم والعرفان إلى البلاط الملكى لينبئوا الملك بما أراد ويعلموه عما استفتى ، والكل يمنّى نفسه بالحصول على الهدية السنية التى عينها للفائز .

غير أنهم اختلفوا فى أجوبتهم ، وتباينوا فى تعاليلهم ، فعاد الكل بخفّى حنين

ذكر فريق منهم أن على من يريد معرفة أفضل الأوقات للشروع بعمل ما أن يختط لنفسه قبل الإقدام بأيام أو أشهر أو سنوات منهجاً واضحاً لايحيد عنه و بهذا فقط يستطيع إنجاز ما يطلب فى وقته اللازم .

وأجاب فريق آخر أنه يستحيل على المرء أن يتنبأ بأفضل الأوقات لكل عمل قبل الشروع بمزاولته ، ولكن هذا لايعنى وجوب الاستغراق فى الكسل وتمضية الوقت دون الاهتمام بما يحدث له من أمور تتطلب العمل حسب مقتضى الحال .

بينما عرض فريق ثالث أن الإنسان مهما كان فطناً فإنه لا يستطيع أن يعيّن بالضبط أفضل الوقت الذى يناسب عملاً ما ، ولهذا يصبح لزاما على الملك تأليف مجلس شورى من رجال العلم والمعرفة يستعين بهم فى تهيئة ما يريد العمل به فى أحسن الفرص ، وردّ آخرون هذا الرأي بقولهم : « قد يعترض المرء أحياناً أمور مستعجلة لا يسمح المجال بعرضها على المجلس المذكور لأخذ الاستشارة المطلوبة ، إذ يقضى الحال العمل بها أو تركها لساعتها ولاتخاذ قرارات مستعجلة وحاسمة ، ففى مثل تلك الظروف يجب على المرء أن يحيط علماً بكل ما جريات الحوادث حتى لا يصيبه الفشل فيما يقدم عليه ، وهـذا ما لا يدركه إلا السحرة ، إذن فالواجب يضطرنا إلى استشارة هؤلاء إن أريد معرفة أصوب الأوقات لـكل مشروع .

واختلف الجمع كذلك فى جوابه عن السؤال الثانى ولـكنه انحصر فى أمور لا رابع لها وهى العلم والدين والمهارة الحربية ، وعلى هذا تباين جواب الناس عن السؤال الثالث أيضا ، فمنهم من فضّل رجال الدين ، ومنهم من قَدَّمَ الأطباء ورجال الحـكمة ، بينما آخرون ذكروا الضباط ورجال الحرب .

ولما لم يحصل الملك على غايته ولم يعثر على الجواب الذى تطمئن إليه نفسه عزم على أن يستشير فى الأمر ناسكا من رعيته وهو آخر سهم فى الـكنانة .

كان الناسك المذكور من رجال الحـكمة والورع يسكن فى مكان سحيق قريباً من إحدى الغابات الـكثيفة التى لم يترك جوارها منذ أن استوطن المكان ولم يكن يزوره فى مقامه هذا إلا من عرف فضله من بعض معارفه من عامة الناس .

أمر الملك حراسه بالاستعداد لزيارة الناسك الحـكيم ، وفى الموعد المضروب للسفر ارتدى ملابس بسيطة أشبه بملابس الفقراء واعتلى صهوة جواده وسار يحفّ به رجال الحرس من كل صوب ، وقبل أن يصـل إلى موطن الناسك ترجَّل وذهب إليه بمفرده تاركا من كان بصحبته بعيداً عن المكان المقصود بقليل .

كان الناسك حين اقترب الملك إليه يحرث قطعة من الأرض تقع أمام كوخه

و إذ تلاقى الشخصان حيّا كل منهما الآخر ثم انعكف الناسك على عمله دون تأخير .

لقد كان الناسك كهلا ضعيف الجسم ، وكان يتنفس بشدة كلما همّ بقلب كمية من الصعيد بواسطة معوله مما دل على أن العمل قد أضناه وأنه قائم بذلك منذ بضع ساعات .

شاهد الملك كل هذا فدنا منه وهو يقول : « قصدتك أيها الناسك الحكيم لتجيبني عن أسئلة ثلاثة أنشد من ورائها فوزاً عظيما . ألا تدلني يا صاح ؟! ولك من الله الثواب : عن أفضل الأوقات للشروع بعمل ما ، وعن خير الناس ممن يمكن أن أعتمد عليه ، وعن أفضل القضايا التي يجب أن أعيرها كبير اهتمامي » .

أصغى الناسك للقول و بدلا من أن يجيب السائل عن سؤاله بصق في راحة يده ليقوى على مسك المعول وعاد إلى ما كان عليه من جديد .

فما كان من الملك إلا أن قال : « لقد تعبت أيها الناسك العزيز فدعني أشاطرك العمل قليلا » ؟.

فقال الناسك : شكراً لك !.. وقدم لزائره المعول وجلس هو على الأرض يستريح .

اشتغل الملك في الحرث حيناً ثم توقف عن العمل وأعاد أسئلته الثلاثة على الناسك ورجا الإجابة عليها ، إلا أن هذا نهض متثاقلا وطلب المعول من الملك قائلا : دعني أساعدك فقد عجزت عن العمل كما يبدو لي . أما الملك فأبى واستمر يحرث زمناً يقرب من الساعتين بان عليه بعدها آثار التعب بكل جلاء .

أخذت الشمس تختفي بالتدريج وراء أشجار الغابة فبعثت بظلها المديد على ذلك السهل الواسع ، ولعل هذا الظل المظلم كان السبب في تنبيه الملك من غفلة أفاق منها فرأى نفسه في عالم موحش لا أنيس فيه إلا الناسك الشيخ فركز المعول في الأرض وقال : لقد أتيتك أيها الرجل الحكيم طالباً الإجابة عن أسئلتي ولئن لم تفعل فأخبرني لأعود من حيث أتيت .؟!

هنا نهض الشيخ منزعجاً كمن فاجأه أمر غريب ، وصوّب نظره إلى جهة الغابة وقال للملك : مهلا !. إنى أسمع وقع أقدام بعيدة ! نعم !. ها هو رجل يقصدنا ! ألا تراه ؟ . ثم أشار بيده إلى القادم .

التفت الملك إلى الجهة المشار إليها و إذا به يبصر رجلا يسعى نحوهما من طرف الغابة وقد مسك جانب بطنه بيديه والدم يسيل من بينهما بشدة ، وعند ما وصل إلى المكان سقط على الأرض مغشيا عليه وهو يئن بضعف بيّن .

فأخذ الملك لساعته ينزع عن الرجل ملابسه ليرى موضع الإصابة ، ولما أزاحها عن جسمه وجد قرب الخصر مما يجاور المعدة جرحاً بليغا فغسله بكل اعتناء ، و إذ كان الدم يتدفق بقوة هائلة جابه صعوبة لاحد لها حتى أوقف النزيف ، ولما تم له ذلك ربط الجرح بمنديله وعصابة كانت للناسك .

ثم ظهر على سيماء الجريح علائم الانتعاش والراحة ، و بعد لأى طلب جرعة من الماء فسقاه الملك عسًا (بضم العين) من المساء الصافى كان قد احتفظ به الناسك فى كوخه .

دنا الأصيل وتضيّفت الشمس ، و بدأ الهواء يهبّ بارداً على ذلك السهل المترامى الأطراف والاثنان وقوف بخدمة الرجل الجريح ، حتى إذا ما خشيا عليه سوء العاقبة حملاه داخل الكوخ وطرحاه على الفراش . استقر المصاب فى مكانه فاستلقى بكل هدوء وأغمض عينيه واستغرق فى سبات عميق . أما الملك الذى أعياه المشى وأضناه التعب فإنه اضطجع قرب المدخل وهجع بكل طمأنينة ، ولعله لم يشعر بمثلها فى كل تلك الليالى القصيرة من الصيف .

وعند الفجر استيقظ الملك من رقاده ونظر حواليه فعرف بعد لأى مقامه وتذكر حوادث الأمس ، فأدار بوجهه ليبصر الجريح المطروح فإذا به يحدق إليه بعينين براقتين ملؤهما السرور والحب ، وهو يقول : العفو ياسيدى ! . .

فأجاب الملك : من أنت وما معنى طلبك العفو منى ؟ . إنى لا أعرفك أيها الرجل حتى تقول ما قلت . فرد الجريح قائلا : نعم لقد صدقت أنت لا تعرفنى ولكنى أعرفك تمام المعرفة ، أنا ذاك العدوّ اللدود لك الذى أقسم لينتقمن منك لنفسه ، لأنك أمرت بإعدام أخيه وحجزت على جميع أمواله وممتلكاته . وقد بلغني أنك قاصد هذا الناسك فى يومك القائت فجئت مترصداً أطلب اغتيالك لدى عودتك لأشفى منك غليلى . ولما انقضى اليوم ولم تعد وثبت من كمينى مفتشا عنك فصادفنى رجال حرسك الذين عرفونى وضربونى فأصابوا منى مقتلاً قبل أن أتمكن من الفرار سالما ، ولقد جئت للناسك ملتجئا ولولا تضميدك لجرحى واعتناؤك بى لأحيط بى ولصفرت وطابى

رغبت فى قتلك فوهبت لى الحياة .. آه !. ما أكرمك! ولو أنك لم تعرفنى بادئ ذى بدء . سأكون إليك أيها الملك الجليل — إن أردت — خادما أمينا ، وسأقدم أولادى لخدمتك أيضا . إذن فالعفو ياسيدى !

تهلل وجه الملك فرحاً بهذه الصدفة التى أتاحت له أن يربح فيها من عدوه صديقا حميما بمثل هذه السهولة ووعده بإرجاع كل مااغتصب منه من مال وعقار .

خرج الملك من عنده لمواجهة الناسك ؛ راغبا فى أن يسمع منه قبل الرحيل جواب أسئلته ، اقترب إليه فوجده منهمكا فى غرس بعض البذور فى التربة التى حرثت أمس ، جلس قبالته وقال له : أطلب منك أيها الناسك لآخر مرة أن تجيب عن أسئلتى أيها الرجل الحكيم لأنى مودّع إياك عن قريب .

عجبا !. قال الناسك : ألم تع الجواب بعد وقد أجبت عما تريد بكل تفصيل .

فقال الملك . كيف ذاك وماذا تعنى ؟

قال الناسك مهلا !.. ألم تشاهد بأم عينك لولا عطفك على ضعفى ومواساتك إياى أمس للقيت حتفك بيد ذاك الجريح لدى عودتك ولندمت على عدم مكوثك معى ، إذن فإن أفضل الأوقات كان عندما بدأت تحرث هذه التربة معى

وكنت أنا أفضل الناس إليك ، وعملك الخير لى كان أحسن أعمالك ، وعند ما لحق بنا الجريح كان أفضل الأوقات وقت اعتنائك به ، لأنك لولا تضميدك لجرحه لمات قبل أن يصطلح الأمر بينكما وكان هو خير الناس إليك ، وما قمت نحوه من خدمة كان أحسن الأعمال التى شرعت بها .

تذكر أيها الزائر الكريم أن الساعة التى أنت فيها هى أفضل الأوقات لديك ، لأنها الزمن الوحيد الذى تمتلك فيه القدرة على العمل ، فالماضى فات والمستقبل مجهول ، وأفضل الرجال إليك هو من كان بين يديك لأنه لا يعرف سواك ولا يشكو إلا إليك . أما أفضل ما تريد إنجازه فهو عمل الخير .. وذاك هو الغرض الأصلى الذى أرسل الإنسان من أجله إلى هذه الحياة .!

فيا أيها الرجل اعمل الخير ما استطعت إليه سبيلا . ...

# الرّسُولُ الطّائِر

لورد تنسون

طر إليها واملك قلبها لى ، وقل لها ، قل
لها إني تابعك .

آه — أيها السنونو المحلق فى الفضاء الواسع الميمم شطر الجنوب
عج فى طريقك وقف مغرداً — على ركن السطح المموه بالذهب
وقل لها — قل لها — ما بحته لك من عواطف جيَّاشة .
بح — أيها السنونو — بذلك السر الذى تعرفه وقل لها —
إن طقس الجنوب منير ولـكنه شديد ومتقلب
غير أن جو الشمال حالك ، ولـكنه عليل وجميل .

آه — أيها السنونو — كم تود نفسى متابعتك
فأقف مطلا على نافذة غرفتها لأصفر وأزمر
وأردد أصوات عشرين مليونا من المحبين

آه — لو كنت مثلك فأرافقك داخل غرفتها
حتى تلقينى بين أحضانها فأظل أترجح فى المهد الأبيض الناصع قريباً من ثدييها .
و إذ ذاك أسمع ترديد دقات قلبها النابض
حـــتى أنام نومتى الأبدية .

سلها — لماذا تتوانى عن إلباس فؤادها رداء الحب
قبلما يتلاشى كما تتلاشى ذرات الرماد فى الهواء الفسيح
قل لها ارتدى الثوب حينما تتزين أشجار الغاب
بالحلل السندسية الجميـــلة .

خبرها — أيها السنونو — أن رفاقك قد سبقوك فى الطيران
وأنك تطرب للطبيعة فى الجنوب
ولـكنك تركت عشك فى الشمال .

قل لها — ما أقصر الحياة وما أطول زمن الحب .

وخبرها — بأن أيام الصحو فى الشمال أثناء الصيف قصيرة جداً

بينما يبقى بدر الجمال فى الجنوب مضيئا

طيلة تلك الليـــــالى الهادئة .

آه — أيها السنونو -- المجتاز تلك الحقول والغابات الذهبية

طر إليهـا — مزمراً — بصفيرك الرنان ، ومستعطفا بأجنحتك المصفقة

واملك قلبها لى

وقل لهـا — قل لها — إنى تابعك .

# أسرحدون

## ملك آشور

للقصصى الروسى ( ليوتولستوى )

وقد جئتك فأعلمتك أن الشر الذى
تريد أن تصيب به الغير تصيب به
نفسك أيضاً لأنه الحياة واحدة فى
الكل وما حياتك إلا جزءا من هذا
الكل .

غزا ملك أشور المسمى ( أسرحدون ) ديار الملك ( لايلى ) فقضى على جيوشه وفتك بقواده ومثل بأمرائه وترك حصونه وقراه خرابا يبابا وضرب على شعبه أقسى أنواع الذل والهوان واقتاد جلهم أسارى إلى مملكة أشور الجبارة ثم أودع ملكها ( لايلى ) ظلمة السجن .

واضطجع أسرحدون ليلة على فراشه يقتدح زناد فكره للوصول إلى أفظع أساليب الإعدام التى يستطيع تطبيقها على الملك السجين ولقد حاول أن يفصل فى ذلك برأى غير أنه لم يتبين الأثر رغم الجهد الذى صرفه حتى استحال تفكيره إلى حيرة وسهوم .

وهو كذلك إذ طرق سمعه وقع أقدام تقترب من سريره فالتفت إلى جهة الصوت وإذا به أمام شيخ هرم ذى شيبة مسترسلة ينظر إليه بعينين هادئتين وأخذ يحاوره :

— أأنت الذى تريد أن تبطش بالملك ( لايلى ) ؟

— نعم ولكننى لم أهتد لحد الآن إلى أمثل الطرق للبطش به .

— ولكنك أنت ( لايلى ) بعينه .

— هذا غير صحيح فـ ( لايلى ) هو ( لايلى ) أما أنا فأنا .

— أنت و ( لايلى ) نفس واحدة وما هو إلا الظن الذى يوهمك بأنك لست ( لايلى ) وأن ( لايلى ) هو غيرك .

— ماذا تعنى من كل هذا ؟ أنا هنا طريح فراشى الوثير وحولى عبيد مطيعون من رجال ونساء وسوف آنس مع رفاق غدا كما فعلت بالأمس بينما ( لايلى ) سجين قابع كالطير فى سجنه وسأمثل به صباح الغد فينازع فى العذاب حتى يهلك وعندئذ أمزق جثته شر ممزق وأرمى بأوصالها إلى الكلاب طعاما .

— ولكن أنت لاتستطيع أن تسلبه حياته أبدا .

— كيف كان الحال إذن مع الـ (١٤) ألف محارب الذين سحقتهم فى الحرب

سحقا فأبقيت من جثثهم رابية عالية من الأشلاء ، وأنا الآن حيّ أرزق ، أما هم فقد ماتوا واندثروا ، ألا يكون ذلك برهاناً على أنى أستطيع أن أسلب بعض الناس حياتهم .

— وهل لك أن تثبت أنهم قد ماتوا وأنهم اليوم ليسوا في الوجود .

— ألا يكفيك أنى لم أعد أراهم بعد ذاك وفيما عدا هذا فإنهم نالوا العذاب الأليم . أما أنا فلا ، وهكذا كان نصيبهم الويل وكان من حظى النعيم .

— إن هذا هو ما يتراءى لك وما تصوره إليك مخيلتك . أما الحقيقة فهى أنك قد عذبت نفسك ولم تعذبهم .

— ما هذا ياصاح إنى لم أفهم ماترمي إليه .

— وهل تريد أن تفهم .

— نعم أريد ذاك .

— إذن تعال معى واقترب من هذا الحوض .

وأشار بيده إلى حوض غير بعيد مملوء بالماء .

فنهض الملك من مكانه واقترب من الحوض .

— انزع عنك ملابسك وخض فى الماء .

فامتثل (أسرحدون) ما أمره به الرجل العجوز الذى أخذ الآن يملأ جرة بالماء ويقول : وحالما أباشر بصب هذا الماء على جسمك عليك أن تغطس رأسك فى ماء الحوض إلى أن أنتهى .

ثم رفع الرجل العجوز الجرة فوق رأس الملك فأحنى هذا رأسه حتى غاص فى الماء . استقر به الحال هنيهة شعر أثناءها بأنه لم يعد ذلك الملك المعروف بـ(أسرحدون) بل أصبح شخصا آخر . أحس بنفسه أنه ذلك الشخص الآخر الذى توهمه وهو جالس على فراش وثير قريبا من امرأة حسناء فاتنة . إنه لم يكن قد رآها قبلا ولكنه عرفها أنها زوجته . نهضت الحسناء من مكانها وصارت تقول :

زوجى العزيز (لايلى) إنك تعب ولاشك من أعمالك بالأمس وقد نمت أكثر من المعتاد، وكنت أراقبك وأنت نائم فلم أكن أستطيب إيقاظك. واعلم أن الأمراء والقادة فى انتظارك الآن فى الصالة الكبرى فالبس ثيابك واخرج لمقابلتهم.

لقد فهم (أسرحدون) من حديثه مع زوجته بأنه كان (لايلى) واستغرب إذ لم يكن يعرف ذلك من قبل. وبادر مسرعاً فى ارتداء ملابسه ثم توجه إلى الصالة الكبرى حيث كان فى انتظاره كبار رجال الدولة

وعند دخوله قام الكل يحيونه ركوعا إلى الأرض ثم نهضوا وجلسوا أمامه بعد أن أشار إليهم. وهنا بدأ أكبر الأمراء سنا بالكلام فقال: «إنه لم يعد فى الإمكان بعد يا صاحب الجلالة السكوت على ما يقوم به الملك الشرير (أسرحدون) ضد المملكة والتغاضى عن مكره واحتمال إهاناته المتعددة وعلينا أن نعلن الحرب ضده لنوقفه عند حده. وبعد محاورة قصيرة أبان الملك (لايلى) أنه لايوافق على فكرة إعلان الحرب، بل يفضل إرسال سفراء من قبله إلى الملك (أسرحدون) لتقديم الاحتجاج اللازم.

وعلى هذا انفض الاجتماع وأخذ الملك على الفور بتعيين ممثلى هذه البعثة التى تقرر إيفادها فجاءت نخبة من رجاله الممتازين الذين يعتمد عليهم فى الملمات فأمرهم بالسفر بعد ما أوضح لهم ما يجب بيانه فى حضرة المليك المعتدى.

وبعد أن أتم كل ذلك أعد (لايلى) — الذى هو فى الحقيقة الملك أسرحدون — العدة للخروج إلى الصيد فكان موفقا فيما ذهب لأجله إذ اصطاد بنفسه اثنين من اليحامير ورجع بهما إلى القصر مسرورا وحضر المائدة مع رفقائه ثم شاهد حفلة راقصة رقصت فيها الكثيرات من حسان الجوارى.

وفى اليوم الثانى حضر البلاط ونظر فى شؤون رعيته وحاكم المجرمين وأقر — كعادته — جميع القضايا التى قدمت إليه. وعند الانتهاء من واجباته ركب

إلى الصيد فوفق فيه أيضا إذ أصاب لبؤة مسنة واصطاد شبليها وعند رجوعه إلى القصر حضر مائدة الطعام مع رفاقه واشترك فى حفلة الرقص ثم عاد فصرف ليلته مع زوجته الحبيبة .

وهكذا قضى أيامه ولياليه لبضعة أسابيع موزعا وقته بين تأدية واجباته الملكية ولهوه وهو ينتظر عودة سفرائه الذين بعثوا إلى الملك ( أسرحدون ) ولم يمض شهر واحد على هذا الحال حتى عاد السفراء إليه فإذا هم قد جدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وهم يحملون أمرا من الملك أسرحدون إلى الملك ( لايلى ) يقضي عليه بدفع جزية باهظة من الذهب والفضة وأخشاب السرو والحضور بنفسه إلى بلاط الملك ( أسرحدون ) لتقديم الولاء والطاعة لسلطانه وإلا فسوف يطبق عليه ما أجراه على رجال بعثته .

وهنا قامت قيامة الملك ( لايلى ) الذى هو أسرحدون فعقد اجتماعا خطيرا من أمرائه ووزرائه وكبار رجال حكومته للمشاورة وإياهم بما يجب العمل به فى هذا الشأن فأجمع الكل على ضرورة إعلان الحرب حالا ضد الملك ( أسرحدون ) حتى لا يفاجئوا بهجومه فوافق الملك على هذا وشرع بالنفير العام فحشد الجنود ونصب نفسه رئيسا أعلى للجيش ثم أعد العدة للحملة العسكرية اللازمة .

استمرت الحملة فى سيرها سبعة أيام كان يقوم الملك فيها كل يوم خطيبا فى جنوده يحثهم ويشجعهم على الإقدام ويثير فى نفوسهم الحمية للصمود أمام العدو الظالم . وفى اليوم الثامن وصلت الحملة إلى حيث ترابط قوة الملك ( أسرحدون ) بجوار واد عريض يجرى فيه نهر عظيم . ابتدأت الحرب وشمرت عن ساقها فإذا هى حرب ضروس لا تبقى ولا تذر وقد أبدى جيش ( لايلى ) فى أولها من الشجاعة الظاهرة والعزيمة الصادقة ما أطمعهم فى الفوز غير أن جيش العدو أخذ يندفع من أعالى الجبال كأسراب النمل ويهرع من كل مكان وينسل من كل صقع وهو يلاحق جيش ( لايلى ) ويطوقه من جميع جهاته فثارت النخوة فى نفس هذا

الملك وأسرع بعربته إلى وسط المعركة مشجعاً ومجاهداً وماذا يعمل والعدو ينهال ألوفا مؤلفة على أنصاره القلائل فكانت معركة فاصلة انجلت أخيراً عن أسر لملك ( لايلى ) بعد أن أثخن جسده بالجراح الدامية .

ساروا به تسعة أيام وهو مربوط بأغلاله وحوله الحرس من محاربى الملك ( أسرحدون ) حتى إذا أسفر صباح اليوم العاشر وصل الكل إلى ( نينوى ) فراح المقاتلون إلى أهليهم فرحين يزفون إليهم النصر المبين والظفر العظيم . أما ( لايلى ) فأودع فى سجنه ليقاسى من آلام الجراح والجوع والخيبة أشدها وأوجعها ، حينذاك شعر بضعفه وعلم أنه لم يعد يستطيع أن ينتقم من أعدائه حتى مقابل ما يتجرعه من مرارة العذاب فى محبسه المنفرد وكل ما كان فى مقدوره عمله هو أن يتجلد وينتظر ساعة إعدامه محتسباً صابراً حتى لا يدخل فى نفوس القوم سروراً مما كان يقاسيه من ذل وانكسار . وظل فى سجنه عشرين يوماً شاهد فيها الكثير من أقربائه ورفاقه وهم يقادون إلى الموت وسمع بأذنيه أنين المعذبين الذين كانوا ينحرون أحياناً بعد ما تقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف أو تسلخ جلودهم وهم أحياء . نظر إلى كل هذا بعينيه ولكنه أعمل جهده لإبعاد آثار الجزع والخوف والشفقة عن نفسه ولقد رأى زوجته الحبيبة موثقة ومساقة من قبل اثنين من الخصيان السود إلى الملك — أسرحدون — فلم يضطرب لكل هذا لئلا يحتقر ويهان أكثر مما هو فيه . وجاء يوم وإذا بالحارس الذى وكل لمراقبته يبادره بكلام يثير فى نفسه الكوامن ويمثل إليه ذكريات الماضى العزيز الذى أضاعه فهب من مكانه كالمجنون يريد فك عقاله بتكسير قضبان الحديد لباب السجن . وعند ما خاب عاد يريد الانتحار ، فضرب برأسه على هذه القضبان الصلدة حتى فقد قواه وأنَّ أنّة اليائس ، وسقط بعدها مغشيا على الأرض . وأخيرا فتح باب السجن وأقبل عليه جلّادان ، فربطا يديه إلى ظهره بشدة ، ثم ساقاه إلى محل الإعدام .

نظر ( لايلى ) إلى المكان وإذا به ساحة كأرض المجازر مشبعة بالدم ،

وفى وسطها ركيزة حادة لا يزال يقطر منها الدم ، حيث مزقت عليها قبل حين جثة لأحد رفاقه البواسل فجرداه عن ملابسه ومسكاه من ساقيه النحيفتين ورفعاه ، وكادا ينصبانه على الركيزة القائمة .

انمات قلب (لايلى) من الفزع ، وعرف أن هذا هو الموت ، وأن هذا هو الهلاك ولم يبق فى نفسه غير هذا الخاطر المرعب الذى أنساه بأنه صمم على أن يلاقى الحوادث بجلد وصبر إلى النهاية ، فتنهد وأخذ يصلى فى طلب الرحمة ، ولكن ما من مجيب .

فصاح وقال : إن هذا غير ممكن وهو بلا شك حلم لا أصدق حقيقته وأعمل جهده للنهوض فأفلح بعد لأى وإذا به لا (أسرحدون) ولا (لايلى) بل كان حيواناً من أنواع الحيوان ، فأخذته الدهشة من هذا التحويل وتملكه العجب من أنه لم يكن يعلم بهذا من قبل .

لقد أصبح حيواناً يرعى فى أحد الوديان يلتهم الأعشاب والحشائش ويبعد بذيله الذباب عن جسده الضخم وبقربه جحش أسمر اللون طويل الساق مخطط الظهر وهنا رفس الجحش وأخذ يدور ويعدو مسرعاً إلى أن وصل إلى (أسرحدون) فاقترب منه ومد بفمه إلى موضع بطنه يبحث بكل لطف عن حلمة الثدى حتى وجدها فحركها بخفة وأخذ يزق منها اللبن زقّا . عند ذاك عرف (أسرحدون) أنه حمارة وهو أم هذا الجحش الذي أتاه جائعاً وأخذ يزق من ثديه اللبن فلم يعجب من هذا الأمر بل شعر بهزة الفرح تتملكه وهو بقرب جحشه الصغير المحبوب وهو بوقفته هذه أحس بجسم خاطف يمر به فيصيب جسمه ويؤلمه فيفر مسرعا إلى القطيع الذى شرد منه أولاً أما الجحش فأسرع يعدو كذلك إلى جنبه وكادا يصلان إلى القطيع لولا أن أتاهما سهم آخر يئز فى الهواء ويصيب عنق الجحش فيدميه ويسقطه على الأرض فما استطاع (أسرحدون) أن يترك ولده بل وقف إلى جنبه

يحرسه و ينتظر قيامه وقد نهض الجحش قائماً على أرجله الطويلة الرفيعة وهو يتمايل ويترنح إلا أنه سقط ثانية فمر به حيوان يمشى على ساقين وهو الإنسان فاحتز رأسه وأجهز عليه .

إن هذا لا يمكن أن يكون إذ لا أزال غارقاً فى هذا الحلم النكر و إننى لست بالحمار ولا ( لايلى ) ولـكننى ( أسرحدون ) ملك أشور وصرخ صرخة يحاول بها النهوض والتملص من هذه الرؤيا الخبيثة و إذا به يرفع رأسه من الحوض و يشاهد الرجل العجوز لم يزل واقفاً بجانبه وهو يصب على جسده بقايا المـاء فى الجرة .

آه . . ما أهول ما قاسيت وما أطول المدة التى قضيتها فى هذا الحلم المزعج .

فأجاب الشيخ : « إنك لم تقض سوى فترة قصيرة من الزمن فقد غطست رأسك تحت سطح المـاء وعدت فرفعته ، وهاأنذا لم أنته بعد من صب المـاء على رأسك . والآن أخبرنى هل عرفت حقيقة ما كنت أرمى إليه .

فلم يجب (أسرحدون) على هذا السؤال واكتفى بأن التفت إلى الرجل التفاتة المتذهل . أما الشيخ العجوز فواصل كلامه قائلا :

وهل عرفت أن (لايلى) لم يكن إلا أنت وأن الحمار بين الذين أجهزت عليهم لم يكونوا إلا أنت وليس ذلك فقط ، بل إن الحيوانات التى اصطدتها ونحرتها وأكلت لحومها فى ولائمك لم تـكن أيضا إلا أنت .

إنك فـكرت أن الحياة مستقرة فيك فقط ، وقد جئتك فأبعدت عن عينيك غشاوة الوهم ، فأعلمتك أن الشر الذى تريد أن تصيب به غيرك تصيب به نفسك أيضا ، لأن الحياة واحدة فى الـكل وماحياتك إلا جزءا من هذا الـكل ، وبهذا الجزء من الحياة الذى يعود إليك تستطيع أن تنعش الحياة أو تميتها ، تزيد فيها أو تنقص منها .

فى إمكانك أن تسعد الحياة فى نفسك بإتلاف الحواجز التى تفصل حياتك عن حياة الغير ، واعتبار الآخرين كنفسك فتحبهم كحبك لها ، وبهـذا تزيد

فى حياتك. وإنك لتشقى حياتك إذا اعتبرتها الوحيدة وسعيت فى تعظيمها وطمعت فى إجلالها على حساب الغير وبهذا تنقص من حياتك .

أما أنك تريد أن تهلك حياة الآخرين ، فهذا خارج عن نطاق قوتك فحياة من أبدتهم قتلا وشنقا انمحت من أمام عينيك ، ولكنها لن تبيد وقد ظننت أنك تطيل حياتك وتقصر من حياتهم ، ولكنك لن تستطيع لأن الحياة بحقيقتها لاتتقيد بمكان أو زمان ، وأن حياة اللحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة كل ما يرى وكل ما لايرى فى هذا العالم هى على حد سواء ، وإذن فالقضاء على الحياة أو تبديلها غير ممكن ، لأن الحياة هى الشيء الوحيد في هذا الكون ، وهى كل الأمر ، وكل شيء عداها ليس بشيء .

وهنا توقف الشيخ عن الكلام وأخذ يختفى عن باصرة الملك بالتدريج حتى زال شبحه عن العين بالكلية .

استيقظ الملك صباح الغد مبكراً ، فسار إلى مكتبه ، وأوعز حالا بإطلاق سراح الملك ( لايلى ) وجميع المساجين من حاشيته وشعبه ، وألغى حكم الإعدام الذى قرره آنئذ بحقهم .

وفى اليوم الثالث دعى ابنه — أشور بانيبال — وقلده زمام الحكم ونصبه ملكا على مملكة أشور الجبارة . أما هو فقد هام على وجهه ، ومضى فى الفلوات يعلن ندامته وينشد من ربه الغفران ، وطالما حط رحاله فى المدن العامرة والقرى النائية وهو يعظ الناس بما تعلمه : « وهو أن الحياة فى مخلوقات الله واحدة ، وأن من يسعى فى إيذاء الغير لا يكسب لنفسه إلا الويل .

# اللقاء عند غياب المحبين

اندره

تعالى أيها الفراق واسمع دخيلة نفسى
تجاه قساوتك
التى شتتت شمل العاشقين والأحباب
غير أنى لا أكثرت فرجاؤك خائب ورائد أملك ضال
لأن القلوب الصادقة بحبها
تسعد دائما باللقاء وتأنس بطول الاجتماع .
فمن كان له ملاك كملاكى
لا يستصعب اكتساب
بهجة الحب واللقاء الهنىء
عند البعد ، عند الفرقة ، حتى عند الموت
لأن القلوب الصادقة بحبها والنفوس الممتزجة بأرواحها
لا تحسب لوجودك حسابا ولا لمقامك مركزا .
وإذا ما حضرت بيننا وقطعت حبل الوصال فما أسرع ما أشعر بحس غريب يشير إلىّ —
بأني أتمكن أن أخلو بها فى سكون نفسى
حيث لا رقيب ولا حسيب
فى زاوية من زوايا فكرى حيث أحتضنها وأقبلها
وحيث نجد الكفاية والغنى
وبذا أتمتع بها روحا وأفقدها جسما .

# الله يعلم الحق ولكنه ينتظر

للكاتب الروسى ( ليوتولستوى )

إن الحياة أنفاس تذهب

« المازنى »

عاش فى مدينة ( فلاديمر ) تاجر يُدعي — إيفان ديمترش اكزينوف — وهو شاب عبعب ، صبوح الوجه ، ظريف المعشر ، ميّال إلى المرح ، مغرم بالغناء . وكان يملك بالإضافة إلى داره الأنيقة حانوتين يدير فيهما أعماله التجارية . ولقد اعتاد هو منذ نشأته على احتساء الشراب فكان مبذّرا مسرفا وخصوصا إن وجد المال الوفير . غير أنه بعد أن تزوّج اعتدل عن إسرافه فعاد لا يشرب إلاّ لماما .

وفى صيف أحد الأعـوام عزم الرجل على السفر لزيارة المعرض التجارى الشهير فى ( نازنى ) فلما حان موعد الرحيل قام إلى أهله مودّعا إلاّ أنه بُوغت بما لم يـكن فى الحسبان . فقد وقفت زوجه فى سبيله طالبة إليه أن يعدل اليوم عما نوى كيما يهدأ بالها من رؤيا رأتها مريعة مفزعة .

قال : إنك تخشين ولا شك من وصولى إلى المعرض لئلا أندفع منه إلى لهوى القديم .

قالت : لا أدرى مم أخاف ، وكل ما فى نفسى هـو رؤياى المرعبة — فلقد رأيتك تعود ولـكن بعد أن شاب منك الرأس وملأت مفرقيك لمّة بيضاء كالثلج .

أجابها مبتسما — هذه بشرى بالفوز أكيدة لأني سأفوز بتصفية جميع بضائعى ثم أرجع إليك من المعرض بأحمال من الهدايا الثمينة فانتظرينى .

وهكذا ودّعها ولم يصطبر بل غادر المـكان على عجل .

وصادف أن التقى عند منتصف الطريق بأحد معارفه التجّار فاتفقا على أن ينزلا سويّة فى فندق يبيتان فيه . ثم جلسا ليلتهما يتعلّلان ويتسـامران وافترقا للنوم فى غرفتين متجاورتين .

وكان من عادة ( اكزينوف ) أن ينهض من فراشة مبكّرا وزاد فى نشاطه رغبته الملحّة فى السفر عند أول الفجر طالما كان النسيم عليلا باردا . ولذا وجدناه

يستيقظ فى الهزيع الأخير من الليل وينادى سائقه ليشد له الخيل ويركب به إلى حيث يريد .

أما هو فقد يمم إلى كوخ خافى كان يسكن فيه صاحب الفندق ودفع الأجور اللازمة ، ثم عرج إلى محله ليستأنف الرحلة .

وبعد أن قطع ما يقرب من خمسة وعشرين ميلاً من موضع الفندق أوعز بالوقوف قليلا لإطعام الخيل ، وأمر بإعداد الشاى ، بينما راح هو يتلهى فى ركن من الأركان بالضرب على القيثار شادياً مغنياً .

وهو كذلك إذ سمع صوت نقالة تجرها خيول ثلاثة تجلجل أجراسها وهى تمعن فى السير إلى حيث كان ، حتى إذا وصلت بقربه قفز منها ضابط شرطة واثنان من الأفراد .

تقدم إليه الضابط وسأله : من أنت ومن أين أتيت ؟

فأجابه (أكزينوف) بكل تفصيل ثم ناوله قدحا من الشاى تأدبا . غير أن الضابط أبي أن يشرب بعنجهية واستطرد مستفهماً بحدة :

— أين قضيت ليلتك أمس؟ هل كنت وحيداً أو مع تاجر آخر؟ هل شاهدت التاجر صباح اليوم ؟ لم غادرت الفندق قبل الفجر ؟

استولت الدهشة على (اكزينوف) لهذا الكيل من الأسئلة ، ومع أنه كان يجهل سر توجيهها إليه إلا أنه راح يجيب عنها بكل صراحة ، ولا يخفى عن الضابط شيئا عن كل ما كان ، ثم أعقب ذلك بقوله : لم تسألنى بحدة كأنى أحد السرّاق أو اللصوص ، ما أنا إلا مسافر لبعض الشئون التى تهمنى ولا حاجة لتوجيه كل هذه الأسئلة .

قال : رويدك ، أنا ضابط الشرطة فى هذه المنطقة ولم أقم بإلقاء تلك الأسئلة عليك عبثاً كما تظن ، وذلك لأن التاجر الذى قضيت السهرة معه أمس وجد مذبوحاً صباح اليوم . ومن اللازم أن تفتش أمتعتك .

وهنا أمر أفراد الشرطة بإخراج الأمتعة العائدة له وتفتيشها ، ولم يفت طويل وقت على ذلك حتى عثر الضابط فجأة على مدية كانت مدسوسة فى طرف غرارته فصرخ في الحال ، وهذه المدية لمن تعود ؟

وجم ( أكزينوف ) من هذه المباغتة ، وخصوصاً وأن المدية التى أخرجت من غرارته كانت ملطخة بالدم ، فارتاع وحال لونه وتبدلت ملامح وجهه وصار يرتجف .

فصاح به الضابط منتهراً : ومن أين جاء الدم على هذه المدية .

حاول ( أكزينوف ) أن يجيب ولكنه أرتج عليه ولم يحر جوابا ، ولكنه بعد جهد وتأمل جرّ لسانه إلى الكلام جراً فقال متلعثما :

— لاأعلم ، إن هذه المدية ليست لى .

قال : لقد وجد التاجر مذبوحاً صباح اليوم فى فراشه وأنت لاغيرك المتهم الوحيد بارتكاب هذه الجريمة ، فالمسكن كان مقفلا من الداخل ، ولم يكن بجواره من أحد إلاّك ، ثم إن هذه المدية الملطخة بالدم عثرنا عليها فى غرارتك ، كما أن شحوب وجهك واضطرابك ليثبتان قطعا إدانتك ؛ وما عليك الآن إلا أن تخبرنى كيف قتلته وما هو مقدار المال الذى سرقته من عنده .

اندفع ( أكزينوف ) يقسم بأنه لم يفعل ذلك ، إذ أنه لم يلتق بالتاجر بعد أن افترقا للنوم ، وهو لايحمل من خالص حلاله إلا (٨٠٠) دينار . أما المدية فليست له .

وما وصل إلى هنا حتى خفت صوته وامتقع لونه وارتعدت فرائصه خوفاً وهلعا ، كما لو كان هو الجاني . وحينئذ أوعز ضابط الشرطة أفراده بشد وثاقه ونقله إلى العربة ، فلم يتمالك ( أكزينوف ) إلا أن أجهش بالبكاء وأخذ يعنف نفسه ويلومها على عدم انصياعه لكلام زوجه ، ولكن ماذا يجدى البكاء فى هذا الحال ، فقد اقتيد إلى أقرب مركز حيث أودع فى السجن رهن التحقيق ،

وحجزت أمواله ونقوده وشرعت دوائر الشرطة تتحرى عن سلوكه وأخلاقه فى (فلاديمر) فقيل عنه إنه رجل طيب ولـكنه وجد فى أيامه الأخيرة من حياته فى المدينة يعود إلى سابق عهده من اللهو والطرب ومعاقرة بنت الحان .

وحان موعد المحاكمة فسيق إليها متهماً بقتل تاجر من (رايزان) وسرقة نقوده التى قدرت بألفى دينار .

وقع الخبر على أهله وقوع الصاعقة فبعث فى نفس زوجه اليأس وأصبحت حياتها كليلة لا فجر لها . وحارت فى صحة ما قيل عن الموضوع ، حتى جاء يوم جمعت فيه أطفالها وحملت رضيعها وقصدت البلدة التى سجن فيها زوجها .

والتقت به بعد إلحاح وتوسل ، وإذا به فى ملابس السجناء يرسف فى القيود بين السراق والمجرمين .

فبهتت وسقطت مغشيا عليها ، وبقيت على ذلك حينا طويلا ، ولما عاد إليها رشدها جمعت أطفالها وجلست إليه بجفون مترعة تحدثه وتسأله عما كان وتتلقى منه جوابا عن كل ما كان .

قالت : وماذا نستطيع أن نعمله الآن ؟

قال : إن علينا أن نطلب إلى القيصر بألا يترك فى السجن بريئا يموت .

قالت : سبقتك إلى هذا وأسرعت قبل حين بتقديم طلب إلى القيصر بهذا المضمون ، ولـكنه مع الأسف لم يقبل .

فأطرق الرجل إلى الأرض صامتا مذهولا .

وأردفت تقول : لم تكن رؤياى باطلة ، تلك الرؤيا التى رأيتك فيها بشعرك الأشمط المُغْبَرّ . أتذكرها آنئذ يوم أن رحت إليك متوسلة بألا تشرع بالسفر فيه ولـكنك أبيت .

ومرت بأصابعها على رأسه ثم همست فى أذنه قائلة :

— (فنيا — فنيا) أصدقنى ، ألم ترتـكب أنت هذه الجريمة ؟

فرفع رأسه وصاح بها : حتى أنت ، أواه ، حتى أنت تشكّين بي !

ثم ضم وجهه فى راحتيه وأجهش بالبكاء .

ودخل الحارس يعلن لهم بأن أمد الزيارة قد انتهى وعلى المرأة أن تترك حالا .

فنهض ( أكزينوف ) يودع أهله وأطفاله ويتقبل من زوجه بطرف مغرورق قبلة ذابت على جبينه الكابى ، فكانت إليه خير رمز لذلك الوداع الحار .

بقى وحيداً بعد أن غادر أهله المكان فأصبح خليقاً أن يسفح الدمع ويصعد الزفرة تلو الزفرة يغالب فيهما آلامه وأحزانه ، وأن يعيد فى ذاكرته خيالات ما سلف من أيامه . واسترسل كثيرا حتى تذكر حديث زوجه الأخير فصار يتمتم مردداً : أواه ! حتى زوجتى تشك بى ، مالى ، وما ذا عسى أن أقول : ألا يظهر بأن الله هو الوحيد الذى يعلم الحقيقة بلى ، وإذن فما أحرانا أن نفزع إليه شاكين ، وأن نتضرع إليه متوسلين .

وهكذا حل اليأس فى قلب الرجل وفقد كل رجاء فلم يقدم أى طلب آخر للعفو عنه بل راح يدعو ربه راجياً منه الرحمة والفرج القريب .

وصدر الحكم على ( أكزينوف ) بالجلد والنفى مع الأشغال الشاقة فى منطقة المناجم فى سيبريا . وعليه فقد مشقوه بالسوط ، وسيق بعد أن اندملت جروحه التى أصابته من أثر العقاب بصحبة زمرة من المجرمين إلى منفاه .

ومكث ( أكزينوف ) ستة وعشرين سنة بين المجرمين فى تلك الأرجاء النائية ضاعت فيها آماله ، وتسربت من بين يديه أحلامه . كما تتسرب العصافير ، وجلل لحيته ورأسه الشيب ، حتى أمسى شعرها لمة بيضاء كالثلج بياضا أو أشد ، وخمد نشاطه . وتغضن جبينه ، وتقوس ظهره ، وارتعشت يداه ، وانقبضت نفسه ، وأصبح شيخا متهدماً يظلله الحزن الهادئ الوديع بجناحيه وهو يمشى الهوينا ويتكلف الابتسام نادراً ، ولا يتكلم إلا قليلا ، ومع ذلك فقد كان دؤوبا على الدعاء والصلاة .

وتعلم فى السجن خياطة الأحذية ، فكسب من وراء حرفته هذه قليلا من المال ، تمكن به أن يشترى نسخة من كتاب « حياة القديسين » ، فعمر هذا الكتاب قلبه بالإيمان ، وعمر نفسه بالمحبة ، إذ صار أليفه الذى لا يمل ، يطالع فيه فى أوقات فراغه طالما هلّ النور الكافى للقراءة فى باحات السجن وغرفه . أما فى أيام الآحاد فقد كان يسعى لتلاوة بعض الرسائل فى الكنيسة ، ويقف مرتلا بين زمرة المرتلين ، لأنه كان يحتفظ حتى ذلك الوقت بعذوبة صوته .

وقد أحبّت إدارة السجن هذا الرجل لوداعته ، بينما ذهب رفاقه المساجين يحترمونه تعظيما لشخصيته ودمائته ، حتى صاروا يلقبونه بالقديس . أما هوفكان وسيطهم لدى السلطة المختصة ينتدبونه ، كلما عنّ لهم مطلب يريدون إيصاله إليها وكذلك فقد كان عوناً لهم فى حل خلافاتهم ومنازعاتهم التى كان يحكم فيها بينهم بالعدل والرضى .

وبالطبع ظل طيلة تلك المدة وهو لا يعلم شيئا عن أهله ، ولا يعرف عن مصيرهم ويجهل عما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة ؛ أم كانوا قد اخترمتهم شعوب . ودارت الأعوام على هذا حتى بزغ فى الجو حدث جديد .

فلقد صادف أن جاء إلى السجن فى يوم من الأيام فوج جديد من السجناء وإذ حل المساء التف الجميع حولهم يستنبؤونهم بشوق عن أسباب نفيهم ، ويتعرفون إلى أماكنهم وبلدانهم .

وكان ( أكزينوف ) يجلس مع الجالسين فى أحد الأطراف القصية جلسته الاعتيادية كسير الفؤاد ، مطرقا برأسه ، وهو يستمع إلى ما يدور بين القوم من حديث .

وامتاز رجل بين القادمين ، غيلم جلف ، قوى البدن ، طويل القامة ، ذو لحية بيضاء ، يناهز الستين من العمر . وقد راح يجلس متوسطا العشير ويحدثهم بصوته الجهورى عن أسباب نفيه ويقول :

أيها الرفاق ! اسمعونى ، لقد قبض علىّ متهما بسرقة حصان من إحدى مركبات الجليد . وقد كنت أخذته لأصل على ظهره إلى بيتى عاجلا وأعيده بعد ذلك إلى صاحبه الذى كان لى صديقا حميما .

ولقد أخبرتهم بهذا فأبوا تصديقى وعاندوا عناد الخبيث بإدانتى كسارق ، ولكن كيف ومتى قمت بتلك السرقة ، إنهم عجزوا عن تبيان ذلك ، غير أنى لا أخفى عليكم أننى فيما مضى كنت قد اقترفت خطأ أستحق أن أقاصص عليه وأساق بيد العدالة بسببه إلى هذا المكان منذ ذلك الحين ، ولكنهم لم يعثروا علىّ . أما اليوم فقد حكم على بالنفى لغير ما ذنب .

ثم عقد بين حاجبيه وصرخ :

— آه ! لا أفترى عليكم ، لقد كنت قبلا فى هذا المنفى وأفلت منه بعد قليل .

سأله أحد الحاضرين : ولكنك من أى بلد !

قال : من (فلاديمر) وأهلى من تلك المدينة . أما اسمى فهو (ما كار) وقد يدعونى ( زومتيش ) .

وهنا رفع (أكزينوف) رأسه وقال : هل لك أن تعلمنى يازومنيش إن كنت تدرى خبراً عن أسرة التاجر (أكزينوف) فى هذا البلد ، هل لازالوا أحياء .

قال : بلى أعرفهم ، ومعرفتى بهم أكيدة ، فهم أصحاب ثروة وجاه ، مالهم نما وزرعهم زكا ، ولو أن أباهم فى سيبريا سجين كحالنا وسط المجرمين ، ولكن ألا تخبرنى يا أبة كيف وصلت أنت إلى هذا المكان !

و إذ لم يشأ القديس أن يصرح بشىء عن سوء حظه تنهد وقال :

— الآثام يابنى هى التى جرت بى إلى السجن مدة ستة وعشرين عاماً

قال : ولكن ماهى تلك الآثام يا أبة .

قال : ما كان تدبيرى ولكن تدبير القدر ، ولا بأس إذ لا ألوم أحداً ولا أتجنى على أحد فقد أكون مستحقا لكل هذا العقاب . ثم سكت ولم يزد .

بينما راحت البقية تحدث القادم الجديد عن كل ما يخص قضية (أكزينوف) وشرحت له كيف أن أحدهم قتل تاجرا ووضع المدية فى متاعه فأخذ ظلما بجريرته . تطلع ( ماكار ) فى وجه الرجل وضرب على ركبته مندهشا وقال — إن هذا لأمر عجيب ، عجيب حقا ، وما عمرك يا أبة .

تطاولت الأعناق بلهفة والكل يريد أن يستفهم عن سرّ هذا الاستغراب وتهافتت الأسئلة إلى المحدّث ليجيب عما إذا كان قد شاهد أكزينوف قبل هذا الحين.

وبقى الرجل صامتا ثم صاح — بلى إنه لأمر عجيب أن نلتقى هنا أيها الرفاق . فتساءل ( أكزينوف ) حينئذ عما إذا كان الرجل يعرف القاتل الحقيقى وهمّ يسأل صاحبه — ألعلك يا زومنيش كنت قد سمعت بالقضية أو كنت تعرفنى من قبل .

قال — كيف أستطيع أن أسمع بذلك والعالم مغمور بالإشاعات والأقاويل وعلى كل فقد مضت حقبة من الزمن طويلة أنستنى خبرها الآن .

قال — هلاّ تعرف القاتل بالذات .

فأجاب ( ماكار ) وهو يضحك — إن القاتل لا يتعدّى أن يكون ذلك الذى وجدت المدية فى متاعه . ثم أردف يقول — وإذا كان وضعها أحد غيره فالسارق كما يقول المثل لا يعتبر سارقا إلاّ إذا ألقى القبض عليه . والآن خبرنى يا صاح كيف يستطيع أحد أن يدسّ المدية فى غرارتك وهى تحت رأسك ألا يستوجب ذلك حتما إيقاظك فى الحال .

سمع ذلك ( أكزينوف ) فزال من نفسه الشك وتيقّن من أن الرجل هو القاتل ، فقام لتوّه وتولى عنه والأسى يملأ نفسه وهو يغالب دمعة توشك أن تنحدر من عينيه .

سجى الليل بظلامه وأشباحه فأرق ( أكزينوف ) أرقا شديدا بحيث لم تعلق سنة النوم بمعاقد أجفانه ولا بعض الحين إذ أحسّ على غير عادته بقلق أثار

فى ذهنه كثيرا من الوساوس وهبت عليه بلابله وخطرات ذهنه هائجة .

تمثلت له زوجه كما لو كانت هى بالذات يوم ودّعها مسافرا إلى المعرض . ها هي ذى حاضرة أمامه بقامتها ووجهها وهاته عيونها شاخصة إليه تحدّثه مبتسمة .

ثم مثل أمامه أولاده وهم أطفال كما لو كانوا آنئذ . أحدهما مشتمل بشملة والآخر مائل على صدر أمه .

وراح يستعرض بعض الصور من أيام فتوته يوم كان غارقا فى بهجة الحياة ومسراتها تذكّر كيف كان يجلس إلى القيثار لاعبا على أوتاره . وتلك هى سقيفة الخان التى سيق منها إلى السجن ساعة كان يلاعب فى ركنها أنغام القيثار ويرافق شدوها

آه — كم كان حرّا خاليا من كل همّ يساور الإنسان . ولقد تخيّل الموضع الذى جلد فيه وشاهد الجلاّد والناس من حوله ورأى السلاسل والقيود ثم كافة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة ستة وعشرين عاما انصرمت — فانصرم بها عمره وأيام صباه وشبابه . هذا التفكير بعث فى نفسه اليأس وجرّ إلى قلبه التعاسة المرّة بحيث عاد وهو على استعداد تام للانتحار .

فنهض من مكانه صاخبا لاعنا وهو يتمتم — أهذا كله من جرّاء عمل وغد من الأوغاد أو غول من الأشرار .

ونبض نابض الغضب فى قلبه وغلا مرجل الغيظ فى صدره على (زومنيش) وحنق وصار يهدّد بالانتقام حتى ولو ذهبت روحه ضحيّة فى سبيله . وهكذا بقى طول الليل أسير أوهامه وهواجسه ولم تهدأ ثائرته بالرغم من كثرة صلاته ودعائه .

وفى النهار تجنّب الاقتراب من (ما كار) وتقصّد أن لا يلتفت إليه .

فات عليه أسبوعان وهو فى هذا الحال المرير لا تقرّ عينه بنوم ولا تسكن نفسه إلى راحة وهو يرى كأشد الناس بؤسا وأعظمهم وحشة وعاد أخيرا لا يفهم ما يعمل .

وفى ليلة من الليالى بينما كان يتمشى فى ساحة السجن لفت نظره أمر غريب وهو انقلاب التربة فى زاوية تقع تحت السقف الذى ينام فوقه السجناء ، فتريث يتأمل سرها ، وإذا برأس (ماكار) يندفع من خلالها إلى الخارج ، ويسفر عن وجهه المغبرّ فجأة ويتطلع إلى وجه ( أكزينوف ) وجلاً . أما هذا فقد حاول أن يتابع سيره دون أن ينظر إليه وإلى ما يعمل ، غير أن عدوه عاجله فقبض على يده وأخذ يخبره بأنه قد حفر ثقباً تحت الجدار وتخلص من التراب بحيلة وهى أنه كان يملأ حذاءه الطويل منه ويفرغه خارجاً على قارعة الطريق كل يوم أثناء سوق السجناء إلى العمل بعيدا عن السجن .

ثم تابع يقول : حذار أيها الشيخ أن تفه بشىء عن هذا فأسعى فى تخليصك أنت أيضا ، ولئن حاولت فضح حالى أهلكونى ولكنى سأقتلك أولاً .

ارتعدت فرائص ( أكزينوف ) من أثر الغضب الذى تملكه عندما أبصر بعينه وجه الخبيث وظهر ذلك على محياه ، وبنفضة اقتلع ذراعه من يده ساخطا وهو يقول :

— ليست لى أية رغبة فى الهروب ولا أريدك أن تقتلنى ، فاسكت أيها الأخرق ولا تزد ، فقد قتلتنى منذ أمد بعيد ، وما أنا الآن بعد تلك الرمية الصامية إلا تمثال مات من زمن . أما أن أخبر عنك فسيان عندى إن فعلت وإن لم أفعل فذاك بيد الله ومشيئته .

وصادف فى اليوم التالى أن لمح خفير من الحرس ، بينما كان المحكومون يساقون إلى العمل ، رجلا من المساجين يفرغ ترابا من حذاء له على قارعة الطريق ، فاهتم الحرس بالخبر وشرعوا بتفتيش الأركان ، ولم يمض طويل وقت حتى عثروا على النفق . ولهذا جمع مدير السجن كافة السجناء وصار يستجوبهم علّهُ يتعرف إلى الجانى .

غير أن الكل أنكر ذلك حتى أولئك الذين كانوا يعلمون الحقيقة لم يجرؤوا

على الوشاية بما كار زومنيش لئلا ينتقم منهم فيقاصصهم بالموت .

وأخيراً التفت إلى (أكزينوف) الشيخ الصادق وقال :

إنك أيها الشيخ غير متهم عندنا فأخبرنى لوجه الله عن الذى حفر هذا الخرق .

كان يقف «ما كار زومنيش» فى ذلك الحين كما يقف البرئ الذى لايهمه الأمر وهو ينظر إلى المدير ولا يلتفت إلى (أكزينوف) إلا خلسة .

أما (أكزينوف) فقد ارتجفت شفتاه ، وارتعشت يداه ، وساده الصمت لمدة طويلة ، ثم غرق فى بحر من الهواجس والأفكار وصارت نفسه تملى عليه :

لِمَ تسعى فى الذود عن هادم حياتك ، انفض يدك منه ليدفع جزاء ما تحملته من آلام ، ولكن مهلا لئن فعلت وأخبرت قتلوه ، ولعلك كنت نابياً عن الحق فى هذا الاتهام وما يدريك ، وإذن فما الذى ستجنيه من وراء ذلك .

ناداه المدير مرة أخرى بعد ذلك التأمل الطويل قائلا :

حسنا أيها الشيخ ، هلم وأخبرنا عن الحقيقة ، من كان يحفر الأرض تحت الجدار ؟

واختلس (أكزينوف) نظرة إلى وجه ما كار ثم قال : لاأستطيع وشرفك أن أصرح لك بذلك . إن إرادة الله لا تسمح لى بالنطق ، وها أنا ذا بين يديك فاعمل بي ما تشاء .

لقد ذهبت محاولات المدير سدى فى إخضاع الشيخ للإفصاح عن الحقيقة ، وعليه اضطر تجاه هذه الخيبة أن يترك الأمر ولو إلى حين .

وفى تلك الليلة عند ما كان القديس متمدداً على سريره والنعاس يراوده سمع صرير نعل لإنسان يقترب منه وهو يتلصص بهدوء فى الغرفة ويتقدم را كعاً حذاء السرير .

رمقه فى الظلمة فإذا به (ما كار زومنيش) بذاته ، فابتدره قائلا :

وماذا تطلب أكثر من هذا ، لِمَ جئت إلىّ الساعة .

ولما لم يسمع جوابا اعتدل ( أكزينوف ) فى فراشه وقال :

ماذا تريد ؟ إليك عنى و إلا ناديت الحارس !

فانحنى ما كار إلى صدر الشيخ وهمس فى أذنه : إيفان ديمترش اعف عنى .

قال : ولأى شىء ؟

أجاب : أنا لاغيرى قاتل التاجر الذى أخفى المدية فى غرارتك وقد قصدت آنئذ أن أقتلك معه ، ولكنى سمعت صوتاً فى الخارج اضطرنى إلى أن أسارع وأهرب من النافذة .

استولى الصمت على الشيخ ، ولم يعد يعرف ما يقول . أما ما كار فقد نهض يغلق باب الكوة ثم عاد وأقعى تجاه صاحبه وهو يقول :

ايفان ديمترش ، اعف عنى . . ، أعف عنى لوجه الله ولمحبته وسأعترف بأني أنا القاتل حتى يطلقوا سراحك وترجع إلى وطنك .

قال الشيخ : رويدك ! إن من السهل عليك أن تتكلم الآن ، ولكن هل لك أن تفكر بما عانيت فى سبيلك كل هذه الأعوام الستة والعشرين ، فأين أمضى اليوم بعد كل هذا ؟ أين أولى وجهي بعد هذه المدة وقد أصبحت رجلا هزيلا يكسونى الضنى فرعا لقدم . أما زوجتى فقد ماتت ونسينى أولادى وليس لى من وجهة أولّى إليها . لقد سوّلَ لك الشيطان أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

كان الشيخ يتكلم وكأنما كان يزيد من آلام (ماكار) ويضاعف من عذاباته ، فظل فى مكانه لايبرحه وهو يضرب الأرض برأسه ويقول اعفُ عنى حتى علا صوته عن المعتاد ، ولقد جلدوني بالسياط فلم أتعذب كما أتعذب الآن لحالك ، ويكفينى مارأيت من شفقتك على . رحماك اعف عنى لوجه الله .

أواه ! ما أشقانى من إنسان . ثم انكب على وجهه منتحباً .

فما كان من ( أكزينوف ) إلا أن أخذته العبرة ، وصار يبكى لبكائه أيضا ثم قال :

لعلى أكثر منك معصية فليغفر الله لك ويعفو عنك .

وزاد به الحنين إلى الوطن وتاقت نفسه ليراه قبل أن يأتى أجله وتخترمه المنون ، وذلك بالرغم مما كان يشعر به من عدم الرغبة فى ترك السجن ، فاندفع يبكى بكاء الثاكل المسكين وينتحب ما شاء له أن ينتحب .

ولقد اعترف ( ماكار زومنيش ) بجريمته وانتهى الحال بأن صدر أمر العفو عن البرىء ، ولكن بعد فوات الأوان ، لأن الشيخ ايفان ديمترش أكزينوف كان عندئذ قد أسلم الروح ومات .

# منجّمة الرّاعي المحبّ

س . مارلو

تعال معى وكن حبيبى
فإذا ما أتيت سنلتقى والمسرات
حيثما التلال والوديان والمزارع والأغوار
وكل ما فى الطبيعة من جمال يقف خاضعاً لحبنا .
سنجلس هناك على الصخور الملساء
فنرى الرعاة يطعمون الماشية فى المروج
وأمامنا النهر المنساب فى طريقه
يسمعنا ألحانه البلبلية الشجية .
وهناك تحت ظل السذيانة سأعمل لك فراشاً من الورد
وأجمع لك الباقات الشذية الرائحة
وأزين رأسك بأكليل من الأزهار الملونة وألبسك حلة منها
مزدانة بأوراق الآس الخضر
وسأهبك جلباباً من الصوف
نستحصله من أغنامنا اللطيفة السارحة حولنا
ليقيك من البرد وهو بخطوطه الأرجوانية
وأزراره الذهبية سيزيد من نور جمالك
وسأحوك لك حزاماً من القش ومن براعم نبات اللباب
وأحليه بأزرار الجمان والعنبر
فإذا ما حركت هذه البهجة عواطفك
إذن تعال معى وكن حبيبى
وستقدم لنا الأطعمة كل يوم
بصحون من فضة

توضع على منضدة من العاج الأبيض
لا يأكل عليها إلا الآلهة .
وهناك سيرقص أولاد الرعاة ويغنون أغنيتهم البدوية
فتسمعها صباح كل يوم من أيام نيسان
فإذا طربت لهذه البهجة وتحركت عواطفك
إذن تعال معى وكن حبيبى .

# فارس في السماء

للكاتب الأمريكي ( امبروز بيرس )

إن حضور المشاهد العظام ورؤية الأخطار الجسام تعلمنا بغير كلام وتربينا بدون التزام .

فى أمسيّة وضّاحة من أماسى الخريف لعام ١٨٦١ كان أحـد أفراد الجنود ممتداً وسط حرش من الغار يقع بجوار إحدى الطرق فى فرجينيا الغربية كان هذا الجندى منبطحاً على الأرض بكل هيئته وقدماه مستندتان على أطراف أصابعهما أما رأسه فـكان يتـكىء على راحة يده اليسرى بينما انبسطت اليمنى على الثرى لتقبض على بندقيته أو تـكاد . ولو لم يكن فى امتداد أطرافه انتظام ولصندوق العتاد المربوط فى ظهر نطاقه حركة موزونة بيّنة لعدّ حينئذ من الأموات فلقد كان الجندي نائماً فى ساعة الواجب ولو شوهد كذلك لأردى قتيلا فى الحال وفق القانون جزاء جريمته .

يقع حرش الغار حيث امتد هـذا الجندى المجرم فى رأس شِعْب ملتو ، بعد أن يعلو صوب الجنوب في مرتقى شديد الانحدار ينعطف فوراً باتجاه الغرب ويتوغل بعيداً حتى ينتهى إلى القمة على ارتفاع ستمائة قدم بالتقريب . ومن هناك يدور كرة أخرى نحو الجنوب ويستمر بالهبوط متعرّجا إلى أن يفنى وسط الغاب الـكثيف ويتلاشى .

وفى منعطف تلك الزاوية الثانية من هذا الشعب النائى يرى المشاهد صخرة منبسطة عاتية ناتئة من الأخدود صوب الشمال وهى تشرف على كافة ذلك الوادى السحيق . إن هـذه الصخرة بوضعها المذكور كانت تغطى نفنفاً من الجبل شامخاً بحيث أنه لو أسقط من رأسـه حجر نحرّ باستقامة إلى الدرك من علوّ ألف قدم أو يزيد ليرتطم بعدها برؤوس أشجار الصنوبر المحتشدة . أما الرأس الذى امتد الجندى بجواره فقد كان بروزاً آخر لنفس هذا السور ولو استيقظ الرجل لأطل من عنده على منظر فريد لا يشمل فقط المنعطف القصير من الطريق وتلك الـكندة الناتئة ولـكنه يتضمن جميع ما يلابس ذلك النفنف المتدلى من ارتفاع هائل يرد المتأمل فيه منقوف الوجه شاحب اللون .

لقد كانت تلك المناطق بأجمعها مكسوة بالأشجار فيما عدا بقعة صغيرة فى بطن الوادى من الجهة الشمالية تتراءى إجمالاً كفناء الدار ولـكنها كانت بالحقيقة تزيد بالمساحة على بضعة أفدنة . وكان يغشى هذه الفسحة مرج طبيعى زاهي الخضرة ينساب فى وسطه غدير لا يكاد يرى من طرف الوادى إلا قليلا وحوله ترتقى سلاسل من الأسوار الجبلية المشمخرّة شبيهة بما وصفنا آنفاً . والواقع أن الوادى فى هذا الموضع اتخذ شكلا مغلقاً رهيباً يقف عنده المرء حائرا فى كيفية نفوذ هـذا الشعب الملتوي من خلاله وذلك الغدير الذى ينساب فى بطنه فيشق المرج على عمق ألفى قدم إلى نصفين ظاهرين .

وليس من صقع مهما كان شديد الوعورة إلا واتخذه الإنسان مسرحاً لحروبه فهنا فى بطن هـذا الفخ العسكرى الممتاز الذى إذا ملك مخارجه خمسون رجلا استطاعوا بمعونة مراكزهم إخضاع جيش لجب وقهره على الاستسلام . هنا رابط متخفيا خمسة ألوية من جيش المشاة المتحالف . لقد سارت هذه الألوية طيلة الأمس وفى الليل وحطت الآن في هـذا المـكان استجماماً للراحة وتقاسمت أن تواصل السير فى الطريق من جديد عندما يسدل الظلام ستاره فيتسلق أفرادها الجبل إلى حيث ينام خفيرهم الخائن . ثم ينحدرون إلى الجهة الأخرى من السفح ويتسللون فينقضّوا على معسكر العدوّ فى منتصف الليل . وكان رائدهم المباغتة لأن الطريق كانت تؤدى بهم إلى مؤخرة العدو وهم فى حالة الفشل لا شك يصبحون فى موقف حرج للغاية ولذلك فقد وطّنوا النفس على استعمال الحيطة والحذر بكل ما أوتوا من قوة لئلا تلفت أنظار العدو حركة ما مخالفة قد تنبعث عن طريق الصدفة .

إن الخفير النائم فى حرش الغار هو شاب فرجينى يدعي ( كارتل دروز ) وهو الابن الوحيد لأبوين موسرين ولهذا فقد نشأ فى أحضان النعمة والعيش الرغيد المليء بالثروة والثقافة مما أهّله للسيادة على تلك الربوع الجبلية من فرجينيا الغربية .

أما بيته فلم يكن يبعد غير بضعة أميال عن كمينه الحالى . وصادف أن حضر الفتى فى صبيحة يوم من الأيام لتناول الفطور و إذا به يخاطب أباه بهدوء و بنبرة حزينة قائلا :

أبى لقد وصل إلى ( كرافتون) لواء متحالف ، وسأذهب لألتحق به .

رفع الوالد رأسه المهيب فحدق بابنه وأجاب : اذهب يابنى حيث شئت ومهما يحدث فلا تقم إلا بما تعتقد أنه واجبك ، وها هى فرجينيا التى خنتها عليها أن تسير الآن بدونك . ومع هذا فإن عشنا بعد أن يخمد أوار هذه الحرب سنعود فنتكلم بتفصيل أكثر عن هذا الموضوع .

إن أمك — كما أنبأك الطبيب — فى حالة جد خطرة ولوأطالت لما عاشت بيننا أكثر من بضعة أسابيع وعلى كل فهو وقت ثمين والأفضل بنا أن لانزعجها .

انحنى الفتى بإجلال أمام أبيه مودعاً ورد الوالد علىّ التحية بلطف وديع ساتراً وراء ابتسامته قلبه الجريح ونفسه الكسيرة .

ترك الشاب بيت طفولته وتوجه إلى أتباعه وقادته كجندى مطيع يحدوه الإقدام والإيمان ليؤدى بدافع الوجدان والجرأة والإخلاص قربانا لوجه الوطن .

فانتخب فور وصوله لما له من صفات سامية وعلم بأحوال البلاد وجغرافيتها حارساً يقوم بمهمة خطيرة فى أقصى مقدمة الجيش ، غير أن الإعياء كان أقوى من العزيمة ، و بذا استسلم الفتى لسلطان النوم ، ولكن مهلا ، فمن يدرى أومن يستطيع أن يذكر لنا أى ملاك رحيم ، أو أى شيطان رجيم كان قد زاره فى الحلم ليوقظه من وسنته الأثيمة ، ففيما كان السكون مخيما فى تلك الظهيرة المتأخرة أهاب به طيف على النهوض بلفظة عذبة لم يسبق أن نطق بها لسان أو تفتق عنها ذهن إنسان ، وإذا بالجندى يرفع رأسه على مهل متلمساً بندقيته بحركة غريزية وهو يتطلع إلى سيقان الغار الكثيفة و إلى الأفق البعيد .

وفى الحال سرت فى نفسه هزة سرور وانتعاش ، فقد وقع بصره على منظر

فنى أخاذ ، إذ رأى أمامه وعلى قاعدة هائلة من قمة السور فى الطرف الأقصى من الصخرة النائئة تمثال فارس هائل الحجم ينتصب فى لوحة الأفق الأزرق بهيئة جريئة وكأنه إله من آلهة الإغريق محفور من الحجر الصلد ، وكانت تعلو سيماءه سمرة تتفق ولون الأفق المحيط ، ويشوب كسوته وعدة حربه ظل تختلف شدته هنا وهناك وبالعكس لم يكن على الجواد أى أثر لبقعة مضيئة بصورة مطلقة . أما السلاح فقد كان يتدلى على حنو السرج والفارس يقبض عليه بيمينه ، بينما كانت شماله تمسك بزمام الفرس وهى لاتكاد ترى .

والواقع أن مخطط الصورة كان مجسما فى عرض الأفق إلى حد بعيد ، فقد كان فى أعالى ذلك النفنف العالى كهيكل قدّ بحد سيف صارم . وانظر فهاهو وجهُ الراكب يزورّ قليلا صوب اليسار فتبان على المخطط حدود الصدغ والذقن بكل جلاء . وتأمل تجده يجول ببصره فى أعماق الوادى بوقفة عسكرية متزنة ، ولعل شدة حذره من عدو قريب زاده وهو على صهوة جواده الأدكن بسطة فى الحجم وهولا فى الموقف وجبروتاً فى القصد .

سرى فى (دروز) إحساس غريب لاحد له ، وذهب فى بحارالوهم فحسب أنه قد نام حتى نهاية الحرب ، وها هو الآن أمام قطعة ممتازة من قطع الفن شيدت على ظهر تلك الربوة المتعالية لتخليد أعمال البطولة التى كان منها مفلسا ، ولكن سرعان ما تبدد عنه هذا الشعور عند ما اختطفت عيناه حركة خفيفة للصورة الواقفة أمامه ، إذ انسحب الجواد إلى الوراء يسيراً منحرفاً عن الحافة إلا أنه لم يغير من موضع أطرافه أو من جلسة الفارس شىء .

نفض (دروز) عنه ثياب الوهم بقوة عجيبة وراح يحلل خطورة الموقف ويذهب به كل مذهب وإذا به يسرع فيقرب أخمص البندقية إلى وجنته ويحرك بخفة وبحذر سبطانتها إلى الأمام من بين الأدغال ثم يملأ الحجرة ويصوب إلى الصدر فى نقطة تصيب من الرجل مقتلا .

وهكذا لم يبق عليه إلا أن يضغط على الزناد وعندها ينال ما يبتغى .

وهنا وفى تمام هذه اللحظة أدار الفارس وجهه صوب عدوه (دروز) وكأنه تقصد فنظر إليه عن علم ورغب فى تقريع ذلك الجنان الجرىء الحنون .

ولم كل هذا ؟ هل إن إزهاق عدو فى الحرب أمر خطير إلى هـذا الحد — عدو استطاع من مباغتة سر يهم حياته وحياة رفاقه — عدوّ رهيب أمسى بعدها أشد خطراً من كل جيشه بعديده ؟

استعظم ( كارتر ) الأمر وتهيب الموقف ، فازداد شحوبا واضطرابا ، وراحت مفاصله تصطك وأطرافه ترتجف وخارت قواه ولم يعد يرى من الفارس والجواد إلا أشباحاً سوداء تعلو وتنخفض ثم تدور به متقلبة فى دوائر متسعة وسط جحيم ملتهب .

وتراخت يداه فانحل منها سلاحه ، ثم مال رأسه رويداً رويداً وسقط على أوراق الشجر وهو لا يعى .

هذا الرجل الجرىء والجندى الباسل كان يقترب من دور إغماءة شديدة بتأثير انفعال عاطفى فوق العادة .

لم يمر على هذا الحال طويل وقت حتى دبّ الشعور فى الرجل ثانية فأنهض رأسه من على الأرض وبادر توّا إلى انتشال بندقيته وراح ينشد بسبابته زنادها . لقد أصبح الآن فى وضع اعتيادى يملك فيه جميع حواسه وأعصابه . نعم — لم يكن يأمل يوماً ما فى أن يسمح له القدر فى القضاء على هذا العدوّ الشاخص ولكنه ذا إن أطلق عليه النار فسوف يرميه ولا شك فوق مخيّم جنوده جثة بلا حراك . وما كان واجب الجندى ياترى ؟ لقد كان جليا وهو قتل العدوّ بلاسابق إنذار أو تأخير وكان عليه أن يمكث فى مكمنه كالمصلى الصامت حتى يتسنى له أن يوصله إلى حتفه عاجلا . ولكن مهلا ! ألا يمكن أن يكون قد تسرب إليه الوهم والخداع بتأثير الطبيعة الساحرة وإن ما يراه ليس إلا سرابا وخيالا ، وذلك

هو الأمل العريض فى النجاة من المأزق . آه ! لو يستطيع أن يركب بخفة ويعود من حيث أتى .

فكرر ( دروز ) فى أن خير ما يعمله لإبعاد هذا التردد المضنى هو أن يركز انتباهه للموضوع ، وهنا كانت منه التفاتة إلى أسفل ، إلى أعماق الوادى فأخذ ينظر وكأنما كان ينظر من السطح إلى الغور خلال بحر شفاف . وفى الوادى أبصر خطا متموّجاً من أشباح الرجال والخيول وهى تزحف آمنة وسط المرج الأخضر فقد شاءت إرادة قائد أحمق بأن يسمح للفيف من جنوده فى التقدم إلى الغدير للسقى وفاته بأن جمعهم كان فى عراء تحيط به مئات من القمم المشرفة .

أعاد ( دروز ) نظره إلى الفارس المنتصب فى السماء ولاحظ أنه كان لم يزل يصوّب إليه بندقيته غير أنه أضحي الآن يستهدف الجواد لا الرجل . وهو كذلك وإذا بهاتف خفى يعيد عليه مافاه به أبوه ساعة الوداع — « ومهما يحدث فلا تقم إلا بما تعتقد أنه واجبك . عند ذلك شمل ( كارتر ) جو هادىء واطمئنان غريب فسكنت أعصابه وأصبحت كأعصاب طفل نائم وانطبقت أسنانه وارتخت عضلاته وبات تنفسه إلى حين توقفه عند الرمى منتظما و بطيئاً وتغلّب الواجب وقتئذ وسمت الروح على المادة فنادت » — ليدم السلام ، وهنا أطلق ( كارتر ) النار فرمى وأصمي .

وقد صادف فى تلك اللحظة أن خرج أحد ضباط القوّة المتحالفة من كُناس الجنود فى الوادى لغرض الاستطلاع وهو لا يبتغى فى سفره مكاناً معيّنا فمر صدفة بطريق ضيق ظن أنه يوصله إلى ما يرمي إليه . وكان هذا الطريق يقع عند أقدام الجبل وعلى بعد بضع مئات من الأمتار من ذلك السور الهائل الذى وصفناه آنفا . و بينما كان الضابط يسير وهو يلاحظ ما حوله و إذا به يفاجأ بحادث مُذهـل . لقد رأى فارساً يمتطى صهوة جواده وهو يخر من أعالى الجو إلى أعماق الوادى . كان الراكب يجلس على السرج بزيه العسكرى مستقيما ثابتاً و يقبض على زمام

الجواد بقوة وكأنه يريد بذلك أن يمنع الحيوان من الاندفاع السريع فى هـذا الغوص . وقد بدأ الفارس عارى الرأس وشعره الطويل يتموّج فى الهواء خفّاقا كالريش ، ويمناه لا تكاد ترى لأنها كانت مستترة وراء ناصية الجواد المبعثرة والغريب فى الأمر أن جسم الحيوان كان فى مستوى واحد كما لو كانت أطرافه بأجمعها متوازنة وقوة مقاومة جاذبية الأرض، أماجريه فقدكان أشبه بعدو حيوان متوحش ومع ذلك فإنه لم يطل به الزمن حتى أوقف أطرافه فجأة ثم أخذ يصبها إلى الأمام انصبابا كالحط بعد القفز . ولـكن لم يكن ذلك إلا هفيفاً .

وجم الضابط وارتاع من شكل هذا الفارس النازل من السماء و تصوّره ملاك الوحى الجديد فصعق ثم خارت قواه بتأثير الصدمة وغلب عليه الغشيان فارتمى على الأرض مغمى عليه وفيما هو كذلك إذ طرق سمعه صوت تحطيم شديد ينبعث من بين الأشجار — صوت ما كاد يعلو إلا وتلاشى دون أن يعقب صدى أو جلجلة ، وهكذا ساد السكون فى تلك البقاع من جديد .

نهض الضابط من مكانه وهو يرتعش هلعاً ولعل الجرح الذى أصاب قصبة ساقه بتأثير السقوط أعاد للرجل وعيه المفقود . نسل الضابط من مكانه وهرع مبتعداً عن النفنف حيث توقع أن يعثر على السقيطة ولـكنه باء بالفشل . فعاد أدراجه إلى مخيم العراء وهو يحمد الله على أنه قام بتعقيب الطريق المجاور لحضيض الجبل ولو سلك غيره لـكان هدفاً لذلك الفارس الساقط ولـكان الساعة أثراً بعد عين .

كان هذا الضابط حكيما إذ أدرك بثاقب رأيه أن لا فائدة من التحدث عما شاهد ورأى فالخبر رغم صحته سيقابل بالرد وعدم التصديق ، ولذا فقد أقسم على ملازمة الصمت . وحينما سأله القائد عما إذا كان قد حصل بنتيجة استطلاعه على شىء يهم الحملة أجاب :

نعم يا سيدى — لقد عرفت أن ليس هناك من سبيل يؤدى إلى هذا الوادى من الجهة الجنوبية .

ابتسم القائد ولم يجب بشيء فقد كان على علم بهذا الخبر . .

أما ( كارتر ) الجندى ، فبعد أن أطلق النار وأعاد حشو البندقية تابع خفارته بكل دقة . ومضت فترة من الزمن جاء على أثرها العريف وهو يتقدم زاحفاً بين الأدغال . ومع أن ( كارتر ) كان قد شعر بحركته إلا أنه لم يغير من امتداده أو هدوئه و بقى على حاله شاخصا إلى الأمام .

وهنا همس العريف فى أذن الجندى قائلاً :

هل أطلقت النار يا ( كارتر ) ؟

نعم .

وعلى أى شيء ؟

على جواد كان واقفا على تلك الصخرة أو بجوارها وأنت ترى أنه لم يعد فى محله . لقد سقط من أعلى السور إلى بطن الوادى .

لم يكن على وجه الجندى رغم شحوبه من أثر لانفعال آخر وعندما أتم جوابه سكن إلى صمته من جديد و بقى ينظر إلى الأمام .

ولما لم يفهم العريف شيئاً من الجواب بادر ( كارتر ) ثانية وهو يهمس :

لا يجديك التكلم بالألغاز وأنا آمرك أن تقدم لى كشفاً بالحادث فوراً . فهل كان على الجواد من أحد !

نعم

ومن هو !

أبي .

انتفض العريف من مكانه ناهضاً وهو يصرخ — الله . . . . . !

# مناجاة العاشق لحبه

شكسبير

عند ما أخلو بنفسى متتبعاً أساطير الأولين
متصفحاً المنثور فى الحسان وأبطال الحب
الذين طواهم الثرى تحت أطباقه .
آنس كثيراً بما أقرأه من الأغاني المنظومة فى وصف الجمال وتصوير الأفئدة المفتونة .

حينذاك وأنا أمام تلك الصور البهية للجمال الأقدس
الذى يحتضن الأيدى والأقدام والشفاه والعيون والحواجب
أشعر بأن كل ما سطرته الأقلام الخالدة
لم يكن إلا وصفاً للجمال الذى ترتدينه .

فمدحهم لم يكن إلا نبوءة صادقة لهذا العصر الذى حواك
ومقدمة لتصوير مالك من مواهب
لأنهم نظروا حقاً ولكن بعيون إلهية
ولو أنهم لم يملكوا القوة الكافية للإنشاد بمحاسنك

فما يملكه عصرنا هو العيون الناظرة المسحورة
وليس الألسن التى تستطيع النطق بسحر الأحداق .

# سائلة (لوكارنو)

للكاتب الألمانى ( هافريش فون كلايت )

وعبثا حاولت تخليص المسكين من
عذاب النار . لقد رأى بأم عينيه
نهاية حياته وهو على أشد ما يكون
من الفزع .

لقد كان قصراً منيفاً واسع الأرجاء عديد المناظر كثير الحدائق يقع فى سفح من سفوح جبال الألب الشاهقة المطلة على القسم الشمالى من إيطاليا وهو لايبعد عن ضواحى مدينة (لوكارنو) الجميلة إلا مسافة قصيرة تقطع مشياً على الأقدام .

إن هذا القصر هو ملك لأحد الأمراء المعروفين بالبأس والصولة ، وقد كان في أيام عزه كالقلعة الجبارة وسط تلك الجنائن الغناء . أما اليوم فالقادم عليه من الناحية الجنوبية لقرية ( سنت كوثارد) لايشاهد منه سوى الأنقاض والخرائب وأكوام الرماد .

وصادف أن وصلت فى يوم من الأيام إلى الباب امرأة عجوز عليلة تستعطي أهله ، فرحبت بها سيدة القصر وأشفقت عليها وكستها وقدمت لها ملجأ فى أحد أركان غرفه العالية الفسيحة ، استلقت فيه العجوز على فراش مريح كان قد أعد لها من حزم القش .

عاد الأمير من الصيد فانسل إلى هذه الغرفة التى اعتاد أن يحفظ فيها بنادقه وبعض لوازمه الأخرى ، وإذا به يشاهد تلك المرأة مضطجعة فى مكانها تلهو بعلتها ، ناداها بغضب ثم أمرها بالتنحى عن الركن والإيواء إلى خلف الموقد . . . وهى ما كادت تنهض حتى قبض عليها فألقاها على سطح البلاط الناعم وحطم عمودها الفقرى . لقد كان الوجع شديداً ومؤلما إلى درجة أنها لم تستطع إلا بعد جهد أن تقود نفسها وهى فى دور النزع الأخرس ، فتجاوز الغرفة إلى جهة الموقد حيث سقطت غرقى بأنينها المفزع . . . وهناك أسلمت الروح .

مرت بضع سنوات أضاع فيها الأمير بسبب القحط والحروب معظم ثروته وعول بعدها على أن يبيع مقاطعاته وأملاكه وأخيراً قصره المذكور .

وفى يوم من الأيام حضر لديه أحد أعيان (فلورنسا) يبدى له كل الرغبة فى شراء قصره الجميل بعد أن سمع عنه ما سمع ، فما كان من الأمير إلا أن طلب

من زوجه استحضار كل مامن شأنه أن يريح ضيفه الكريم حباً منه فى الحصول على نتيجة مرضية لمباحثاته . وأشار عليها بإعداد الغرفة المنوه عنها إليه . ولقد كانت حينئذ ملأى بالأثاث الظريف الأنيق .

وفى منتصف الليل وعلى حين غرة باغتهما الضيف فى غرفتهما وهو مذهول ممتقع اللون ، فأدخل إلى قلبيهما الرعب والوجل ، أكد لهما هذا بنهيب عظيم بأن غرفته مسكونة بمخلوق غير منظور ، ولكنه كان يصوت وهو كما لو كان شخصاً مستلقياً على فراش من قش فى أحد أركان الغرفة ، وإذا به ينهض بعد لأى ويخطو خطوات بطيئة وضعيفة ولكنها مسموعة ، فاجتاز الغرفة إلى وراء الموقد حيث سقط عنده منطرحاً وهو يئن ويتوجع .

ومع أن الأمير ذعر من فوره لهذا الخبر إلا أنه لا يدرى السبب الذى حدا به إلى أن يجابه الضيف بقهقهة تهكمية غريبة ممزوجة بطرب عجيب وهو يقول له : سأقوم معك حالا لأصحبك بقية الليل فى غرفتك المسكونة . أبى الضيف قبول هذا الاقتراح وطلب السماح له بالمكوث فى غرفة أخرى يقضى فيها الهزيع الأخير من تلك الليلة . وهكذا كان . . وما بدا الفجر حتى قام فأمر بإحضار خيوله دون تأخير ثم ودّع أصحاب القصر وانصرف فى سبيله ناجيا .

بعث هذا الحادث أثرا سيئا فى نفس الأمير لأنه أبعد عنه بضعة أفراد كانوا فى عداد الراغبين فى الشراء . وكذلك سرى الخبر بين خدم القصر همسا وعلى شكل غريب فعزم الأمير على تكذيبه وقطع دابر الإشاعات المنتشرة وذلك بأن عوّل على استقصاء الحقيقة بنفسه فأوعز بنقل سريره إلى الغرفة المسحورة وراح يرقب الحال يقظا حتى منتصف الليل . وما كادت الساعة تدق الثانية عشرة حتى خامره الفزع إذ بدأ يحس بذلك الصوت المبهم وهو كما لو كان صادرا من مخلوق ينهض من على القش فيجتاز الغرفة وينطرح وراء الموقد غارقا فى أنينه وتأوّهاته .

انبلج الصبح فذهب توّا إلى زوجه يعلمها حقيقة الخبر . دخل عليها فنظر

حواليه بنظرات مضطربة وقلب واجف وأعصاب متهيجة وبعد أن أحكم غلق الباب وراءه أخبرها بما اكتشف . وهنا فزعت الأميرة فزعا لم تصب بمثله فى حياتها ولكنها تمالكت نفسها فطلبت منه أن يقوم و إيّاها بتجربة هادئة قبل أن ينتشر الخبر و يشيع . اصطحب الطرفان خادما أمينا وجلسوا فى الغرفة يستمعون . ها هى الأصوات الخفية تطرق آذانهم جميعا من جديد فبعثت فيهم الذعر المميت أضاعت الأميرة رشدها فصرخت وأعولت ولم يستطع الرجل أن يعيدها إلى سكونها وهما فى حضرة الخادم و يبعد عنها الوجل الذى انتابها من هذا الحادث المفاجيء الذى قد يوقظ إليه الآخرين إلا أن يؤكد لهما ضرروة التخلص من القصر على أى حال وفى أقرب فرصة ممكنة .

وجاءت ليلة اليوم الثالث وهما على أشد ما يكون لإدراك سبب هذا القلق الممض الذى استولى عليهما ، وأخيرا صمما على إعادة التجربة . ارتقى الاثنان بقلوب واجفة درجات السلم وهما فى طريقهما إلى غرفة الضيوف وما وصلاها حتى وجدا عند الباب كلب الحراسة واقفا وكان آنئذ خارج عقاله فرغب الطرفان بلا سبب معقول و بدون شعور على الأرجح فى أن يكون برفقتهما مخلوق حيّ آخر .

حانت الساعة الحادية عشرة وكل منهما جالس على سريره ، الأميرة بكامل لباسها والأمير مجهز بمدية ومسدس تناولها من خزانة كمنت بجوارهما ، وفى ناحية منهما منضدة عليها شمعتان تبعثان بنورهما الضئيل فى تلك الغرفة المظلمة وفيما هما يتفادمان و يتحادثان ملّ الكلب وقوفه فانطرح وسط الغرفة وأمال برأسه بين أذرعه وما هى إلا لحظة حتى غلبته سنة الكرى فنام .

وبعد حين بدأت الساعة تؤذن منتصف الليل وإذا بالصوت المخيف يظهر من وكره وإذا بذلك المخلوق الشبحى ينهض من ساعته عند ركن الغرفة وهو يرتكز على مسانده و يتقدم تاركا مكانه . . ها هى خشخشة القش تحت أرجله تعلن قيامه . وها هو يخطو بضعف إلى الأمام . . وهنا ولما يخطو بعد الخطوة

الثانية استفاق الكلب وأرهف أذنيه إلى ناحية الصوت ثم نهض منتصبا وهو ينبح ويعوى وكأن شخصا كان يدفع به إلى الوراء فيتراجع باستقامة واضحة إلى الوراء .. إلى الوراء .. نحو الموقد .. الموقد . وقف شعر الأميرة من هول هذا المنظر المفزع فولّت هاربة من الغرفة دون أن تلوى على شيء . أما الأمير فسحب مديته ووقف صارخا فى وجه الشبح .. من هذا . وعبثا كان ينتظر جوابا لسؤاله .

اندفعت الأميرة كالمجنونة إلى حيث أمرت بإحضار العربة لتقلّها إلى المدينة حالا وما كادت تجمع بعض أمتعتها وتحملها إلى الخارج حتى التفتت وإذا بها تشاهد ألسنة اللهيب .. اللهيب المتصاعد يلتهم جوانب القصر وتندفع ألسنته بقوة فى جميع أركانه فالأمير وقد غلبه الذعر وأعياه النصب حمل في يده إحدى الشمعتين فمس بنارها دون أن يعى إطاراً لبعض التصاوير الزيتية المعلقة على الجدران فاشتعل من أطرافه ، أرسلت الأميرة بعض الناس إلى الداخل وعبثاً حاولت تخليص المسكين من عذاب النار ، لقد رأى بأم عينه نهاية حياته وهو على أشد ما يكون من حال مفزعة .

لقد جمع أتباعه عظامه البيضاء وهى لاتزال إلى الآن فى ذلك الركن من تلك الغرفة التى أمر فيها يوما ماتلك السائلة . سائلة ( لوكارنو ) بالخروج منهما .

# الحب في نظر شاعر

شكسبير

لا أستطيع تشبيهك بيوم الصيف
لأنك أشد اتقادا وأقوى حرارة
نعم — إن رياح الصيف عندما تهب تحرك أعطاف الورود الجميلة
فتنشر روح نيسان فى الحدائق والرياض
غير أن أيام الصيف قصيرة المدى ، وسريعة الفناء .
تشرق عين السماء أحيانا فتبعث أشعتها القاسية الحارة
ولكن طالما أخفتها الغيوم المظلمة فلا تعود هيئتها ذهبية ساطعة
وكثيرا ما نحط من قدر الجميل إذا قارناه بالأجمل عن طريق الصدفة
وحسب تبدلات السنن الطبيعية المتباينة .
هذا صيفك الأبدى الجبار إنه لا يذبل ولا يفنى
فهو متسع باتساع هواك الذى يضيق عنه البر
والبحر والسهل والمدر
ولو أنه انحصر فى نقطة صغيرة منيرة تلمع بين طيات فؤادى.
وهو لا يفقد عرش الحسن الذى تملكه
ولا يمكن للموت أن يتفاخر بأخذه إياك تحت ظله
ما دامت من عين الخلود وفى الخلود تعيش
وما دام هناك شمس بازغة وعين فى الوجود ناظرة
فسيظل لك هذا
وهو الذى سينميك من روحه الطاهرة الخالدة ..

# بم يعيش الناس

للكاتب الروسى ( ليوتولستوى )

رويداً ! أيها الناس لقد خاب
ظنكم فى القول بأنكم تعيشون بتدبيركم
إنكم لا تعيشون إلا بالمحبة .

عاش الإسكاف سمعان كما يعيش غيره من الفقراء لا يملك أرضا ولا مأوى ، فسكن هو وعائلته أحد أكواخ الفلاحين تلك الأكواخ المبثوثة على سفح ذلك الريف النائى . وكان يحصل على رزقه بعَرَق جبينه و يصرف للقوت كل ما يكسبه فى يومه من مال وذلك لرخص العمل وغلاء الخبز .

لقد كان لدى الرجل وزوجه دثارٌ هدْمٌ من الفرو يتقيان به زمهرير الشتاء القارس ، فمضت الأشهر تباعا من العام الثانى وهو يجهد باقتصاد مبلغ زهيد لم يزد آنئذ عن ستة دراهم لو أضافه إلى دين له بذمة بعض الزبائن من سكان القرية لبلغ ستة عشر درهما وعشرين فلساً ولاستطاع عندها من تحقيق أمله وهو استبدال ذلك الطمر البالى بما هو خير .

وفى صبيحة يوم من الأيام استعد الرجل للخروج فاشتمل فوق شعاره بشملة امرأته المصنوعة من المباد الصينى وارتدى فوقها معطفه الخاص وراح يقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها ، ثم انسل بعد الفطور فى السبيل المؤدية إلى القرية ، وكله أمل من أنه سيعود بالفرو إلى بيته جذلان منتصرا .

هبط القرية وعرج فى الحال إلى مسكن أحد الرفاق فلم يجده فيه إلا أن امرأته وعدت بدفع المبلغ فى الأسبوع القادم .

فدار قاصداً صاحبه الآخر . أما هذا فقد هشّ له و بش ثم أقسم بأنه لا يملك مما بذمته سوى عشرين فلساً ، وهاهى ذى يقدمها عن طيبة خاطر .

سقط فى يد الرجل فتلبد واحتار غير أنه تمالك بعد لأى واستجمع عزمه على شراء الفرو بالدين .

قال له البائع : ادفع الثمن وفى إمكانك عندئذ أن تنتخب نوع الفرو الذى تريده فنحن أعلم بمصاعب جمع الديون .

وهكذا لم يحصل الرجل بعد كل ذلك العناء إلا على عشرين فلسا وعلى زوج من حذاء اللباد قدمه أحد الفلاحين طالبا إليه تنعيله بالجلد .

هنا شعر سمعان بالخيبة تطغى عليه ، فعرج على حانة يحتسى فيها قليلا من ( الفودكا ) بقيمة عشرين فلسا ثم خرج عائداً إلى مقره الحقير .

وما الفرق بين الذهاب والإياب ! لقد عاد بخُفَّى حنين ولكن لماذا ! ألم يحس فى الصباح بقشعريرة البرد ، بينما هو الآن يسير بعد أن جرع ( الفودكا ) وقد دبت فى جسمه نشوة مريحة بعثت فيه الدفء ولو لم يحصل على الفرو .

دلف الشيخ إلى الأمام وهو يضرب بيد عكازه على الأرض الباردة ويهز بالأخرى زوج الحذاء اللبادي ، دلف بلاتوقف وهو يحدث نفسه :

لاضير علىّ فقد دفئت ولو لم أحصل على الفرو ، ارتشفت قطرة تمشت فى جميع أوصالى وعروقى ، أنا لست بحاجة إلى الفرو ولا لزوم لكل هذا القلق : ولتكن شيمتى عدم المبالاة ، لايهمنى شىء وباستطاعتى أن أعيش بدون فرو ، لاحاجة لى بها . أما زوجتى ! زوجتى ! فسوف تغتاظ وتتبرم بلاشك ، هذا أكيد نعم أليس من الخطل أن يكد الإنسان طول يومه ثم لايتسلم أجره فى النهاية ، ذاك هو الواقع .

مهلا ! إن لم تدفع ما عليك فسأوجعك ضربا ، ولاخير فىّ إن لم أفعل .

كيف ذلك ؟ لقد دفع لى عشرين فلسا فقط ، وما ترانى فاعل بها أشرب بها ، إن ذلك هو كل ما أستطيعه . أهو معسر حقاً كما يدعى ؟ ليكن كذلك ولكن ما قولك عنى ! لك بيت وماشية وكل شىء ، أما أنا فلا أملك إلا قوت يومى . يدر عليك الحاصل من أرضك ، بينما أجدنى بحاجة إلى شراء كل حبة وأكون مرغما فى كل حال على صرف ستة دراهم للخبز فى كل أسبوع ، ومع هذا فقد أحضر إلى البيت والخبز نافذ فأضطر لدفع ثلاثة دراهم أخرى .

وإذن أدّ ما عليك ولا تتهمنى باللغو الفارغ .

وفى هذا الحين كان سمعان يقترب رويداً رويداً من ساحة المعبد القائم بجوار منعطف الطريق ، فتطلع وإذا به يرى شبحاً أبيض منتصبا خلف جدران المعبد كانت الشمس فى الأصيل فلم يستطع رغم الإمعان تمييز ما يرى .

لم يكن فى الموضع قبل هذا حجر أبيض ، ألعله ثور ، لا إنه لايشبه الثور ، فالرأس رأس إنسان . إنه أبيض ناصع وما يعمل الإنسان فى هذه الأمسية وفى هذا المكان .

اقترب قليلا فاتضحت له معالم الشبح ، وما كان أشد استغرابه إذ تبينه إنسانا عاريا لايدري أحى هو أم ميت منثن بجلسته دون حراك نحو المعبد ، وجم وارتاع فؤاده ظنا منه أنها جثة قتيل رُمى بها فى العراء وتوقع الخطب والمكروه إن هو وصل إليها أو داناها .

استأنف السير عابراً من أمام واجهة المعبد قصداً منه فى مواراة الصورة عن ناظريه ، وكان كلما خطا إلى الأمام التفت إلى الوراء تطمينا لنفسه ، وفى إحدى لفتاته بصر بالشبح يتململ ويراقب مسيره ، فازداد رعباً وأمعن في إهطاعه ، ومع ذلك فقد تردد فيما إذا كان الأفضل له النكوص أو المثابرة على الجري ، وصار يتمتم هامساً :

إن عدت إليه فإنى متوقع شراً ومن يعلم من يكون الرجل ، هل جاء إلى هذا الموضع لخير ما ؟ كلا ! إن اقتربت إليه فقد ينقض علىّ ويخنقنى ، وإذن فأين المهرب وكيف النجاة ؟ وإذا لم يكن ذلك فما ترانى صانعا بعريان سيصبح حتما عبئاً علىّ فأنا فى حالة لا أقدر معها على أن أخلع عليه بردى ، ربى إنك ملاذى وعوني فى هذا الخطر الداهم .

وبينما هو كذلك وقد ابتعد كثيراً عن المعبد إذا به يقف فى مكانه فجأة إجابة لصوت الضمير وتعنيفه :

— ماذا أنت عامل يا سمعان ، لعل الرجل ضال يتخبط الطريق أو لعله عابر

سبيل يتلمس القرى والثواء ، ما بالك تنسل مذعوراً ، فهل كنت من أصحاب الثروة حتى تخشى سطوة اللصوص ؟ آه منك يا سمعان ما أجبنك .

وعلى هذا عاد سمعان القهقرى وتقدم نحو الرجل .

( ٢ )

اقترب منه فوجد شابا عاريا فى مقتبل العمر صبيح الوجه حسن القوام وهو يرتجف من البرد وعلى جسمه آثار الرضوض ودلائل الإعياء ، فلما دنا منه تحرك الرجل بضعف كمن يستفيق من غفوة أو غشيان فأدار وجهه ونظر إلى القادم نظرة إشفاق وتوسل ، لقد كانت تلك النظرة كافيه لإثارة كل ما فى النفس من عوامل الحنو والرحمة ، وفى الحال رمى سمعان بالحذاء اللبادى على الأرض وشرع ينزع عنه معطفه وهو يقول :

— إليك به فالوقت قصير لا يسمح لنا بالكلام .

وعندئذ أخذ بذراعه وساعده على النهوض فاستوقف سمعان ما فى الرجل من وضاءة ونقاوة ورشاقة. ألبسه المعطف وشدّ على وسطه النطاق بعد أن لفّه على جسمه لفا قويا وكسا قدمه بالحذاء اللبادى ثم حاول أن يعيره قبّعته الممزقة غير أنه سرعان ما شعر بلذعة البرد في شواته فأعادها إلى رأسه مرة أخرى وخصوصا بعد أن لاحظ شعر الرجل الطويل الأجعد ، و إذ انتهى أنشد يقول :

— والآن أنصح لك يا رفيقى بالتحرك لتنشط وتسخن ولندع ضروريا تنا الأخرى لحينها ، هل تقوى على المشى ؟

اعتدل الرجل ونظر بعطف إلى من بذل له المعروف وأراد الكلام فامتنع عليه .

فقال سمعان : إن البرد قارس ومن العبث الإبطاء فى المكوث ، لنرحل إلى البيت وإذا كنت تشعر بضعف فهاك عصاتى وتوكأ عليها . ها تقدم واخطو .

ابتدأ الرجل يتهادى فخطا بسهولة دون تلكأ ، وهما يسيران سأله سمعان :

— ومن أين أنت يا رجل ؟

قال : أنا لست من هذه الديار .

فقال سمعان : أدركت ذلك لمعرفتى بأقوام هـذه المناطق ، ولـكن كيف تسنى لك الوصول حتى جئت فوقفت عند جدران المعبد .

قال : لا أستطيع أن أصرح بالحقيقة .

فاسترسل سمعان سائلا : فهل ظلمك أو أساء إليك أحد فى معاملته .

قال : كلا ، غير أن ربى قاصصنى .

قال : هذا صحيح فسبحان مالك الملك . لا بأس عليك يا صاحبى . أتعلم أنك لازلت الآن بحاجة إلى مأوى وزاد ، فأين تريد أن تقصد ؟

— هذا ما أدعه لرأيك .

احتار سمعان من موقف الرجل فهو على ما يظهر إنسان خلوق يتكلم بدماثة ومع أنه قد أخفى حقيقته إلا أنه من المرجح غريب عن المتشردين ، ولـكن من يدري ما سيحدث فى الغد .

— حسناً ! تفضل معى إلى البيت وأدفئ نفسك فيه حيناً على الأقل .

اتجه الاثنان فى طريقهما إلى المسكن وكل يمشى إلى جنب صاحبه ، وعصفت الريح واشتد أزيزها فأطارت من رأس سمعان نشوته ، وحينذاك ابتدأ يشعر بقساوة البرد ، غير أنه اندفع متمالـكا وهو يجهد بتنفسه ويلف على صدره شملة اللباد ، وقد تنازعته الخواطر ؛ هناك سنستهل الحديث عن الفرو ، نزلت القرية لشرائه فرجعت خاليا حتى من معطف ، واصطحبت فوق ذلك معى رجلا عاريا أقوده إليها . ستغضب ( متريونا ) بلا شك .

تذكر سمعان امرأته فكسفه الحزن ، ورانت على نفسه الـكآبة ، والتفت إلى صاحبه عابساً ، وإذا به يستعيد فى مخيلته نظرة الرجل إليه قرب المعبد فزال عبوسه وانساقت إلى قلبه موجة راوية من الفرح والسرور .

(٣)

وفى ذلك اليوم أعدّت (متريونا) كل شىء على عجل — احتطبت واستقت الماء وأطعمت أولادها وأكلت غذاءها ثم جلست مفكرة — لا زال لدينا كسرة كبيرة من الخبز فإذا كان سمعان قد تناول طعامه فى القرية فسوف لا نحتاج إلى مزيد . زارت الكسرة بضع مرات وارتأت فى النتيجة تأجيل العجن إلى صباح الغد وخصوصا وهى لا تملك إلا خَبزة واحدة من العجين ولا مناص لها من تدبيرها حتى تكفيهم بقية أيام الأسبوع . رمت بالخبز جانبا وجلست إلى ثوب زوجها ترقّعه ، وبينا هى تعمل زارها خياله وهو قادم إليها بالدثار الجديد . فانتعشت وأخذت تحدّث نفسها — هذا إذا لم يحاول البائع غشه ، زوجي سمعان ! بسيط القلب ومن السهولة خداعه أما هو فبعيد جدا من أن يخدع أحدا . إن الستة عشر درهما مبلغ ذو قيمة فعليه أن يحصل به على فرو ممتاز لا أن يكون من النوع السقيم المصبوغ . كم قاسينا من عناء مرير فى الشتاء المنصرم حينما كنا نفتقر لدثار دافىء . ليس فى طاقتى النزول إلى النهر أو الذهاب إلى جهة ما فقد ألبست سمعان كل ما نملك . ماذا ! أراه قد تأخر عن المجىء وقد طلع منا فى ساعة مبكّرة . كلا ! لا زال من الوقت ما يكفى لرجوعه ، وأمنيتى الوحيدة هي أن لا يوسوس له الشيطان فيرتاد الحانة لتعاطى المدام .

و بينا هي مشغولة بهواجسها طرق سمعها وقع خطى عند المدخل ففرزت إبرتها فى عملها حالا وقفزت مهرولة فى الممر لترى من فى الباب . هنالك شاهدت سمعان زوجها وبرفقته رجل غريب حاسر الرأس يحتذى خفا من اللباد .

قرأت ( متريونا ) فى ملامح زوجها الجذل والانشراح فعزت ذلك لتأثير الراح و إذ لا حظت أنه لا يرتدى معطفه ولا يحمل بيده طردا جمدت فى مكانها وعلاها الخجل لأنها أيقنت أنه بذل المال للشراب عنه وعن رجل طالح اقتاده أخيرا إلى البيت .

دخلا الكوخ فتعقبتهما وحدّقت فى الغريب فوجدته شابا حقيراً لايستر جسده شعار ، ولا يكسو رأسه دثار ، وقد ارتدى معطف زوجها وانتحى جانباً لايتحرك ولا ينظر إلى ما حوله ، فظنت أنه يتخابث من الوجل ، ولهذا بقيت فى مكانها صامتة ترقب ما يبدو منهما .

نزع سمعان قبعته عن رأسه وأخذ مكانه على المقعد دون اكتراث ثم ناداها هلا طبخت لنا بعض الطعام .

عبست المرأة وتمتمت بكلمات غير مفهومة ، وظلت واقفة بجوار الموقد تنظر إلى هذا مرة و إلى ذاك أخرى ، وكانت تهز يدها ساخرة .

أدرك سمعان حالها فتجاهل وقبض على يد صاحبه : اجلس يا رفيق ريثما يأتينا العشاء ، ثم مال إليها يقول : هاتى لنا الطعام يا متريونا .

وعندها لم تستطع المرأة أن تكتم حنقها ، فصاحت به وصوتها يتهدج : لقد طبخت لغيرك لا لك أنت أيها الفاقد لرشده .

ذهبت لأمر فعدت إلى بصحبة متشرد عريان ، ليس لدى زاد للمدمنين من أمثالكم .

قال : على رسلك ؛ لا تحركى لسانك بلا رحمة ولا حجة . والأحرى بك أن تفقهى قبل كل شىء حقيقة الرجل .

قالت : كلا ! أخبرني أولا عن مصير المبلغ الذى أخذته .

فقام تواً إلى جيبه وسحب منه الدراهم ثم رمى بها إلى زوجه وهو يقول : إن تريفونوف لم يسلمنى ما عليه ، ولكنه وعدنى بالدفع وشيكا .

اختطفت ( متريونا ) المال بلمحة وأسفت لخيبة الأمل وفقد الرجاء من شراء الفرو وقالت متأففة :

ليس لك لدى طعام اليوم ، إنك غير قادر ولا شك على أن تطعم جميع المدمنين العارين فى العالم .

قال : كفى يا متريونا ! سكّنى عنك وعليك أولاً أن تصغى إلى ما يقوله الرجل .

قالت : حكمة بالغة سأسمعها وأعيها من لسان أحمق سكّير . لقد كنت مصيبة فى تمنّعي عن الزواج منك ، أنت أيها الرجل المدمن ، أنسيت أن القماش الذى وهبتنى إياه أمّى قد بعته من أجل الخمرة والآن تصرّفت بثمن الفرو ، أليس ذلك أيضاً من أجل الخمرة الملعونة .

حاول سمعان توضيح مراده لبيان ما خفى عنها فلم تسمح له بالكلام بينما راحت هى مستغرقة باللغو فأهضبت فى القول وزاد حتى آل بها أن تتحدّث عن أمور حصلت قبل عشرة أعوام .

وأخيراً انقضّت على سمعان تجرّ بتلابيبه طالبة إليه أن يعطيها رداءها : هو كل ما أملك وحرام عليك أن تلبسه . ردّه إلىّ أيها الكلب الأجرب وعساك هالك عن قريب .

وقبل أن يتم سمعان نزعه قبضت (متريونا) على كمه وخطفته بشدة فانفرز تدريزه فما بالت ، ثم أخذته ورمت به على رأسها وولّت إلى الباب ، عنت الخروج من البيت إلا انها تمهلت مترددة إذ رغبت أولا فى أن تهدّئ من روعها وتستمع بعده عن حقيقة الرجل نزيلهم الجديد .

( ٤ )

قالت : إذا كان رجلا صالحا فلم كان عاريا ، و إذا كان كما تدعى فأخبرنى أين عثرت عليه ؟

قال : هذا ما أحاول بيانه ، عند مرورى بالمعبد شاهدته يقبع بالقرب من جداره الخلفى وهو عريان يرتجف من البرد ، فرأيت من المروءة إسعافه تخفيفاً لما يقاسيه من آلام الزمهرير . لقد هدانى الله إليه لانتشاله و إلا لقضى نحبه . ما كان علىّ أن أعمل غير ذلك ، إذ لاندرى ما كان سيحل به . اقتربت منه

وكسوته وقدته إلى البيت . لا تغضبي يا متريونا فتلك خطيئة كبري وتذكّرى من أننا سنموت يوماً ما .

زمت المرأة شفتيها مشمئزّة وحدقتّ فى الرجل وهى منقبضة متحاملة . بينما كان هو يجلس على طرف المقعد صامتاً واجماً دون كلام ولا إيماء وقد طوى يديه على ركبتيه وأحنى رأسه إلى صدره ، كان مطبق الأجفان مقطّب الجبين كأنه يشكو من صداع . وأردف سمعان يقول : — متريونا أليس فى قلبك حب لله .

بقيت المرأة ساكنة تحدّج بالغريب فلما وعت ما يقوله سمعان هدأ ثائرها فلانت ثم لانت و بينما هى تحسب نفسها غاضبة نافرة إذا بها تتحوّل فجأة إلى مشفقة حزينة فرجعت من الباب متباطئة تحضّر لها المائدة ، حطّت على الخوّان كأساً سكبت فيه شيئاً من شراب ( الفاس ) وجاءت بكسرة الخبز الأخيرة وصفّت الملاعق والسكين ثم قالت بهدوء : تقدّما وكلا فهذا هو العشاء .

قرّب سمعان رفيقه إلى المائدة وابتدأ يثرد الخبز فى المرق ثم طفق الإثنان يأكلان . أما هى فقد جلست عند إحدى زوايا المائدة تمعن النظر فى الغريب وسرعان ما شاهدته يرفع إليها رأسه ويبتسم لها بوجه مشرق بشوش .

سألته عند الفراغ من الأكل : ومن أين أنت يا رجل ؟

قال : أنا لست من هذه الجهات .

قالت : عجباً وكيف إذن صادف أن جئت على الطريق ؟

قال : لا أقدر على التصريح بالحقيقة .

قالت : هل سرقك أحد ؟

— كلا ! يكفى أن أذكر أن ربي عاقبنى .

— وكنت هناك ملقى وأنت عريان ؟

قال : نعم عريان و بردان فرآنى سمعان وأشفق علىّ فألبسنى معطفه وقادنى

إلى هـذا المـكان . وأنت أطعمتنى وأسقيتنى وحنوت علىّ فانتظري من ربى أحسن الجزاء .

و إذ حان وقت النوم قامت المرأة فجـاءت للرجل بسروال وقميص قديمين يلبسهما وخيرته السبات فى المخدع أو على سطح الموقد فاختار الأول . أما هى فقد تناولت المعطف وأطفأت الشمعة ثم ذهبت إلى حجرة الموقد تنشد النوم بجوار زوجها . ولـكن النوم خاصم عينيها وانصرف عنها لأن طيف الزائر الجديد لا زال عالقا فى ذهنهـا . تذكّرت نفاد الخبز والقميص والسروال اللذين أعارتهما للرجل وتخيلت ابتسامته الرضيّة وتذكرت حوادث أمسها واحدا بعد آخر حتى أقلقتها الهواجس فنادت : سمعان .

قال : نعم .

قالت : لقد أكلتم آخر كسرة من الخبز وفاتنى أن أعجن فما نحن عاملون غدا ، أيمكن لنا أن نستقرض من جارتنا ( مارتا ) بعض الخبز .

قال : إن أصبحنا أحياء فسنجد أمامنا ما نقتات به .

صمتت المرأة هنيهة ثم تابعت تقول : يظهر عليه أنه رجل طيّب ولـكن لا أدرى سبب امتناعه عن ذكر هويّته .

أجاب : لا بد وأن يكون لامتناعه حجج معقولة نجهلها .

قالت : سمعان .

قال : نعم .

قالت : ما بالنا نهب ولا نوهب.

هنا أدار سمعان ظهره ولم يحر جوابا ثم اشتمله النوم .

( ٥ )

استيقظ سمعان فى الصباح التالى فوجد أطفاله لا زالوا نائمين وقد تركت أمهم البيت قاصدة جارتها لاستقراض مقدار من الخبز . أما الرجل فقد سبقه فى النهوض وراح على المقعد جالسا يرنو إلى سمائه وفى وجهه صفاء أبين عليه مما كان بالأمس .

ابتدره سمعان بعد أن حيّاه — حسنا يا رفيقى مادام البطن بحاجة إلى الخبز ومادام الجسم بحاجة إلى الثوب فعلى الإنسان أن يعمل ليعيش . فأخبرنى بالصنعة التى تجيدها .

قال : لم أزاول عملا بالمرة .

استغرب سمعان جوابه فاستطرد يقول : إن من يريد أن يتعلم بإمكانه أن يتعلم كل ما يريد .

قال : لا بأس ، سأكد كما يكد سائر الناس .

قال : ما اسمك .

قال : ميخائيل .

قال : إذن فاسمعنى يا ميخائيل . إذا كنت لا ترغب أن تحدثنا عن نفسك فذاك ما يعنيك ولكنك ملزم فى أن تحصل على مكسب . إن أطعتنى بما أشير به عليك فسأقدم لك طعاما وملاذا .

قال : جزاك الله خيرا . أشر بما أعمل فها أنذا على استعداد لما تقول .

وعندئذ تناول سمعان غزلا وشده حول إبهامه ثم صار يبرمه ويقول : انظر إنه عمل بسيط أليس كذلك ؟ ظل ميخائيل يراقبه حتى إذا انتهى أخذ فى تقليده إلى أن أتقن البرم ، وبعد ذاك درّبه سمعان على كيفية تشميع الخيط فأجادها . ثم علمه أصول خياطة الجلد وهى ما أتقنها أيضا ، وفى خلال ثلاثة أيام كان ميخائيل يزاول مهنته الجديدة بجوار صاحبه بكل مهارة كما لو كان قد قضى عمره فيها ،

كان يشتغل بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل فإذا أتم واجبه جلس صامتا يبحث فى سمائه ، كان وديعا يكتفى بالقليل من الزاد ويتكلم عند الضرورة ولقد عرف عنه بأنه لم يخرج إلى الطريق إلا نادرا ولم يمزح أو يضحك أو يبتسم إلاّ مرة واحدة ابتسم فيها لمتريونا حينما قدّمت لهما العشاء فى تلك الأمسية الأولى .

## ( ٦ )

انقضى عام على ميخائيل وهو يساكن مدربه سمعان ويشتغل معه . ولقد ذاع صيته وحمل القاصى والدانى ذكره فى القول بأن ما من أحد يستطيع أن يبارى ميخائيل عامل سمعان بجودة ما يصنع من أحذية . وعلى هذا قصد الناس سمعان من جميع الأطراف فى تلك المنطقة لشراء الأحذية فحسن معاشه ودرّت عليه الدنيا .

ففى يوم من أيام الشتاء الباردة بينما كان الإثنان فى عملهما مرت بالكوخ عربة تجرّها جياد ثلاثة على إحدى مركبات الجليد وفى أعناقهما الأجراس ، فوقفت عنده ، وحال وقوفها قفز منها غلام ظريف وبادر إلى فتح بابها مستقبلا سيده النبيل ، فنزل منها هذا متدثراً بفروه الفاخر ، وخطا متهاديا نحو الكوخ ، وإذ شاهد الأهل ذلك أسرعت ( متريونا ) إلى الباب تفتحه على مصراعيه ، دخل الشريف ، ولما قارب المجاز أحنى رأسه لئلا يمسه السقف ومشى حتى وصل إلى غرفة العمل .

نهض إليه سمعان وحياه وهو يحدق فيه بدهشة لأنه لم يكن قد شاهد مثله ، فلقد كان هو وعامله ميخائيل نحيفين هزيلين وكذلك (متريونا) التى كانت نحيلة رقيقة كالعظم . أما هذا الرجل فكان وكأنه من سكان عالم ثان ، بدينا أحمر الوجه غليظ الرقبة أشبه برقبة الثور ، وبدخوله كاد يملأ طرف الغرفة لضخامته وقد وقف يحملق جملة كما لو كان قدّ فى قالب من حديد .

نفخ الشريف فى فضاء الغرفة ونزع عنه رداءه ثم جلس على المقعد وقال : من منكما صاحب العمل .

قال سمعان وهو يتقدم : هأنذا يا صاحب العزة .

عندها نادى الرجل غلامه : أى (فيدكا) ناولنى الجلد .

فأسرع الغلام إلى العربة وعاد إلى سيده بطرد مقفل ناوله إياه بعد فتحه فأخرج النبيل منه قطعة من الجلد وعرضها لسمعان — انتبه إلىّ — هل ترى هذا الجلد ؟

— نعم يا سيدى .

— ولكن أتعلم ما نوعه ؟

فجسّ سمعان الجلد بيده وأجاب : نعم إنه جلد طيب .

— ماذا ؟ أيها الأخرق ! . ألم تر مثله فى حياتك . إنه ممتاز حقاً وهو من الجلود الألمانية وقد كلفنى مالا يقل عن أربعين درهماً .

وجل سمعان وقال : كيف أستطيع وأنا فى مكانى هذا أن أشاهد أمثال هذه الجلود .

— هذا صحيح ! والآن أخبرنى هل فى إمكانك أن تصنع منه حذاء مقبولا أرتديه ؟

— نعم يا صاحب العزة .

— أتقول نعم ! تذكر ثمن الجلد واعلم لمن تصنع الحذاء ، أريده متيناً لا يبلى ولا يتغير شكله لمدة سنة كاملة ، فإذا كنت قادراً على صنعه بهذه الصورة فهاك الجلد وفصّله وإلا فأعلمنى ، والسجن من ورائك إن لم يتم صنع الحذاء وفقاً للشرطين السابقين . أما إذا كان كما أريد فسأمنحك أجرة نقدية لا تقل عن عشرين درهما . ذعر سمعان من التحذير ولم يعد يعرف ما يقول ، فالتفت إلى ميخائيل ووكزه بكوعه واستفهم هامساً ، فأشار له هذا برأسه إشارة القبول .

واستعد سمعان لأخذ القياس ، فتناول ورقة طولها (١٧) أنجا وسوّاها ومسح يديه بأذيال مئزره لئلا تتسخ منها ملابس الرجل ثم انحنى على القدم ، فقاس النعل وظهر القدم عرضا وطولا ووصل أخيراً إلى مدار الساق . عندها وجد أن الساق كانت أثخن من دعامة ، وأن الورقة قصيرة لاتفى بالمرام ، فبادر تواً إلى وصلة يلحقها بها واستأنف عمله .

— انتبه جيداً لئلا يضيق الحذاء بقدمى . قال النبيل ذلك وأجال بنظره فى الغرفة فأبصر ميخائيل .

— ومن لك هذا .

قال سمعان وهو يلتفت إلى الوراء — هو عاملى وهو الذى سيقوم بخياطة الحذاء .

وما سمع الرجل ذلك حتى ذهب مذكراً العامل بمطاليبه ومؤكداً عليه شروطه إلا أن ميخائيل كان معرضا عنه ، إذ قد أشاح بوجهه إلى الزاوية التى جلس حيالها النبيل وانصرف يتطلع إليها وإذا بمحياه يضىء فجأة ويبتسم .

انتهره الشريف : علام تكشر أيها الأحمق . أما كان الأفضل أن تستمع إلينا ليكون الحذاء جاهزاً فى الوقت المطلوب .

أجاب : نعم سيكون جاهزاً فى الوقت المعين .

ونهض الرجل من مجلسه وكله فخر وخيلاء . وفى أثناء خروجه فاته أن يثنى رأسه ، فصدم السقف ، ولذا راح يدعك قمته ويولول سابا ، ثم لم تمر لحظات حتى شوهدت العربة تجرى به مسرعة فى طريقها إلى الأمام .

قال سمعان : ها كم مثلا من الرجال لاتهلكه مطرقة ، لقد ضرب رأسه السقف فما شعر بالألم .

فأجابته (متريونا) : لم لا يكون قويا وهو يعيش كما يشتهى . إن الموت نفسه لايجرؤ فى اعتقادى أن يضرب مثل هذه الصخرة العاتية .

(٧)

قال سمعان : والآن يا ميخائيل لقد أخذنا العمل فعلينا بالاهتمام لئلا يصيبنا ما نكره ، إن الجلد ثمين والرجل حاد المزاج فالحذار من الخطأ ، تقدم نحوى إن بصرك أحد ويدك أخف فهاك القياس والجلد واشرع بتفصيله . أما أنا فسأنهي لك خياطة الوجه .

صدع ميخائيل بالأمر فاستلم الجلد ونشره على الطاولة وثناه طيّتين ، ثم تناول المقطع و بدأ يقصّ . كانت (متريونا) فى هذا الوقت واقفة بجواره تراقبه فاستولى عليها العجب مما يصنع ، وهى التى اعتادت بالمشاهدة معرفة تفصيل الأحذية . إنه الآن يقصّ الجلد بهيئة مستديرة خلافاً للعادة ، ألعله يتبع أصولا خاصة بتفصيل أحذية النبلاء . هوأدرى منى ولاشك ، و إنى لاأرى فى الاعتراض كبير فائدة وليس من المستبعد أن يعتبر تدخلى فى شئونه تطفلا .

فرغ ميخائيل من التفصيل و بدأ بالخياطة ولكن لا من الطرفين كما تخيّط الأحذية عادة بل من طرف واحد كما تخيّط الأخفاف . زادت حيرة المرأة ولما تزل راغبة عن التدخل أما هو فقد ثابر على عمله حتى الظهر وحينما نهض سمعان للغذاء وقع بصره صدفة على الخف . تأوّه بادىء ذى بدء وصار يتمتم هامساً : كيف ذلك ؟ أيقترف ميخائيل مثل هذا الخطأ الفظيع وقد قضى معي طوال عام مديد . ألم يطلب منا القيام بعمل حذاء متقن له حواش وأطراف . وما ترانى أقلب بيدى الساعة . حقاً إنه خف بنعال واحد ، لقد أتلف الجلد دون ريب فماذا سأقول للرجل وكيف أستطيع تعويضه بجلد آخر من نوعه .

وهنا صاح سمعان مستنكراً : ميخائيل ويلك ماذا عملت ! لقد قضيت علىّ لا محالة ما بالك ! ألم تع وصية الرجل .

وهكذا انهال سمعان باللوم على عامله وزاده تعنيفاً وتقريعاً . وهم فى ذلك سمعوا المرأة تقول :

صه ! إننى أسمع طرقاً على الباب . عجباً من يكون هذا الطارق .

أدار الكل وجوههم نحو الشباك وحدّقوا مجفلين : إنه فارس ملهوف جاء إليهم مسرعاً وهو ينقر حلقة الباب . فبادروا إلى الفتح و إذا بهم أمام غلام السيد النبيل .

قال : نهاركم سعيد .

فأجاب سمعان : نهارك سعيد . ما الخبر .

قال : بعثتنى سيّدتى لأمر يخص الحذاء .

قال : ما به .

قال : لأن سيدى لم يعد بحاجة إليه . فقد مات .

قال : ماذا تقول ؟ هل هذا ممكن ؟

قال : لم يعش ليصل حيّا إلى القصر . إنه مات بعد أن فارقكم وهو فى العربة . فلما وصلنا أسرع الخدم لاستقباله غير أنهم فوجئوا به متصلّبا كالخشب مما شق عليهم سحبه ثم تقلّب بأيديهم كالغرارة . وعلى هذا بعثتنى سيدتى قائلة :

إن سيدى لم يعد بحاجة إلى الحذاء لأنه مات وعليكم القيام بعمل خف للجثمان يدلا منه . وأوعزت إلىّ بالانتظار ريثما يتم .

صعق سمعان وزوجه للخبر فوقفا واجمين . أما ميخائيل فقد تناول الخف ومسحه بمئزره ولف بقايا الجلد بخيط ثم سلم الكل للغلام الذى أخذه وراح يتمطى جواده شاكراً مودّعاً .

## (٨)

مضت ستة أعوام وميخائيل لا زال يساكن صاحبه سمعان بنفس ما عرف عنه من أطوار . لم يكن يرتاد مكاناً غير بيته ولا يتكلم إلا عند الضرورة . وما ابتسم فى هذه المدة إلا مرتين : الأولى عندما أحضرت ( متريونا ) له العشاء

فى أول يومه ، والأخرى عندما كان النبيل فى الكوخ وهو يوصى له على حذاء متين . فارتاح سمعان لهذه الخصال وازداد لعامله حباً حتى أصبح يخشى فراقه وعليه فقد كبت فضوله فى التساؤل عن حقيقته لئلا يجفو أو يعتزل .

وجاء يوم اجتمع فيه لفيف العائلة ، كان ميخائيل وسمعان دائبين فى عملهما وكان الأولاد يلعبون حول المقاعد ويترا كضون متطلّعين من هذه النافذة إلى الأخرى أما ( مترونا ) فقد ذهبت واضعة فى الفرن برمة الطعام الحديدية . مرّت لحظات على هذا المشهد الممتع وإذا بأحد الأولاد يسرع متجهاً نحو ميخائيل فينحنى على كتفه ويطل على الطريق من خلال النافذة المجاورة ويصيح . انظر يا عم ! تلك سيدة مع صبيتين أظنهم قادمون إلينا . انظر إن الصبية الثانية عرجاء ، أليس كذلك.

اتجه ميخائيل إلى حيث أشار الصبى . اتجه بلهفة حادّة أثارت فى نفس سمعان كل الدهشة والاستغراب لأنه يرى من عامله اليوم ما لم يأنس مثيله طيلة هذه السنوات فقد راح يلتصق بالنافذة ويتفرّس محملقا بالقادمين . ترى ما شأنه بهم ؟ التفت سمعان بدوره إلى الطريق فإذا بسيدة ظريفة تقود صبيتين ترتديان من الثياب أفخرها وهما متشابهتان غير أن إحداهما كانت تضلع فى مشيها إلى جهة الشمال مما يدل على أنها كسيحة بساقها اليسرى . إنهم حقاً يقتربون من البيت . وهاهى قد وصلت فرفعت مزلاج الباب ودخلت تتبع الطفلين .

— نهاركم سعيد أيها الأخيار .

فأجابها سمعان — تفضّلى . ماذا تأمرين .

جلست المرأة أمام الطاولة وقالت مشيرة إلى الصبيتين الواقفتين بقربها كالوجلتين . هل لى أن أحصل لهاتين على أحذية جلدية خاصة بموسم الربيع .

قال : لم يصادف مطلقاً أن قمنا بعمل أحذية صغيرة قبل هذا ولكننا مع ذلك مستعدون لإجابة الطلب . إن عاملى ميخائيل هو الماهر بهذا النوع من الأحذية ولما التفت إليه وجده لا زال يحدق بالصبيتين كأحد المعارف . نعم إنهما جميلتان

وظريفتان ، غير أن ذلك لا يستدعى كل هذا الاهتمام ، وإذ لم يفهم للأمر آنئذ تعليلاً أو تفسيراً أعرض مضطراً واسترسل فى الحديث مع المرأة حتى حسم الأجرة وأحضر القياس ، فاحتضنت المرأة صبيتها العرجاء وطلبت منه أن يأخذ القياسين عليها فيعمل حذاء واحداً للرجل الكسيحة وثلاثة للقدم الأخرى ، وذلك لأن الصبيتين توأمان .

قال سمعان : يا لها من طفلة جميلة . ماذا حدث لها حتى أصيبت بساقها فهل ولدت وهى على هذه الحال .

قالت : كلا ! أمها حطمت ساقها .

فانبرت ( مترونا ) متدخلة وقد تملكتها الدهشة : ألست أنت أمها إذن ؟.

قالت : لا ياعزيزتى ، إننى غريبة عنهما وقد تبنيتهما .

قالت : أصحيح ما تقولين ؟ . ولكنى أراك ولوعة بهما إلى حد بعيد .

قالت : كيف لا أكون مغرمة بهما وقد أرضعتهما بثديى هذين . رزقت طفلا أماته الله قبل سنوات لم أكن أحبه كحبى لهاتين .

قالت : وإذن فمن تكن أمهما ؟

( ٩ )

استعدّت المرأة لسرد كامل قصتها — لقد توفى أبواهما منذ ستة أعوام فى أسبوع واحد فقضى الأب نحبه يوم الثلاثاء بينما ماتت الأم يوم الجمعة التالى . إن هذين اليتيمين ولدا بعد وفاة الأب بثلاثة أيام وعندها ودّعت الأم دنياها . كنت أعيش وزوجي كمزارعين فى القرية وكانت حظيرتنا بجوار مسكنهم . أما أبوهما فقد كان رجلا وحيدا يمتهن صناعة قطع الأخشاب فى الغاب فصادف يوما أن سقطت عليه شجرة هائلة بعجت بطنه فحمله رفاقه إلى البيت ولكنهم لم يقاربوه إلا ولفظ الرجل أنفاسه الأخيرة . فى ذلك الأسبوع عينه أحسّت الأم بدنو الطلق وجاءها المخاض فولدت هذين التوأمين وهى بعيدة عن كل أحد . مسكينة تلك

الأم فقد كانت وحيدة كما كان زوجها إذ لم يكن لها من صغير أو كبير يساكنها فولدت وحيدة وماتت وحيدة . جئتها صباح اليوم التالى أزورها فرأيتها مائتة متيبّسة وقد انقلبت على هذه الطفلة وسحقت بانقلابها ساقها . واجتمع أهل القرية فحملوها وغسّلوها ووارُوها التراب ثم حاروا بما يصنعون باليتيمتين . أما أنا فقد كنت المرأة الوحيدة فى تلك القرية التى تحتضن طفلا فى ذلك الحين إذ كنت أرضع طفلى البكر ولما يمض على ولادته ثمانية أسابيع . قالوا : مارى ! هلم واحتفظى بالطفلين إلى أن ندبر أمرهما . فامتثلت طائعة فأرضعت هذه فى البداية دون الكسيحة ظنا منى أن الثانية سوف لا تعيش ولكنى سرعان ما ثبت لرشدي إذ شعرت بأننى أقسو على بريئة دون ما سبب فبادرت إلى إرضاعها مع أختها . وأنا آنئذ شابة قوية أتناول من الطعام أجوده وبذا وهبنى ربى لبنا وافرا إلى درجة أنه كان يطفح أحيانا ويسيل . فكنت أرضع اثنين فى آن واحد وأدع الآخر ينتظر دوره وهكذا كنت أناوب الثلاثة إلى أن جاء أمر الله ( ولا مرد له ) فشب هذان وعلق بابنى حمامه ولما يبلغ السنتين من عمره . إننا فى يسر والحمد للمنعم فزوجى عامل فى طاحونة الحبوب وأجوره طيبة ومع هذا ورغم كل المحاولات والحنين لم نرزق بعد ذاك بطفل . وإذن فكيف لا أولع بهذين وهما بهجتى فى الحياة . إننى أنا نفسى أمهما الرءوم . وفى الحال ضمت المرأة الصبية الكسيحة إلى صدرها وأخذت ترصها رصا بينما راحت تمسح عن عيون الأخرى دموعها السائلة وتربت على كتفها .

تأوّهت ( متريونا ) للحديث الشجن وقالت : صدق المثل — يستطيع الإنسان أن يعيش بلا أم أو أب ولكنه غير قادر على أن يعيش بلا رب . ثم أخذوا يتذاكرون فما رأوا إلا والكوخ يسطع بنور زاه كنور الصيف ينبعث من الزاوية التى جلس عندها ميخائيل فالتفتوا إليه فإذا به متربع يصالب يديه على ركبتيه وهو يرنو إلى سمائه ويبتسم .

( ١٠ )

وما انصرفت المرأة مع الطفلين حتى همّ ميخائيل قائما فنزع عن صدره المئزر وانحنى لسمعان وأهله ثم قال : أحبّاى ، لقد غفر لى ربى خطيئتى و إنى مودّعكم فاعفوا عنى واقرءا منى السلام . بهت سمعان للنداء فنهض إلى الرجل ليرى بالخبر وإذا به أمام وجه يشع بالنور ويشرق بالضياء — ميخائيل . . ماذا . . ميخائيل . . إنك ولا شك لست من الناس فى شىء ، إنى أراك بحال جديد ، ويقينى أننى أضعف من أن أقوى على ردّك أو أصل إلى حقيقتك ، إن كل ما أبتغيه يا ميخائيل هو أمر واحد فهل لك أن تكشف لى قبل الفراق عن سرّه وتريحنى — لقد صحبتك إلى بيتى أثر لقائنا الأول وأنت مكفهر عابس فلما أحضرت زوجى لك العشاء راق وجهك وابتسمت . وحينما قصدنا النبيل يوصى لنفسه على حذاء متين ذكت ملامحك وابتسمت . والآن إذ أتمت المرأة قصتها عن حياة الصبيتين أشرق وجهك كفلق الصبح وابتسمت . أخبرنى يا ميخائيل لم ينير وجهك بهذا الشكل البديع ولم ابتسمت فى المرات الثلاث ؟ هلم بربك فما أنا صابر بعدك على جهله .

قال : علّة ذلك رضاء الله علىّ وغفرانه لمعصيتى . لقد أمرنى أن أتعلم حقائق ثلاث أستقصيتها بعد عناء وجهد فجاء كل فى وقته ونلت الساعة على ما أروم .

قال : — وماسبب العقوبة يا ميخائيل وهلاّ علّمتنى تلك الحقائق الثلاث وأرشدتنى .

قال : لقد كنت ملاكا فعاقبنى ربى إذ عصيته ، بعثنى لأحضر إليه روح امرأة فهبطت الأرض وجئتها فوجدتها مريضة ممدّدة فى فراشها وهى تعانى آلام الوحدة والحرمان ، وبقربها توأمان ولدتهما قبل فترة من الزمن ، كانا إلى جنبها يتحركان بوهن ولضعفها لم تستطع أن ترفعهما إلى صدرها لإرضاعهما ، شاهدتنى فأدركت ما جئت إليه فبكت متضرّعة متوسلّة — أى ملاك الرب الرحيم ! لقد

دفن أبوهما منذ أيام هالكا بحادث مشؤوم إذ سقطت عليه شجرة فى الغاب لم يلبث بعدها حتى مات . أما أنا فكما ترانى لا أم لى ولا أخت ولا قريب ممن يعين ويعول هذين الطفلين . لا تمتنى دعنى أرضعهما حتى يدرجا لأن الأطفال لايقدرون على الحياة بلا أم أو أب . أصغيت إليها ورفعت أحدهما إلى ثديها بينما رحت أضع الآخر فى ذراعها . ثم عدت إلى سمائى وناجيت ؛ إى ربى جل جلالك ! إننى لم أجرؤ على إحضار الروح إليك ، فالأم مريضة وقد هلك زوجها منذ أيام وجاءت منه بعد أن فارق الدنيا بتوأمين وعلى هذا طلبت منى إمهالها حتى يدرجا ، فالأطفال — كما تدعى — لايستطيعون الحياة بلا أم أو أب .

عندئذ أجابنى ربى : اذهب بما أمرتك به ولا تعصنى ، واعلم أنك سوف لاتعود إلى سمائك ولا تقبل توبتك إلا بعد أن تستقصى حقائق ثلاث تجهلها :

تعلّم ما يكمن فى الإنسان ، وتعلم ما لم يوهب له ، وتعلّم بم يعيش الناس .

عدت إلى الأرض ثانية وأديت ماعلىّ ، ولما انتزعت الروح سقط الرضيعان من على صدرها وانقلبت جثتها على أحدهما فسحقت ساقه . أما أنا فقد حاولت أن أطير بالروح من على هضبة عالية تشرف على القرية ، ولكن ريحا عاصفة ردتنى عما أنشد حتى خارت قواى وذبل جناحاى فسقطت على الأرض كإنسان . إذ ذاك حلت عالما جديداً بخلق جديد ، بينما كانت الروح ترتفع بمفردها فى طريقها إلى مثواها الأخير .

## ( ١١ )

طاش السرور بسمعان وأهله حينما علما حقيقة من لاذ بهم فسالت من عيونهم دموع الفرح والرهبة وظلا صامتين يرهفان إلى صوت الملاك العذب :

— لقد أصبحت وحيدا فى العراء أقاسى آلام البرد والجوع ولم أكن لأعرف حاجات البشر أو أشعر بشعورهم حتى أصبحت إنسانا ومع هذا فلا زلت أجهل

التدبير . وأنا كذلك وإذا بى ألمح عن بعد معبدا شيد لله فى القفر فيممته آملا أن أجد عنده المأوى والقوت وإذ دنوت منه وجدته مقفلا لا أستطيع النفوذ إليه فسقط فى يدى ورحت أقبع خلف جدرانه اتقاء الريح . حل المساء على عجل فلم أحتمل شدة العذاب لأن البرد أخذ يلحّ بعنف . ولكننى فوجئت برجل يغذّ السير فى منعطف الطريق يحمل بيده زوجا من الحذاء اللبادى . نظرت إليه من بعيد فأبصرت برؤياه لأول مرة منذ أن صرت بشرا وجه الإنسان غير الخالد — فراعنى منظره وأغضيت عنه . كان الرجل يحدّث نفسه مغمغما وسمعته يشكو من زمهرير الشتاء ومن تكاليف العيش لنفسه ولأهله فأغرقنى قوله فى بحر من الخيبة لا قرار له وأشفقت على نفسي من الهلاك كيف لا وإنى أمام إنسان لا يفكّر قط إلاّ بالثوب والخبز وأنا كما تعلمون . وهو حينما رآنى . عبس وتولّى فزعا وكف عنى يد المعونة وبذا أمسى مرعبا بأبشع مما كان . هنا كاد اليأس يقضى علىّ لولا أن عدل الرجل عن عزمه بغتة فرجع إلىّ يريد إسعافى ومساعدتى . ولما اقترب حدّقت فيه فلم أعرف فيه الرجل الأول لقد كان ذلك قبيح الوجه يحوم حوله الموت أما هذا فقد كان نضر الوجه تنعشه نسمة الآله . وبادرتوا إلى إكسائى بأقصى ما يستطيع ثم قادنى إلى بيته . وبينا كنا نهم الدخول تلقتنا زوجة غاضبة ثائرة فكانت بذلك أفظع شكلا وأروع منظرا من الرجل العابس . وإذ كانت تتكلم شممت رائحة الموت تنبعث من فمها متصاعدة كالدخان فأوقفت تنفسى لأتقى بخر الموت المنتن الذى انتشر حولها . وكان ما كان مما أسكن ثائرها وأثلج فؤادها فقامت إلى الطعام تعدّه إلينا ولما أحضرته وأشفقت علىّ كان الموت قد تلاشى منها ودبّت فيها الحياة من جديد فنظرت إليها وإذا بى أرى الله كامنا فيها . فى تلك الساعة تكشّفت لى الحقيقة الأولى التى وجّهنى ربى لاستقصائها فعلمت : — أن ما يكمن فى النفس البشرية هو ( المحبة ) وفرحت لأن الله وعدنى فصدق وعده وعلّمنى ما أجهل فكانت ابتسامتى الأولى .

وتصرمت أيام وإذا بسيد جليل يزورنا يوصى له على حذاء متين لا يبلى مدة عام وفاته وهو يتكلم بخيلاء وغرور أن يرى كما كنت أرى دون غيرى رفيق ملاك الموت منتصبا وراءه فأدركت أنه مقبل على إزهاق روحه عند الغروب وحينئذ عجبت من طمع الإنسان الذى يجهد ويأخذ أهبته لعام بينما يجهل مستقبله القريب فى تلك الساعة أيضا تكشّفت لى الحقيقة الثانية التى وجهنى ربى لاستقصائها فعلمت .... — أن ما لم يوهب للإنسان هو المعرفة لتقدير ما يحتاجه وفرحت أولا لرؤية صاحبى ولأن الله وعدنى فصدق وعده وعلّمنى ما أجهل فكانت ابتسامتى الثانية .

وبقيت صابرا أنتظر معرفة الدرس الأخير حتى إذا انقضت ستة أعوام قصدتنا امرأة مع صبيتين فعرفت بهما تينك اليتيمتين . وعندما قصّت المرأة قصتهما تذكرت قول الأم وهى تتضرع إلىّ أن أبقى عليها لأن الأطفال لا يستطيعون العيش بلا أم أو أب فما كان منى آنئذ إلا أن أصغيت إليها وصدّقتها . أما اليوم فأمامى طفلاها وقد شبا على أحسن حال بتأثير عاطفة الحنان فى قلب امرأة أخرى غريبة عنهما . وإذ رأيتها تمنحهما من الحب والرفق ما كان يملأ قلب الأم الرحب الرقيق نظرت وإذا بى أرى الله كامنا فيها . وفى تلك الساعة أيضا تكشّفت لى الحقيقة الثالثة التى وجهنى ربى لاستقصائها فعلمت — بم يعيش الناس وفرحت لأن الله وعدنى فصدق وعده وعلّمنى ما كنت أجهله وقد غفر لى فكانت ابتسامتى الثالثة .

## ( ١٢ )

ورأى سمعان وأهله الأمر العظيم — لقد تعرى ميخائيل من أثوابه وأحاطت به هالة من نور ساطع حجبته عن الأعين بينما ظل صوته الملائكى مسترسلا :

( تعلّمت أن الناس يعيشون بالمحبة والبر وليس بالأنانية والحرص ) .

فتلك الأم لم توهب المعرفة لتقدير ما يحتاجه أطفالها للحياة وذلك النبيل لم يوهب المعرفة لتقدير ما يحتاجه لنفسه كما أن أى إنسان آخر لم يوهب المعرفة لما

سيحتاج إليه فى مسائه القريب إلى حذاء يرتديه أو إلى خف يربط بجثمانه .

ولقد عشت حيا كإنسان لا بعنايتى أو تدبيرى بل بتأثير المحبة التى أفاضها على قلبا رجل وامرأة ، وعاش اليتيمان وترعرعا واشتد ساعدهما لا بعناية الأم أو عطف الأب ولكن بتأثير المحبة التى أودعها الله فى قلب امرأة غريبة ، وكذلك الناس طراً فإنهم لايحيون بتدبيرهم ولكن بتأثير ( المحبة ) التى تفيض فى قلوب الناس .

كنت على علم بأن الله وهب الحياة للناس وأمرهم بأن يعيشوا في دنياهم . أما اليوم فقد ازددت على ذلك علما وهو أن الله لم يطلب من الناس أن يعيشوا فرادى متفرقين بحيث يظلون جاهلين حاجة كل منهم لنفسه ، بل أرادهم أن يعيشوا متضامنين بحيث يكون كل منهم على علم بحاجة المجموع .

رويداً ! أيها الناس ، لقد أضاء الصبح وخاب ظنكم فى القول بأنكم تعيشون بتدبيركم ، إنكم لا تعيشون إلا بالمحبة ، فمن ملكها منكم كان مع الله وكان الله معه ، لأن الله هو المحبة .

وعندها بدأ الملاك يسبح لله وينشد لملكوته بإيقاع مؤثر اهتز له فناء البيت ثم انكشف السقف عن كوّة مرق منها إلى السماء لسان من اللهيب ، فخرّ سمعان وأهله على الأرض ساجدين . ولما رجع سمعان إلى نفسه لم يجد حوله غير أهله وأولاده والكوخ قائما كما كان منسجم البناء متماسك الأركان ، تتجاوب حوله أصداء ذلك الصوت العذب وهو يقول « المحبة » .

# الأرجوزة الغزلية

شكسبير

الشيب الموقر والشباب الطائش

عدوان لا يجتمعان

فالشباب مملوء بالأفراح

والشيب مملوء بالرزانة

الشباب كفجر الربيع

والشيب كطقس الشتاء

الشباب له بسالة الصيف

والشيب عرى الشتاء

الشباب مملوء بالأفراح والأرواح . أما الشيب فمملوء بالأتراح وقصر النفس

الشباب رشيق بحركته والشيب أعرج بمشيته

الشباب حار وقوي والشيب بارد وضعيف

الشباب نافر ، أما الشيب فأليف

فأنا أبغضك ياشيب وأعبدك يا شباب

آه ! حبى ، فإن حبى حديث السن

وابتعد عنى أيها الشيب فإنى أسخر منك

آه ! تعال أيها الراعى المحبوب وأسرع نحوى

لأنى أراك قد أطلت البقاء بعيداً .

# كسيرة الرغيف

للكاتب الروسى ( ليوتولستوى )

وهو حينما شرع يحول نعم الله عليه
إلى ( نمرة ) ثارت فى نفسه نزوات
الجحود فضل عن سبيل الحق .

فى صبيحة يوم صافى الأديم خرج فلاح إلى الحقل للحراثة وهو يحمل معه فطوره الذى لم يزد يومئذ على كسرة من الخبز . ولما أن وصل إلى المكان انتزع معطفه ولفّ فيه زاده ثم أخفاه تحت لمّة من الأعشاب وراح تواً إلى عمله بنفس مطمئنة قانعة .

ومضت فترة من الزمن أحسّ الفلاح بعدها بالجوع وأدرك دابته النصب فاضطر إلى إيقافها و إطلاق سراحها للرعى والراحة . أما هو فقد قام بتثبيت المحراث فى موضعه واتجه صوب المخبأ يريد أن يتزوّد بكسرة الرغيف يملأ بها طاوى بطنه .

تناول المعطف وتلمّسه بيده فلم يجد ما كان ينشد فبهت فى الحال ووقف هنالك مشدوها . أخذ يقلب المعطف ذات اليمين وذات الشمال وينفضه المرة بعد المرة ولكنه لم ير بغيته . واندفع يفتش فى المكان بكل دقة وهو يحاول العثور على كسرة الخبز ولكنه عاد خائبا وذهبت جهوده أدراج الرياح .

وانتابته حيرة شديدة إذ لم يستطع تفسير ما وجد على وجه مقنع وهو فى حال من الدهشة واقف يتمتم — حقاً إن هذا لغريب إنى لم أشاهد أحداً يقترب من الحقل و إلا لأبصرته يقيناً . ومع هذا فلابد أن يكون قد امتدت إلى قطعة الخبز يد مجهولة لإنسان أو حيوان .

وقد أصاب ظنه لأن اليد الأثيمة التى حرمته من كسرة الرغيف لم تكن إلا يد ( الشيطان ) فقد تسلل هذا إلى الحقل والفلاح يلهو بعمله وجاء إلى موضع الزاد فسرقه ثم أسرع مختفياً وراء الأدغال قابعا يتلصص وهو يسترق السمع إلى المسكين ليسمع ما يفوه به بعد أن يستولى عليه الغضب والتأفّف من سب وشتم لإبليس اللعين فيروح ضاحكا ساخراً لهذا الإنسان الذى أخرجه من دائرة العقل والرضى .

ولقد خاب ظنه فيه لأن الرجل كان أكثر دعة واطمئناناً مما تصوّر فهو بالرغم

من شدة أسفه على افتقاده لقطوره لم يتبرّم بل صبر محتسبا وأخذ يقول : وما حيلتى فيما وقع . لا شك أن ضياعى لها سوف لا يؤدّى بى إلى الهلاك . ولا بد أن يكون الجانى بأمس الحاجة إلى الطعام فليأكل خبزتى هنيئاً مريئاً .

ونهض من فوره إلى بئر قريبة فى الحقل يستقى منها جرعة من الماء استراح بعدها لمدة قليلة ثم عاد إلى دابته يشدّ عليها عدّتها وكرّ إلى العمل ثانية وهو يكلّف جسمه الضعيف مالا يطيق .

وحزّ فى نفس الشيطان أن يفشل فذلت أخادعه وجرض بريقه لأنه لم يستطع أن يقود هذا الآدمىّ إلى الخطيئة . فتولّى مستخذيا إلى سيده ( إبليس ) يعرض عليه الحال و يسترشده الحل .

وجاءه يشرح إليه بإسهاب كل ما جرى ويذكر فشله فى جرّ الفلاح إلى الإثم والغواية ، فغضب إبليس من قوله وصاح فى وجهه :

إذا كان الرجل قد استفاد منك فذاك لأنك أخطأت التدبير ولم تفلح فى توريطه بالحيلة ، وما من شك أننا سنفقد الزمام إن وجّه الفلاحون وأبناؤهم على هذه الشاكلة . أما الآن فيجب أن لاتترك القضيّة على وضعها وعليك تدبير الأمر فى الحال . ذد عنك الجهل واردد عما استولى عليك من غفلة وعد إلى الرجل مرة أخرى وتصرف بما يليق ، وسأمهلك سنوات ثلاث أريد أن تأتينى بعدها بما يرضينى و إلا دفعتنى إلى تعميدك فى الماء المقدس .

ارتعد (الشيطان) خوفا من هذا الزجر والتهديد ، فخرّ إلى الأرض متثاقلا وهو يفكر فى الأسلوب الذي ينتهجه ليفتدى به جريرته . وأخيراً و بعد جهد طويل توصل إلى الحل المقنع .

فقد راح يتقمص بهيئة أحد العمال الفقراء وتقدم إلى صاحبه وهو يعرض عليه خدماته بكل خشوع واحترام . وكيف لايفرح بالعون الجديد وقد اشتد به ساعده على العمل النافع المجدى .

فى العام الأول من التحاقه بخدمة الفلاح أشار عليه بنصيحة كان لها الأثر المحسوس فى النتيجة وهى أن يستهل زراعة القمح فى ذلك الموسم فى أرض مستنقع وما كان من الرجل إلا أن أصغى اليه لعلمه أنه عون صادق الود مخلص فى النصيحة واذا بالعام يقبل جديباً محرقاً قضى على أكثر المحاصيل العائدة لبقية الفلاحين فى تلك البقاع . أما حاصل الرجل فقد كان على العكس نامياً نمواً مفرطا حتى امتلأت منه السنابل بالحبّ الكثيف الريان و بذا أعطى أكله ضعفين بدرجة أن فاض المنتوج عن الحاجة إليه طول العام بكميات هائلة .

وفى العام المقبل أشار عليه بنصيحة أخرى وهى أن يبدأ بزراعة الحنطة فى موسمها الجديد هذا على ظهور التلال المرتفعة أى بعكس ما قام به فى السنة المنصرمة ، وما كان من الرجل إلا أن يفعل ، واذا بالصيف يحل مرطباً نديا فأتلف محاصيل بقية الحقول بنتيجة التعفن الذى أصاب كافة المزروعات من جراء تلك الرطوبة الزائدة ، و بذا نقصت الغلة كثيراً بناء على قلة ماجادت به السنابل من حبوب

أما صاحبنا الفلاح فقد كان يتمتع بحاصل من النوع الممتاز درّ عليه من الخير ما لم يعهده من قبل بحيث عاد وهو لا يعلم ما يفعل به .

وهنا وفى وسط هذه الحيرة المقلقة تقدم العامل الى سيده بمشورة مبتكرة . قال له : أشر علىّ .

قال : تعال أدلّك على شىء خطير تفيد منه ، ابدأ من الآن بهرس الحنطة الزائدة واستقطر من الهريس الكحول على النهج الذى أدربك عليه ، وسترى مبلغ الأرباح فيما بعد .

قال : حسناً سأفعل .

وهكذا انصاع الرجل إلى القول للمرة الثالثة دون أن يدرك خطورة العمل الذى سيقدم عليه ، أو يتفهم حقيقة الشر الكامن فيه ليحذر الفتنة و يتجنب

الفتك والإصابة ، فانساق بضعفه المعهود و بفعل الطمع والغواية إلى صنع الهريس واستخلاص المشروب المسكر ، و إذا به يحصل على نوع قوىّ من « الجعـة » اللذيذة استطابها كثيراً فصار يشربها و يقدم منها ما يحلو له إلى الأهل والرفاق .

وعرج (الشيطان) على سيده (إبليس) مفتخراً بالنتيجة التى توصل إليها ، إذ قد استطاع أخيراً الإيقاع بصاحبه وتوريطه عن طيب خاطر بالسقوط فى مهاوى الإثم وحمأة الرذيلة .

وافترّ ثغر (إبليس) من الخبر وضحك ما شاء له أن يضحك وأبدى للشيطان شوقه لمشاهدة ذلك بنفسه حتى يرى مبلغ صدقه و يتعرف عياناً إلى الوضع الراهن وحلّ كلاهما فى دار الفلاح المسكين وتخفّيا فى إحدى زوايا المـكان وهما يتمتعان بمنظر شهىّ من مناظر الخبث الذى نشراه والسم الذي نفثاه .

فقد كان الفلاح يتوسط جمعاً من الضيوف من زملائه الفلاحين الأثرياء ورفاقه المقربين الوجهاء ، وكان قد عقد لهم فى ذلك اليوم مجلس شراب عامر هو وزوجه التى كانت للحاضرين الساقى الأنيس والخود الظريف .

وحدث ما كان يجب أن يحدث ، فبينما كانت تحاول المرأة أن تسقى بعض الضيوف ؛ عثرت بالخوان وأراقت على أرض المـكان كأساً طافحة .

إن هذه الهفوة جعلت من الفلاح رجلا غاضبا ثائراً حنقاً و بدأ يعنف المرأة بكلام جاف غليظ و يقول : ألا تلتفتين أيتها العاجزة ! ما أقذرك ، هل ظننت أنه ماء الخندق حتى تريق منه على البلاط دون مبالاة مثل هذه الـكمية الزائدة .

فوكز الشيطان سيده (إبليس) منبّها وقال : تأمل ! إن هذا هو الرجل الذى لم يغضب يوم أن فقد كسرة الرغيف وهو جائع طاوى .

واستمر الفلاح فى عذله لزوجته حتى أقالها من منصبها وشرع يقدم هو بنفسه الـكؤوس للضيوف . وفى تلك اللحظة دخل على الجمع متطفلا فلاح فقير ، حيّا الجالسين واتخذ له مقعداً بجانبهم ، فرآهم يشربون من خمرتهم المنعشة ، و إذن

فكيف لايتوق إلى رشف بعض القطرات منها علّه يبل بها ريقه الناشف وهو العائد من عمل يومه المضنى تعباً كليلا . وعبثاً حاول أن ينال ما يبتغى من أمل موهوم ، فقد انتظر طويلا وهو ينظر إليهم مستعطفا حتى سال لعابه من فمه . وأخيراً انتبه إليه رب المنزل فالتفت إليه صارخاً بجفاء وكبرياء ظاهرين — ما لنا ولك — ليس فى الإمكان أن نقدم الشراب لكل طارق متطفل .

وشعر ( إبليس ) فى هذه الآونة بنشوة الظفر لهذه البادرة الخشنة ممن حفروا له الحفيرة وأطاحوه فيها .

فعاجله ( الشيطان ) بقهقهة ما كرة خفية وقال : تمهل يا سيدى قليلا فسترى ما يطربك أكثر من هذا .

وعبّ الفلاحون الأثرياء ما شاءوا من كؤوسهم المترعة وإذا بهم بعد قليل نشاوى يتجاذبون الأحاديث الطلية والمجاملات الزائفة بكلام لين معسول ، ثم انتقلوا بعد لأى إلى التلفيق والمداهنة بكلمات تافهة يتعثر بها الذوق وتطفو على وجهها السماجة والإفك والافتراء .

كان ( إبليس ) ينصت إليهم بجميع جوارحه وهو يثنى على تابعه ويقول : هذه الخمرة اللعينة إن لعبت برءوسهم بحيث تجعلهم يتبادلون المداسة والخداع ، فإنهم سيصبحون حتما فى قبضتى .

قال : تريث وانظر إلى ما سيأتى ، دعهم يكرعون الكأس الثانية . إنهم الآن نشاوى وهم أشبه بالثعالب تهز أذنابها وتدور حول بعضها ، فإن شربوا هذه الكؤوس الساغية عما قليل فستراهم أشبه بالذئاب المفترسة الجامحة .

وصدق ( الشيطان ) فى قولته ، إذ ما اندفع الفلاحون الأثرياء يكرعون ثانى كؤوسهم من تلك « الجعة » اللذيذة حتى عبثت بعقولهم وأصبحوا ( ثمالى ) فاخشوشن كلامهم وغلظت أقوالهم وصار كل منهم يعوي فى وجه صاحبه ويكيل له الذم والقذف .

عجباً ! كيف انقضى عاجلا ذلك الدور من التزلف والتمليق الذى خاضوه حتى إذا ما فات وولى انطلق الشر الحبيس واندفع الجمع إلى المشاجرة والملاطمة .

أما رب المنزل فقد كان في ذلك النزاع الزعيم المحظوظ إذ قد نال النصيب الأوفر من الضرب واللكم المريرين ما كان قد استحق بهما تلك الزعامة الفاضحة.

وفرح (إبليس) بحالهم كثيرا وقال لصاحبه : إن هذا لمنظر فريد تستحق عليه الإنعام من الدرجة الأولى .

فأجابه صاحبه على الفور : رويدك ! إن الأدهى من ذلك ستراه فيما بعد ، انتظر حتى يملأوا من تلك « الجعة » كأسهم الثالثة ، إنهم الآن أشبه بالذئاب الهائجة ، فإذا ملأوا أجوافهم منها فسينقلبون إلى خنازير . وعندئذ سترى بأم عينيك ذلك التلاشى الروحي الذى غمرتهم فيه من يوم أن ابتكرت لهم هذه الجعة .

وصدق (الشيطان) فيما قال : إذ ما كاد الرفاق يحتسون كؤوسهم للمرة الثالثة حتى أمسى كل منهم سكران طافحا وانقلبوا بمجموعهم الى بهائم ثائرة ، أو وحوش ضارية وصاروا يصرخون ويزمجرون لايدرك أحدهم ما يعمل ولا يصغى الى ما يقال .

وبدأت الجماعة فى تلك الآونة فى التفكك والانحلال وشرعوا يتسللون إلى الطريق العام فرادى وثنى وهم يترنحون ذات اليمين وذات الشمال . وقد كان ربّ المنزل أسرعهم عدوا ولكنه ما تجاوز بعيداً حتى سقط فى وحلة كانت على قارعة الطريق فانكبّ فيها على وجهه وتلوّث بالطين من مفرقه إلى أخمص قدمه وانطرح فيها ممدداً يئنّ ويشخر كالخنزير الهالك .

وارتاح (إبليس) لهذا المشهد المحزن والتفت إلى شيطانه قائلا — حسنا — لقد أصبت با كتشافك لهذا الشراب الممتاز فأصلحت بعملك هذا جريرتك السابقة . ولكن تعال وخبرنى كيف استطعت أن تهيىء هذا الشراب كما هو —

ألعلك مزجت فيه فى بادىء الأمر شيئاً من دم الثعلب بحيث صار يبعث فى نفوس هؤلاء الآدميين المكر والنفاق ولعلك أضفت إليه فيما بعد شيئاً من دم الذئب الذى أثار فيهم الكامن من غرائز النفس الشريرة وولّد فيهم قساوة القلب وجمود العاطفة وأحالهم إلى حيوانات ضارية كالذئاب . ولعلك أتممت اكتشافك بأن أضفت إليه مقداراً من دم الخنزير مما كان له المفعول فى مسخهم إلى خنازير .

قال : كلا . إن كل ذلك لم يكن . وموجز ما اتخذته من تدبير هو — إكثار دخل الفلاح من الحبوب بحيث فاضت عن حاجته . إن دماء الوحوش كائنة دوما فى جسم هذا المخلوق وهى تمثل ماله من غرائز وشهوات تبقى فيه محجورة مقيدة طالما كان يملك من طعامه ما يسدّ به حاجته وهو ما كان عليه الفلاح عندما لم يبد تذمراً أو تبرماً من كسرة الرغيف الصغيرة . ولكنه ما إن وجد لديه ما يزيد حتى راح يبتدع الأساليب تلو الأساليب للانتفاع بالزائد وقد أرشدته بالفعل إلى تلك المنفعة فكانت ( الخمرة ) . وهو حينما شرع يحوّل نعم الله عليه إلى كحول للاستئناس والتمتع والركض وراء الملذات ظهرت عليه غرائز الثعالب والذئاب والخنازير — وتخبّط فى أزمة نفسية دفعت به إلى الجشع والخلاعة والفساد وهدّت من كيانه وكيان عائلته وثارت فى نفسه نزوات الجحود فضل عن سبيل الله إلى ما شاء الله . وهو لو بقى على هذا الإدمان دواماً لاستحال بحق إلى وحش ضار ولقاسى من العذاب المتصل والألم المقيم ما يربو بكثير على لذته وأنسه .

وهنا أثنى ( إبليس ) على ( شيطانه ) الثناء الجميل العاطر وغفر له خطيئته السالفة وقرّبه إليه ورفع من منزلته لديه بحيث جاءت فى أعلى منازل الشرف عند هذه المخلوقات الخبيثة اللعينة عدوّة بنى الإنسان .

# الآباء الزائرون

هنالك أدركوا أن كل ماينشدونه
هو الخلوص فى عبادة الرب .

... وصارت الأمواج تتلاطم على جوانب السفينة الوحيدة فى ذلك البحر الخضم وتنقضّ بشدة على صخور الشاطئ الناتئة .

وأخذت أغصان الأشجار المتعاليـة فى الغابات تجابه العواصف الغضوب المصوّتة .

وألبس الليل الحالك الماء والتلال الرملية ثوبا قاتماً ، تلك التلال التى امتلأت بالوحوش الـكاسرة ، وهى تدب دبيبا وتسرح في الظلمـة دون منافس . وقد حامت حولها أشباح الخوف والهلع .

في ذلك الوقت كانت هناك فئة من بنى الإنسان ملتجئة عند شاطئ انكلترا الجديد الموحش ، ذلك الشاطئ الصخرى المتعرج ، مرسـلة أصواتها الـكئيبة فى ذلك الفضاء الواسع المدلهم .

إنهم لم يأتوا كالفاتح القاهر ، بل جاءوا بقلوب صادقة وأفئدة طاهرة ، لا بنقرات الطبول الرنانة ، ولاعلى نغمات الأبواق الموسيقية ، كما أنه لم يكن مجيئهم كمجىء الخائف الذليل .

بل تقدموا وهم يشقون ذلك الجو الـكئيب ويهزون معمعان تلك البادية الجرداء بترانيلهم الدينية ، وهتافاتهم القوية ؛ وزفراتهم الحارة .

غنّوا وسط الزوابع الشديدة ، فرددت النجوم المتألقة والبحر البعيد ذو المياه الزرقاء صدى تلك الأنغام .

ودقت أكناف الغاب المظلمة المجلجلة دقات الحرية والسلام .

وحلق نسر المحيط من مكمنه فوق الأمواج المزبدة ، مبدلا بصفيره المزعج سكون الجو الهادئ إلى ضوضاء دائمة .

وهيمنت فى الغاب أشجار البلوط الهزازة المترنحة . وتلك كانت خلاصة عبارات الترحاب التى تقبلتها نفوسهم . هناك بين أولئك الزائرين كان الرجال

يجلسون بشعورهم البيض وملامحهم المكفهرة ، فلماذا تركوا أوطانهم وجاءوا إلى هنا ؛ أللذبول أم للهلاك .

هناك كانت أعين الأم الجريئة تضاء بنور حبها الصادق العميق .

هناك كانت القلوب متجهة نحو العلا بهدى الحب والحنان ، فماذا كانوا يطلبون من بعيد وهم على تلك الحال . أجواهر بهية يريدون استخراجها من مناجم غنية ؟ أم الثروة من البحار أم الغنائم من الحرب .

لا ! إنهم كانوا يطلبون حرم الإيمان الطاهر من الأرض المقدسة ، هنالك أدركوا أن كل ما ينشدونه هو الخلوص فى عبادة الرب .

# مَلِكُ البِحَارِ المَهجُور

م . أرنولد

تعالى — يا أمنا واشفقي لحالنا
فكل شيء بعدك يحوّل اللذة
ألماً والهناء جحيماً .

تعالوا يا أولادى الأعزاء ولنكن بعيدين ، ولنذهب
تحت المياه الوثابة فى البحر العميق
فها أنى أسمع أصوات أتباعى تنادينى قرب الخليج
وأشعر بالرياح القارسة تهب من على الساحل
لتثير مكامن البحر بالأمواج المزبدة المالحة التى تنخفض تارة وتعلو أخرى
وأرى الخيول البيض تركض فى ميادينها وتتدافع بطرب ونشوة
إذن لنكن بعيدين ياأولادي الأعزاء ، ولنسلك هذا الطريق ، هذا الطريق

* * *

نادوها إليكم قبل أن ترحلوا
نادوها مرة أخرى
بصوت يذكرها بكم قائلين : مرغريت ... مرغريت
فإن أصوات الأطفال لا يألفها غير قلب الأم
نادوا مرة ثالثة علَّها تسمع صراخكم ، فتشفق لأناتكم المرددة مع زفراتكم الحارّة ، وإنى لواثق من أنها ستجيب طلبكم وترجع إلى مقرها
إذن نادوها مرة أخرى وعرجوا بعيدا ، سالكين هذا الطريق ، هذا الطريق

* * *

تعالى يا أمنا وأشفقى لحالنا
فكل شىء بعدك يحوِّل فينا اللذة ألماً
والهناء جحيما
تعالى ، فقد أخذت الخيول البيض تصهل فرحاً واغتباطاً
آه ... مرغريت ... مرغريت
تعالوا يا أولادى ولنبتعد ؛ دون أن تصرخوا كرة أخرى .

بل تزودوا من المدينة الناصعة وكنيستها الصغيرة القائمة على الساحل الرملى نظرة وداعية

لأنها سوف لا تأتى إليكم ولو بقيتم صارخين طيلة اليوم

وتقدموا من ههنا ... لنبتعد عن ظلال المنازل التى تكظم النفس وتظلم العين .

* * *

أولادى الصغار « ألم يكن ذلك بالأمس » .

حينما كنا نستمع إلى أصوات الأجراس الفضية اللطيفة تدق من على الخليج

تلك الدقات التى رددت صداها الضعيف فى أعماق البحار

وكنا نحن إذ ذاك فى المغارات الهادئة — البعيدة عن أمواج الشاطىء ورماله حيث كنا والرياح الساكنة

والأضواء الشحيحة المنعكسة أشعتها هنا وهنالك

وكانت النباتات المائية تتمايل على ضفاف المجرى

والحيوانات البحرية المفترسة تتراكض فى مرابعها الواسعة طلباً للقوت

والحيتان تتلوى وتسعى بين طيّات المياه المالحة الدافئة

وكان الحوت العظيم يسعى فى بحار العالم بعيون لا تعرف الغمض

فمتى إذن سمعنا رنين تلك الأجراس وموسيقيتها

ألم يكن ذلك يا أولادى بالأمس — نعم كان ذلك بالأمس .

* * *

ألم يكن ذلك بالأمس يا أولادى الأحباء

نادوها مرة أخرى

أجل . . لقد ذهبت عنا بالأمس فتركت لنا القلق نهاراً وخلفت لنا الأرق ليلا

ولم نعد نراها جالسة على العرش الأصفر الذهبى فى قلب البحر

نحيطها نحن وابنتها الصغيرة تلعب على ركبتيها الجميلتين

كانت جالسة ذلك اليوم كعادتها — وقد بدت كالحورية الحسناء
فمشطت شعرها اللامع وازّينت وظهرت كالبدر السابح وسط السماء
ولكنها سرعان ما أجفلت وتململت عن مجلسها وأخذت تدنى أذنها
من أمواج البحر مصغية إلى رنين ذلك الجرس البعيد القارع قرعاته العالية
وما سمعت الصوت إلا وتنفست سريعاً
باعثة تلك النهدة العميقة التى سوف لا أنساها مدى الحياة
شاخصة بعينيها إلى الأعالى — مرسلة أسهمها القوية بين طيّات المياه الكثيفة
ثم قالت : ها أن الأجراس تعلن قرب عيد الفصح في العالم
وسيجتمع الناس فى الكنيسة القائمة على الشاطىء لتأدية الفرائض
إذن يلزم علىّ أن أذهب اليوم إلى الصلاة بصحبة أقربائى وأهلى
لأنى أخشى أن أهلك إذا تناسيت أو تماهلت
وبقيت بقربك هنا فى هذه العزلة
أجبتها بعد أن ركعت بجانبها
اذهبى يا فؤادى المحبوب — شاقة طريقك بين الأمواج
وأدّى صلاتك ثم تعالى راجعة إلى هذا الكهف البحرى الجميل
فابتسمت عن ثغرها الوضاح ثم ضحكت ولكنها لم تفه بكلمة
بل أخذت سبيلها وارتفعت خارجة من ظلام البحر إلى نور الأرض
آه . . . . . .
يا أولادى الأعزاء ، ألم يكن ذلك بالأمس نعم كان ذلك بالأمس .

* * *

أولادى الأعزاء
أنا لا أدري كم لبثنا على هذه الحال
هل لبثنا طويلا يا أطفال تلك الغادة

لقد أخذ البحر يشتد فى هياجه ، و بدأ الصغار ينوحون و يبكون
آه . . . ما أطول صلاتهم ، وما أشد خشوعهم
تلك والله محنة ابتلينا بها فكيف الخلاص منها
إذن لقد حان الوقت للذهاب إلى الخليج ونرى ماذا جرى
تعالوا يا أولادى ولنسر فى ذلك الطريق المكسو بالأعشاب
ذات البراعم المتفتحة المحيطة بتلك المدينة البيضاء
ولنمش فى الطريق الضيق المطلى بالقار
حتى نصل إلى تلك الكنيسة القائمة على سفح التل والمطلة على مياه البحر
قفوا هنا يا أولادى الأعزاء
وانظروا . . . إلى الجماعات الغفيرة الناشدة تراتيلها فى صلاتها
قفوا عن بعد لئلا يراكم أحد
ولا تبالوا بالهواء القارس
الهاب من جهة الشمال والمطر الغزير المنساب كالسيول
تسلقوا هذه القبور وهذه النتوءات الصخرية
واقتربوا من شباك الممشى للكنيسة
انظروا . . . ها هى جالسه قرب ذلك العمود الرخامى خاشعة فى عبادتها
تعالى يا مرغريت . . . تعالى سريعاً فنحن فى انتظارك
تعالى يا معبودتى ولا تجرحي فؤادى الحزين بطول غيابك
فهلا سمعت زمجرة الأمواج ونواح الصغار
ولكن آه . . . هى لا تجيب ولا تنظر إلينا بنظراتها المشفقة
لأن عيونها شاخصة فى كتابها المقدس
مرددة ما يمليه القس فى صلاته وتسبيحه
وقد أقفلوا الرتاج حتى يكونوا منفردين فى مشاعرهم الروحية

آه . . . لنكن بعيدين يا أعزائى
ولا تنادوها مرة أخرى
بل عودوا بصمتكم يبلغكم الحزن والألم .

* * *

هناك ، هناك فى أعماق البحر
كانت تجلس بقرب دولابها المصوت
ناشدة أغاني الغبطة والجمال
فيافرحتاه . . . ما أحلى ما كانت تتغنى به وما أعذبه
كانت تساقط الماء على نغم الغناء
كأنها موافقة موسيقية ذات ألحان سحرية
غنَّت تلك القصيدة التى تصف فيها عواطفها الطروب فتقول :
ما أجمل الشارع الباعث لأغانى الأفئدة
وما أسعد الطفل بلعبته
وأقدس الرجل بخشوعه الروحانى
وأحلى توقيعات الأجراس المصوتة
وما أعظم بنايات العبادة وأحلى مجلسي هذا أمام دولاب المغزل
والشمس ترسل علىَّ أشعتها البهية المنعكسة على صفحات الماء
هكذا كانت تغنى بفرح ، و بصوت ممزوج بالحلاوة المعذبة
و بنشوة الفرح النفساني
ولكن ما أسرع ما تبدل كل ذلك
إذ سقط المكوك فجأة من يدها ووقف الدولاب عن دورانه
فقامت إلى الشباك ومدت بنظرها الى الرمال البعيدة — رمال البحر العميق
بعينين محملقتين

وبعثت حالا تلك الحسرة العميقة من قلب طافح بالغم
مقرونة بدمعة غشت عينيها عن النور
ونهدة عميقة من قلب تلك الحورية المعبودة ذات الشعر المتموج اللامع .

* * *

تعالوا بعيداً . . . أيها الأطفال الأعزاء
بعيدا عن هذه الأمكنة الظالمة
فالرياح أخذت فى هبوبها مأخذا عظيما
وأخذت المدينة تنير نفسها بأنوارها الصناعية الـكاذبة
إلى أن تذهب فى سباتها العميق
وهى . . . هى أمكم ستسمع عصفات الريح
وأزيز الأمواج المضطربة
حينما نركب عليها تاركين أرض الأطيان
وراحلين الى أرض اللآلئ والمرجان
وستصغى إلى أنشودتنا الجديدة :
هناك فى تلك البقعة تسكن المخلوقة الجميلة
التى لبست نفسها لباس الغدر والخيانة
فخدعت ملك البحار وهجرته تاركة إياه وحيداً يبتلع السأم ويناجى التعاسة .

* * *

وعند ما ينتصف الليل
ويهب النسيم العليل آتياً من المروج الخضر
ويرسل القمر أشعته البيضاء الفضية من الأعالى فتتكسر فى مدها الساكن .
هناك حيث الصخور الشم المطلة من جهة الجنوب

التى تبعث بظلها الظليل على الرمال البعيدة
فى تلك الساعة من الليل سنسير كل يوم على الشواطئ الرملية .
الطويلة المكسوّة بالحشائش الخضر
ناظرين إلى المدينة البيضاء إلى كنيستها الصغيرة فى سفح التل
وننشد :
هناك يسكن محبوبنا الوحيد
ذو القلب القاسى
الذى خدع ملك البحار
فهجره وأطفاله وتركهم وحيدين يتلعون السأم
ويناجون التعاسة .

---

# مكتبـــة المثنى

تجد فيها دائماً :

١ — أهم الكتب من مصادر التاريخ الإسلامى .

٢ — الكتب الأساسية فى الفقه والدين الإسلامى .

٣ — أمهات كتب الأدب العربى والبلاغة .

٤ — المعاجم والقواميس المختلفة .

٥ — أنواع النوتات الموسيقية .

٦ — مختلف القصص القديمة والروايات الحديثة .

٧ — كتب الأغانى والمنلوجات لمختلف المغنين والمطربين .

كل ذلك وغيره تجده فى :

مكتبة المثنى ببغداد — تليفون ٣٥٨٨

مطبعة دار الكتاب العربي
شارع فاروق بمصر
تلفون ٥٠٩٣٨

892.74
الهلالي ،امين
ندى الفجر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038317

